مَّن يُقيل مصر من كَبوتها؟



دراسات فى علم النفس

الجنرال المنقذ

بقلم: عادل نجيب بشرى

الچنرال المنقِذ

بقلم: عادل نجيب بشـــرى

E-mail : Adel_Boshra5000 @Yahoo.com

محفوظة
جميع الحقوق

دار النشـــر: رابطة أدباء المهجر

القاهرة؛ رالي؛ نيويورك

رقم الإيداع

١٩٦٤/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-١١-١٧٥٧-٥



أنا المصرى .. كنت على الحياة
صانع البداية وأول من ترقى
وأنا المصرى سأبقى على الحياة
حارس النهاية وأخر من سيبقى

من قصيدة "من أنا"

لعادل نجيب بشرى

الفهــرس

الفهــرس ٤

تمهيد (بقلم عادل نجيب) ٥

المقدمة (بقلم عادل نجيب) ٧

مقدمة (بقلم ڤيكتور داڤيز هانسون) ١٣

الفصل الأول: **سـقراط يتحدث عن ثميسـتوكليز** ٢٨

الفصل الثانى: **صلاح الدين الأيوبى** ١٠٦

الفصل الثالث: **شـيرمان والاستيلاء على أتلانتا** ١٧٢

الفصل الرابع: **بتراس وحرب العراق** ٢٤٦

الفصل الخامس: **مصر وعبد الفتاح السيسي** ٣٣١

ملحق المصطلحات العسكرية المستخدمة فى هذا الكتاب ٣٧٣

تمهيد

خدعونا جميعاً

التخلص من أحد أوهامك .. أفضل كثيراً من اكتشاف حقيقة جديدة.

"كارل لودڤيج بورن Karl Ludwig Börne"

الكاتب السياسى، والصحفى الســـاخر

أوهمونا بالكثير، وصدقناهم. وخدعونا مراراً، وانطلى علينا خداعهم. وكنت أنا أول من انخدع بهم. وبشعارات أحزابهم: "الوسط" و"الحرية والعدالة"، و"مصر القوية"، التى رفعوها فى كل مكان. **خدعونا جميعاً.** خدعوا السلفيين بتطبيق الشريعة ... فانضموا إليهم. وخدعوا المثقفين بوقوفهم إلى جانب العلم والفن ... فانضموا إليهم. وخدعوا الوطنيين بأن مصر ستكون حرة قوية ... فانضموا إليهم. وخدعوا الليبراليين بشعار "الحرية والعدالة" ... فانضموا إليهم. وخدعوا القضاة والحقوقيين باحترام الدستور وتطبيق القانون ... فانضموا إليهم. وخدعوا ثوار ٢٥ يناير بمحاكمة النظام السابق ... فانضموا إليهم. وخدعوا أهالى الشهداء بالقصاص ... فانضموا إليهم. وخدعوا البسطاء بالزيت والسكر ... فانضموا إليهم.

خدعونا جميعاً. لكن قد يكون من الممكن خداع كل الناس بعض الوقت، أو خداع بعض الناس كل الوقت، ولكنه من غير الممكن –أبداً– النجاح فى خداع كل الناس كل الوقت.

انخدعت بهم، وانتخبت مرشح جماعتهم؛ ليتولى قيادة مصر، ورئاسة كل المصريين ... فخذلنا. وتعجب كثيرين من أبناء منطقتى كيف لمصرى قبطى علمانى أن ينتخب مرشح الجماعة. لكنى كنت أرى الظلم الذى تعرضوا له طوال السنوات الماضية؛ وأفكر فى أن من تعرض للظلم، وعانى من مرارته وقسوته، لن يظلم الآخرين. لكنى كنت مخطئ.

وانكشف الخداع، وسقطت الأقنعة. وحان الوقت –بالتأكيد– لأن نتخلص من كل أوهام الأخوان وجماعاتهم.

عادل نجيب بشرى

القاهرة

فى يوم ٢٧ ديسمبر ٢٠١٣م

مُقَدِّمَة (بقلم عادل نجيب)

- تتقلص حياة الفرد أو تتمدد .. بقدر ما يمتلك من الشجاعة.
- سيأتي وقت .. عندما تكون أخطار البقاء كبرعم صغير .. أكثر إيلاماً من أخطار التفتح والتحول إلى زهرة مكتملة النمو والأريج.
- إننا لا نرى الأشياء على ما هي عليه .. بل نراها على ما نحن عليه.

مقتطفات من كتابات "أنَاييس نين Anaïs Nin"

(١٩٠٣- ١٩٧٧)

الأديبة الكوبية الأصل الفرنسية المولد.

خلال تصفحى لقوائم الكتب التى صدرت حديثاً خلال هذا العام (٢٠١٣م)، فى الغرب، وقع بين يدى كتاب غريب يتحدث عن نوعية خاصة من القادة العسكريين العظام؛ الذين لم تقتصر إنجازاتهم على تحقيق النصر فى ميدان القتال؛ بل تمكنوا فى الواقع من إنقاذ بلادهم من أخطار محدقة كان من الممكن أن تودى ببلادهم إلى أسؤ مصير، أو حتى تقضى على تاريخها كأمة عريقة. عنوان هذا الكتاب "جنرالات مُخَلِصين Savior Generals" من

تأليف "ڤيكتور داڤيز هانسون Victor Davis Hanson" (كاتب معاصر ومؤرخ عسكرى أمريكى الجنسية)، وقد احتوى الكتاب على خمس شخصيات أساسية احتلت الفصول الخمسة التى يتكون منها. لفت العنوان المثير نظرى على الفور، وقررت أن أقتبس منه ما يلائم وضعنا الحالى، هنا فى مصر، خاصة بعد ثورة ٣٠ يونيو ٢٠١٣م التى استجاب لها جنرال[١] عسكري*؛ منقذاً بهذا مصر من حرب أهلية؛ ومن محنة مهولة لا يعلم مداها إلا الله.

من هنا جاء عنوان كتابي "الجنرال المنقِذ The Savior General". وهذا لأن كلمة "مخلص Savior"، عادة ما يكون لها معنى ديني؛ ولا تستخدم، عادة، إلا فى الإشارة لخلاص الروح، عند أتباع الديانة المسيحية بمختلف مذاهبها. أما من خلال صفحات هذا الكتاب، فإنك ستتعرف –عزيزي القارئ العربي– على سلوكيات وصفات مجموعة من الجنرالات الذين تمكنوا من أن يصلوا ببلادهم إلى بر النجاة ... أو هكذا ظن المؤرخ لحياتهم. وكتابى سيختلف عن كتاب "ڤيكتور هانسون" فى أنه لن يركز على تعظيم الولايات المتحدة الأمريكية وقادتها العسكريين؛ حتى أن ثلاث شخصيات من الخمس التى تخيرها لتكون ممثلة لصفات "الجنرال المنقِذ" هى شخصيات أمريكية. وهى على ترتيب وجودها فى كتابه:

١– "ثميستوكليز Themistocles". قائد أثيني فى حرب للتخلص من الفُرس.
٢– "بليسأريوس Belisarius". قائد بيزنطي فى حروب استعادة النفوذ.
٣– "شيرمان Sherman". قائد أمريكي فى الحرب الأهلية (١٨٦١– ١٨٦٥م).
٤– "ريدجواي Ridgway". قائد أمريكي فى الحرب الكورية (١٩٥٠– ١٩٥٣م).
٥– "بتراس Petraeus". قائد أمريكي فى حرب العراق (٢٠٠٣– ٢٠٠٧م).

---

* فى نهاية الكتاب، وفى الجزء المعنون "ملحق المصطلحات العسكرية"، الملاحظة رقم[١] سنجد تفسيراً للسبب الذى جعلنى أطلق على "الفريق أول السيسي" لقب "جنرال". (عادل نجيب)

والشخصيات غير الأمريكية (مثل شخصية "ثميستوكليز" فى الفصل الأول)، تم رسمها بصورة باهتة منقوصة، تكاد تدفع القارئ للظن بأن هانسون قد حاول تشويهها عن عمد –رغم كثرة فضائله وعظم التضحيات التى بذلها ثميستوكليز من أجل شعبه– حتى يتمكن من تحقيق "هدفه الأساسى" ... تعظيم الولايات المتحدة الأمريكية وقادقا العسكريين. وحتى يبدوا للقارئ، أنه لا يوجد فارق كبير بين شخصيات عظيمة بحق مثل "ثميستوكليز" من ناحية، وصغار النفوس من جنرالات أمريكا، مثل: "شيرمان"، و"ريدجواي"، و"بتراس" من ناحية أخرى. وعلى سبيل المثال لا الحصر: فإن هذا الأخير، "دافيد بتراس David Petraeus"، إلى جانب قيادته لحرب عدوانية استعمارية، رفضت الأمم المتحدة أن تضفى عليها أى صفة من صفات الشرعية؛ فإنه تورط فى فضيحة جنسية، خلال العام الماضى (٢٠١٢م)، اضطرته لتقديم استقالته من جميع مناصبه الرسمية ... لكن فيما يبدوا فإن هذه هى "مقاييس العظمة" فى المنطق الأمريكى. وإلى جانب كل هذا، فإن شخصيته الوصولية دفعت به –منذ بداية حياته– إلى النفاق والمداهنة؛ فمارس ألاعيبه منذ أن كان مجرد "طالب عسكرى Cadet" على ابنة الجنرال المشرف على كليته الحربية (جنرال الجيش "William Knowlton") وتزوج منها بعد تخرجه مباشرة. وهو حتى الآن يعيش فى المنزل الذى ورثته عن أسرها ... رغم خيانته الزوجية لها. ومن المؤكد أن لهذه الزيجة شأن كبير فى الترقيات السريعة التى حصل عليها دون وجه حق؛ وكانت سبباً فى بغض أقرانه له، وحقدهم عليه.

أما الأول (شيرمان)، فإن سمعته كانت سيئة جداً بين معاصريه، حتى أنهم كانوا دائماً ما يحطون من قدرة، ويصمونه بأنه ليس أكثر من "إرهابى" يفضل قتال المدنيين من النساء والأطفال، على دخول حرب حقيقية مع رجال العسكرية المحترفين من خصومه. ونعتوه بالجبن، بسبب استخدامه المفرط للقوة ضد المدنيين من مواطنيه الأمريكيين. كذلك، فإنه كان من المعروف عنه تعصبه الشديد ضد الزنوج، بالرغم من أنه كان يقاتل فى حرب لتحرير هؤلاء الزنوج من

العبودية. كل هذا بالإضافة إلى أنه "مجنون رسمى Certifiably Insane" باعترافه الشخصى. فهو الذى قال – عن نفسه – فى مجال تعبيره عن عرفانه بالجميل للجنرال "جرانت":

لقد وقف بجانبى عندما كنت مجنوناً، ووقفت بجانبه عندما كان سكيراً.
والآن – يا سيدى – فإننا نقف إلى جانب بعضنا البعض دائماً.

"He stood by me when I was crazy, and I stood by him when he was drunk; and now, sir, we stand by each other always."

وأيضاً باعتراف "ڤيكتور هانسون" ذاته، والذى ذكر لنا فى كتابه ما نصه:

"تعرض شيرمان فى ولاية كنتاكي، وبصورة مفاجئة، لانهيار عصبى. قد يكون هذا بسبب عدم قدرته على النوم، وأزمات الربو المتلاحقة التى زادت حدتها مع استمراره فى تدخين السيجار، وابتعاده لفترات طويلة عن أسرته. ومن ناحية أخرى، فإنه ربما كان يعانى من "الاكتئاب ثنائي القطبية Bipolar Depression"، حيث أن عدد من أفراد أسرته كان لهم تاريخ طويل من المعاناة مع هذا المرض".

لكل هذا – وغيره من الأسباب – قررت أن أروى على القارئ العربى القصة الحقيقية لهذا المناضل الوطنى الفذ، صاحب الخصال الفريدة، والمهارات الفائقة (ثميستوكليز Themistocles)؛ والتى دعت أكبر عمالقة الفلاسفة وأكثرهم عراقة وأصولية (سقراط Socrates) لأن يتخذ منه مثالاً، فى حواراته. وأطلقت على هذا الفصل اسم: "سقراط يتحدث عن ثميستوكليز". أما بالنسبة لباقى فصول كتابى؛ فإن أحدها يتحدث عن بطل العرب والمسلمين صلاح الدين يوسف بن أيوب، الشهير بـــ"صلاح الدين الأيوبى"، محرر بيت المقدس (الفصل الثانى). ثم قمت، بعد هذا، بترجمة الفصلين الثالث والرابع – ترجمة كاملة

وأمينة – عن كتاب "جنرالات مُخَلِصين" لـ"ڤيكتور داڤيز هانسون". فى هذين الفصلين، يتحدث المؤلف عن "شيرمان" و"بتراس"، على الترتيب. وسوف ترى فيهما بوضوح الطريقة الأمريكية لـ"تعظيم من لا يستحق التعظيم Glorifyng the Mediocre"؛ وهو العنوان الفرعى، الذى جعلت منه قاسما مشتركاً فى كثير من فصول كتابى.

أما الفصل الخامس والأخير، فهو الهدف الحقيقى من هذا الكتاب؛ وأتحدث فيه إلى الجنرال الذى أنقذ مصر، الفريق الأول عبد الفتاح السيسي. آملا أن يتقبل كلماتى؛ والتى أعلم جيداً أن حكمته –وحكمة مستشاريه– تجعله فى غنى عنها، وعنى.

تعظيم من لا يستحق التعظيم Glorifyng the Mediocre

من يظن أنه –بصورة أو بأخرى– أفضل ممن حوله؛ ومن حقه السيادة عليهم وحكمهم إلى الأبد، لا يستحق منا مجرد الذكر، وهو بالتأكيد غير أهل للتعظيم، ولا يستحقه. من يظن أنه بإمكانه توريث ذريته –أو بعضاً من أفراد بطانته– الحكم فى "نظام جمهورى" لا يستحق التعظيم، لأنه فقد بهذا شرعيته. والعظمة بعيدة عنه، بعد الشرق عن الغرب ... وبصرف النظر عن انجازاته السابقة.

لا يستحق التعظيم، من لا يستمع إلى الرأى الآخر، ولا يحاول فهمه. ولا يستحق التعظيم، من لا يسمح للمعارضة البناءة بالمشاركة فى بناء الوطن. ولا يستحق التعظيم، من لا يستطيع السيطرة على شهوات عقله وجسده. ولا يستحق التعظيم، من يحاول تحصين قراراته ضد النقد أو المعارضة. ولا يستحق التعظيم، من لا يحترم أحكام الدستور العليا. وفى النهاية، لا يستحق التعظيم، من لا يحترم **إرادة الشعب**.

وأخيراً، يقدم كتابي هذا، "تصورا" للصفات اللازم توافرها في "الجنرال المنقِذ" الذى سيتمكن من انتشال "مصر" من كبوتها، والعبور بها إلى بر الآمان. وخلال فترات التاريخ المختلفة، سبقنى كثيرون -أعلى منى قامة- مفكرين، وسياسيين كبار، ووطنيون بسطاء في تقديم المشورة للقادة العظام الذين كتب عليهم تحمل عبأ المسئولية. ولعل أكثرهم شـــهرة هو "نيقولا مَكيافيلي Niccolò Machiavelli" (١٤٦٩- ١٥٢٧م)، في كتابه "الأمير". لكن كتابه هذا اكتسب شهرة سيئة جداً، بسبب عبارته الشهيرة "<u>**الغاية تبرر الوسـيلة**</u>"؛ وأصبح مصطلح "الْمَكيافيلية" مرادفاً للسياسات اللا أخلاقية، التي لا تعترف إلا بالمصالح، والحفاظ على مقعد السلطة ... بأي ثمن.

وفي هذا الخصوص، أرجوا أن يختلف كتابي هذا، عن الكتب الأخرى.

عادل نجيب بشـــرى

القاهرة

في يوم ٢٥ ديسمبر ٢٠١٣م

مقدمة "بقلم ڤيكتور داڤيز هانسون"

ما الذى يُمَكِّننا من تحقيق النصر؟

هل يتحقق النصر، أو الخسارة، عن طريق الحظ؟ أم المفاجأة؟ وهل نصل إليه من خلال المعنويات المرتفعة؟ أم الموارد المادية الوفيرة؟ أم التفوق العددى؟ وهل من الممكن أن يكون التخطيط بطريقة استراتيجية سليمة وإتباع تقنية مناسبة هو المفتاح الحقيقى لتحقيق النجاح والوصول إلى النصر؟

مرة أخرى علينا التساؤل عما إذا كان النصر فى الحرب يأتى من خلال الاستغلال السليم لأحدث أنواع التكنولوچيا، وأكثر القنابل دقة، وأعظم القذائف قدرة على التدمير، وأقوى الصواريخ ذات المدى الأطول؟ وهل كل هذه المعايير تؤثر على الطريقة التى نعرف بها الحرب؛ وما إذا كانت حرب "تقليدية Conventional"، أو حرب "غير متناظرة Asymmetrical"، أو "حرب ضد المتمردين Counter-insurgent"، أو حرب على "الإرهاب Terrorist"، أو غيرها من أنماط الحروب؟

وفى الواقع، فإن كل هذه الاعتبارات، تؤثر -بدرجات مختلفة- على مدى نجاح العملية العسكرية. ولقد أشار البعض إلى أن قدرة "هرنان كورتز Hernán Cortés" على تدمير إمبراطورية الـ"أزتك Aztec"، خلال الفترة من ١٥١٩-١٥٢١م، يعود إلى امتلاكه لنوعية أفضل من الأسلحة. ومما لا شك فيه أن الغزاة الأسبان كان لديهم أسلحة أفضل وتحت قيادة عسكرية خبيرة، إلا أنهم كانوا يواجهون أعداد هائلة بأعداد أقل بكثير من المتوافرة لدى

الأزتك. كان لدى الغزاة الأسبان، بنادق، ومدافع، وسيوف، ودروع معدنية تحمى الصدر، وخوذات تغطى الرأس، وخيول، ورماه بالقوس والسهم، وبالرماح. أما الأزتك فإن كل ما كان لديهم هو رماح وسهام صغيرة مصنوعة، جميعها، من مواد غير معدنية ... مما قلل من فاعليتها إلى أقصى درجة. وهكذا، فإن احتكار الغزاة الأسبان لتكنولوچيا صناعة السلاح من المعادن هى التى مكنت بضع مئات من الفُرسان راكبى الخيول المزودين ببنادق قديمة ومدافع بدائية، من القضاء على إمبراطورية، بها ملايين من البشر خلال حوالى عامين فقط لا غير.

وخلال الحرب العالمية الثانية، تكرر الشىء ذاته مع الولايات المتحدة الأمريكية، فإن قدراتها الهائلة على التصنيع كانت غالباً ما تضمن أن أفراد القوات الأمريكية فى أقصى أرجاء المسكونة كان لديهم غذاء، وسلاح، ورعاية طبية، وغيرها من الإمدادات اللوجستية أفضل بكثير مما لدى جنود الإمبراطورية اليابانية. وفى هذا الصدد، فإن قوات الصاعقة النازية خلال عامي ١٩٤٤- ١٩٤٥م كانت دائماً أقل عدداً من خصومها؛ إلا أن تفوقهم فى السلاح (خاصة البنادق الآلية، والقذائف، والآليات المدرعة التى كانوا يتنقلون بها) جعلهم قادرين على تحقيق انتصارات مذهلة؛ ومكنهم من الاستمرار فى القتال، عندما استسلمت الغالبية العظمى من الجيوش الألمانية الأخرى. وهكذا، فإن نقص المؤن والعتاد، وتفوق العدو فى العدد، وارتكاب أخطاء استراتيجية رهيبة، كان له أكبر الأثر فى إلحاق الهزيمة بهم.

الأهمية القصوى للقائد الخبير

وبالرغم من كل هذا، فإن وجود القائد المناسب له أهمية قصوى لقيادة الجيش نحو النصر. وفى هذا الصدد، فإنه من الممكن لأهميته أن تتفوق على وجود عوامل سلبية كثيرة؛ مثل بعض تلك التى تم ذكرها فى الفقرة السابقة ... لأنه هو صاحب الاستراتيجية السليمة التى تؤدى

إلى النصر. وفى هذا الصدد، فإنه هناك أكثر من ٩٠٠ "أدميرال" و"جنرال" فى القوات المسلحة الأمريكية، لكنهم لا يعتبرون فى موقف يمكنهم من إحداث تغيرات جذرية فى مسار المعارك الميدانية التى يشتبكون فيها؛ بسبب البروتوكولات التى تحكم الحرب الحديثة، وتحدد -إلى أبعد مدى- تصرفات الجنرال فى الميدان ... خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الدور الذى تلعبه التكنولوچيا فى القرن الحادى والعشرين. وبالرغم من هذا، فإنه لا يزال، من بينهم، من يمكن وصفه بأنه عبقرية عسكرية وقائد ملهم. وإذا أخذنا وينستون تشرشل على سبيل المثال، فإنه لم يكن مخطئاً تماماً عندما وصف قيادة الأدميرال "John Jellicoe" للأسطول الإنجليزى خلال الحرب العالمية الأولى، قائلاً: "إنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يحدد مصير الحرب خلال فترة قصيرة".

وفى عصرنا الحالى؛ عصر التكنولوچيا المتقدمة، والنظم البيروقراطية التى تمارس على أوسع نطاق. عادة ما ننسى حجم التأثير الذى يمكن لفرد واحد أن يحدثه. ففى أيامنا هذه، نجد أن الآلة، والقواعد الروتينية الواجب إتباعها، قد قللت من أهمية العامل البشرى. وهى بهذا، تكون قد استدرجتنا إلى الظن بأن الأحداث تتعاقب بطريقة طبيعية، وبدون أى تدخل من العامل البشرى. لكن بين الحين والآخر، نجد أن مصير الملايين من البشر، فى ميدان المعركة وداخل حدود الوطن، قد أصبح متوقفاً على القدرات الشخصية لعدد محدود من الأفراد الذين يتميزون بنوع خاص جداً من العبقرية.

هناك نوع من التشابه بين بزوغ شركات هائلة الحجم مثل "Apple" أو "Microsoft"، والصفات الشخصية الفريدة التى ميزت من أنشئوها. فمما لا شك فيه أن نجاح هاتان الشركتان، ووصولهما إلى هذا الحد من الضخامة، ما كان ليحدث بدون العبقرية التى ميزت كلا من "Steve Jobs" و"Bill Gates".

وبالمثل، فإننا إذا استبعدنا شخصية "هرنان كورتز" من على رأس القوات التى قامت بغزو الأزتك، فإن كل ما سيتبقى لدينا هو عدة وعتاد وخيول لا يوجد من يحسن استخدامها. والاحتمال الأكبر، هو أن تلك القوات الغازية كانت ستفشل فى هزيمة السكان المحليين؛ أو على أحسن تقدير، ستستغرق مدة أطول بكثير لتحقيق النصر. كذلك، فإن الجيش الثالث الأمريكى، خلال الحرب العالمية الثانية، ما كان له أن يتمكن من تحرير فرنسا خلال شهور الصيف القصيرة، بدون قيادة "جورج باتون George Patton". لقد كان من الممكن تحقيق النصر فى أوربا بدون قيادة هذا الجنرال للجيش الثالث. لكن هذا، كان سيكلفنا الكثير، وسيستغرق –بالتأكيد– فترة أطول. وفى هذا الصدد، فإن القوات الفرنسية كان لديها ما يكفيها من السلاح والأفراد حتى تتمكن من إيقاف تقدم الهجوم الألمانى عليها فى مايو من عام ١٩٤٠م. لكن ما كان ينقصهم، فى الحقيقة، هو وجود قائد موهوب يستطيع استخدام هذه المزايا فى إنقاذ شعبه من الاحتلال. وفى كلمات أخرى، فإنهم كانوا فى حاجة إلى أشخاص مثل: "George Patton" أو "Erwin Rommel" أو "Charles de Gaulle" لقيادة قواتهم البرية. وبالمثل، فإنه من الممكن القول أن أى قائد آخر بخلاف "Erwin Rommel" ما كان له أن يتمكن من الوصول إلى العلمين، فى ظل الصعوبات التى واجهت هذا الجنرال الموهوب. كذلك، فإنه لولا وجود "مونتجومري" خلال الشهور الأخيرة من عام ١٩٤٢م لما أمكن وقف تقدم "رومل" ومنعه من احتلال العلمين. ويمكن قول الشيء ذاته، بخصوص الحرب فى ڤيتنام. فلو أن الجنرال الأمريكى "Creighton Abrams" هو الذى قاد المعارك هناك منذ بدايتها الحقيقية فى عام ١٩٦٥م، ولو أن الجنرال الفيتنامي الموهوب "Giap" لم يشترك فى هذه الحرب، لكانت النتيجة التى وصلنا إليها مختلفة تماماً.

وبالنسبة لكل المؤرخين الذين يقدرون أهمية العامل البشرى، فإننا سنجدهم، عادة، ما ينسبون هذا التأثير الهائل، لوجود القائد العسكرى المناسب فى الوقت المناسب. فإن عبقرية "الأسكندر

الأكبر"، أو "يوليوس سيزر" أو "نابليون بونابرت" هى التى حددت مصير آلاف مؤلفة من الجنود على كِلا الجانبين. وعلى سبيل المثال، فإن قوات "Pity" الفارسى كانت تتفوق بكثير، من حيث العدد، على قوات "الأسكندر الأكبر" فى معركة "جوجاميلا Gaugamela" أو أراضى الغال (فرنسا حالياً) والتى تم حصارها بواسطة "سيزر".

وفى بعض الأحيان، فإننا نعطى قدراً مماثلاً من الأهمية للقادة الواعين القائمين على التنظيم والمتميزون بالرصانة. ومن أمثال هؤلاء "Marcus Agrippa"، و"Dwight D. Eisenhower"، و"John j. Pershing"، و"Alfred von Schlieffen"، و"Isoroku Yamamoto" القائد اليابانى المشهور. كل واحد من هؤلاء كان فى قمة التمكن من وضع الاستراتيجيات الحربية المناسبة للقوات الموجودة تحت إمرته. وقد بلغ من حكمة أولئك القادة أن تصرفاهم كانت قادرة على أن تستشف ما غمض من المستقبل، وتستنتج الأحداث قبل وقوعها.

وهناك أيضاً البراعة البيروقراطية الحربية المتألقة فى الخطوط الخلفية، مثل براعة " George Marshall" و"Samuel Pepys" فإن مهارهم ضمنت أن القوات الموجودة فى أقصى أرجاء الأرض –مهما كانت الظروف– سيتهيأ لها أحسن الفرص من أجل تحقيق النصر ... حتى قبل أن تبدأ الاشتباكات الفعلية.

الغرض من كتابة وتسجيل تفاصيل تاريخ القيادات العسكرية، والسبب الأساسى فى وجودها، هو أنها ترسم لنا الطريق الذى يوضح الفوارق الموجودة بين بعض الجنرالات العظام الموهوبين، وبين الغالبية العظمى من الجنرالات ذوى المستوى العادى المتوسط. وفى هذا الصدد، فإن قدرات الفرد على التخيل، وجرأته، وجاذبية شخصيته (هيبته)، وقدرته على الخطابة، وغرائزه الحادة، وهدوءه فى مواجهة المصاعب، وحجم معارفه وخبراته، ولياقته البدنية، وتمتعه بالشباب والصحة، وعقليته المنظمة، كلها عوامل تساعد الجنرال العظيم على تحقيق النصر؛ ونجدها متوافرة فى القادة الناجحين منذ عهد الأسكندر وحتى عهد نابليون.

وعندما يتصفح الجنرالات والقادة فى القرن الحادى والعشرين، الكتب التى تتكلم عن الأسرار المميزة للجنرالات العظام، فإن الدروس الإجمالية الممكن استخلاصها من الكوارث والأخطاء التى حدثت، عادة ما تعود إلى نقص الكفاءة وعدم أهلية من ارتكبها. وبهذا، فإننا نفترض وجود صفات معينة يمكن تحديدها فى كلا من نمط القائد الناجح والفاشل، وأنه من الممكن لنا فعل هذا عبر الزمان والمكان. من الممكن دراسة هذه الأنماط، وتقليدها، والاستفادة منها فى تعليم كل من تنقصه المواهب الطبيعية حتى يصبح جنرالاً أكثر كفاءة. لكنه من النادر جداً، أن نقرأ، فى هذه الكتب، عن جنرالات تمكنوا من إنقاذ أوطانهم، وليس فقط مجرد إحراز النصر، أو خلصوها من شر محتوم وبدون أن يبدأوا فى إشعال نيران أية حروب. لعلنا بهذا نكون قد أهملنا دراسة "الجنرال المنقِذ The Savior General" الذى يتمكن من تخليص وطنه من الوقوع فى أخطاء رهيبة، ويحميها من الانزلاق فى هوة قد لا يمكن الخروج منها مرة أخرى.

ومع هذا، فإن "الجنرال المنقِذ" لا يشارك، عادة، فى التخطيط للحرب ولا فى وضع استراتيجيتها. كما أنه –عامة– لا يكون فى وضع التحكم عندما تبدأ المعركة. فخلال تلك الأوقات، يكون القادة ذوى الصلات فى أوقات السلم هم الظاهرين فى مواقع الأمر والنهى من اللحظات الأولى للمعركة.

أما "الجنرال المنقِذ" فإنه لا يكون إلا ضمن المجموعة الفرعية ... التى لا يعلم بوجودها إلا المتخصصين. فإن نوعية هؤلاء القادة ("الجنرال المنقِذ") لا تبدأ فى الظهور إلا خلال الفترات التالية، عندما تتأزم الأمور، ويكون من المحتم عليه الظهور من بين عامة الجنرالات، وتقدم الصفوف حتى يتمكن من إنقاذ بلاده من الضياع. وغالباً ما يكون ظهورهم بسبب أن القيادة العليا قد أصبحت يائسة وتحولت نحو أشخاص لا يتم عادة التفكير فى الاستعانة بهم، فى ظل الظروف العادية. إنهم الأبطال الذين يظهرون فى اللحظات الأخيرة عندما لا يكون هناك أى

أمل فى الخلاص، وعندما ينشب اليأس أنيابه داخل قلوب الجميع. ففى لحظات الخطر العظمى، عادة ما تتلاشى كثير من الفوارق الموجودة بين الرتب العسكرية، وتقل أهمية "تسلسل القيادة Chain of Command"؛ لأن المخاطر المحيطة بالوطن تكون من الخطورة بحيث أنها تشل أذهان الكثيرين عن مجرد التفكير فى المناصب وهيبتها.

مهمة "الجنرال المنقِذ" مشابهة –فى الأغلب الأعم– لمهمة رجل المطافئ فى إطفاء حريق تسبب فى إشعاله مجموعة أخرى من القادة الأعلى رتبه منه. وهو عادة ما يكون ذو مكانة رفيعة وهيبة تمكنه من فرض آرائه على الآخرين؛ واستدعاؤه للعمل يعنى أن الوطن فى حالة أزمة تستدعي تدخله الشخصى. وهى أزمة غير عادية، بدليل أن الأجهزة المناط بها مواجهة الأزمات لم تتصدى لها، وفضلت الانسحاب ووضع "الجنرال المنقِذ" فى موضع المسئولية. ومثال هذا، وضع "William T. Sherman" خارج مدينة "Atlanta" فى صيف عام ١٨٦٤م. ووضع "Matthew Ridgway" عندما انسحب من العاصمة الكورية "سيول Seoul" فى شتاء عام ١٩٥١م. ووضع "David Petraeus" وهو يحاول إنقاذ "مقاطعة الأنبار" فى العراق خلال الشهور الأولى من عام ٢٠٠٧م. فى كل حالة من الحالات السابقة، وبالرغم من تصرف القادة بثقة وهدوء، إلا أنهم كانوا يعلمون –داخلياً– أن النتائج وحدها هى التى ستمكنهم من استعادة تأييد عامة الشعب. وبمعنى آخر، فإن "الجنرال المنقِذ" عادة ما ينجح فى إنجاز، ما اعتبره كثيرين أمر ميئوس منه ... ولا يجب حتى المخاطرة بمحاولة تحقيقه. وهذه هى العلامة الفارقة، التى تميز "الجنرال المنقِذ" عن غيره من القادة العظام.

ومما لا شك فيه، أن عامة الشعب الأمريكى شعرت بأن "Ulysses S. Grant" هو "جنرال منقذ"، خلال ربيع عام ١٨٦٤م، عندما اتجه نحو الشرق ليتولى القيادة المباشرة للقوات الاتحادية فى ڤيرچينيا، والتى كانت تعانى منذ عام ١٨٦١م. وبالرغم من هذا، فإنه مع حلول صيف عام ١٨٦٤م كانت أحلام هذه القوات فى قدرتها على إنهاء الحرب الأهلية تحت

قيادته، ووضع حد لها، قبل نهاية العام، قد تبخرت. أما السبب فى أنهم قد فقدوا الأمل تحت قيادة "جرانت Grant"، فهى حدوث سلسلة من الهزائم التى دمرت جيش الـــ"بوتومك" فى ڤيرچينيا.

إن الكوارث التى حدثت فى صيف ١٨٦٤م لم تزرع الشكوك فى صلاحية إعادة انتخاب "Abraham Lincoln" فقط؛ ولكنها تسببت فى أن حزبه أصبح متشككاً فى ضرورة إعادة ترشيحه من عدمها. وهنا ظهر "الجنرال المنقِذ" ("وليم ت. شيرمان William T. Sherman") وتمكن هذا الجنرال من احتلال "أتلانتا"*. وبهذا، أعاد الثقة فى الأهداف التى تبنتها قوات الإتحاد؛ مما سمح لهم بـــ"مهلة جديدة" ... فترة زمنية أضافية مكنتهم من تحقيق ما وعدوا بتحقيقه. لقد كان من الصعب على أفراد الشعب فى الشمال أن يتخلوا تماماً عن تأييد رئيسهم (إبراهام لينكولن)، وقائد جيوشهم (جرانت)؛ وعندما حدث الانتصار فى أتلانتا، تحرر جزء كبير من جيش القوات الإتحادية فى الغرب، وأصبحت لديه الحرية فى أن يتحرك، أينما شاء، خلف جيش الخصم الكونفيدرالي.

نحن نعلم أن "إيبامينونداس Epaminondas" الذى ينتمى إلى مدينة "طيبة"، لم يرث –فى عام ٣٧١ ق.م.– الجيوش التى حارب بها عن أبيه، مثلما هو الوضع فى حالة "الأسكندر

---

* هكذا، وبكل بساطة، رأى ڤيكتور هانسون أن نجاح "شيرمان" فى احتلال مدينة أتلانتا –حتى وإن كانت أعظم مدن الجنوب وأكثرها أهمية– قد جعل منه "جنرالاً منقذاً"؛ رغم كل النقائص الشخصية والخلقية الظاهرة عليه، والأمراض النفسية التى كان يعانى منها. وهذا يظهر، بوضوح، بشاعة المعايير المادية الأمريكية، وطبيعة طريقتهم فى التفكير. (عادل نجيب)

الأكبر"؛ والذى لم يرث الجيوش فقط، وإنما ورث عنه - أيضاً - خططه التوسعية، والاستراتيجيات التى وضعها أبيه من أجل الهيمنة والسيطرة على الدول المجاورة له.

لهذا، فإن "إيبامينونداس" جمع "جنوده المدرعين Hoplites"* وذهب بهم إلى مكان المعركة فى "Leuktra"، بينما الجيش الإسبرطى -والذى كان ثلاثة أضعافه من حيث العدد- لم يكن يبعد إلا ساعات قليلة، عن مدينته. لقد كانت الهزيمة تبدو وكأنها قدرهم المحتوم، فى مواجهة كل هذه الظروف السيئة. لكن "إيبامينونداس" تمكن من تحقيق المستحيل، وهزم الجيش الإسبرطى، وقتل ملكه.



---

* كلمة "Hoplite" مشتقة من "Hoplon" وهو اسم الترس الذى يحمله الجندى اليونانى، ثم تحور المعنى، حتى أصبح يشير إلى الجندى المسلح تسليحاً ثقيلاً (يلبس الدروع، هو وحصانه، من رأسه إلى أخمص قدميه). وإن كانت منطقة الصدر تظل عارية أحياناً (كما هو فى الصورة). وعادة ما كان يأتى من طبقة المواطنين الأحرار ملاك الأراضى الزراعية فى كل مدينة من المدن اليونانية. هذه التروس كانت تحمل بطريقة خاصة -باليد اليسرى- بحيث تغطى نصف جسده ونصف جسد الجندى الواقف إلى يساره. كذلك، فإن هذه النوعية من القوات، عادة ما كانت تقاتل فى تشكيلات متراصة (كتفاً إلى كتف)، فيما عرف باسم "الكتائب اليونانية phalanx"؛ مستخدمة التكتيكات العمودية[1] فى شق صفوف الخصم، وتفتيت تكتلاته.

(عادل نجيب)

ثم توجه –بعدها– نحو مدينة الأعداء، إسبرطة، فى الجنوب، بهدف تحرير "عبيد الأرض* Helots" من أهالى "Messenia"؛ منهياً بهذا وجود إسبرطة كأحد القوى اليونانية العظمى.

القلة المختارة

لقد كنا دائماً ما نرى الحقد والغيرة، مع ما يقترن بهما من مشاعر الرفض والاستياء، فى كل مرة يتم فيها اختيار قائد من خارج "الجماعة المفضلة in-group" صاحبة الامتيازات. وهذا هو ما حدث عندما تم اختيار "إيبامينونداس" و"شيرمان"، لقيادة القوات الميدانية. وأنا على علم بأن تغيير القيادة فى وسط المعارك هو أمر مكروه جداً وصعب بطبيعته على الجميع. وفى هذا الصدد، فإن الصفات التى يتميز بها "الجنرال المنقِذ" هى التى تمكنه من شحذ الهمم وتقوية عزيمة المتخاذلين، بجانب ما يتميز به القائد من قدرة على توقع الأخطار قبل حدوثها ومعلومات وثقافة واسعة؛ إلى جانب قدرته على الخطابة، والترويج الذاتى، وشخصيته الفريدة. وإن كان، فى بعض الأحيان، هناك عدد من التصرفات الشاذة الغريبة، التى تثير الشكوك، وتدفع بالآخرين للغضب منه، والنكاية فيه. وفى هذا الصدد، فإن جنرال "جورج ماكليلان George McClellan"، ومن تبعوه من جنرالات، رأوا أن نجاح جنرال شيرمان، وجنرال جرانت، فى الشهور الأولى من عام ١٨٦٥م؛ ليس إلا شيء متوقع بعد الدروس المستفادة من الأخطاء التى ارتكبها من سبقوه.

** عبيد الأرض، هم طبقة الفلاحين الذين ترتبط حياتهم بزراعة قطع معينة من الأرض يعملون عليها ويعيشون بجوارها –أو عليها– طوال حياتهم. وفى عهد الإغريق، عادة ما كان يتم اتخاذ الأسرى ليعملون كعبيد فى أرض المنتصرين. وهم بهذا يشبهون "عبيد الأرض Serfdom" فى روسيا القيصرية.

(عادل نجيب)

و"الجنرال المنقِذ" عادة ما يكون من الغرباء المشكوك فيهم (أى من خارج "الجماعة المفضلة in-group" التى تسيطر على مقاليد الأمور) ولفترات طويلة وممتدة، سابقة على تحوله إلى "الجنرال المنقِذ". وخلال فترة قيادته، وإنقاذه للموقف، سيعانى -كثيراً- من الحط من قيمة إنجازاته؛ وستنسب كثير من نجاحاته إلى الحظ والتوفيق؛ وسيقال أن القرارات الفريدة الصائبة التى اتخذها -وعارضها الكثيرين منهم- لم تكن إلا رمية من غير رام ... وضربة حظ أعمى؛ وأن ذلك الإنجاز الضخم الذى تمكن من تحقيقه، لم يكن إلا نتيجة لجهد من سبقوه من الجنرالات والقادة. وحتى بعد أن تهدأ الأمور، فإن الغالبية العظمى من "الجنرال المنقِذ" لا يستمتع بما يستحقه من تمجيد وإشادة. ومثال هذا: "Themistocles"، و"Scipio"، و"Belisarius"، و"Philippe Pétain"، و"Grant"؛ فإن كل واحد منهم مات فى فقر مدقع، أو منسياً، أو فى فضيحة تسبب هو فى حدوثها. وفى أيامنا هذه، عندما يتم ذكر اسم "الجنرال شيرمان"، بعد مرور ما يقرب من قرن ونصف من الزمان، على دخوله جورجيا، نجد أن الغالبية العظمى سيساوون بين حرق المزارع والإرهاب، ولا يقدرون الاستراتيجيات العظمى التى اتبعها هذا "الجنرال المنقِذ" من أجل خفض أعداد القتلى لدى كِلا الجانبين. والعجيب فى الأمر، أننا سنجد هذا الرأى منتشر عند سكان الشمال (قوات الإتحاد) بنفس نسبة انتشاره عند سكان الجنوب (القوات الكونفيدرالية). أما بالنسبة للقائد العبقرى صاحب الشخصية المستقلة، من أمثال: "George Patton"، و"Curtis LeMay"، فإن الأمور غالباً ما تنتهى به لأن يصبح صورة كاريكاتورية ساخرة من ما هو معروف عنه. وعندما ترك "العراق"، بدأت مشاكله الحقيقية ... بدلاً من أن تنتهى. فواجه طريقاً مسدوداً فى كل المشاكل التى تصدى لها فى أفغانستان، وتعرض لحرج كبير مع وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)؛ عندما تعرض السفير الأمريكى -هو وثلاثة من المواطنين الأمريكيين- للقتل فى ليبيا؛ واضطراره لتقديم استقالة مفاجئة من وكالة الاستخبارات المركزية، وسط عاصفة من الهمز واللمز عرضت به

وبسمعته، ووضعته فى وسط عدد من الفضائح. والنتيجة الكاملة لكل هذا، لا زالت فى علم الغيب، وستصبح أكثر وضوحاً مع مرور الزمان.

وبالمثل، نجد أنه عند عودة البطل القومى* "ماثيو ريدجواي Matthew Ridgway" من كوريا، بدأت مشاكله الحقيقية. ففى البداية، تم إجباره على التقاعد، ثم وجد نفسه فى مستنقع من الخلافات والنزاعات والجدل، والاتهامات التى شككت فى كل ما قام به فى الماضى، واستمرت هذه المحنة لما يقرب من أربعة عقود من الزمان ... وحتى نهاية حياته الطويلة. وكقاعدة عامة، نجد أن عملية صعود "الجنرال المنقِذ" هى عملية قصيرة ومختصرة، وأن لحظات المجد التى يتمتع بها لا تستمر طويلاً؛ وأن عملية تدهوره، تستغرق كل ما تبقى له من سنين فى هذه الحياة.

الانتصار فى الحروب التى كنا نظن أننا قد خسرناها

فى الحالات التاريخية التى سندرسها، فيما بعد، والتى يرجع تاريخ بعضها لمئات السنين قبل الميلاد، هناك عامل من عوامل العشوائية. لأننا سنجد أن بعض الجنرالات قد تمكنوا من تحويل

---

* هذا الذى يدعوه "بطلاً قومياً" ("ماثيو ريدجواي")، لا أبالغ كثيراً إذا ما وصفته بأنه: "مجنون رسمى Certifiably Insane"، هو الآخر. مثله فى هذا مثل شيرمان. وعلى سبيل المثال، فإن هذا الأحمق – عندما فشلت الكثير من خططه العسكرية – استخدم وسائل وحشية بشعة، لا يستخدمها إلا شخص معقد نفسياً بل ومصاب بالسادية Sadistic؛ أدت إلى حدوث مذابح عديدة بين المدنيين فى كوريا. وانتهى الأمر بأن اجبره الرئيس الأمريكى "Dwight Eisenhower" – فى عام ١٩٥٥م – على التقاعد.

وفى هذا الخصوص، فإن "البطل القومى" الأمريكي الســـابق له (ماك آرثر Mac Arthur)، كان يصر على استخدام "الأسلحة النووية" ضد هؤلاء المدنيين، الذين استعصوا عليه، واستمروا فى مقاومة خططه العبقرية!؟ (عادل نجيب)

الهزيمة إلى نصر خلال شهور قليلة، كما هو الوضع فى حالة "ماثيو ريدجواى". وفى حالات أخرى، نجد أن "الجنرال المنقِذ" قد تمكن من تحقيق النجاح بعد مرور عشرات السنين من القتال، مثلما هو الوضع فى حالة "Belisarius". وبالمثل، فإنه من الممكن النظر إلى كلا من: "George Washington"، و"U. S. Grant"، و"Curtis LeMay"، و"George Patton"، و"Chester Nimitz"، على أهم نموذج لـ"الجنرال المنقِذ". وباعتبارى أمريكى الجنسية، فإننى أُعتبر نموذج مختصر للتقاليد العسكرية الموجودة لدى عديد من "المجتمعات التوافقية الغربية Western consensual societies"؛ مثال: "Kitchener"، و"Slim"، و"Montgomery"؛ واســتغنيت بهذا عن ذكر كل "الجنرالات المنقِذين" من غير الغربيين. خلال الفترات الزمنية التى امتدت من عصور ما قبل الميلاد وحتى العصور الحديثة؛ كانت الانتصارات التى حققها كلا من "Hernán Cortés"، و"Don Juan of Austria"، و"Duke of Marlborough" قادرة على تحويل الحرب إلى صالحه، وتغيير مسار التاريخ.

إن الجنرالات الخمس الموجودين فى هذا الكتاب، من وجهة نظرى، ورثوا عبئ ثقيل من الفشل الذى لا مثيل له؛ وهذا هو ما جعل انتصاراتهم تبدو وكأنها فريدة ورائعة. وأنا هنا، أؤكد على أن "الجنرال المنقِذ"، فى كل مرة، قد تمكن من تحقيق خلاص تام ودائم من المشكلة التى كان يواجهها. والديمومة هنا، لا تعنى **إلى الأبد** بالطبع، ولكنها تعنى أنه هو ("الجنرال المنقِذ") ومجتمعه، قد انتقلوا بعدها لمواجهة المشاكل الأخرى الأكثر إلحاحاً ... وأن المشكلة الأساسية، قد أخذت وضعها الثانوى الذى كانت تحتله قبل نشوب المعارك الأولى فى هذه الحرب.

هناك تحيز آخر واضح فى الشخصيات التى تم اختيارها؛ فلقد قمت بالتركيز على جنرالات أتوا من المجتمعات التوافقية ... وفضلتهم على غيرهم. وعلى سبيل المثال، كان هناك جنرالات من الصين الشيوعية تمكنت خططهم – فى اللحظة الأخيرة – من إفشال تقدم

"ماك آرثر" فى معركة "Yalu". كذلك، فإن معظم المحللين العسكريين، توقعوا أن تفشل الاستراتيجيات العسكرية التى استخدمها جنرال "Vo Nguyen Giap" فى حرب فيتنام؛ كما أنه لم يكن هناك من يظن أن المارشال السوفيتي "Zhukov" سيتمكن من إنقاذ ليننجراد أو ستالينجراد. ومع هذا فإننى لم أتخير أياً منهم ليكون حالة فى هذا الكتاب، لأنه لا يمكن فصل شخصية الجنرال عن الشخصية الاستبدادية التى تميز المجتمع السلطوى الذى خرج منه. وعلى سبيل المثال، فإن كلا من: "Heinz Guderian"، و"Erich von Manstein"، و"Walter Model" (والملقب بـ"رجل المطافئ")؛ على حدى، قد تمكن من النجاح – فى أكثر من مناسبة – فى إنقاذ هتلر من المآزق التى كان يضع نفسه فيها. وقد تم تجاهلهم جميعاً لأن جهودهم قد باءت، فى النهاية، بالفشل. ولأنهم شخصيات استبدادية أتت من مجتمع غير ديمقراطى تتركز السلطة فيه فى يد نخبة محددة.

وخلاصة الأمر، أن تعبير "منقذ" –أو "مخلص"– يتضمن أن الفرد الذى يؤرخ لحياته له أخلاقيات عالمية تجاوزت حدود الزمان والمكان؛ وكان من الواجب لها أن تستمر ... حتى إذا كان قد تم القضاء عليها فى النهاية. وإذا قمنا باختيار أى شخصية من الشخصيات التى سبق لنا ذكرها، نكون بهذا قد أربكنا القارئ؛ بالإضافة إلى التناقض الذى نقع فيه إذا مجدنا الشخصيات التى أظهر تاريخها أنها قد أيدت النظم الاستبدادية التى تحتكر السلطة أو التى أنقذت الطغاة من الإرادة الشعبية، ومن القوات التى كانت تسعى لتحرير البلاد وجذبها نحو الديموقراطية.

كذلك، فإن الفصول التالية تهدف إلى تقديم نبذة سلوكية نفسية عن شخصية القائد العسكرى الذى تمكن من أن يصبح منقذاً لبلاده ومخلص لها ممن أرادوا بها الشر والضياع. وبهذه الطريقة، فإنها تصبح صالحة لأن تكون دروس خالدة، عبر التاريخ، لأن تعطى نموذج

وقدوة حسنة للأجيال التالية فى سعيها نحو مستقبل أفضل. وباختصار، فإن هناك كثير من الجنرالات العظام فى التاريخ؛ لكنه لا يوجد من بينهم إلا قلة تعد على الأصابع، ممن يمكن أن يعتبروا "جنرالاً منقذاً"؛ وهذا لأنه تمكن من القيام بشيء لم يكن من المحتمل القيام به ... وهو بهذا غير مجرى تاريخ بلاده إلى الأفضل.

فيكتور دافيز هانسون

الفصل الأول

سقراط يتحدث عن عظمة ثميســتوكليز

تحدث "سقراط Socrates"* عن عظمة "ثميستوكليز Themistocles" وصفاته النادرة فى أحد حواراته الشهيرة التى نقلها إلينا أفلاطون، فيما يعرف باسم: "الحوار مع مينو Meno's dialogue". و"مينو" هذا، هو أحد كبار الزوار الذين ذهبوا لزيارة أثينا من مدينة "سيسالي Thessaly " مع حاشية كبيرة من أتباعه والعبيد القائمين على خدمته. وفى الأساس، فإن مينو من تلاميذ "جورجياس Gorgias" السفسطائى الشهير. وكان حديثهم بصدد الأخلاق الحميدة والصفات العظيمة؛ وهل من الممكن أن يقوم الأب بنقلها إلى ابنه عن طريق تعليمه إياها. واستخدم سقراط، صفات ثميستوكليز العظيمة –والتى مكنته من إنقاذ أثينا، بل وكل بلاد اليونان خلال عصره– فى إثبات وجهة نظره القائلة بأن:

---

* هو أستاذ أفلاطون مؤسس الأكاديمية، وأكبر الفلاسفة الثلاثة العظام (سقراط، وأفلاطون، وأرسطو). وقد ولد فى أثينا عام ٣٩٩ ق.م. مع دخول هذه المدينة–الدولة فى عصرها الذهبى. وعندها، اتضحت أهمية أسلوب سقراط فى التفكير، وأصبح له كثير من التلاميذ والأتباع رغم فقره ومظهره الغريب. إلا أن بعض نبلاء أثينا شعروا بأن تعاليمه خطر عليهم، وقاموا بمحاكمته وإعدامه عام ٤٧٠ ق.م. بتهمة الإلحاد وعدم التقوى. (عادل نجيب)

"الصفات العظيمة لمشاهير القادة، من حكمة فائقة وبعد نظر، لا يمكن أن تنتقل من الأب إلى ابنه عن طريق التعليم أو القدوة الحسنة؛ لأنها ليست معلومات يمكن تدريسها ونقلها من شخص لآخر".

خلال هذا الحوار، تناقش سقراط مع رجل يدعى "آنيتوس Anytus" –ابن أحد الأثرياء الذين بنوا ثروتهم العظيمة بواسطة الكفاح والكثير من العمل الجاد والذكاء– وشرح سقراط وجهة نظره؛ ضارباً المثل بصفات ثميستوكليز التي لا يختلف عليها شخصان، عندما قال:

سقراط: "إن هذا هو تساؤل الذى بحثته أنا ومينو. وأنا أريدك، يا آنيتوس، أن تنظر إلى الأمر من وجهة نظرك الخاصة، ألا تتفق معى على أن ثميستوكليز رجل صالح؟".

آنيتوس: "بالتأكيد، فلا يوجد من هو أكثر صلاحاً منه".

سقراط: "وبالتبعية، لا بد وأن يكون معلماً صالحاً. لأن كل ما يملكه هو تعاليم صالحة وعظيمة".

آنيتوس: "نعم بالتأكيد، إذا كان يرغب فى تعليم أحدهم".

سقراط: "لكن ما الذى يمكن أن يجعله غير راغب فى نقل ما لديه من صفات صالحة وعظيمة؟ وعلى أقل تقدير، فإنه يكون راغباً فى نقل هذه الصفات الحميدة لأبنه من دون كل الناس؛ فمن غير الممكن أن يكون ثميستوكليز حاقداً على أبنه لدرجة تجعله غير راغب –عن عمد– فى نقل هذه الصفات والأخلاقيات الحميدة إليه. كذلك، فإننا نعلم أنه قد علم أبنه "كلوفانتوس Cleophantus" – بالفعل – ركوب الخيل، والوقوف فوق ظهر الحصان، والطريقة السليمة لقذف الحربة ورمى الرمح، وغيرها من المهارات الصعبة؛ وهو قد تعلم بالفعل، كل ما يمكن تعلمه من المدرسين المهرة المتخصصين فى فنونهم. ألم تسمع عن مهاراته ممن سبقونا؟".

آنيتوس: "سمعت".

سقراط: "لهذا، لا يمكن لأى شخص القول بأن "كلوفانتوس" كان يعانى من أى نقص خلقى فى القدرات ... يجعله عاجزاً عن التعلم".

آنيتوس: "من المرجح أنه لم يكن يعانى من أى عجز أياً كان".

سقراط: "ومع هذا، فإننا لم نسمع أبداً من أى شخص –صغيراً كان أم كبير– أن الابن كان بعظمة أبيه، وله حكمة مثل حكمته الفائقة، وأخلاقياته الحميدة".

آنيتوس: "هذا صحيح، فأنا لم أسمع بأى شخص يدعى هذا".

سقراط: "وإذا كان من الممكن تعليم الصفات العظيمة والفضائل والحكمة، لكان ثميستوكليز قد قام بتدريب ابنه على تحقيق مثل هذه الإنجازات الهامة. أما أن يتركه ليواجه الحياة، بصفات وفضائل لا تختلف كثيراً عن فضائل أقرانه وجيرانه –بالرغم من تمتعه هو شخصياً بها– فهو أمر غير مقبول".

آنيتوس: "نعم بالتأكيد".

.

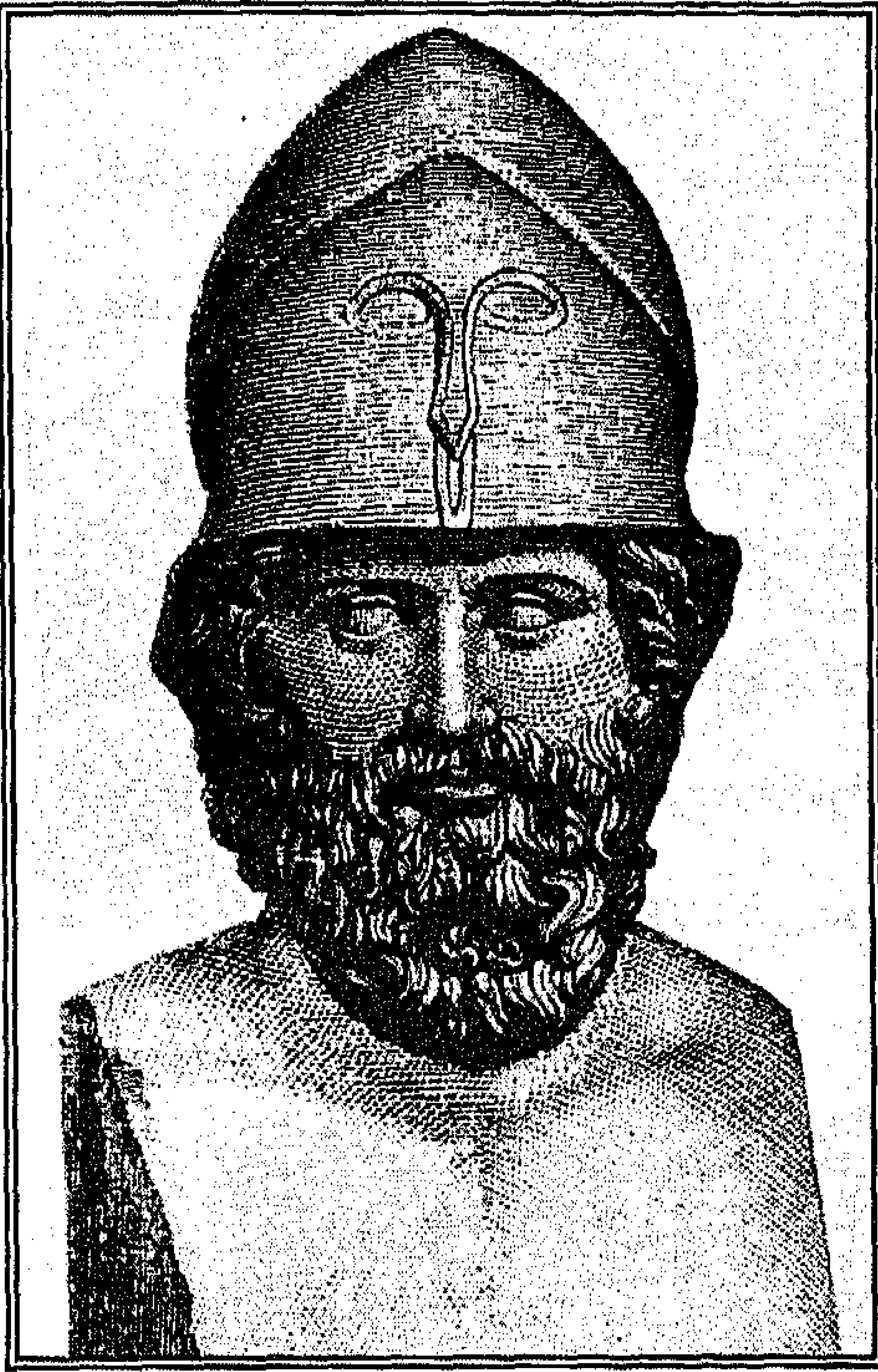
.

.

ويمضى الحديث بين سقراط، وأنيتوس على هذا المنوال لفترة غير قصيرة، حتى يصل سقراط إلى النتيجة التالية:

> **سقراط:** "من هذا، يمكننا رؤية أن الصفات العظيمة والفضائل والحكمة الفائقة، التى تمتع بها سميستوكليز، وغيره ممن تحكموا فى مصائر الولايات اليونانية، لم تكن مجرد معلومات يمكن نقلها من شخص لآخر. ولعل هذا هو السبب، فى أن أبنائهم وفلذات أكبادهم، لم يشتهروا أو يعرف عنهم حكمة آبائهم".

فمن هو "ثميستوكليز" الذى ضرب به سقراط المثل بسبب وطنيته، وصفاته العظيمة، وفضائله، وحكمته الفائقة، وأخلاقياته الحميدة؟



صورة للجزء العلوى من تمثال ثميستوكليز مرتدياً خوذته الشهيرة، وهو ما يجعله يبدو وكأنه مجرد جندى أو جنرال، أكثر منه إله أو شبه إله؛ كعادة قدماء اليونانيين فى تمجيد أسـلافهم.

ولد الجنرال العسكرى، والسياسى الأثينى الشهير، ثميستوكليز الحكيم عام ٥٢٤ ق.م. وكان أحد أوائل الزعماء السياسيين من الجيل الجديد الذى برز من بين طبقة غير أرستقراطية؛ وتمتع بشعبية كبيرة بين الطبقات الدنيا من المجتمع الأثينى .. جعلته يشعر بالغربة وسط رفاقه من النبلاء.

فى عام ٤٩٣ ق.م. تم انتخاب ثميستوكليز فى وظيفة "رئيس قضاة Archon". وكانت أهم إنجازاته، خلال مدة تحمله لمسئوليات هذه الوظيفة، هو أنه تمكن من إقناع المجلس الحاكم لأثينا بزيادة حجم الأسطول، فى خطوة بعيدة النظر جداً؛ لأنها أنقذت أثينا وبلاد اليونان من خطر الفُرس الذى أصبح يتهددهم -جميعاً- خلال السنوات التالية. وبالرغم من إصرار غيره من

القادة وواضعى الاستراتيجيات على أن القوات البرية ستكون كفيلة بصد أى هجمات فارسية تحدث فى المستقبل؛ واستدلوا على هذا بما حدث فى معركة "مارثون Marathon"، عندما تمكنت القوات اليونانية المدرعة ("الجنود المدرعين Hoplites") صغيرة الحجم، من هزيمة جيش فارس الضخم، والذى كان أكثر من ثلاثة أضعاف عددهم. لكن كيف وقعت أثينا فى هذا المأزق الذى بدا وكأنه لا خلاص منه؟

أثينا الأسطورية، ذات التاج البنفسجي .. مشتعلة. وهى قد فقدت حتى مكانتها ولم تعد تعتبر أحد المدن اليونانية. وتحسر أهل أثينا على حالهم وعلى هذه الكارثة التى ألمت بهم. لكن، كيف حدث هذا؟ هل يمكن لديمقراطيتهم النابضة أن تنتهى بمثل هذه البساطة ... مفرغة من مواطنيها ومحتلة من قِبل الملك الفارسى "زيركسز Xerxes". وها هى الآن تحرق بالنيران. وماذا عن "المدينة polis"*، بتاريخها الممتد لقرون طويلة، وحصونها القوية التى تعلو المدن. كل هذا، ذهب نهبة لآلاف من جنود فارس الهمج، الذين أضرموا النيران فيها، خلال أيام

---

* "المدينة" أو "المدينة–الدولة polis"، طبقاً للمصطلح الإنجليزى المعاصر؛ والذى اشتق من المصطلح اليونانى القديم "pólis" (ويعنى حرفياً "مدينة City"). وعلى سبيل المثال، حى هيليوبوليس فى غرب القاهرة، يعنى "مدينة الشمس". أما هنا، فيشير مصطلح "المدينة–الدولة polis" إلى الدولة أو المجتمع الذى يشارك كل أفراده فى "حكمه" و"الدفاع عنه" فى مجتمعات الإغريق (اليونان القديمة)؛ وقد كانت كل مدينة من هذه المدن الإغريقية تسمى "المدينة–الدولة city-state"، لضخامتها بمقاييس ذلك العصر. ولأن كل مدينة منها كانت مستقلة عن باقى المدن الأخرى ... ويحكمها ملك مختلف. وعلى الرغم من أن المصطلح الإنجليزى لا يغطى كل هذه المعانى، إلا أنه ما تم الاتفاق عليه، مؤخراً، للتعبير عن كل هذا. (عادل نجيب)

قليلة من شـــهر سبتمبر. ومن السبب فى كل هذا؟ إنها دولة "فارس" مرة أخرى، ذلك العدو التقليدى لأثينا، والذى تم هزيمته منذ عشر سنوات فى "مارثون Marathon"!

ومؤخراً، أتت إليهم أخبار سيئة بأن أخر خطوط الدفاع الإغريقية -والواقع على مبعدة ٨٥ ميلاً منهم، عند ممر "ثرموبيلا Therrnopylae" الذى يعتبر البوابة الأخيرة التى تســـمح بالدخول إلى اليونان من اتجاه الشمال- قد تهاوى، ودمر تماماً؛ وأن قائد هذه القوات، الملك الإسبرطي "ليونيداس Leonidas"، قد تم قطع رأسه، والتمثيل بجثته.



"ليونيداس" الملك الشهيد

قضت هذه الأخبار السيئة، على أخر الآمال الواهية التى تشبث بها أهل أثينا. وإلى جانب كل هذا، قُتِل ملك إسبرطة الباسل، ولم تعد هناك أى قوات يونانية تستطيع أن توقف التقدم السريع لما يزيد عن ربع مليون جندى فارسى من البحارة وجنود المشاة الذين تقدموا من الشمال نحو الأجزاء الداخلية من اليونان. أما بالنسبة للأسطول اليونانى فى منطقة "أرتميسلوم Artemislum"، فإنه كان يحاول الهرب فى اتجاه الجنوب ... نحو أثينا وشبه جزيرة "بيلوبونيزا Peloponnese".

ومما زاد الطين بللاً، أن عدد أكبر من السفن الفارسية كان يقتفى أثره ... بغية تحطيمه والقضاء عليه. كما أن الغالبية العظمى من مدن شمال اليونان -بما فيها مدينة "طيبة Thebes" الاستراتيجية القريبة منهم- قد انضمت للأعداء، أو تحالفت فى صمت معهم. ولم يعد أمام سكان أثينا العزل إلا اختيارات سيئة، وأخرى أكثر سوءاً. وبناء على حركة يائسة من جنرال

"ثميستوكليز Themistocles"، قرروا اختيار أقل الشرور ضرراً ... أن يهجروا مدينتهم العتيقة لملك فارس "زيركسز" ليفعل بها ما يشاء.

فى حالة من اليأس، اتجه أهل أثينا، بقواربهم الصغيرة ذات المجاديف، نحو الجزر القريبة، أو نحو الشواطئ الشمالية القريبة لشبه جزيرة "بيلوبونيزا". وكل من تخلف عن الهرب من المدينة سيكون عليه مواجهة مصير جنود إسـبرطة، و"ثيسـبيانز Thespians" فى موقعة ممر "ثرموبيلا Therrnopylae" عندما تم قتلهم جميعاً ... حتى أخر فرد فيهم.

> خلال تلك اللحظات المتخمة باليأس والقنوط، بدا نصرهم العظيم على الفُرس، منذ عشر سنوات فى "مارثون"، وكأنه شبح من أشباح الماضى البعيد؛ والذى لن يكتب لهم رؤيته مرة أخرى ... أبداً.

ووضعهم هذا، يشبه وضع الشعب الفرنسى الذى فقد بلده، عندما احتلها الألمان فى مايو من عام ١٩٤٠م، بالرغم من النصر الفرنسى الساحق على الجيش الألمانى – فى "ڤردان Verdun" – منذ حوالى ربع قرن سابقة على هذا.

وهكذا، تحولت كل أراضى اليونان –ولأول مرة– إلى الجزء الغربى من الإمبراطورية الفارسية الصاعدة، التى يؤسسها ملك فارس الغاضب "زيركسز". وأصبحت أثينا، وكل الأراضى الواقعة إلى الشمال منها، أراضى فارسية بالفعل. من الناحية العملية، فإن الحرب بدت وكأنها قد حسمت وانتهت بالفعل؛ فإن كل ما على الفُرس أن يفعلوه، الآن، هو تصفية ما تبقى من الأسطول اليونانى المهلهل المرتبك فى منطقة "سالاميز Salamis".

وفى الواقع، فإن الهروب الجماعى لأهالى أثينا، يعتبر إحدى العلامات الفارقة فى التاريخ اليونانى القديم، بل والأوربى ككل. حتى أنه بعد مرور عدة قرون على هذه الحادثة، وخلال

الحقبة الرومانية، لم يتمكن المؤرخ "بلوتارك **Plutarch**"، فى ســيرته الذاتية، من أن يتقبل فكرة أن مجموعة من ســكان أســيا يتحكمون فى مناطق أوربية ... بدل من أن يحدث العكس. وهو ما جعله يرثى لحالة الذعر التى انتابت أهل أثينا، وقرارهم بأن لا يخوضوا معركة برية أخيرة، بقوله: "لقد هجر كل سكان أثينا بلدهم ولجئوا إلى البحر". لكن ما هو المعنى الكامن وراء هذا؟ وهل ستتمكن "المدينة-الدولة" من الاستمرار فى البقاء بالاسم فقط، وبدون أى أرض للدافع عنها؟ ... بدون مدينة؟ وحتى تلك اللحظة، فإن كثير من أهل اليونان لا يتقبلون فكرة تسليم معابدهم، وقبور أجدادهم، وكل مقدساتهم للعدو بدون معركة. كل هذا بسبب أن القائد المحبوب، الذى يتمتع بشعبية كبيرة، "ثميستوكليز"، قد تمكن من إقناعهم، جميعاً، بأن الخيار المنطقى الوحيد أمامهم هو هجر المدينة. لقد كانت هذه الطريقة، هى الحل الوحيد الذى يجعل الآلهة تقاتل فى صفهم، وتمنحهم النصر، وما تبقى من مدينتهم المحترقة. وبالفعل، فإنه سرعان ما تم تشكيل جيش من كل الرجال الذين هجروا أثينا، وفى سن القتال -تراوح عدده ما بين ٣٠,٠٠٠ **إلى** ٤٠,٠٠٠ مقاتل- لكى ينضموا إلى السفن "ثلاثية المجاديف **Triremes**" التى تم تزويد الأسطول بها فى المياه المقابلة لسواحل "سالاميز". ومن الناحية الأخرى، توجه ما يزيد عن ربع مليون مواطن، من العجائز والنساء والأطفال، إلى مناطق أمنة خارج "أتيكا **Attica**". وتعتبر عملية النزوح هذه، أكبر عملية لنقل السكان فى تاريخ العالم القديم حتى ذلك الحين. وفى خضم التسرع والعجلة والقنوط الذى اتسم به نزوحهم، قاموا بترك بعض العجائز والمرضى داخل المدينة، أو فى المناطق الريفية المحيطة بــ"أتيكا".

وفى ذات الوقت، تجمع ما يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ من سكان أثينا المدنيين فى الخليج المطل على المدينة الواقعة على جزيرة "سالاميز" الصخرية. لقد كانوا يراهنون على أن بحارتهم وحلفائهم

من اليونانيين فى "بيلوبونيزا"، الذين لم يتم هزيمتهم بعد، سيستطيعون هزيمة الأسطول الفارسى قبل أن تنفذ مئونتهم من الطعام مع حلول موسم الخريف.

لم يكن من المتوقع حصولهم على أى مساعدات خارجية. فلم يكن هناك من يرغب فى تقديم المدد لهم من بين المدن اليونانية التى تمكنت حتى الآن من الاستمرار فى البقاء على قيد الحياة؛ فإن المدن المتبقية إلى الجنوب، مثل: "أرجوس Argos"، و"كورينث Corinth"، و"إسبرطة Sparta" والواقعة على الجانب الآخر من مضيق "كورينث"، لم تكن ترغب فى إرسال قوات سيكون من المرجح تعرضها للفناء على سهول أتيكا.

أما بالنسبة لليونانيين الذين يعيشون فى أسيا الصغرى، فإنهم انضموا إلى الملك الفارسى "زيركسز". أما اليونانيين القاطنين فى جنوب إيطاليا وسيسلى، فإنهم نأوا بأنفسهم عن عرض أى مساعدات. وعلى ما يبدو، فإن من تبقى من اليونانيين الذين لا زالوا يتمتعون بحريتهم، قد قاموا بإسقاط أهل أثينا من حساباتهم ... واعتبروهم مجرد جنس منقرض. فى هذه الأوقات الصعبة، قرر كل فريق أن يهتم بالدفاع عن نفسه أولاً، أو الوصول إلى نوع من أنواع *التفاهم الضمنى* مع الغزاة من أهل فارس. لقد كانت الغالبية العظمى من اليونانيين فى "أتيكا" لا تزال فى حالة رعب وهلع شديد، من الأخبار التى وصلت إليهم، عن مطاردة "زيركسز" لليونانيين الذين انسحبوا من "ثرموبيلا Thermopylae"، وهو ما أعطاهم نموذج مخيف للمصير الذى ينتظر باقى مدن الجنوب اليونانية الكبرى ("المدينة–الدولة City-State"). لقد أصبح الملك الفارسى فى طريقه لأن يتحول إلى أسطورة من الأساطير. ونشر العامة والغوغاء خرافات عن أنه لا يوجد رجل أو إله يستطيع الوقوف أمام "زيركسز" أو هزيمة جيشه العظيم. وفى الواقع، فإن الملك الفارسى هو أول قائد أسيوى يتمكن من الوصول إلى تلك الأجزاء الجنوبية من أوربا خلال تاريخ اليونان الطويل؛ كما أنه سيكون أخر من تمكن من فعل هذا .. حتى وصول

الأتراك العثمانيون لأثينا فى عام ١٤٥٨م، بعد ما يقرب من ألفى عام على ذهاب "زيركسز" إليها.

فى داخل مدينة أثينا الخاوية، بدأت قوات الاحتلال الفارسى فى تدمير المباني والمعابد الحجرية، وأشعلت النيران فى المنازل التى اعترضت طريقهم. كذلك، تمكنوا بسرعة من القضاء على بعض بؤر المقاومة القليلة من أهل أثينا الذين تحصنوا داخلها. وفى ذات الوقت، اقترب "زيركسز" بأسطوله من ميناء "فاليرون Phaleron" الأثينى. عند هذا الحد، من الممكن اعتبار أن الحرب الفارسية، والتى شُنت بغرض ضم الأراضى اليونانية إلى الإمبراطورية الفارسية، قد انتهت؛ فلم يتبقى إلا احتلال "ميجاريد Megarid" وشبه جزيرة "بيلوبونيزا Peloponnese" ناحية الجنوب. وبعدها، تتبقى مهمة بسيطة يتم خلالها تطهير شراذم السفن اليونانية المنسحبة، واللاجئين المحاصرين فى جزيرة "سالاميز".

أما ملك فارس المتباهى بنفسه، فإنه قرر إقامة عرشه على جبل "أيجالوس Aigaleos" خارج المدينة. فلقد كان متشوقاً لأن يشاهد، بنفسه، المرحلة الأخيرة من مراحل تدمير ما تبقى من الأسطول اليونانى فى المضايق المحيطة بجزيرة "سالاميز"؛ عندما يجبرهم على التراجع والهرب مستخدمين مجاديفهم ... ملحقاً بهم العار إلى الأبد. ومما لا شك فيه، أن ما قام به "زيركسز" من إضرام النيران فى أثينا، يعتبر إهانة لكل المدن اليونانية، وهو ما قد يدفع بعضهم للقيام بأعمال مقاومة يائسة؛ أو من المحتمل أن تتسبب هذه الإهانة فى أن ييأسوا تماماً، وينضموا إلى الجانب المنتصر. ولعل "زيركسز" كان يفكر فى أنه إذا لم يتمكن من قطع رأس ملك أخر من ملوكهم – مثلما فعل، قبل أسابيع، عند ممر "ثرموبيلا" – سيكون عليه أن "يخوزق Impale" بعض الجنرالات اليونانيين أو قياداتهم العسكرية ... على أقل تقدير.

خلال الشهور الستة الأخيرة، كانت قوة الدفع الناجمة عن الانتصارات المجيدة التى حققها "زيركسز" تدفعه إلى القيام بالمزيد، مثله فى هذا مثل كل الغزاة العظام على مر التاريخ. فى

البداية، لم تلقى الحملات الضخمة التى شنها خلال الربيع والصيف أى مقاومة، أو مقاومة ضعيفة جداً؛ فلم يكن الملك قلقاً بخصوص ما يمكن أن يقوم به العدو ... لقد كان "زيركسز" شديد الإعجاب بحجم وعظمة قواته؛ وهو ما أعماه عما يمكن أن تقوم به قوات العدو. وفيما بعد، خلال الفترات التاريخية الحديثة، تكرر هذا الخطأ مراراً وتكراراً. فإن الفيالق العسكرية التى انضمت لجيوش نابليون المتوجهة لغزو روسيا القيصرية، فى صيف عام ١٨١٢م، ذهبت إلى هناك وهى تغنى فى مرح؛ فلم يخطر لهم على بال أن الغالبية العظمى منهم لن يكتب لهم العودة أحياء إلى أوطانهم مرة أخرى. والشيء ذاته تكرر، مرة أخرى، مع جيش ألمانيا الإمبراطورى، الذى كاد أن يطوق باريس من كل جهة خلال شهري أغسطس وسبتمبر من عام ١٩١٤م؛ ولم يخطر لهم على بال ما حدث من هزيمة فى "ڤردان". وبالمثل، اجتاحت الجيوش الألمانية التابعة لهتلر أراضى الإتحاد السوڤيتى فى يونيو من عام ١٩٤١م، وهم يظنون أنه من الممكن لهم الوصول إلى "الكريملين" قبل نهاية شهر أغسطس؛ ولم يخطر لهم على بال أنهم سيخسرون هذه المعركة، بل والحرب بأكملها.

خلال كل حالة من الحالات السابقة، كان "الطموح الزائد عن الحد"، هو ما أعمى القائد، وجعله غير قادر على رؤية الإمكانيات الحقيقية للعدو. كذلك، فهو لم يتوقف ليفكر عن الكيفية التى سيتمكن بها من إمداد قواته بما تحتاج إليه من مؤن وعتاد.

وفى هذا الخصوص، فإنه فى كل مرة تطول فيها خطوط الإمداد، تزداد مقاومة العدو، ويبدأ الجيش فى خسارة عدد من أفراده بسبب حرب الاستنزاف التى يواجهها بسبب وجوده فى أرض محتلة، لم تعتاد قواته على طبيعة تضاريسها، ومناخها الذى يختلف ويتباين بشدة من الصيف إلى الشتاء، فى مناطق تتسم بأن كل ما فيها معادى له، ويناوئ أهدافه.

وهذا هو ما حدث بالفعل مع "زيركسز"، فإن القوات التى عبرت المضيق من أسيا الصغرى إلى أوربا خلال شهر أبريل مع بداية الصيف، لم تتخيل الظروف التى يمكن أن تتعرض لها مع

حلول شهر سبتمبر، وبداية الشتاء. لقد كان من المحتم على أحد الطرفين أن يعانى من خسائر فادحة تهز مجتمعه من أساسه، وتؤثر عليه لعدة عقود من الزمان؛ خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار حجم القوات المتقاتلة، والتحديات "اللوجيستية Logistical" التى كان على كل طرف أن يواجهها. وعلى سبيل المثال، فإن "زيركسز" قام بنقل عشرات الألوف من البحارة وقوات المشاة لمسافة تزيد عن ٥٠٠ ميل من عاصمة إمبراطوريته الغربية، "ساريس Sardis"، وحتى وصل بهم إلى الأجزاء الجنوبية من أوربا. وهو قد تمكن من فعل هذا من خلال إقامة جسر عائم هائل الحجم، قام ببنائه عند "أبيدوس Abydos". ومعنى هذا، أنه كان يراهن –ولو جزئياً– على قدرته إمداد هذه القوات الهائلة بما تحتاج إليه من مؤن من الأرض التى يغزوها أو الحلفاء الذين ينضمون إليه. لقد كان "زيركسز" مصمماً على استيعاب الشعوب اليونانية وامتصاصهم داخل إمبراطوريته الفارسية ... حتى تصبح جزء لا يتجزأ منها.

ومن الناحية الأخرى، فإن كل ما تبقى من مجمل الجيوش اليونانية، القادرة على مناوئة الغزاة وقتالهم بفاعلية، هو ٣٧٠ سفينة تم تجميعها من حوالى ٢٠ "مدينة–دولة"، وهو ما يجعلها أقل من نصف حجم أسطول "زيركسز" الرابض على مبعدة أميال قليلة منهم، فى خليج "فاليرون Phaleron". فى اجتماع لقيادات الجيش اليونانى، كان معظم الأدميرالات يشعرون بالذهول والاضطراب، وقد خيم عليهم شبح فكرة أن العدو قادر على محاصرتهم فى الموانئ الصغيرة الموجودة بجزيرة "سالاميز" ... حيث تتركز غالبية قوتهم. وهو ما جعل فكرة الانسحاب تسيطر على الغالبية العظمى من هؤلاء القواد، وقرروا الانسحاب ٥٠ ميلاً فى اتجاه الجنوب حتى ينضموا، بهذا، إلى أخر معاقل المقاومة اليونانية على الأرض فى برزخ "كورينث". وبالفعل، كان هناك ما يزيد عن ١٠,٠٠٠ من أهالى "بيلوبونيزا" الذين يعملون بأقصى ما لديهم من طاقة، لبناء جسر عبر البرزخ، بينما كان القادة، فى "سالاميز"، مازالوا

مختلفين في شأن ما يجب القيام به. وفى هذا الخصوص، يخبرنا المؤرخ هيرودوت، والذى كان فى الرابعة أو الخامسة من عمره عندما حدث الغزو الفارسى من قبل "زيركسز"، أن العديد من حلفاء اليونان كانوا قد قرروا بالفعل الانسحاب من المعركة المتوقعة ... وعدم المشاركة فيها. وعلى أقل تقدير، فإن فرنسا فى عام ١٩٤٠م، والكويت فى عام ١٩٩٠م، قد تمكنا من هزيمة "العدو" داخل حدود المدن التى تم احتلالها. لكن فى حالتنا هذه، كانت أثينا قد احتلت بواسطة الأعداء وتم إفراغها من كل سكانها. هذا بخلاف المهزوم من المدن اليونانية الأخرى. فإن كل "مدينة–دولة" منها سمحت لنفسها بأن تُستوعب داخل نظام المنتصر، وتُمتص فى الشخصية الفارسية ... وخضعت، بالفعل، لحكم أحد الولاة الفُرس. أما أهالى أثينا الذين ذهبوا للقتال فى "سالاميز"، فلم يكن أمامهم إلا النصر أو الفناء.

فى الاجتماع الأخير للچنرالات المتحالفين، قبل المعركة، تمت مناقشة الدفاع الجماعى لما تبقى من الأراضى اليونانية. وخلال هذا الاجتماع، تبجح أحد الْمُفوضين، وأعلن بعلو صوته أن آراء أدميرال "ثميستوكليز" لا تتمتع بأى شرعية. من وجهة نظر هذا المبعوث اليونانى، فإنه لم يعد هناك مدينة لكى يمثلها الأدميرال الأثيني. وخلال الحرب العالمية الثانية، واجه الچنرال "تشارلز دى جول Charles de Gaulle" نفس التهمة، هو وقواته المتمركزة فى لندن.

لقد كان ممثلى الحلفاء اليونانيون من أهالى "بيلوبونيزا"، وغيرها من الجزر المتحالفة، يرون أنه لا يوجد أى داعى للقتال دفاعا عن مدينة هجرها أهلها! حتى أن القائد العام لأساطيل القوات اليونانية المتحالفة، الإسبرطي "يوري بيداس Eurybiades"، عبر عن استياءه فى غضب، مهددا بأن يضرب "ثميستوكليز" الذى لا يمثل أى مدينة ... ويلحق به الأذى بدنياً؛ ومن المفترض أن رد "ثميستوكليز" عليه كان:

"اضربني .. لكن أصغ لما أقول".

وحيث أن عدد السفن الواقعة تحت الأمر المباشر لـ"يوري بيداس" كان أقل بكثير؛ فإنه أصغى لأقوال "ثميستوكليز". كذلك، فإنه كان على علم بأن چنرالات أثينا الذين قادوا القوات البرية للنصر فى "مارثون"، منذ عقد من الزمان، من أمثال: "ميلتيادس Miltiades" و"كاليماكوس Callimachus" و"أريستيدس Aristides"، إما ماتوا أو نفوا أو ليس لديهم الخبرة الكافية لقيادة معركة بحرية بهذا الحجم. ويمكن قول الشيء ذاته عن "يوري بيداس". إن معارضه المتشائم، "يوري بيداس"، كان يعلم هو الآخر أن المحاولات الثلاثة التى بذلت مؤخراً لوقف تقدم الفُرس فى الشمال قد فشلت جميعها. ولم يكن هناك ما يشير، حتى الآن، إلى أن معركتهم القادمة فى "سالاميز" ستكون أوفر حظاً.

وحتى نعدل فى الحكم على موقف القائد الإسبرطي "يوري بيداس"، والذى اتسمت ردود أفعاله بالتردد والرغبة فى عدم المضى قدماً والمقاتلة إلى جانب "ثميستوكليز"؛ فإنه علينا تذكر أن الملك "ليونيداس Leonidas" قد تعرض للقتل منذ أيام قليلة. وأنه من بين كل المدن اليونانية الكبرى ("المدن-الدول")، والتى يقارب عددها ألف مدينة-دولة تقريباً، لم يعد متبقى منها إلا ٢٢ فقط لا غير ... أما البقية فإنها فقدت حريتها التى كانت تتمتع بها منذ شهور معدودة. كذلك فإن الأسطول اليونانى كان يعتمد، بدرجة كبيرة، على عدد السفن التى تساهم بها ثلاث قوى محورية، "إچينا Aegina" و"كورينث Corinth" و"أثينا Athens"، والتى كانت سفنهم تشكل ما يزيد عن ٥٠ ٪ من مجموع سفن الأسطول اليونانى. لكل هذا، بدا لهؤلاء القواد أنه من الحكمة اللجوء إلى التراجع: حتى يصلوا إلى برزخ "كورينث"؛ وأنه لا داعى لخسارة بعض سفنهم ثلاثية المجاديف فى الدفاع عن مدينة مهجورة.

ومما زاد الأمور سوءاً بالنسبة لقوات التحالف، الخلافات الداخلية بينهم. وعلى سبيل المثال، هناك التنافس التاريخى بين القوى البحرية لكل من "كورينث" و"أچينا". قد يكون أهل اليونان متحدين من خلال اللغة والدين والحضارة المشتركة، وقد يكون الفُرس مقسمين

بسبب اختلاف اللغات والأعراق الموجودة بينهم. لكن حكم الملك "زيركسز"، أجبرهم جميعاً على الخضوع لإرادة واحدة عليا، وكان كل فريق منهم يتفهم تماماً ثمن التمرد على هذه الإرادة أو معارضتها. ومن الناحية الأخرى، كان كل جنرال من جنرالات اليونان يمثل كياناً سياسياً مستقلاً، ولا يتعرض لأى عقوبة إذا ما قرر الانفصال عن التحالف والعودة من حيث أتى. وحتى فى مثل هذه الأوقات العصيبة، فإنه بدا وكأن كل واحد منهم يكره أخيه بنفس القدر الذى يكرهون به جميعاً الملك الفارسي؛ والذى تمكن من إخضاع الآلاف من السكان اليونانيين فى الجزر "الأيونية Ionian" لإرادته العليا. ومما لا شك فيه، أن "زيركسز" قد أظهر عبقرية فريدة، وقدرة عظيمة على التخطيط، عندما تمكن من إحضار مثل هذا العدد الهائل من الجنود، وسحق بهم المقاومة اليونانية فى "تيمب Tempe"، و"ثرموبيلا Thermopylae"، و"أرتيميسيوم Artemisium"؛ ثم بدأ ينتزع المدن اليونانية الرئيسية –الواحدة تلو الأخرى– ويحولها إلى جانبه .. حتى كاد أن يقضى عليها جميعاً. كذلك، فإنه حتى وصول "زيركسز" إلى "سالاميز"، كان هذا القائد الفارسى قد نجح فى تحقيق أكثر الغزوات العسكرية نجاحاً فى التاريخ.

وفى الوقت الحالى، فإن خلاص أثينا وأهلها كان يقع على عاتق شخص واحد ... فقط لا غير. شخص يكرهه كثيرين، وعادة ما اعتبروه مجرد هجين (ليس يونانياً صميماً)، فظ من العامة الأجلاف، وهو قد فشل من قبل –مرتين– فى محاولاته لوقف تقدم زيركسز؛ مرة عند "تيمب" ومرة أخرى عند "أرتيميسيوم". والآن، فإن قدرة "ثميستوكليز" على الجدل والحوار، ومدى نجاحه فى إقناع هذه المجموعة من الجنرالات، هو الذى سيحدد مصير مئات الألوف من أهل اليونان خلال الأيام القليلة القادمة. وبالفعل، كان "ثميستوكليز" قد أمضى الأيام القليلة السابقة وهو يجوب شواطئ "سالاميز" فى محاولة لحشد أهل أثينا وراءه، وظل يؤكد لـــ"يوري بيداس"، وغيرهم من أهل اليونان المحبطين، بضرورة القتال ومواجهة جيش فارس

عند "سالاميز" ... إذا كانوا يرغبون فى إنقاذ "الحضارة الهيلينية Hellenic civilization"؛ مؤكداً لهم أنه على يقين من قدرته على تحقيق النصر.

كانت وجهة نظر "ثميستوكليز" هى أن أهل اليونان قادرين على ما هو أكثر من مجرد طرد الأسطول الفارسى، ورده على أعقابه، واستعادة الأراضى اليونانية التى تمكن من احتلالها. فإذا تمكنوا من هزيمة الأسطول الفارسى، قد يكون بإمكانهم محاصرة قواته البرية، ونقل الحرب إلى الشواطئ الفارسية ... بعيداً عن أراضى اليونان. لكن تلك النظرة المتفائلة، بالنسبة لأهالى شبه الجزيرة "البيلوبونيزاية" –والذين كانوا على وشـــك هجر قوات التحالف والابتعاد بسفنهم عن سالاميز– لم تكن أكثر من أضغاث أحلام وأمنيات مضعضعة لمعتوه فقد دولته بالفعل، أو لعلها تصرفات نمطية من وغد، وضيع الأصل، لا ينتمى إلى طبقة النبلاء الأرستقراطيين؛ يونانى غير صميم لا يملك إلا صوته الجهورى وشخصيته القوية، لكنه لا يدرك كيفية التعامل مع أسطول للأعداء يزيد حجمه عن ضعف حجم أساطيلهم مجتمعة.

"ثميستوكليز" لم يكن مخطئاً! فإنه الوحيد الذى استطاع تفهم نقطة ضعف العدو. ربما يكون قد فشل فى إنقاذ مدينته من الحرق، لكنه لا يزال على ثقة من قدرته على إنقاذ ما تبقى من بين براثن القوات الفارسية. إن مئات الألوف من جنود "زيركسز" على أرض لم يألفوها، وبعيداً عن وطنهم الحقيقى. ومع اقتراب فصل الشتاء، كانت المسافة بينهم وبين هذا الوطن تزداد بعداً، وهو ما زاد من طول خطوط الإمداد القادمة من أسيا الصغرى وشمال اليونان. وبالإضافة إلى كل هذا، فإنه مع كل تقدم أحرزوه، كان عليهم ترك المزيد من القوات (حامية) للتيقن من استمرار خضوع المناطق المحتلة. وتحدث "نقطة التحول" فى سير الحرب، عندما يكون من الممكن مهاجمة الفُرس بسبب انتشار قواهم إلى حد لا يمكنهم من تجميع عدد كافى منها فى منطقة بعينها؛ وكان من رأى ثميستوكليز أن "نقطة التحول" هذه تقع هنا فى منطقة "سالاميز".

لكن "ثميستوكليز" لم يكن مجرد متحمس غرير؛ فخلال تلك الفترة، كان قد وصل بالفعل إلى سن الحكمة –منتصف الأربعينيات– ولديه خبرة عسـكرية جيدة من قتاله فى "مارثون" (٤٩٠ ق.م.)، كما أنه تمكن من تحقيق انسحاب ناجح، خلال دفاعه الفاشل عن "تيمب" (٤٨٠ ق.م.)، وقاتل أساطيل أكبر منه حجماً خلال انسحابه من "أرتيميسيوم". وخلال ذلك العام، قاد أكبر أسطول فى تاريخ أثينا العسكرى ... حتى ذلك الوقت. وقد اكتسب، خلال العقد الأخير من الزمان، خبرات كافية على القتال ضد الفُرس، تسمح له بأن يكون واثقاً من أن العوامل اللوجستية قد أصبحت، الآن، فى صالح الأساطيل اليونانية.

وكانت تقديراته صائبة. فكل يوم –تقريباً– تصل ما يقرب من مئة سفينة إمداد، حتى تتمكن من مجرد تغذية كل هذه الجحافل الفارسية. ومحصول الصيف من الحبوب، القادم من "أتيكا" وغيرها من المدن اليونانية، قد نفذ بالفعل. كما أن الأسطول الفارسى ليس لديه أى موانئ أمنة، مع اقتراب موسم العواصف فى الخريف. كذلك، عانى الأسطول الفارسى بالفعل من خسائر فادحة بسبب الزوابع التى ضربته فى "أرتيميسيوم". ومع نهاية شهر سبتمبر، يصبح من غير الممكن الاعتماد على استخدام المجاديف فى بحر إيجا. كل هذا، يجعل مخاطر البحر الهائج أكثر خطورة على الفُرس، لأن السفن اليونانية الثلاثية المجاديف مازال لديها موانئ أمنة يمكن اللجوء إليها عند الخطر. وبالإضافة إلى كل ما سبق، فإن الغالبية العظمى من الوحدات التى يتكون منها الأسطول الغازى لم تكن فارسية الأصل. وفى الواقع فإن بعضهم لم يكن يتكلم إلا اليونانية فقط. فعلى الرغم من خضوعهم التام لملك فارس، إلا أنهم كانوا يضمرون له نفس الكراهية التى يضمرونها لأهل اليونان الذين تمكنوا من الاحتفاظ بحريتهم على الأجزاء المستقلة من الأراضى اليونانية. وعلى هذا، فإن الأسطول الفارسى كان يعانى من تنافر عناصره المختلفة التى يتكون منها؛ أكثر من الجيش الإمبراطورى، والذى كان، هو الآخر، ينطق بأكثر من لغة. كذلك، من الواجب ذكر أن الغالبية العظمى من جيش "زيركسز" كانت

تعيش فى خيام المعسكرات لفترة تخطت عدة شهور حتى الآن. وبالرغم من محاولاتهم الظهور بمظهر "الحملة الإمبراطورية Imperial Expedition" المتماسكة، فإن العديد من حلفائهم تنازعوا فيما بينهم عندما ازداد بعدهم عن مواطنهم الأصلية.

أما اليونانيون فإن أرضهم أخذت تتقلص مع ازدياد رغباتهم اليائسة من أجل الدخول فى وحدة حقيقية تتضافر فيها كل قواهم. هنا ظهرت أخلاقيات "الجنرال المنقِذ"، فإن "ثميستوكليز" لم يتأثر بحالة اليأس والقنوط المنتشرة من حوله؛ بل على العكس من هذا، كان واثقاً كل الثقة، من أن لديهم فرصة جيدة لتحقيق نصراً مؤزراً فى "سالاميز". لكن مقتل أحد ملوك إســـبرطة (الملك الإسبرطي "ليونيداس") جعل كثيرين منهم غير قادرين على مشاركته مشاعر التفاؤل والثقة بالنفس. ولعل السبب فى هذا، يكمن –جزئياً– فى أنهم مازال لديهم منازل تأويهم ووطن يعودون إليه.

سرعان ما ثبت أن "ثميستوكليز" كان على حق فى تمسكه بمشاعر الثقة ويقينه من النصر، فإن الأسطول الفارسى كان قد وصل بالفعل لأبعد نقطة يمكنه الوصول إليها –فيما عدا طلعة أغارت على مقربة منهم فى "Megara"– فإن العوامل اللوجستية، والنفسية، والأرقام، قد أصبحت كلها فى غير صالحهم. ومع هذا، فإنه فى الوقت الحالى (نهاية سبتمبر من عام ٤٨٠ ق.م.)، كان أقل القليل منهم قادر على رؤية هذا. وفى هذا الصدد، قال "ثميستوكليز":

من الحقيقى أننا نحن، أهل أثينا، قد استسلمنا وتخلينا عن منازلنا ومدينتنا، لكننا فعلنا هذا حتى لا نصبح عبيداً من أجل أشياء مادية لا حياة فيها ولا روح. لكننا، فى الحقيقة، لم نتخل عن أعظم مدينة فى كل أراضى اليونان – أنا أعنى الـــ ٢٠٠ سفينة الجاهزة للدخول فى حرب من أجل الدفاع عنكم– هذا إذا كنتم لا تزالوا راغبون فى **الخلاص**.

لقد تكلم ثميستوكليز عن "الخلاص"، باعتبار أن انتصارهم المتوقع فى "سالاميز" سيكون نقطة التحول التى تجعل "زيركسز" عاجزاً كل العجز عن إحراز النصر فى هذه الحرب. وفى

هذا الصدد، علينا ملاحظة أن "ثميستوكليز" يطرح، على رفاقه من أهل اليونان، حجة جديدة، تثبت وجهة نظره: فإن الأساس الحقيقى الذى تقوم عليه كل مدينة هو "شــعبها"، وليس الأرض أو المبانى. وعلى هذا، فإن وجود أهل أثينا الأحرار بسفنهم المستعدة للقتال يعتبر فى حد ذاته "مدينة–دولة" لا تقل، بأى حال من الأحوال، عن أي من دولهم الحرة المستقلة.

لكن الحجج التى قدمها "ثميستوكليز" لم تكن هى وحدها القادرة على إقناع الجنرالات المترددين، لأنه حصل على مساعدة من رجل دولة محافظ له مكانته مثل "أريستيدز Aristides"، والذى نصح –هو الآخر– الجميع بمقاتلة الفُرس عند "سالاميز". وشهرة أريستيدز كرجل سياسة رصين ومعتدل، هى التى أكدت لكل من ظل متردداً من بين جنرالات اليونان، أن الأسطول الفارسى على وشك الهجوم، وأنه من الأفضل لهم مهاجمته قبل أن تفوت الفرصة. فإن الوقت يمضى سريعاً، والخيارات الوحيدة المتاحة أمامهم هى: "القتال" أو "الهرب" أو "الاستسلام".

اللحظات الحاسـمة ... مارثون أغسطس ٤٩٠ ق.م.

إن الشيء الذى دفع اليونانيين لنبذ خلافاتهم وترددهم، واتخاذ قرار بمواجهة الفُرس فى سالاميز، هو الجهود الفارسية التى بذلت –طوال عقد من الزمان– لحرمان الشعوب الهيلينية من حريتها؛ والتى يمكن اعتبارها الجهود الخالصة لكلا من "داريوس" وابنه "زيركسز".

من الناحية الظاهرية، فإن أصول الخلاف بين الشرق والغرب، بدأت بسبب محاولة إحدى المدن اليونانية الكبرى المطلة على سواحل أسيا الصغرى للخروج من تحالفها مع باقى المدن اليونانية. ووصل هذا الخلاف لذروته عام ٤٩٩–٤٩٨ ق.م. أى حوالى ٢٠ عاماً سابقة على

غزو زيركسز للأراضى اليونانية. بعد فشل أهل اليونان الآسيويين فى التخلص من الاحتلال الفارسى بقيادة الملك داريوس عام ٤٩٣ ق.م. تزايدت جرأة أهل فارس بسرعة، وبدأوا يفكرون فى تصفية حساباهم القديمة ومعاقبة أهل أثينا. وقد كان هؤلاء قد أرسلوا سفنهم لمعاونة أقارهم من الثوار الأيونيين على الضفة الأخرى من بحر إيجا. وفيما يبدو، فإنهم (أهل أثينا) كانوا يأملون فى تنفيذ "ضربة استباقية" تحد من تعاظم قوة الجيوش الفارسية قبل أن تصبح قادرة على الوصول إليهم، وإلحاق الأذى بهم.

ولعل هذا، هو ما دفع "داريوس" لاتخاذ خطوات جدية للانتقام من أثينا عام ٤٩٠ ق.م. وبالرغم من الفشل المبدئي لحملته الأولى فى شمال اليونان عام ٤٩٢ ق.م. فقد أرسل الملك الفارسى اثنين من جنرالاته ("Datis"، و"Artaphernes") على رأس حملة ثانية تقدر بما يقرب من ٢٥,٠٠٠-٣٠,٠٠٠ جندى وبحار. اتجهت هذه الحملة فى خط مباشر عبر البحر نحو الأراضى اليونانية، وتمكنت بسهولة من هزيمة واحتلال جزيرة ناكسوس، ثم استولوا على مدينة إرتريا ذات الأهمية الاستراتيجية. وفيما بعد، خلال منتصف أغسطس عام ٤٩٠ ق.م.، رسوا بسفنهم على الشواطئ الشرقية من أتيكا ... عند سهول مارثون التى لا تبعد إلا ٢٦ ميلاً عن أثينا.

هناك، فى معركة برية فائقة التنظيم، تمكنت "الكتائب اليونانية phalanx"*، مع حلفائهم من الـ"Plataeans"، من هزيمة "الفُرس" بالرغم من تفوق الأخير من حيث العدد. وقد حدث هذا، لأن قوات الفُرس تقدمت بحماقة إلى داخل السهول المغلقة لمارثون، دون أن

* هى تنظيم لصيق من القوات البرية المسلحة تسليحا ثقيلا (دروع وخيول) والتى تقاتل بصورة لصيقة وعلى مقربة من بعضها البعض فى تشكيلات مركزة؛ بهدف شق صفوف العدو وتفتيت قواته.

(عادل نجيب)

يكون لديهم عدد كاف من الخيالة (سلاح الفُرسان)، وهو ما سهل على قوات أثينا وحلفائها محاصرهم بالرغم من تفوق المهاجمين عليهم بنسبة ٣-١؛ واضطرار قوات أثينا لإضعاف مركزها حتى تتمكن من تطويق واحتواء أعداد أكبر من القوات الفارسية المهاجمة. وبهذه الطريقة، تمكنوا من قتل ما يزيد عن ٦٤٠٠ من الفُرس، فى مقابل خسارة ١٩٢ فقط من مقاتليهم. إن التسليح الثقيل جداً (دروع كاملة وفرسان على خيول مدرعة)، والانضباط العسكرى، وأساليب "التكتيك العمودى Columnar Tactics"[٤] لجنود اليونان الذين كانوا يحاربون على أرضهم، سحق القوات المهاجمة، وتسبب فى فقدالها لهذه الأعداد الهائلة من القتلى والجرحى.

لم تتمكن الغالبية العظمى من اليونانيين –خاصة أهل إسبرطة الذين نأوا بأنفسهم ووصلوا متأخرين– من فهم الكيفية التى تمكنت بها قوة صغيرة بهذا الحجم من هزيمة قوة ثلاثة أمثالها فى الحجم. إن حاملي الرماح من أهل أثينا هم الذين ضمنوا النصر البرى (على الأرض)، ثم تحولوا مباشرة لمواجهة البحارة ومنعوهم من النزول إلى الشواطئ. أما إسبرطة، والتى تعتبر القوة البرية البارزة بين اليونانيين، فإنها لم تكن موجودة فى أى مكان.

وفى هذا الصدد، فإن "ثميستوكليز" قد حارب بنفسه فى مارثون. وقبل هذا بثلاثة أعوام (عام ٤٩٣ ق.م.)، تم انتخابه كرئيس قضاة أو "أرخون Archon" وهو ما سمح له بتبنى موقف بارز فى رسم السياسات الخارجية لأثينا. لكن الفضل الحقيقى، فى إحراز هذا النصر، يعود إلى "ميلتيدز Miltiades"، القائد العام لقوات اليونان البرية فى يوم المعركة.

فقبل ذهابهم إلى المعركة فى ذلك اليوم، كان "ميلتيدز" هو الذى صمم وخطط للاستراتيجية التى تمكنت من تحقيق النصر. وهو قد فعل هذا، عن طريق إضعاف مركز القوات اليونانية حتى تستطيع استيعاب جناحى القوات الفارسية المهاجمة وإحاطتها ... محققاً بذلك حلم عسير

التحقيق فى أى خطة عسكرية: عندما تتمكن قوة صغيرة من حصار قوة أكبر منها والقضاء عليها. وقد تم تخليد هذا النصر –فيما بعد– من خلال العديد من الرسوم واللوحات المنحوتة فى النهاية الشمالية من بهو الأعمدة لـــ"مكان التجمع Agora"* فى أثينا. وقد سجل كاتب الدراما "Aeschylus" مشاركته فى هذه المعركة من خلال كلمات منقوشة على شاهد قبره.

وسرعان ما نشأت أسطورة وطنية تمجد هذا النصر، وتَدَعي أنه قد تم سحق الجيش الفارسى بأكمله فى معركة واحدة، انتصر فيها رجال يرتدون دروع من البرونز. لقد كان أهل أثينا مصممون على تخليد ذكرى هذه المعركة إلى الأبد، وعدم السماح لها بالضياع فى زوايا النسيان. لكل جندى تعرض للقتل من قوات أثينا وحليفتها ("Plataeans") تم قتل ٣٣ من جنود فارس. وقد تم تخليد هذا النصر البرى –وما تلاه من السباق الشهير لمسافة ٢٦ ميل للعودة إلى أثينا قبل الفُرس– على أنه دليل لا يدحض على نبل "الجندى المدرع Hoplite" العامل بالزراعة؛ ونموذجاً للطريقة السليمة الواجب إتباعها فى الدفاع عن "المدينة–الدولة". إنهم فى غير حاجة إلى سفن وقلاع ذات أسوار، حتى يتمكنوا من إنقاذ أثينا؛ كل ما كانوا فى حاجة إليه هو "الشجاعة". ولأنهم تمكنوا من تحقيق هذا النصر المؤزر بدون أى مساعدة من قوات إسبرطة البرية، جعل هذا النصر أكثر عظمة وخلوداً. وفيما بعد، بعد مرور ٦٠ عاماً، نجد الشاعر الهزلى الساخر "Aristophanes" يكتب بشوق وحنين عن أبطال معركة مارثون

---

* هى "منطقة تَجَمُع" داخل كل مدينة من المدن اليونانية الكبرى، خلال العهد الإغريقي، حيث كان يتم عقد ممارسات جماعية لعديد من النشاطات الرياضية والفنية والروحية والسياسية والاقتصادية الهامة. وفى أثينا، يعتبر "مكان التجمع" هذا هو مهد الديمقراطية اليونانية. ويترجمها البعض –ترجمة غير دقيقة– على أنها "سوق". (عادل نجيب)

الذين تمكنوا بشجاعتهم من أن يخلدوا أفعالهم إلى الأبد. وباختصار، فإن "مارثون" أصبحت تعتبر تلخيصاً لكل القيم التقليدية الأصيلة. واعتقد كثيرون، وقتها، أنها قد وضعت علامة النهاية للخطر الفارسي.

لكن، على الرغم من حماسة الأثينيين، فإن النصر الذى أحرزوه فى "مارثون"، لم يكن نصراً حاسماً أو نهائياً مثلما بدا لهم وقتها. وفيما يبدوا، فإن "ثميستوكليز" -وحده- هو الذى خرج بدروس مختلفة من هذا النصر العظيم. وهى دروس ستثبت أهميتها الحيوية خلال السنوات القليلة التالية. فبينما كان الكثير من أهل أثينا يحتفلون بشجاعة محاربى مارثون، شعر "ثميستوكليز" بأن هذا النصر كان "ضربة حظ" من نوع ما، وتوفيقاً غير عادى لمجموعة من الظروف التى يصعب تخيل تكرارها مرة أخرى. من وجهة نظره، لم تكن هناك أى استراتيجية عظمى تم إتباعها لتحقيق هذا النصر البرى. فمن غير الممكن أن يكون "الجندى المدرع" هو الطريقة التى يجب إتباعها فى المستقبل لتحقيق نجاح عسكرى ضد أعداد ضخمة من القوات البرية المحمولة بحراً؟!

لقد بدت معركة "مارثون"، بالنسبة لـ"ثميستوكليز"، وكأنها مجرد البداية لصراع أكبر وأكثر عظمة. وفى تاريخنا الحديث حادث مماثل، عندما أطلقوا اسم "الحرب العظمى The Great War" التى ستكون النهاية لكل الحروب، على حرب (١٩١٤-١٩١٨م)، ليتضح لهم فيما بعد، أنها ليست إلا "الحرب العالمية الأولى"، بمجرد أن غزت القوات الألمانية المتنامية بولندا فى عام ١٩٣٩م؛ مشعلة بهذا نار "الحرب العالمية الثانية". وبالمثل، فإن "مارثون" لم تكن إلا مجرد هجمة استكشافية؛ خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار الحجم الحقيقى لموارد الإمبراطورية الفارسية، التى لم تستخدم بعد فى مهاجمة اليونان ... والتى لم تتضرر -بالطبع- من هذه الهزيمة المخزية. إن خسارة الجيش الفارسى لـ ٦٤٠٠ جندى من قواته لم تكن تعنى إلا القليل بالنسبة لإمبراطورية مكونة من ملايين عديدة. وقد حاول "ثميستوكليز"، مباشرة

بعد المعركة، أن يحذرهم من هذه الحقيقة؛ وأن التقنيات المستخدمة فى مارثون لا يمكن استخدامها -مرة أخرى- فى مواجهة الأحداث التالية. لكنه لم يكن هناك من بين أهل أثينا من يرغب فى سماع مثل هذه التحذيرات المشئومة. وهذا يكافئ محاولات أحدهم تحذير القيادة الأمريكية فى يناير عام ١٩٩١م بأن نصرهم المؤزر على "صدام حسين" فى معركة الأيام الأربعة الشهيرة، ليس إلا مجرد البداية لتناحر أكبر حجماً مع هذا "القائد" العنيد، والذى استمر وجوده لاثنى عشر سنة أخرى، حتى تمكنت حملة أمريكية استعمارية جديدة على الخليج العربى (فى عام ٢٠٠٣م) من إقصائه عن الحكم.

فى هذا الخصوص، فإن "ثميستوكليز" تمكن من فهم حقيقة السبب الكامن وراء وصول هذا العدد الضخم من القوات الفارسية إلى "أتيكا" عام ٤٩٠ ق.م. فى البداية، قاموا بسحق القوات الموجودة فى "Naxos" و"Euboea" وبدون أى تدخل، تقريباً، من جانب رفقائهما من أهالى المدن اليونانية الأخرى. ربما كان ما فعلوه من أخطاء فى مارثون مجرد حماقة ارتكبها قائد لا يتمتع بقدر كاف من الحكمة، ولا يمكن لنا توقع حدوثها مرة أخرى. وفى هذه المرة، كان على أثينا وما تبقى لديها من حلفاء، أن ينتظروا ما تقوم به فارس تحت قيادة جنرالها الشهير "داتيس Datis" قبل أن يتخيروا "رد الفعل المناسب" ... فلا توجد استراتيجية فائقة يمكن تطبيقها على كل الأوضاع، وفى كل مكان وزمان. وفى هذا الصدد، علينا تذكر أن القوات الفارسية، رغم هزيمتها الساحقة فى مارثون، قد تمكنت من الرحيل بما يزيد عن ثلثي قواها (ما يزيد عن ١٣٠٠٠ جندى) دون أن يلحق بها أى ضرر. وهو ما يعنى أنه كان بإمكانهم معاودة الكر، مرة أخرى، على قوات العدو لأنهم ما زالوا يتمتعون بتفوق عددى كبير عليه. من كل هذا، تمكن "ثميستوكليز" من استنتاج أن القوات المنقولة بحراً، قد مكنت فارس من الوصول إلى النقطة المحددة للهجوم فى أى زمان ومكان. ومن الناحية الأخرى، فإن أثينا فى عام ٤٩٠ ق.م. لم تكن قادرة بعد على نقل القوات بحراً إلا بكميات محدودة -نظراً لصغر حجم

أسطولها– مقارنة بخصمها الفارسي. لقد كنا فى حاجة إلى عقلية حادة تستطيع التفكير بطريقة عكسية. عقلية تستطيع تحمل السخرية والاستهزاء، حتى تستطيع إثبات صحة وجهة نظرها – مثل عقلية "ثميستوكليز"– فى أن هناك "نقطة ضعف" خطيرة فى النصر البرى الذى أحرزوه فى مارثون.

وفى المستقبل، تأكدت صحة وجهة النظر السابقة. لأنه إذا كان على جيوش أثينا أن تتنقل بمحاذاة السواحل –صعوداً وهبوطاً– فى كل مرة هددت فيها الأساطيل الفارسية سواحل "أتيكا"، فكيف يمكن إذن حماية المدينة بدون أسوار وحصون؟ هذا، وقد رأى "ثميستوكليز" أسباب أخرى إضافية تستدعى وجود قوة بحرية مكافئة فى الحجم لقوات العدو. فإن الديمقراطية الوليدة فى أثينا، كان قد مضى عليها ١٧ عاماً فقط. ولم تكن قد تطورت –بما فيه الكفاية– لما هو أكثر من مجرد مدينة زراعية تقليدية تعتمد فى جذورها على أقلية من "الجنود المدرعين" الذين لا زالوا يعملون بالزراعة فى الأراضى التى يملكونها. أما الغالبية العظمى من مواطنى أثينا، فإنهم ظلوا على ما هم عليه من فقر ومرض وجهل ... على الرغم من العبارة الراديكالية المتطرفة الشهيرة: "القوة للشعب **Power to the People**". وربما كان نصف الشعب من الملاك، بطريقة أو بأخرى (عبيد أو منزل أو بهائم أو أراضى). وبعض الأشخاص على قمة الأرستقراطية مثل: "**Aristides**" و"**Miltiades**" تمكنوا من الوصول إلى السلطة، وأصبحوا قادة مدن، حيث أن مفهوم "الفرصة السياسية **Political Opportunity**" لم يكن قد أدى بعد إلى حالة من المساواة واسعة النطاق.

أما بالنسبة لعقلية "ثميستوكليز" الراديكالية، فإن المثاليات المتعلقة بـــ"سياسات المساواة" ما كانت لتؤتى ثمارها، لو أن دفاعات المدينة، وهيبتها، اعتمدت –اعتماداً كلياً– على هذه الأقلية الصغيرة من أصحاب الممتلكات. فهل هناك أى طريقة تُمكن أثينا من الاستمرار فى البقاء على قيد الحياة إذا ما تم اجتياح أراضيها الزراعية؟ ولماذا يجب أن يعتمد أمن البلاد،

اعتماداً كلياً، على أولئك الجنود الذين يستطيعون دفع ثمن الدروع التى يلبسونها هم وخيولهم؟ وأخيراً، كيف يمكن لمدنهم الضخمة أن تظل آمنة ضد جحافل الفُرس عندما يظل الآلاف من أهل المدينة محرومين من الانضمام للقوات المدافعة عنها لمجرد أنهم ليســـوا من ضمن فئة أصحاب الممتلكات؟

فى العالم القديم، كان من يحارب دفاعاً عن "المدينة–الدولة" هو الذى يحكمها ويخطط لسياساتها. وبمعنى آخر، فإن الاستراتيجيات العسكرية المتبعة كانت تعبر عن الواقع الطبقى للمجتمع الذى يطبقها. فإن الحروب، بالنسبة لشخص راديكالى متفتح مثل "ثميستوكليز" كانت تعبر عن السياسات الداخلية، مثلما تعبر عن شئون الأمن الوطنى. وبالتالى، فإن استخدام الأموال العامة (أموال دافعى الضرائب وغيرها من مصادر دخل الدولة) لدفع أجور الآلاف من الفقراء حتى يعملوا فى الأسطول الوطنى أو لبناء التحصينات حول المدينة، كان سيقوى من أواصر الديمقراطية الجديدة، ويزيد من هيبتها. كذلك، فإن حصول الفقراء على بعض الأموال .. كأجور، سيرفع من مستواهم، ويشعرهم بأنهم شركاء فى الدفاع عن المدينة، فى نفس الوقت الذى تزداد فيه أعداد المواطنين المؤيدة لشعبية القواد ... من أمثال "ثميستوكليز".

كان لدى ثميستوكليز نقطة أخرى يضيفها إلى مجموعة الأسباب الداعية إلى تشكيل قوة بحرية تضارع الأسطول الفارسى، تستطيع التنافس معه. فإن الهدف من الحملة الفارسية كان مجرد معاقبة أهل اليونان. وكان اهتمامهم الأكبر مركزاً على "Euboea" و"Attica" أكثر منه على باقى اليونان. لكن هذا لا يعنى أنه من الممكن الاعتماد فى المستقبل على نوايا العدو. وفى هذا الصدد، علينا تذكر أن "إمبراطورية داريوس Darius' Empire" (والد "زيركسز") التى بلغ تعدادها ما يزيد على ٢٠ مليون نسمة، والتى امتدت من سواحل بحر إيجا غرباً، وحتى حدود شبه القارة الهندية شرقاً، كانت تملك من الموارد والوسائل ما هو أكثر بكثير من

الضرورى لمعاقبة أثينا. ولهذا، فإنه كان من رأى "ثميستوكليز" أن أثينا فى حاجة لأن تسارع بإعادة استكشاف ذاتها ... إذا كانت تريد المحافظة على أمنها؛ خاصة فى ظل التهديدات وشيكة الحدوث والأخطار التى تحيط بها.

وخلاصة الأمر، أن أثينا فى حاجة إلى أسطول ضخم. والأسطول، بدوره، فى حاجة إلى مرفأ آمن (ميناء حصين). ومثل هذا الاستثمار الضخم، يعكس وجود استراتيچية دفاعية جديدة أكثر تواؤماً مع طبيعة العدو، ومتوافقة مع الحضارة الديموقراطية الناشئة فى أثينا.

لكن تطبيق مثل هذه الأفكار الراديكالية يتطلب مهارات سياسية نادرة من الرجل الذى يعرضها على رفقائه، فقد كان على "ثميستوكليز" تحذير مواطنيه المنتشين بـ"نصر مارثون" من أن الاستراتيچية التى بدت رائعة وعظيمة ومن المستحيل الشك فيها، ستصبح استراتيچية انتحارية لو أنهم حاولوا تنفيذها مرة أخرى. وفى هذا الخصوص، يمكننا رؤية التشابه فى النقلة الفكرية التى حدثت لـ"ثميستوكليز" بين "مارثون Marathon"، و"ثرموبيلا Thermopylae"؛ ومقارنتها بالنقلة الفكرية التى حدثت لـ"وينستون تشرشل" بين الحربين العالميتين. إن كلا منهما كان ملهماً، وصاحب رؤية ثاقبة؛ ومع هذا اعتبره كثيرون مجرد متشائم يدعى بوجود أخطار غير واقعية. أما الحقيقة، فهى أن كلا منهما لم ينخدع بالنصر العظيم الذى تم تحقيقه منذ سنوات قليلة؛ ولم يقع فى خطأ اعتباره "رادع مستمر" وطويل الأمد ضد عدو دائم. بل تفهم، على الفور، أنها مجرد نكسة مؤقتة ... نكسة صغيرة لن تمنع هذا العدو من الوقوف على قدميه مرة أخرى. ومن كل هذا، يمكننا رؤية إن الشخص الذى يستطيع الاستقلال برأيه فى مثل هذه الظروف –مثل ثميستوكليز وتشرشل– يعلم أن المهزوم قد أصبح يمتلك أصولاً وموارد أكبر من المنتصر، ويتفهم السبب فى هذا.

ففى الصراعات الممتدة، والتى تستمر فى سلسلة طويلة ومتعاقبة الحلقات لسنوات عديدة؛ يكون من الممكن لمن حقق النصر المبدئى، أن يكتفى من الغنيمة بالإياب، ويرضى بالمزايا والمنافع

التى أمكن له اكتنازها حتى الآن؛ ويكون من الممكن لمن عانى الهزيمة، أن يزداد جرأة، عندما لا يصبح لديه ما يخسره. ويصبح الوصول لأى مكاسب، من الأمور المستحقة لخوض المخاطر ... مهما بلغت.

والغريب فى الأمر، إن هذه الحقيقة المنطقية البسيطة، كثيراً ما كانت تغيب عن بال أكثر القواد حنكة وحصافة.

بعد معركة مارثون، أصبحت كل الشخصيات الأساسية التى قد تنتقد وجهة نظر ثميستوكليز الجديدة وتنتقص منها، معرضة للغرامة، أو النبذ أو لأن تصبح محل شك من عامة الشـــعب فى أثينا ... شخصيات مثل: "Megacles" و"Miltiades" و"Xanthippus" و"Aristides". قبل وصول الفُرس إلى سالاميز بثلاثة أعوام بتلك الطريقة غير المتوقعة تماماً، وبالتحديد عام ٤٨٣ ق.م.، وصل هذا الخلاف إلى قمته. ثم فجأة، هبطت عليهم ثروة من السماء، فقد تم اكتشاف عرق من الفضة بالمناجم التى تملكها الحكومة فى "لاوريوم Laurium" ... الواقعة فى الجزء الجنوبى من أتيكا. هذه الثروة المفاجئة سمحت لأهل أثينا بمرونة كبيرة لتحقيق ما يريدون. وقد استغلها ثميستوكليز فى تحويل خططه الاستراتيجية إلى حقيقة تنفذ من خلال السياسات الرسمية للمدينة.

لقد رفض ثميستوكليز توزيع هذه الثروة بالعدل على كل أهل أثينا. فكما هو متوقع فى مثل هذه الأحوال (إذا ما وزعت هذه الثروة بالعدل على أهل أثينا، فإن كل فرد كان سيحصل على ما يوازى أجر عشرة أيام). وبدلاً من هذا، تمكن من إقناع مجلس المدينة باستخدام هذه الثروة الهائلة فى بناء عدد كاف من السفن يجعل مجمل الأسطول الأثينى يبلغ ٢٠٠ سفينة ثلاثية المجاديف.

وفى هذا الصدد، فإننا لا نعلم الكيفية التى تمكن بها ثميستوكليز من إقناع زملائه فى المجلس بالتخلى عن الاستمتاع بهذه الثروة فى الحاضر، من أجل درء الأخطار التى قد يتعرض لها مجتمعهم فى المستقبل. لكن حلم ثميستوكليز تحقق، وصدر قانون يجعل من بناء هذا الأسطول، سياسة رسمية لمدينة أثينا. وفى الواقع، فإن هذا القانون يعتبر "نقطة تحول" فى تاريخ أثينا؛ مشابه للقانون الذى صدر فى أمريكا* عام ١٩٤٠م، والذى تم تمريره بصعوبة من مجلس النواب فى أغسطس من نفس العام، وبفارق صوت واحد فقط ... عشية نشوب الحرب العالمية الثانية.

كانت السفن ثلاثية المجاديف، تعتبر من المراكب الحربية الحديثة فى ذلك الوقت، وشاع استخدامها بكثرة فى بحر إيجا. وقد ساعد على انتشارها ما اتسمت به من سرعة غير معهودة لدى غيرها من السفن الحربية، وقدرتها على الاصطدام بسفن العدو واقتحامها. لكنه كان يعيبها أنها تتطلب الكثير من التدريب على الإبحار بها، لعدم قدرتها على مواجهة الأمواج الهائجة والرياح العاتية. لأول وهلة، قد تبدو أساطيل جزيرة "إچينا Aegina" القريبة وكأنها تمثل التهديد الحقيقى الذى يجب على أثينا التفكير فيه ومواجهته. فلماذا انشغلوا دائماً بمواجهة الفُرس ... حتى قبل أن يقع ذلك الهجوم الكارثى المتوقع؟

مما لا شك فيه، أن ثميستوكليز كان دائماً يتوقع أن يتم استخدام الأسطول الجديد، وما يحمله من مجندين، ضد غزو فارسى هائل سيهجم عليهم فى موجة ثانية عاتية ... لا تبقى ولا تَذَرُ. لكن خلافات أثينا مع جزيرة "إچينا"، والثروة الهائلة التى هبطت عليهم من منجم

---

*هذا القانون هو: "Selective Training and Service Act"، وقد عرف أيضاً باسم: "Burke-Wadsworth Act". وهو الذى سمح للسلطات الأمريكية بتطبيق "التجنيد الإجبارى Conscription" على كل من يحمل الجنسية الأمريكية؛ ممهداً بهذا الطريق لحدوث طفرة هائلة فى عدد الجنود مكنت الحكومة الأمريكية – فيما بعد – من دخول الحرب العالمية الثانية بسهولة. (عادل نجيب)

الفضة، منحته ما يكفى من الذرائع والتمويل حتى يتمكن من إعداد ما يحتاج إليه لمواجهة ما كان يخشاه حقيقة ... التهديد الفارسى. وبنهاية صيف عام ٤٨٠ ق.م. كان أهل أثينا قد انتهوا من بناء ما يقرب من ١٧٠ سفينة ثلاثية المجاديف. وسرعان ما تم تدريب ما يزيد عن ٣٠,٠٠٠ بحار على حماية المدينة من كل ما يمكن أن يهددها.

وفيما بعد، خلال الحرب الأهلية الأمريكية، قام "وليم ت. شيرمان William T. Sherman" بابتكار طريقة جديدة فى الحرب الشمولية، تمكن بواسطتها من تدمير البنية التحتية المدنية لطبقة سكان الجنوب الذين يمتلكون العبيد. هذا وقد أشار "Matthew Ridgway"، إلى أننا –فى عصر الردع النووى– قد نضطر لاستخدام أساليب الحرب التقليدية أكثر مما سبق. وبالمثل، فإن "David Petraeus"، كان مقتنعاً بأن استخدام القوة الأمريكية الغاشمة مازال من الممكن أن يؤدى إلى أفضل النتائج خلال الهجمات المضادة التى يتم شنها على المقاومة العراقية. وعلى أية حال، فلقد مكنت هذه "الفضة" ثميستوكليز من أن يحدث تغييرات جذرية فى الأساليب العسكرية التى اتبعها أهل أثينا؛ وغير بهذا أسلوب الحرب عند جميع شعوب اليونان القديمة.

خلال كل فترات التاريخ، يمكننا العثور على كثير من الجنرالات العظام الذين تمكنوا من تحقيق النصر بطرق غير متوقعة. لكنه من النادر العثور على "قائد" قام ببناء القوات العسكرية "من لا شيء Ex Nihilo" بعد أن رسم استراتيجية وطنية للدفاع عن بلاده، وأخيراً قام برسم ملامح الخطة التكتيكية التى يكون بإمكانها تحقيق النصر. وقد قام ثميستوكليز بالخطوات الثلاثة جميعها، وأكثر ... مما يجعله واحداً من أندر القادة فى تاريخ البشرية ككل. نحن نعلم أنه كان عضواً فعالاً فى لجنة خدمات التسليح التابعة لمجلس مدينة أثينا، ووزير الدفاع، وعضواً فى مجلس القادة، ورئيس العمليات البحرية، وأعلى الأدميرالات رتبة.

عودة الفُرس (معركتى "Thermopylae" و"Artemisium")

ملك الفُرس المفعم بالحيوية، "زيركسز"، كان قد أصبح فى أواخر الثلاثينيات من عمره عندما ورث الحكم بعد موت أبيه. فى عام ٤٨٦ أو عام ٤٨٥ ق.م. أما أمه، "أتوسا Atossa"، فإنها كانت ابنة أول إمبراطور فارسى "سيروس Cyrus" العظيم. ولهذا، فإن حقوق زيركسز الملكية كانت أقوى بكثير من أبيه، وهو ما مكنه من تثبيت أقدامه بقوة على رأس الأرستقراطية الفارسية ... وجعله الوريث الشرعى بلا منازع. سرعان ما قرر الملك الجديد استغلال كل موارد الإمبراطورية من أجل الانتقام مما لحق بأبيه من فشل. فى هذه المرة، كان هدف الفُرس هو ضم الأجزاء الجنوبية من أوربا، تلك الأجزاء التى تقع على الجهة الأخرى من بحر إيجا وتعتبر الولايات الغربية من الإمبراطورية الفارسية. وبالفعل، تمكن زيركسز من سحق المقاومة "الهيلينية Hellenic" متخلصاً من الوجود اليونانى المزعج.

مع حلول خريف عام ٤٨١ ق.م. وصل إلى اليونانيين أنباء عن استعدادات الفُرس للقيام بهجوم شامل عليهم، مستخدمين ولاية "سارديس Sardis" الغربية كقاعدة لهذا الهجوم. كما علموا، بأنه من المرجح أن يتمكن الملك الفارسى من عبور مضيق "هيليسبونت Hellespont" بجيوشه خلال فترة عام على الأكثر. على الفور، حاول ثميستوكليز ومؤيدوه إعداد أثينا لمواجهة هذا الخطر. وبالفعل، قامت هذه الديمقراطية المهددة بالأخطار بإصدار عدة قرارات – تحت قيادة ثميستوكليز – تقضى باستدعاء كل من تم نفيه لأسباب سياسية، وبتجهيز الأسطول حتى يصبح قادراً على الحركة الفورية عندما يتطلب الأمر هذا.

بمجرد أن علمت كل المدن اليونانية الكبرى بأخبار الاستعدادات التى تجرى على قدم وساق، فى الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الفارسية، بهدف مهاجمتهم، حتى وافقوا – جميعاً – على الاجتماع عند مضيق "كورينث Corinth". لقد كان الوقت يمضى بسرعة، ولم يكن هناك

–حتى تلك اللحظة– أى دفاعات يونانية قادرة على منع زيركسز، وجيوشه، من مهاجمة مواطنيهم فى أقصى الشمال. وفى الاجتماعات التى ضمت القادة العسكريين لكل مدينة، ظهرت الخلافات بوضوح بينهم على ما يجب فعله، ومكان وزمان وحجم القوات اللازمة للقيام بما اتفقوا عليه. فى البداية، كان على كلا من "أثينا" و"إجينا" أن ينهيا حالة الحرب الداخلية بينهما. كما اضطرت أثينا لأن تسلم القيادة العليا لقوات التحالف لتكون فى يد قائد قوات "إسبرطة" ... بسبب ما تتمتع به إسبرطة من شهرة فى هذا المجال، وبالرغم من قلة عدد السفن التى يمتلكونها. وتقرر إرسال جواسيس للحصول على معلومات أكثر دقة عن حقيقة ما يدور فى الأجزاء الغربية من فارس. كذلك، تم إرسال دعوات إلى المدن اليونانية النائية تطالبهم بالمساهمة فى المجهود الحربى الذى يهدف للدفاع عن كل أراضى اليونان.

وبالرغم من كل ما سبق، فإنه لم يتم تحقيق أى شىء –تقريباً– على أرض الواقع. ومع حلول الأسابيع الأولى من الربيع، تقابلت قيادات المدن اليونانية الكبيرة، مرة أخرى. فى هذه المرة، تمكنوا –بأسرع ما يمكن– من اتخاذ قرار بتشكيل "قوة" برية وبحرية موحدة قادرة على القتال فى الأجزاء الشمالية النائية من أرض اليونان. كان الهدف من هذه القوة، هو إبعاد زيركسز عن الغالبية العظمى من التجمعات السكنية الكبيرة فى أراضى اليونان. لكن مع حلول شهر أبريل من عام ٤٨٠ ق.م. كان زيركسز قد تمكن بالفعل من عبور المضيق والدخول إلى أوربا بجيش تجاوزت أعداده بضع مئات من الآلاف من الجنود والبحارة الفارسيين. من غير الممكن لنا –الآن– معرفة التقدير الدقيق لأعداد الحشود الفارسية التى دخلت أوربا؛ لكنه من الممكن القول بأن ما يزيد عن الـ ١٢٠٠ سفينة حربية ثلاثية المجاديف، عبرت المضيق. وهذا وحده يتطلب ما يقرب من ربع مليون بحار وجندى (٢٥٠,٠٠٠ بحار وجندى). ومعظم التقديرات الحديثة، قدرت أن القوات البرية الفارسية التى نزلت من هذه السفن يتراوح عددها بين ١٠٠,٠٠٠– ٢٠٠,٠٠٠ جندى مشاه،

وجماعات الدعم والتمويل. وعلى أية حال، فإن الحملة التى قادها زيركسز، تعتبر أكبر غزو برمائى لأوربا فى التاريخ حتى وصول قوات الحلفاء إلى سواحل "نورماندى Normandy" فى عام ١٩٤٤م ... وبعد ما يزيد عن ٢٤٠٠ سنة من المرة الأولى التى حدث فيها هذا. وفى هذا الصدد، فإن زيركسز قد زعم أن ٤١ ولاية فارسية قد ساهمت فى المجهود الحربى اللازم لتجميع كل هذه الحشود. وحتى الآن، فإن الباحثين المتخصصين فى هذا المجال لم يتمكنوا بعد من فهم الكيفية التى تم بها حل المشكلات اللوجيستية المتعلقة بتغذية ونقل هذه الأعداد الضخمة من الجنود. وحتى يدرك القارئ مدى ضخامة الجيش الفارسى خلال هذه الغزوة المنتظمة فإن كل ما عليه أن يفعله، هو المقارنة بين عدد قوات زيركسز، وبين عدد القوات التى كانت تحت أمرة قائد شهير مثل "وليم الفاتح William the Conqueror" خلال غزوه لإنجلترا عام ١٠٦٦م.

أخيراً، تمكن مجلس الحلفاء المجتمعين فى "كورينث" من إرسال قوة عسكرية مكونة من حوالى ١٠,٠٠٠ "جندى مدرع Hoplite" على متن أسطول كبير بدرجة كافية من أجل نقلهم إلى "ثيسالي Thessaly"؛ وهو ما يعتبر عملية مثيرة للإعجاب بالنسبة لمدن اليونان فى ذلك الوقت. ومن ناحية أخرى، فإنه يعتبر خطوة صغيرة تقدم مقاومة ضئيلة لا تكفى فى مواجهة الحشود الهائلة التى تمكن زيركسز من الوصول بها إلى شمال اليونان. وفى هذا الصدد، علينا تذكر أن مهمة هذه القوة اليونانية التى اتجهت شمالاً، هو إبعاد الجحافل الفارسية عن المناطق المكتظة بالسكان داخل المدن اليونانية العظمى فى الجنوب. خلال هذه المرحلة من المعارك، كان ثميستوكليز يشغل منصب نائب القائد لهذه الحملة. لكنه بمجرد وصوله إلى هناك، اتضح له عدم إمكانية الوقوف أمام الجيش الفارسى فى هذا الموقع. خلال هذا الوقت المبكر من العمليات، لم تكن الغالبية العظمى من القوات لديها أى فكرة عن جغرافية مقدونيا

أو الطرق والمدقات التى قد يكون من الممكن لجيش الأعداء أن يستخدمها؛ لأن القوات كانت مكونة من أهالى الأجزاء الجنوبية من الولايات اليونانية.

كذلك، فإنه لم يكن لدى القائد الإسبرطى "Euainetos"، و"ثميستوكليز" علم بأن خط الدفاع فى الشمال، والواقع بين جبل الأوليمبوس و"أوسا Ossa"، والمطلوب منهم إيقاف الجيوش الفارسية عنده، كان من المستحيل الدفاع عنه فى مواجهة أعداد ضخمة من الجنود ... مثلما هو الحال مع جيش فارس المتجه نحوهم. لقد ذهب الحلفاء اليونانيون إلى الشمال وهم غير مستعدين لمواجهة المشاكل التى سوف تواجههم هناك. فمن ناحية لم يكن لديهم إلا أعداد قليلة جداً من الجنود مقارنة بالعدو، كذلك فإن خبرات ثميستوكليز كانت مركزة بقدر كبير على القتال البحرى بين الأساطيل، وأخيراً فإن هذه القوة الصغيرة لم يكن لديها ما يكفى من المعدات والإمدادات ما يؤهلها لكى تعسكر فى العراء لمدد طويلة. كذلك، لم يكن لديهم أى فكرة عن مدى ضخامة جيش زيركسز. وفى إنكسار لا يوصف عادت الحملة اليونانية الصغيرة المكونة من ١٠,٠٠٠ جندى مدرع إلى منطقة المضيق قبل وصول قوات الفُرس، بدعوى التخطيط لاستراتيجية احتياطية جديدة. لكنه لم يكن هناك أى وقت يمكن إضاعته بالإضافة إلى أن معنويات الجنود كانت فى أسوأ حالاتها. وبالفعل فإنه مع نهاية شهور الصيف كانت قوات الفُرس قد تمكنت من اجتياح كل أراضى الشمال، وبدأت تستعد لدخول المناطق المركزية من خلال الممر الضيق الموجود فى "ثرموبيلا"؛ وتحولت العيون فى ذعر نحو مشاه إسبرطة الأسطوريين فى أمل أن يتمكنوا من إيقاف تقدم مشاه الفُرس الكاسح.

من خلال احتفالاتهم الدينية فى نهاية الصيف، تمكن الإسبرطيين من تحفيز المقاومة اليونانية، وشجعوهم على تكوين قوة جديدة مما لا يقل عن ٧٠٠٠ جندى، تحت قيادة الملك الإسبرطى "ليونيداس Leonidas". وقد صاحب هذه القوة أسطول مكون من حوالى ٣٠٠ سفينة تحت قيادة مواطنه "يوري بيداس"، من أجل تقديم المساعدات اللوجستية. أما

ثميستوكليز فكانت له القيادة شبه المستقلة لأسطول مكون من حوالى ٢٠٠ سفينة ... من سفن أثينا ثلاثية المجاديف. ولقد تمكن من إقناع حلفائه بأنه الأفضل لحلفاء أثينا بأن يخدموا فى الأساطيل البحرية بدلا من الانضمام إلى جنود المشاة المدرعين الذين سيدافعون عن ممر "ثرموبيلا". لقد كان الحلفاء اليونانيون يأملون فى إرسال قوة مكونة من ١٠,٠٠٠ جندى إسبرطى إلى "ثرموبيلا". لكن حيث أن جنود إسبرطة لم يذهبوا إلى مارثون، فإن الحلفاء كانوا قانعين بوجود هذا العدد من الإسبرطيين، وسعداء لأن وجود ملك إسبرطى ضمن هذه القوة – بالإضافة إلى حرسه الملكى، وبعض السفن الإسبرطية تحت قيادة "يوري بيداس" – سيزيد من حماسة الجنود.

وفى هذا الخصوص، فقد تمت كتابة المئات من الكتب والمقالات عن الوقفة الأخيرة لأهل اليونان عند "ثرموبيلا"، وما رافقها من معركة بحرية عند "أرتيميسيوم". لكننا إذا أغفلنا النظر، للحظات، عما حدث هناك من أعمال بطولية ودرامية، والتضحية الفدائية التى قام بها "ليونيداس"، وموت ٣٠٠ من جنود إسبرطة – بالإضافة إلى ما يقرب من ١١٠٠ جندى آخر من الحلفاء اليونانيين – فإن المعركة البرية عند "ثرموبيلا"، رفيقتها البحرية عند "أرتيميسيوم"، تعتبر واحدة من أكبر المعارك البرية البحرية فى التاريخ العسكرى؛ ورغم كل شيء، فإنها تعتبر هزيمة شنيعة لقوات الحلفاء اليونانيين. إن خسارة هذا الممر الاستراتيجى سمح للجيش الفارسى المنتصر باستخدام الطرق الرئيسية المؤدية إلى أغنى مناطق اليونان وأكثرها اكتظاظاً بالسكان. لكن إذا كان ملك إسبرطة "ليونيداس" وجنوده قد فشلوا فى وقف تقدم فارس، فمن الذى سيتمكن من هذا؟

لكن هناك انتصار اسمى لقوات حلفاء اليونانيين ظهر بطريقة رمزية خلال معركة "أرتيميسيوم". فإن التكتيكات العدوانية التى اتبعها ثميستوكليز حتى يستدرج الأسطول الفارسى الضخم نحو المضايق الموجودة هناك، والاشتباك معه خلال أوقات متأخرة من النهار،

واعتماده التام على السرعة والمناورة، ثم الاصطدام بقوة بسفن العدو؛ كلها تكتيكات أربكت العدو وأصابته بالذهول قبل أن يتمكن من نشر سفنه وتوزيعها بطريقة سليمة. ومع انتهاء المعركة البحرية كانت قوات الحلفاء قد تمكنت من تدمير عدد أكبر من السفن الفارسية، مقارنة بما خسرته. وبالإضافة إلى هذا، فإن بعض العواصف المفاجئة أصابت الأسطول الفارسى المنسحب، وتسببت فى غرق بضع عشرات من سفنه التى نجت من القتال مع الحلفاء.

لكنه بالرغم من كل هذا، فإن الخسارة التى لحقت بالأسطول الفارسى لم تكن تزيد عن حوالى ٦٠٠ سفينة ثلاثية المجاديف؛ وهو ما دفع أسطول الحلفاء للتراجع نحو الجنوب، ولاحقهم الأسطول الفارسى على مبعدة أميال قليلة فى نفس الاتجاه ... لأنه كان عليه أن يمد قواته البرية بما تحتاج إليه من مؤن وعتاد. وهكذا، فإنه يمكننا القول بأنه على الرغم من جرأة التكتيكات التى اتبعها ثميستوكليز، فإنه رأى جهوده تفشل، المرة بعد الأخرى، فى ردع فارس. فهو قد فشل فى "ثيسالي" أولاً، وها هو الآن يفشل فى "يوبيا **Euboia**". فكيف يمكن لأهل اليونان أن ينقذوا أثينا وشبه الجزيرة "البيلوبونيزاية" إذا كان النصر البحرى، والخراب الذى أحدثته العواصف المفاجئة– غير كاف لإيقاف هذا الخطر الفارسى؟

والآن، فقد قُتل ملك إسبرطى، وتم التمثيل بجثته، وقطعت رأسه. والقوات المدافعة عن الممر لقيت هزيمة ساحقة، وتعرضت جثثهم للتدنيس. وكل من تمكن من أن ينجوا بنفسه، عاد فى ذعر إلى منزله وهو يحمل أخبار انتصارات الفُرس، واقترابهم، المتزايد، من تجمعات السكان. وبالرغم من أن أسطول الحلفاء قد انتصر، إلا أنه قد عانى هو الآخر من خسائر فادحة، دفعته لأن يسارع بالاحتماء داخل ميناء سالاميز.

وحتى الآن، فإنه من المقدر أن نصف الأسطول اليونانى قد دمر تماماً أو لحقت به بعض الأضرار. فهناك ما يزيد عن ١٠٠ سفينة حربية ثلاثية المجاديف فى حاجة إلى إصلاح. ومما زاد الطين بللاً، أن الغالبية العظمى من المدن اليونانية الواقعة إلى الشمال من أثينا قد انضمت إلى

جيش فارس بالفعل أو فى طريقها لأن تفعل هذا. وهو ما يعنى أن قوات الفُرس تزداد حجماً وبسرعة؛ بينما تتقلص قوات الحلفاء وبنفس النسبة. والآن، فإن ملك فارس قد أصبح قادراً على إمداد قواته بما تحتاج إليه من خلال حلفائه اليونانيين الجدد ... وهو ما يعتبر رمز لاستسلام أجزاء كبيرة من اليونان. أما بالنسبة للنداءات اليائسة التى أطلقها أهل أثينا فى محاولة لتشكيل جيش آخر من القوات المتحالفة اليونانية لوقف تقدم الفُرس عند حدودها الشمالية الغربية مع "Boeotia" فإنه قد تم تجاهلها من جانب الجيوش البرية التى كانت تملكها "بيلوبونيزا" ... لأنها فضلت أن تتجه نحو بلادها، والمضايق الموجودة هناك.

أما بالنسبة لكل مدن اليونان التى لم تكن تحت حماية قوات الحلفاء المنسحبة، فإنها مسحت تماماً من على الخريطة، أو اضطرت للانضمام إلى الجيش الفارسى. وهو ما حدث مع مدينة "طيبة" التى تحالفت مع الفُرس. ويعتبر هذا، خسارة فادحة بالنسبة لقوات الحلفاء ... خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار ما كانت تتمتع به هذه المدينة من جيش منظم وجنود مدربين. والعجيب فى الأمر، هو أن القوات الفارسية رغم تعدد اللغات التى كانت تتكلم بها، وتباين الخلفيات الحضارية التى ينتمون إليها؛ إلا أنها كانت أكثر تلاحماً من قوات الحلفاء اليونانيين الذين كانت لهم ديانة ولغة وحضارة مشتركة. فلقد كان هناك خلاف بين الحلفاء اليونانيين بشأن المكان الذى ستتم فيه المواجهة الأخيرة الكبرى بينهم وبين عدوهم الفارسى اللدود. وقد استعرت حدة هذا الخلاف بينما كان ثميستوكليز عائداً بقواته، وهو يأمل فى إقناع الجميع بشن هجوم بحرى شامل على الأسطول الفارسى القريب منهم.

انتشـار الذعر فى أثينا (سـبتمبر عام ٤٨٠ ق.م.)

خلال اجتياح الجيش الفارسى لأراضى اليونان، قام أهل أثينا بإرسال سفرائهم إلى العرافة فى "دلفى Delphi"*، لكن عرافة المعبد الماكرة، لم تعطهم إجابة واضحة أو مباشرة؛ وكانت أكثر إجاباتها وضوحا فى صورة "نبوءة" مشفرة، ومليئة بالرموز الغامضة، تقضى بما يلى:

> عليكم أولاً أن تقوموا بالتراجع والانسحاب أمام العدو؛ وفى الخطوة الثانية، ضعوا كل ثقتكم فى "السور الخشبى Wooden Wall" الغامض؛ وفى الخطوة الثالثة، عليكم أن تؤمنوا بـ"قدسية سـالاميز"، والوعد الذى أعطته الآلهة بأن اليونان ستتمكن فى يوم من الأيام من تدمير أهل فارس.

وبالطبع اختلف قادة الحلفاء فى تفسير هذه "النبوءة الغامضة". فبالنسبة لأهل أثينا غير الراغبين فى الاشتباك مع أساطيل الفُرس عند الشواطئ المقابلة لسالاميز –أو من كانوا على درجة شديدة من الفقر أو العجز بحيث لا تسمح لهم بهجر المدينة– كانت النبوءة تعنى التحصن خلف جدران من الخشب يتم صناعتها من الأبواب القديمة والأثاث المهمل وجذوع الأشجار. لكن ثميستوكليز تمكن من إقناع زملائه الجنرالات بأن العرافة قد استخدمت تعبير "السور الخشبى" لكى تشير به إلى أساطيلهم المصنوعة من خشب الصنوبر؛ وأن هذا هو الحل الوحيد الذى يفسر دعوة العرافة لأهل أثينا لأن يؤمنوا بقدسية "سالاميز" ... لأن النصر لن يتحقق إلا هناك. لكل هذا كان من الواجب على الحلفاء اليونانيين أن يحاربوا معركتهم

---

* كان يتم استشارة "العرافة التى فى دلفى" فى "الأمور الصغيرة" و"البالغة الأهمية" على حد سواء، عند من يؤمنون بآلهة الأوليمب وكبير الآلهة "زوس ZEUS". وعلى سبيل المثال، تم استشارتها ما إذا كان هناك من هو أكثر حكمة من "سقراط"! وبالرغم من هذا تم – فى النهاية – إعدامه. (عادل نجيب)

الكبرى فى البحر وعند "سالاميز". وفى هذا الخصوص، فإنه لا توجد لدينا أى معلومات، عما إذا كان سفراء ثميستوكليز إلى العرافة هم الذين قاموا بتشكيل "النبوءة"؛ أو تفسيرها بالمعنى الذى انتهت إليه. لكن ما نحن على يقين منه، هو أن ثميستوكليز ما كان ليسمح للخرافات أو لمشاعر الخوف والجبن لأن تفسد خططه الرامية إلى حدوث مواجهة شاملة عند سالاميز؛ وهى الاستراتيجية التى استغرقت عقداً كاملاً من الزمان من عمر ثميستوكليز، بذل خلاله خلاصة ما لديه من خبرة وتفكير منطقى.

أما الخلاف الأساسى الذى نشب بخصوص سالاميز، فإنه كان يتعلق بالطريقة المناسبة لحماية أهل أثينا من مئات الآلاف من جنود فارس. وفى هذا الصدد، علينا تذكر أن مشاه وبحرية العدو لم تعان من أى هزائم قاصمة خلال الشهور الخمسة التى مضت منذ عبور الجيش الفارسى إلى أوربا. كان هناك استراتيجيتان دفاعيتان على المحك، الاستراتيجية الأولى كانت محل خلاف بين الأثينيين، وكانت تحاول الاختيار ما بين الدفاع عن أثينا أو تهجير أهلها ونقلهم بعيداً عن مواطن الخطر. أما الاستراتيجية الثانية، فإنها كانت محل خلاف بين باقى المدن اليونانية المستقلة، وكانت تفاضل ما بين مهاجمة أساطيل العدو فى البحر قبالة شواطئ سالاميز أو الانسحاب نحو الجنوب والاشتباك معهم هناك.

لكنه سرعان ما تم وضع حد لكثير من هذه الخلافات مع دخول الجيش الفارسى لـ"أتيكا" واجتياحه لمدينة "أثينا". وخلال فترة قصيرة، تمت محاصرة الوحدات الصغيرة التى ظلت صامدة، والقضاء عليها. وهو ما برهن لليونانيين أن "النبوءة" لم تكن تشير إلى التحصن خلف "سور خشبى" بالمعنى الحرفى للكلمة. وفى هذا الصدد، فإن الجحافل الفارسية التى اجتاحت المدينة، لم تأخذ أسرى ... وقتلت كل من بقى فى أثينا وما حولها. فى الفترة السابقة على هذا كان ثميستوكليز قد أصدر مرسوماً بإخلاء المدينة من السكان، ونصح أهلها بالتوجه نحو الجزر القريبة والأجزاء الشمالية من "Argolid". وأصبح كل ما تبقى للدفاع عن اليونان هو

المحاربون على متن ١٨٠سفينة حربية ثلاثية المجاديف فى خليج سالاميز، ووحدات صغيرة من الجنود المدرعين.

أما ملك إسبرطة السابق "Demaratus"، المارق الذى خان أهله، وأصبح – الآن – مستشاراً فى بلاط الملك الفارسى "زيركسز"، فإنه أخذ يحث الإمبراطور الفارسى على تجنب القتال فى سالاميز. كانت نصيحة الإسبرطى الخائن لملك الفُرس، هى أنه عليه الإبحار حول شبه الجزيرة "البيلوبونيزاية Peloponnesian"، واحتلال جزيرة "سيثرا Cythera" القريبة من إسبرطة. بهذه الطريقة –حسب رأى الإسبرطى الخائن– سيتمكن الفُرس من تجنب بعض الخسائر وسيشغلون الجيش الإسبرطى بملاحقتهم، ويشعلون نار الثورة بين عمال الزراعة فى هذه المدينة الكبرى. وهو ما قد يدفع الجنود المدرعين لإعادة تتويجه مرة أخرى؛ كأحد الولاة التابعين لفارس. طبقاً لهذه الاستراتيجية، ستكون أثينا قد انتهت والأسطول اليونانى محاصر فى مضايق سالاميز. لكن العجيب فى الأمر، هو أن مثل هذه النصيحة الحكيمة بدت للملك الفارسى وكأنها فعل منقوص لا يفى بالغرض؛ ولا يقوم به إلا رعديد مخلوع الفؤاد. بدلاً من هذا، رأى "زيركسز" أنه بمجرد التمكن من تجميع الأسطول اليونانى عند سالاميز فإنه سيكون بإمكان القوات البرية الفارسية أن تذهب حيثما شاءت داخل أراضى "بيلوبونيزا". لقد كانت خطته تتلخص فى القضاء تدريجياً على المدن اليونانية المتبقية ... الواحدة تلو الأخرى.

فى نفس ذلك الوقت، كان باقى القادة اليونانيين يقترحون استراتيجيات بديلة معقدة لما يجب أن يحدث، قبل وبعد الانسحاب من "ثرموبيلا". وعلى سبيل المثال، فإن كثيرين من أهل أثينا كانوا لا يزالون راغبين فى ملاقاة الفُرس فوق سهول "أتيكا"؛ وتجنب القتال البحرى. لقد كانت عقولهم لا تزال ممتلئة بأحلام ما حدث فى "مارثون"؛ وتكرار حدوث هذا، كان سينقذ مدنهم الغالية، ويعيد الثقة فى هيبة طبقة "الجنود المدرعين". لكنه سرعان ما تبخر هذا الحلم بعد الكارثة التى وقعت فى "ثرموبيلا". إن قدرة الفُرس على الانقضاض بسرعة، وعدم وجود

حلفاء مستعدين للقتال البرى، وامتلاك ملك الفُرس لقوات برية أكثر بكثير مما كان متاح لوالده منذ عشر سنوات، جعل من المستحيل تكرار، ما حدث فى مارثون مرة أخرى. وعلينا تذكر أن القوات الفارسية فى "مارثون" كانت ثلاث أمثال اليونانيين فقط؛ لكنهم فى هذه المرة كانوا –على الأقل– عشرة أمثال مجمل قوات الحلفاء اليونانيين البرية. وبالإضافة إلى ما سبق، فإنه لم يتبق فى أتيكا إلا عدد قليل من جيوب المقاومة الأثينية المكونة من جنود مدرعين ... وهم متناثرون فى مختلف أرجاء الريف هناك.

وثبت بالفعل أن الخيار الثانى المتاح أمامهم، إقامة حامية على المدينة ذاتها، ليس إلا انتحاراً؛ فإن الأعداد القليلة التى تبقت للدفاع عن أثينا قد تم قتلها.

أما الخيار الثالث، فهو أن يستسلموا جميعاً وينضموا إلى الفُرس. وفى هذا الصدد، فإن الغضب كان يملأ نفوس بعض الأثينيين، لأن أهالى بلوبونيزا تخيروا الانضمام للفرس، بدون قتال. لكل هذه الأسباب، ملأ اليأس نفوس الكثيرين؛ إلا أن الغالبية العظمى من المتجمعين فى "سالاميز" ظلوا على قلب رجل واحد، راغبين فى القتال، سواء كان فى البحر أو البر. وطالما أنه مازال لدى اليونانيين ما يقرب من ٤٠٠ سفينة حربية، ومازالت أراضى "Megarid" و"Peloponnese" حرة مستقلة؛ فإن التفكير فى الاستسلام يبدو وكأنه سابق لأوانه ... وحتى إذا كان معنى هذا أن يعسكر عشرات الألوف من أهالى أثينا فى العراء وبدون إمدادات مناسبة من المأوى والغذاء.

وفى الحقيقة، فإن ما تبقى من الحلفاء كان راغباً فى خيار رابع يسمح لهم بالدفاع عن وجودهم: لقد كانوا راغبين فى قتال الفُرس على الأرض ومن خلف استحكامات وأسوار يتم بناؤها بطريقة مؤقتة بعرض ستة أميال فى المضايق. كان من الممكن لهذه الاستراتيجية أن تنقذ ما تبقى من الأجزاء الجنوبية لأراضى اليونان. فبهذه الطريقة، يصبح من الممكن لسفن أثينا أن تتراجع نحو الجنوب، وتشتبك مع العدو، بالقرب من سواحل "بيلوبونيزا". فمن الذى

سيعارض هذا؟ إنهم أهل أثينا المؤيدين للقتال البحرى. وعلينا أن نتذكر فى هذا الصدد، أنهم رفضوا المشاركة فى المعركة البرية التى وقعت عند "ثرموبيلا"، بالرغم من أنه كان لديهم ١٠,٠٠٠ جندى مدرع. والآن، حانت لحظة معاملتهم بالمثل، فإن القوات البرية الموجودة فى "بيلوبونيزا" رفضت المخاطرة بأي من سفنها للدفاع عن أهل أثينا الذين تم ترحيلهم.

لقد كان ثميستوكليز يشعر بأن العروض التى قدمتها إسبرطة لا تخدم مصالح أى طرف ... ولا حتى الإسبرطيين أنفسهم. فما الذى يمكن أن يمنع حدوث هجوم برمائى، تنزل خلاله قوات فارسية إلى الأرض فيما وراء الاستحكامات والأسوار التى سيتم بناؤها عند المضايق. والبعض الآخر، كان يرى أن مواجهة بحرية مفتوحة فى البحر المواجه لشواطئ بيلوبونيزا، قد تعطى مزايا أكثر للأسطول الأكثر ضخامة (الأسطول الفارسى). ولماذا يضحى الأثينيون بالأمل فى استعادة مدينتهم، ليقاتلوا فى البحر دفاعاً عن أراضى بيلوبونيزا، التى أصبح من الواضح أنها لا تهتم إلا بنفسها؟ أما أشد الأمور إلحاحاً، فكان كيفية إطعام عشرات الألوف من اللاجئين إلى سالاميز، والذين يعتمد أمانهم على بقاء السفن اليونانية الموجودة فى موانئ المدينة. من الذى سيستطيع رفع الروح المعنوية، بعد وقوع أربع حوادث انسحاب متتالية؛ ففى البداية، تم الانسحاب من "وادى تيمب". ثم تم الانسحاب بعد الهزيمة فى كل من "ثرموبيلا"، و"أرتيميسيوم"، و"سالاميز". إن قوات التحالف التى تخسر معاركها بصورة متتالية، أو تتجنب القتال، تجد من الصعب جداً عليها العودة إلى مقاومة المعتدين ومهاجمتهم، وعدم التنازل عن المزيد من الأرض.

ظهر أمام أهل اليونان المتنازعين، خيار خامس، فى صورة تهديد جاء من ثميستوكليز نفسه، والذى حذرهم من أن أهل أثينا سوف ينسحبون تماماً من التحالف. إذا تخلى أهل بلوبونيزا والجزر الأخرى المتحالفة عن أثينا، وتم اتخاذ قرار بالانسحاب العام نحو الجنوب، فإن ثميستوكليز سيجمع اللاجئين الهاربين من أثينا ويذهب بهم إلى مقاطعة سيسلى، وسينقل ما

يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ مواطن أثينى –ذهاباً واياباً– إلى "ســـيريس Siris"؛ خالقاً بهذا، حضارة أثينية جديدة على مبعدة ٨٠٠ ميل نحو الغرب ... وحارماً المدن التى لازالت تتمتع بحريتها، مثل بلوبونيزا، من القدرات العسكرية للأسطول الأثينى الضخم.

لقد هددهم ثميستوكليز بما نصه: "إذا لم نقاتل فى سالاميز، فإننا سنرحل إلى ســـيرس فى إيطاليا، وهو مكاننا منذ أقدم العصور، والعرافة قد أخبرتنا بأنه من الواجب علينا إنشاء مستعمرة هناك. ومن تبقى منكم لن يكون له –بدوننا– ما يكفى من الحلفاء للعيش فى أمان؛ وستتذكرون كلماتى هذه إلى الأبد".

وهكذا، من بين جميع الخيارات السيئة المطروحة أمامهم، تم تخير أسوأها ... وتقرر مواجهة الفُرس فى معركة بحرية عند "سالاميز". وتقرر عدم التنازل عن المزيد من أراضى اليونان، وسيحافظ الأدميرالات على وحدة أراضيها، متعشمين أن يتمكنوا من هزيمة الأسطول الفارسى؛ مع ما يتبع هذا من القضاء على فرص قواته البرية الهائلة فى الهرب من بلادهم بسلام. وبسبب نقص الإمدادات فى سالاميز، والآلاف المؤلفة من اللاجئين الواجب إطعامهم، فإنهم كان عليهم الاشتباك فى القتال مع الفُرس فى أقرب وقت ممكن، وما يعنيه هذا من أن الغالبية العظمى من الأدميرالات المتجمعين سيخضعون لتهديدات ثميستوكليز، ويتجاهلون رغبات السلطات السياسية التابعين لها فى دولهم، والتى كانت تقضى بالانسحاب نحو المضايق، والدفاع عن البلاد من هناك.

ســالاميز المقدســة (ســبتمبر عام ٤٨٠ ق.م.)

معظم المؤرخين، بما فيهم المؤرخ "هيرودوت Herodotus"، وكاتب المسرحيات المعاصر "Aeschylus"، مع المعلومات التى حصلنا عليها –فيما بعد– من كل من: "Plutarch"

و"Diodorus" و"Nepos"، جميعاً يتفقون على أن سفن الأسطول الفارسى كان عددها أكبر من مجمل عدد سفن أساطيل اليونان بمرتين على الأقل، وربما تصل إلى ثلاثة أمثاله. وفى الحقيقة، فإنها من الممكن أن تكون أربعة أمثاله. ولا تتوافر لدينا أى معلومات عن عدد سفن الإمداد التى انضمت إلى كل أسطول بعد الخسائر التى لحقت بهما خلال معركة أرتيميسيوم، ولا عدد السفن التى تم إصلاحها وإعادة إدخالها إلى الخدمة. لكن ما تم تجميعه من معلومات يشير إلى أن ما حصل عليه الأسطول الفارسى من سفن تم إصلاحها، ومن السفن التى انضمت إليه من حلفائه الـــ"Medizing" اليونانيين، جعل حجمه يعود إلى ما كان عليه عندما غادر موانئ فارس منذ عدة شهور.

إذا كانت بعض السفن اليونانية قد تمكنت من التسلل بعيداً عن سالاميز والاتجاه جنوباً، فإن الغالبية العظمى من السفن ظلت فى مكانها. وإذا أخذنا فى الاعتبار، ما خسرته أساطيل اليونان بسبب عوامل الطبيعة، وما فقدته فى أرتيميسيوم، فإنه يكون علينا القول بأن هناك -بالتأكيد- ما يزيد عن ٣٠٠ سفينة حربية (إن لم يكن العدد يصل إلى ما يزيد عن ٣٥٠ سفينة حربية)؛ وكان عليهم مواجهة أسطول فارسى يزيد عدد سفنه عن ٦٠٠ سفينة بالتأكيد، وقد يصل إلى ١٢٠٠ سفينة، حسب مزاعم "Herodotus"، و"Aeschylus". ولا يمكن لنا تجاهل تقديرات هذين المؤرخين تماماً، وحتى بالرغم مما تعنيه هذه التقديرات من أن ربع مليون جندى وبحار فارســـى كانوا موجودين على متن هذا الأسطول. وعلى أية حالة، من الممكن أن يكون هناك ٢٠٠,٠٠٠ جندى وبحار فى معركة سالاميز، مما يجعلها واحدة من أكبر المعارك البحرية فى التاريخ.

تحت القيادة الاسمية لـــ"يوري بيداس" الإسبرطى، ظل "الأسطول اليونانى"، أقل خبرة من الأسطول الفارسى فى شئون القتال. وفى هذا الشأن، فإن سفن اليونان كانت أثقل وزناً، وأقل قدرة على المناورة، وأطقم ملاحيها أقل خبرة من السفن الفارسية. أما أطقم السفن الفارسية

فإنها ضمت وحدات مكونة من مقاتلين قدامى، مخضرمين من: فينيقيا، ومصر، وآسيا الصغرى، وقبرص، واليونان ذاتها. وكان لدى هذه الأساطيل خبرة التجوال فى بحر إيجا والبحر الأبيض المتوسط خلال تطبيقها للمراسيم الصادرة عن الإمبراطورية الفارسية. ولعله من سخرية القدر أنه كان من المحتمل أن عدد من يتكلمون اليونانية فى الجانب الفارسى يفوق عدد من يتكلمونها على متن الأسطول اليونانى ذاته.

كانت قوات الحلفاء تأمل فى أن تتمكن من استدراج سفن الأسطول الفارسى إلى المضايق الموجودة بين أراضى "سالاميز" و"أتيكا". هناك، وبالرغم من تفوقهم العددى الواضح فإن سفن فارس الخفيفة كانت ستصبح عرضة للغرق فى مواجهة سفن اليونان الثقيلة. وفى هذا الصدد، فإن ثميستوكليز كان يرى أن أساطيل الغزاة لن يكون لديها المساحات الكافية -التى اعتادت عليها فى البحار المفتوحة- للمناورة، وهو ما سيحد من فاعليتها.

كذلك فإن عامل المفاجأة، ومعلومات بحارة اليونان المفصلة عن الطبيعة الغريبة للتيارات البحرية والرياح المضادة داخل المضايق، كان سيساعد أيضاً فى إعطاء ميزة إضافية لأسطول الحلفاء اليونانى.

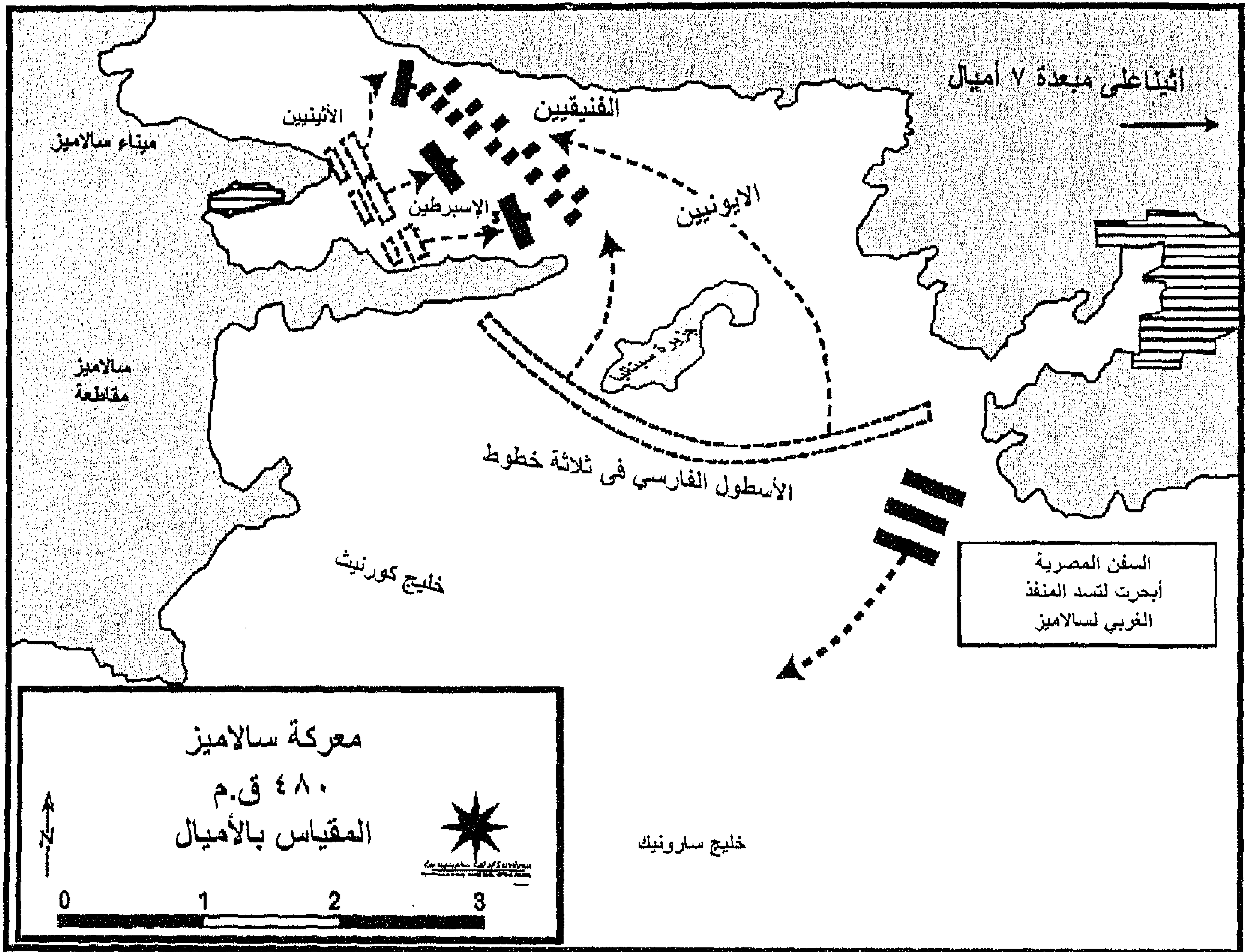
وعلينا أن لا ننسى المميزات النفسية التى يتمتع بها المدافع بسبب كون جميع جنوده من نفس نسيج المتسق، بينما يتكون جنود العدو من جنسيات وديانات وحضارات مختلفة. وهناك عامل نفسى آخر، يتلخص فى أن الحلفاء اليونانيين الأحرار يحاربون -حرباً مصيرية- دفاعاً عن وجودهم، بينما جنود فارس التابعين لولايات مختلفة يسيطر عليها أجانب يحاربون من أجل ضم ولاية أخرى إلى الإمبراطورية الفارسية المتنامية. لا بد وأن بعض هذه الأفكار قد جال فى عقل ثميستوكليز، ومكنه من أن يعتبرها عوامل مساعدة، تقلل من أهمية التفوق الفارسى الساحق فى العدد.

كذلك، فإن هناك العديد من المصادر التى أشارت إلى أن ثميستوكليز قد تمكن من تدبير مكيدة غير متوقعة فى الليلة السابقة على نشوب المعركة مع الفُرس، فلقد أرسل –بطريقة سرية– عبده الخاص ("Sicinnus") فى مهمة للتواصل مع الملك الفارسى زيركسز. خلال هذه المهمة، تم تحذير الملك الفارسى من أن الأساطيل اليونانية سوف تنسحب بطريقة فجائية وغير متوقعة. وهناك ما يدل على أن زيركسز قد انخدع بهذه القصة الغريبة؛ خاصة مع علمهم بالخلافات الموجودة بين القادة اليونانيين، والتقارير الموثقة عن رغبة أهل "بيلوبونيزا" فى الانفصال عن التحالف والعودة إلى منازلهم. كانت هناك ثلاثة أهداف يرمى ثميستوكليز إلى تحقيقها من وراء هذه المكيدة، الهدف الأول: رغبته فى حث الأسطول الفارسى على التقدم فى عجلة – فى الظلام وقبل بزوغ الشمس – نحو المياه الضيقة. الهدف الثانى: كان يأمل فى أن يدفعهم لتقسيم أسطولهم الضخم إلى عدة أجزاء، لتغطية كل المخارج الممكن استخدامها للهروب من سالاميز. الهدف الثالث: قيام الفُرس بهذا الهجوم الاستباقى، سيجبر من بقى متردداً من بين الحلفاء اليونانيين، على الإلقاء بكل ثقله فى اتجاه المعركة البحرية المزمعة. وهناك نتيجة رابعة تحققت –أو على الأقل، فإن هذه هى مزاعم كتابات القدماء– فقد أصبح فى إمكان ثميستوكليز أن يدعى، فيما بعد، أنه قد حاول مساعدة الفُرس؛ فى حالة احتياجه، فى المستقبل، للهرب إلى مكان آمن. ومن الواضح أن حجج ثميستوكليز الداعية إلى البقاء فى سالاميز والقتال هناك، قد قوت من موقفه.

وخلال الساعات القليلة السابقة على المعركة، بدا من الواضح أن القيادة الفعلية كانت بين يديه، بالرغم من أن "يوري بيداس" ظل القائد العام لقوات الحلفاء.

كرد فعل لهذه المكيدة، تحركت السفن الفارسية بدون تخطيط مسبق ودخلت مضايق سالاميز –كما توقع ثميستوكليز– بعد أن تم إرسال سرية كاملة من السفن المصرية لسد المخارج الجنوبية والغربية للمضايق الموجودة فى سالاميز، حتى لا تستخدمها سفن الحلفاء فى

الهروب من المعركة. وباختصار، فإن زيركسز أرسل أفضل سفنه فى مطاردة وهمية بعيدة عنه، بينما دخل بنفسه فى جنح الظلام إلى شرك أعده بعناية ثميستوكليز. ونتيجة لهذه الأخطاء الاستراتيجية، فإن الفارسيين لم يتمكنوا من استخدام كل قواهم، كما أنهم لم ينجحوا فى المناورة داخل هذه المياه الضيقة التى لم تسمح لهم بإظهار مهاراتهم البحرية.



من المرجح أن الهجوم الفارسى وقع قبيل الفجر بقليل. ومع اشتداد رياح سبتمبر، فإن الأسطول الفارسى اندفع فى ثلاثة خطوط منتظمة لمواجهة الخطين اللذين قام الأسطول اليونانى بتشكيلهما.

وقد كان قائد الأسطول الفارسى خائفاً من أنه سيتم إعدامه إذا ما تمكنت السفن اليونانية من الهرب. ولهذا سرعان ما أصبحت خطوط المهاجمين فى حالة من الفوضى، خاصة بعد أن أصابتهم السفن اليونانية الثقيلة بعدة صدمات قوية.وزاد من هذا الارتباك، وجود عدد كبير جداً من السفن فى هذه المياه الضيقة، مع ما اقترن من صدمة اكتشاف أن الحلفاء فى وضع الهجوم، وليس الهروب؛ وأنهم فى حالة اندفاع قوى نحوهم. (احتلت مراكب أثينا الجناح الأيسر، بينما شكلت سفن إسبرطة الجناح الأيمن). أما ثميستوكليز نفسه، فإنه كان فى طليعة السفن المتقدمة بسرعة نحو الأسطول الفارسى. وعلى العكس من هذا، فإن زيركسز كان يراقب حركة أساطيله من مسافة بعيدة، جالساً على عرشه الموضوع على قمة جبل "أيجالوس Aigaleos" على الشاطئ الجنوبى لأتيكا. حتى أن كاتب الدراما المسرحية وصف هذا الوضع بقوله:

"لقد كانت هناك تكتلات ضخمة من السفن فى هذه المضايق القليلة المساحة، ولم يكن فى إمكان أي منهم تقديم المساعدة للآخر".

استمرت هذه المعركة طوال ساعات النهار. وفى الأغلب الأعم، فإنها وقعت خلال الأيام العشرة الأخيرة من شهر سبتمبر عام ٤٨٠ ق.م. ومع حلول الظلام، كان قد تم إغراق نصف الأسطول الفارسى. ويمكن القول، بأن السبب فى هذا يعود إلى الأخطاء الاستراتيجية التى وقع فيها قادة الفُرس، والروح المعنوية المرتفعة ومهارة أطقم السفن اليونانية، والذين كانوا يعلمون طبيعة الملاحة فى هذه المضايق أكثر من الفُرس. لقد قاتل اليونانيون باستماتة، لأنهم كانوا يعلمون أن الهزيمة تعنى الموت لهم والعبودية لأسرهم التى تشاهد تفاصيل المعركة من الشاطئ. غيرت السفن الفارسية التى تمكنت من النجاة اتجاهها، وتحولت نحو الميناء استعداداً للهرب إلى أسيا الصغرى، قبل أن يتمكن الحلفاء اليونانيون من تدمير الجسر العائم الذى أنشأه الفُرس عبر مضيق "هيليسبونت Hellespont"، خلال دخولهم لأراضى أوربا.

إلى جانب هذا، فإن الحالة المعنوية لمن ظلوا على قيد الحياة، كانت فى أدنى حالاتها؛ وعلى الرغم من أنه كان هناك خوف جماعى –بين القادة– من غضب زيركس الذى كان يشاهد المعركة من عرشه على الجبل. لقد عانى الفُرس من هزيمة مطلقة وساحقة. وعلى الرغم من أن العدد المتبقى من سفنهم الحربية –من الناحية الحسابية– كان لا يزال أكبر عدداً من حجم أسطول الحلفاء اليونانيون؛ إلا أن حالة أسطول الفُرس المتردية كانت لا تسمح له بالاشتباك فى أى قتال. ويقدر المؤرخين أن ما يزيد عن ٨٠,٠٠٠ بحار فارسى قد قتل أو جرح أو فقد، وهو ما يجعل معركة سالاميز أكثر المعارك المميتة فى التاريخ بأكمله. وفى الواقع حيث أن المعركة استمرت ليوم واحد فقط، فإنها تعتبر أكثر دموية حتى من معارك مثل: "Ecnomus"، و"Lepanto"، و"Trafalgar"، و"Jutland"، و"Midway".

والأوصاف القديمة التى وصلتنا عما حدث، سجلت مشاهد فظيعة للمذابح التى يكون بإمكان البشر ارتكابها؛ فإن جثث الفُرس الطافية فى كل مكان، تلاعب بها المد والجزر حتى أنها كانت تصطدم بصخور الشاطئ فى إيقاع مخيف. وحيث أن الغالبية العظمى من جنود الفُرس لم تكن تجيد فن العوم، فمن الممكن لنا افتراض أن جنود الحلفاء قد قاموا باستخدام رماحهم فى طعن كل من تشبث بحطام سفينته ... حتى الموت. وعندما نتذكر أن المعارك البحرية فى التاريخ القديم كانت تحدث بالقرب من الشواطئ، ومع ما هو معروف عن ضخامة السفن ثلاثية المجاديف، فإنه عند غرقها كانت أجزاء منها تبقى ظاهرة فوق سطح الماء؛ وهو ما يجعل الناجين يتشبثون بها فى يأس. فمن ناحية، هم يجهلون فن العوم، ومن ناحية أخرى، فإن زيهم العسكرى الثقيل –حتى إذا كان خالياً من الدروع– سيجعل هذه العملية مستحيلة ... حتى بالنسبة لمن يجيد العوم.

خلال الأسابيع التالية للهزيمة، تخلى زيركسز عن مدينة أثينا المحترقة، وأبحر هو ومن تبقى من جنوده فى اتجاه مضيق "هيليس بونت". وصاحبه، على الأرض، جيش مكون من

٦٠,٠٠٠ جندى فارسى بحراسة الخطوط الخلفية للقوات المنسحبة. وفى هذا الصدد، فإن الملك الفارسى ترك من خلفه قوة لا بأس بحجمها من الفُرسان وجنود المشاة، تحت قيادة من يقوم مقامه (القائد الفارسى "ماردونيس Mardonius")، حتى يستمر فى الصراع والقتال مع الحلفاء خلال الربيع والصيف القادمين. أما ما تبقى من الجيش الفارسى. فإنه سرعان ما انسحب نحو الشمال خلال الوديان المعشوشبة لـ"بيؤشيا Boeotia" ليقضى الشتاء هناك. وقد استغل اللاجئون من أهل أثينا هذه الفرصة، وعادوا إلى مدينتهم المحترقة مرة أخرى.

وبالرغم من أن الحلفاء اليونانيين قد سارعوا بإعلان النصر فى معركة سالاميز، إلا أن "ماردونيس" عاود الهجوم عليهم واحتل أثينا مرة أخرى. فى هذه المرة أيضاً، هرب سكان أثينا منها، وقام الفارسيون بإحراق المدينة للمرة الثانية. وعلى هذا، فإنه بالرغم من عظمة النصر الذى حققه الحلفاء، فإن هذا لم يمنع الفُرس من احتلال أثينا مرة أخرى. أقام "ماردونيس" معسكره داخل المدينة المحترقة، وأرسل جنوده ليعيشوا فى وديان "بيؤشيا" خلال صيف عام ٤٧٩ ق.م. حتى يستعد لمواجهة الهجوم المضاد، المتوقع حدوثه من جانب الحلفاء. لكن، بعد هروب زيركسز، توجهت قوة مكونة من ٧٠,٠٠٠ جندى يونانى متحمس إلى منطقة "بِلتا Plataea" بالقرب من حدود أتيكا الجبلية فى محاولة للقضاء على "ماردونيس". وهناك، فى سهل صغير بالقرب من نهر "أسابوس Asopos" تمكن الحلفاء اليونانيون من سحق القوة الفارسية وقتل "ماردونيس"، وتشتيت ما تبقى من قواته ... والتى هربت نحو الشمال.

وإذا أخذنا فى الاعتبار الخسائر التى عانى منها زيركسز من جراء العاصفة، وما حدث فى أرتيميسيوم، وما تلاها من هزيمة بحرية فى سالاميز؛ فإنه يمكن القول بأنه قد فقد ما يزيد عن ٩٠٠ سفينة حربية ثلاثية المجاديف. أما بالنسبة لمجمل خسائره فى الأفراد، فإننا إذا أضفنا ما حدث لقوات "ماردونيس" فى وديان "بيؤشيا"، يكون زيركسز قد فقد ما يقرب من ٢٥٠,٠٠٠ جندى وبحار خلال بقائهم فى اليونان. ومن النادر فى التاريخ القديم، أن تتمكن

قوات بهذا الحجم الصغير من قتل تلك الأعداد الضخمة من قوات عدو يفوقها فى الحجم والعدة والعتاد. والنتائج الحضارية الناجمة عن هذا، كانت شديدة الضخامة؛ فلقد أصبح أهل اليونان أحرار بكل ما فى الكلمة من معنى.

بعد فترة زمنية قصيرة من النصر الذى حققه الحلفاء فى سالاميز، اختفى ذكر ثميستوكليز من على لسان المؤرخين للمعارك العظيمة التى حدثت خلال عام ٤٧٩ ق.م. لتتبع أخبار التخلص من عشرات الآلاف من جنود فارس الذين تركهم زيركسز من خلفه خلال انسحابه المتعجل. وحيث أن ثميستوكليز لم يشارك فى المطاردات البرية التى حدثت لهذه الفلول، فمن المحتمل أنه فقد مكانته بين قواد الحلفاء وعند مواطنيه من أهل أثينا. وفى الواقع، فإن ما حدث هو أن ثميستوكليز قد ظل يتابع مطارداته لسفن الأسطول الفارسى الهاربة بمحاذاة شواطئ آسيا الصغرى. ولم يعاود الظهور مرة أخرى، بطريقة واضحة، حتى انتهت هذه المعارك تماماً. لقد كانت المعركة فى سالاميز هى اللحظات الخالدة التى أظهرت عبقريته؛ وعندما انتهت هذه اللحظات القصيرة، فإن البقية المتبقية من الحرب، كان من الممكن لها أن تستمر بدون وجوده.

نهاية غير بطولية ("مجنيسيا"، الجزء الواقع من آسيا الصغرى تحت سيطرة الفُرس، عام ٤٥٩ ق.م.)

بعد مضى حوالى ٢٠ عام على معركة سالاميز، تم العثور على البطل الأسطورى ثميستوكليز ميتاً. عند وفاته، كان ثميستوكليز فى منتصف الستينيات من عمره. والغريب فى الأمر، أنه تم العثور على جثمانه فى آسيا الصغرى داخل ولاية خاضعة للسيطرة الفارسية. وتناثرت شائعات عديدة، على كلا جانبى بحر إيجا، أنه قد قام بالانتحار. وانتشرت قصة تقول إنه قد تم

تسميمه بجرعة مميتة خلطت بدماء الثيران. ومما لا شك فيه، أنه ما كان يجب للبطل الذى أنقذ أثينا –وغيرها من بلاد اليونان– أن تنتهى حياته بهذه الطريقة ... منفياً وملطخاً بالعار.

كان قد تم نفى ثميستوكليز منذ خمسة أعوام سابقة على وفاته؛ فإضطر للهرب من موطنه الأصلى أثينا بعد أن أصبح هناك ثمناً لرأسه. وبالإضافة إلى هذا، سرعان ما أصبح "شخصاً غير مرغوب فيه" فى بلاط ملوك عدد من مدن اليونان الكبرى، الواحدة تلو الأخرى مثل: "Argos"، و"Corcyra"، و"Epirus"، و"Pydna"، و"Naxos"، "Ephesus". وعندما سُدت جميع الأبواب فى وجهه، اضطر أخيراً للذهاب نحو الباب الوحيد المفتوح أمامه، بلاط عدوه السابق على الضفة الأخرى من بحر إيجا. كان التصرف الأخير، هو الحل الذى عادة ما يلجأ إليه كل من أصبح محل نفور لدى أثينا أو إسبرطة. وبالطبع، كان هناك عديد من الخونة الذين انضموا إلى الفُرس، مثل: ملوك إسبرطة السابقين "Demaratus"، و"Pausanias". لقد كانت آسيا الصغرى، مثلها فى هذا مثل المكسيك فى بدايات القرن العشرين، تمثل المنفى الذى يهرب إليه كل من أصبح مَغضُوباً عليه. وفيما بعد، فإن الجنرال الأثينى "Alcihiades" خدم كأحد الولاة لدى الفُرس. ولكنه لم يكن هناك أى شخصية بحجم ثميستوكليز أبداً. وفى هذا الصدد، فإن الغالبية العظمى من جنرالات اليونان العظام –تقريباً كلهم– قد تعرضوا للمحاكمة أو الغرامة أو النفى؛ ولكنه لا يوجد من أصبح فى شهرة ثميستوكليز، ثم تعرض بعدها لمثل كل هذا الخزى والعار.

أثناء حياته فى آسيا الصغرى، خلال الخمس سنوات الأخيرة من عمره (٤٦٣– ٤٥٩ ق.م.)، استغل ثميستوكليز شهرته السابقة، وخبرته فى التعامل مع أهل اليونان، لكى يتكسب معيشته من الراتب الذى منحه له ملك الفُرس فى "مجنيسيا". ومن المفترض أن الملك الطاغية "أرتازسكيز Artaxerxes" الذى ورث حكم الإمبراطورية الفارسية، قد صاح فى فرح متهللاً:

"لقد أصبح لدى ثميستوكليز الأثينى، لقد أصبح لدى ثميستوكليز الأثينى،
لقد أصبح لدى ثميستوكليز الأثينى"

عندما علم بخبر وصول البطل اليونانى –طواعية– إلى أراضى الإمبراطورية الفارسية. وفيما يبدو، فإنه اعتبر وصول هذا القائد العظيم إلى أراضيه وكأنه قد محا الهزيمة التى عانى منها الفُرس فى سالاميز؛ إلى جانب ما هو متوقع من الحصول على معلومات هامة عن أعدائه اليونانيين من قائدهم السابق.

خلال العام الأخير من حياة ثميستوكليز فى المنفى –وفى نفس الوقت الذى كانت فيه مصر فى حالة ثورة ضد الحكم الفارسى– اشتبك الفُرس مرة أخرى مع المدن اليونانية. وإن كان هذا قد حدث، فى هذه المرة، بهدف محاولات الفُرس الحفاظ على إمبراطوريتهم ... وليس التوسع داخل أوربا. ولعل الملك الفارسى الجديد، كان يفكر فى نفسه، بأن الوقت قد حان لكي ما يرد ثميستوكليز الجميل له –عندما استضافه طوال هذه السنوات– ويخطط بفاعلية ضد أهل بلاده الذين نفوه. ولابد أن مثل هذه الفكرة كانت تعذب ثميستوكليز أيضاً؛ وأنها هى التى دفعته، فى لحظة من لحظات اليأس، لأن يقوم بقتل نفسه.

هناك احتمال أخر، فقد يكون ثميستوكليز قد تضايق كثيراً من جحود أهل أثينا، ولم يستطع تحمل مباهاة منافسيه بالانتصارات التى حققوها، مستخدمين الأسطول الذى أفنى هو عمره فى الدعوة إلى إنشائه، وقام هو نفسه ببنائه، خلال أحلك لحظات التاريخ التى واجهت شعوب المدن اليونانية. من المستحيل علينا، الآن، معرفة السبب الحقيقى الذى دفع ثميستوكليز لأن يقوم بقتل نفسه ... إذا كان هذا، هو ما حدث بالفعل. (هناك احتمال لأن يكون اليونانيين قد قاموا باختراع قصة انتحاره؛ فى محاوله منهم لتفسير يأس ثميستوكليز من التهم الظالمة التى وجهت إليه بالخيانة).

وعلى أية حالة، فإنه لا شك فى أن ثميستوكليز قد غادر أثينا خلال فترة ازدهارها وسطوع نجمها (بمعنى أنه طرد منها رغماً عنه)؛ وأنه دخل ليعيش فى أراضى الإمبراطورية الفارسية خلال فترة تدهورها وانكسارها البطيء. والمعنى المستخلص من هذا، واضح، ولا داعى للإفاضة فيه. وفى هذا الصدد، فإن والد ثميستوكليز قد حذره ذات مرة –وهو يشير بإصبعه نحو الهياكل العديدة الملقاة جانباً للسفن ثلاثية المجاديف المهملة على الشاطئ– من أن "السياسات الديمقراطية فى أثينا" متقلبة وسريعة التلون والتغير ... ولا تعترف بأفضال من أفنوا أعمارهم فى خدمتها، خاصة بعد أن تصبح "المدينة–الدولة" فى غير حاجة إلى خدماتهم.

ومن ناحية أخرى، فإن ثميستوكليز كان من النوع الذى يميل إلى التصرفات الدرامية، والشفقة على ذاته؛ وكثيراً ما روى تحذيرات والده، وأخذ يقارن بين نفسه وبين حطام السفن الحربية التى لم تعد ذات نفع ... معتبراً إياه الوضع السائد فى كل مكان. وإحقاقاً للحق، فإن الاتهامات التى حاولوا إلصاقها به، لم تكن أكثر من حزازات شخصية، وأحد الأعراض الجانبية لديمقراطية أثينا –فى تلك الأزمنة الغابرة– والتى تحقد على كل من يبرز ويشتهر؛ وهى التى كثيراً ما دفعت بأفضل العقول العسكرية للهرب نحو الضفة الأخرى من بحر إيجا، بحثاً عن الأمان.

طريق الخراب (أثينا فى الفترة من ٤٨٠- ٤٦٣ ق.م.)

لم يكن النصر الرائع الذى أحرزه ثميستوكليز فى سالاميز هو ذروة الأعمال الخالدة التى تمكن هذا البطل من إنجازها خلال فترة حياته. وفى الواقع، فإنه كان العامل المساعد الذى حفزه على البدء فى تنفيذ أجندة مليئة بالأفكار الأكثر راديكالية، والتى تهدف إلى تغيير الأوضاع فى أثينا ذاتها. ولعل هذا هو ما أثار حفيظة الغالبية العظمى من العائلات القوية والتى تملك

الأراضى فى هذه "المدينة-الدولة". لقد كان ثميستوكليز يرى أن النصر على الفُرس ليس النهاية؛ بل هو مجرد بداية تمكنه من تنفيذ خططه الطموحة الرامية إلى تشكيل أثينا ذاتها.

ومن المعروف أن التحالف بين إسبرطة وأثينا، ضد الفُرس، قد انتهى بسرعة مع نهاية الحرب فى سالاميز. ولعله فى هذا يشبه التحالف -غير الطبيعى- بين الإتحاد السوفيتى السابق وأمريكا مع نهاية الحرب العالمية الثانية. وخلال السنوات العشر التالية، قام ثميستوكليز بالتوسع فى تحصينات المدينة، وزاد من عدد سفن أسطولها؛ لكن كل هذا استفز حلفاء الماضى القريب فى إسبرطة، كما أنه أثار حفيظة منافسيه على المنصب من بين خصومه من أهالى أثينا. أما أكثر ما أثار حنق الأسر الغنية والتى تؤيد إسبرطة عليه، فهو ذهابه إلى هناك -فى الاحتفالية التى أقامها الإسبرطيون- لتأييد أحلامهم اليوتوبية* فى أن تكون كل أراضى اليونان خالية من الأسوار والقلاع. وفى هذا الصدد، فإن شعوب اليونان قد اتفقت على أن تكون كل مدنهم وبلادهم بلا أسوار؛ وبهذا لا يجد الفُرس حصوناً يحتمون بها، كما أن المدن اليونانية لا تتحمل التكاليف الباهظة لعمليات الحصار الطويلة!؟ طبقاً لهذا الرأى الغريب، فإن أهل اليونان سيظلون فى حالة تحالف وأخوة دائمة ... أو على الأقل تكون خلافاتهم، قصيرة الأمد، وأقل تكلفة. وتنقل ثميستوكليز من مكان لمكان مؤكداً لأهل إسبرطة السذج أن أهل أثينا لا يكنون إلا النوايا السلمية تجاه الجميع ؛ فى نفس الوقت الذى كان مؤيدوه من الديمقراطيين منهمكين فى بناء الأسوار والتحصينات داخل أثينا، وحول موانئها، فى محاولة للتغلب على التفوق البرى لقوات إسبرطة الشهيرة.

---

* نسبة إلى كتاب "يوتوبيا" للفيلسوف الإنجليزى "توماس مور Thomas More" (١٤٧٨- ١٥٣٥م)، والذى عبر فيه، عن تصوره لما يجب أن تكون عليه "الحياة المثالية"؛ عندما تخيل وجود هذا المجتمع المثالى المزعوم على أحد جزر الكاريبي النائية ... المنعزلة فى المحيط الأطلنطي. (عادل نجيب)

لقد تفهم ثميستوكليز أن "الأسوار" – على وجه العموم – تضعف المتمسكين بالتقاليد. لأن وجود التحصينات يعنى انخفاض أهمية ملاك الأراضى داخل المدينة فى تجميع أهل أثينا وحشدهم ضد العدو الذى يهدد مزارعهم. وبدلاً من هذا فإن التحصينات والأسوار الجديدة للمدينة ستقسم سكانها، تقسيماً حاداً وواضحاً، إلى طبقة من يملكون أرض، وطبقة من لا يملكونها. وبهذا فإن الأسوار الجديدة ستخفض من النفوذ السياسى والاقتصادى للعائلات والأسر التى تمتعت باليد الطولى والنفوذ من قبل ... خاصة أولئك الذين تقع أراضيهم خارج أسوار المدينة، ويكون من الممكن التضحية بهم من أجل الصالح العام، فى حالة إذا ما تطلب الأمر هذا. لكن ثميستوكليز لم يكن يهدف –بالطبع– إلى فعل كل هذا. وعلينا تذكر أن منتقديه من بين المزارعين ملاك الأراضى، أدركوا أن التنظيم الجبرى لأولويات كل طبقة فى أثينا، سيؤدى بالتبعية لتحقيق مصالح الفقراء خلال تطبيقه لاستراتيجيات الدفاع القومية.

ومما لا شك فيه، أن بناء أسوار وتحصينات هو طريقة أفضل لمواجهة الغزو؛ بدلاً من إخلاء المدينة –على عجل وفى حالة من الذعر– فى كل مرة تتعرض فيها للخطر. لكننا نعلم أن بناء الأسوار يتطلب وجود إنفاق حكومى كبير؛ وهو ما يعنى مشاركة الفقراء فى الثروة من خلال تعيينهم بأجر لبناء هذه الأسوار. كذلك، فإن هذه الاستثمارات نقلت عبء الدفاع الوطنى عن المدينة إلى الأسطول. وهو ما أضاف المزيد من القوة للفقراء الذين يتكسبون معيشتهم من خلال الحصول على أجور يومية تمنح لهم فى مقابل المهام التى يؤدونها. وعلينا الاعتراف بأن استراتيجية الدفاعات البحرية فى سالاميز كانت هى الاختيار السليم فى ذلك الوقت. لكن ثميستوكليز رأى، بمجرد انسحاب الفُرس، أنه من الممكن تحسين هذه الاستراتيجية بدرجة أكبر، عن طريق الاكتفاء بإخلاء "الريف countryside" من سكانه (أصحاب الأراضى الزراعية الواقعة خارج الأسوار)؛ وليس كما حدث فى عام ٤٨٠ ق.م. عندما تم ترحيل حتى الفقراء من أهل المدينة ليعيشوا فى الجزر المحيطة داخل زرائب مفتوحة وأكواخ حقيرة.

وبالطبع، فإن الغالبية العظمى من ملاك الأراضى فى أثينا –خاصة الواقع منها خارج الأسوار المزمعة– كانوا رافضين، كل الرفض، لأفعال ثميستوكليز، والأجندة التى شرع فى تنفيذها لمدة عقد من الزمان حتى الآن ... خاصة أنها قد استطاعت، بخبث ودهاء، إضعاف قوة المشاة المكونة من جنود يعملون بالزراعة (ملاك الأراضى من "الجنود المدرعين"). من وجهة نظرهم فإن أسوار ثميستوكليز قد قسمت المدينة وحولتها من الدفاعات الأرضية الثابتة وألقت بها فى حضن دفاعات بحرية تتلاعب بها الأمواج، عن طريق استغلاله لقلق سكان أثينا على أمنها القومى لاعادة تنظيم الأولويات المفروضة على كل طبقة من الطبقات التى يتكون منها المجتمع المحلي. وفيما بعد، عندما كان الفيلسوف المحافظ "أفلاطون Plato" يراجع تاريخ أثينا الراديكالى خلال القرن الماضى علق قائلاً: "لقد كان من الأفضل لأهل أثينا أن يخسروا معاركهم البحرية كلها، حتى انتصارهم فى سالاميز الذى أنقذ اليونان، بدلاً من تحقيق الانتصارات على طريقة ثميستوكليز؛ والتى أدت إلى نشأة ديمقراطية متطرفة لا يمكن أن يكتب لها الاستمرار، لأنها ببساطة منفصلة، كل الانفصال، عن طبيعة الأرض التى تطبق عليها". كذلك، فإن أفلاطون كان يرى أن ثميستوكليز هو أول من تسبب فى حرمان المواطن فى أثينا من رمحه ودرعه، ودفع به إلى قاع السفن كى يقوم بالتجديف كالعبيد.

لكنه بالرغم من كل هذا، فإن ثميستوكليز لم يضيع أى فرصة لتذكير أهل أثينا بأنه هو، وهو وحده، الذى قام بإنقاذهم من المصير الذى كان ينتظرهم إذا ما انتصر الفُرس عليهم فى سالاميز؛ وأنه أمن مستقبلهم ضد الهجمات القادمة لزيركسز عليهم. وفى هذا الصدد، فإن ثميستوكليز حاول تغيير طبيعة أثينا، وأن يعطيها من نمط هيبته العسكرية. لقد كان يهدف لإحداث تغييرات جذرية فى ذلك النمط القروى لـــ"المدينة–الدولة"، والذى أعطاه لها المشرع القانونى الأثينى "سولون Solon" فى القرن السادس قبل الميلاد، وأن يمنحها هو إمبراطورية بحرية عالمية حديثة قادرة على حكم كِلا جانبى بحر إيجا، تحت السيطرة القوية والعظيمة

لـ"بريكليز Pericles"* الذى سيحقق هذا من خلال تطبيقه لمستوى أعلى من مستويات المساواة بين الأفراد. لقد استخدم ثميستوكليز المكر والدهاء فى هزيمة الفُرس عند شواطئ سالاميز؛ لكنه هذه المرة كان يستخدم مكره ودهاءه فى تهميش مواطنيه من أهل أثينا.

وبالفعل، فإن مصير ثميستوكليز أصبح مثل مصير الكثير من الملهمين وأصحاب الرؤى الحديثة فى أرض اليونان؛ فإن أفكاره الجديدة جعلت كثيرين ينظرون إليه على أنه راديكالى خطير من الواجب التخلص منه ونفيه. وبالرغم من هذا، فإنه خلال العقود القليلة التالية تم تبنى وجهات نظره؛ وقام "بريكليز" -وآخرون- بتشريعها كقوانين رسمية تحدد مسارات السياسة الإمبريالية التى اتبعوها. وهكذا، فإن حجم الأسطول استمر فى التزايد، وتم بناء أسوار أكثر ضخامة وارتفاعاً؛ أسوار أكثر امتداداً حتى أنها وصلت ما بين أثينا وبين ميناء "Piraeus". كذلك، فإن الأفراد من الطبقة الفقيرة أصبح لديهم المزيد من الطرق التى تمكنهم من الحصول على الدعم والمساعدات الحكومية. لكنه علينا توضيح، أن كل هذا قد حدث بعد طرد ثميستوكليز ونفيه خارج أثينا، ومن خلال التجاهل التام لدوره فى إنجاز كل هذا، وخلق إمبراطورية بحرية ... لم يحلم بها أهل أثينا من قبل. وفى هذا الصدد، فإن المؤرخ "Plutarch" يقول لنا إن ثميستوكليز هو الذى تمكن من زيادة ما يتمتع به الفرد العادى من قوة فى مواجهة الطبقة الأرستقراطية فى أثينا؛ وأن هذا قد أدى إلى تصرفهم بتهور ورعونة عندما وصل الحكم إلى يد البحارة وصغار الضباط والقباطنة.

ومن الأمور التى كانت فى غير صالح ثميستوكليز داخل هذه الديمقراطية المهووسة بـ"المكانة"، هى أن جدوده كانوا خليطاً. وأن هذا قد حدث داخل مدينة، تؤمن بأن "مكانة

---

* "بريكليز" (٤٩٥- ٤٢٩ ق.م.) حامل لقب "مواطن أثينا الأول"، وأحد أشهر رجال الدولة فيها خلال عصرها الذهبى، وأول سياسى يعطى أهمية عظمى للفلسفة، والفلاسفة. (عادل نجيب)

الفرد" تتحدد من خلال أصوله النقية غير المختلطة، وحجم الأموال التى يمتلكها، وتأثير أسرته على المجتمع وحجم نفوذها داخله. وفى هذا الصدد، فإن هناك شائعات متناثرة عن أن أم ثميستوكليز كانت تنتمى إلى "Carian" أو "Thracian". ولعلها كانت تعمل بالدعارة! فمن يدرى ما الذى كانت تفعله هناك؟ وحتى من الممكن أن تكون ضمن طبقة العبيد. وبالمثل، فإن والده لم يكن ذائع الصيت، ولا يعرف عنه أهل أثينا إلا أقل القليل. وفى هذا الخصوص، فإن التمثال النصفى المصنوع من الرخام لهذا القائد العظيم، والذى يعود تاريخه لحقبة الرومان، والموجود حالياً فى أحد متاحف "Ostia" فى إيطاليا، والمزعوم أنه نسخة طبق الأصل من التمثال البرونزى الذى صنع لثميستوكليز فى القرن الخامس قبل الميلاد، يُظهر لنا وجه تخالف ملامحه كل الملامح المعهودة للشخصيات اليونانية الشهيرة. هذا التمثال يعرض ملامح خشنة لرجل ذو شعر قصير (لكل من الرأس والذقن)، وهو يشابه فى هذا ملامح إمبراطور عسكرى رومانى لأحد الولايات الواقعة فى شمال أفريقيا، أكثر منه لبطل إغريقى ذو ملامح تقليدية.

وفيما يبدو، فإن أسرة ثميستوكليز لم تكن تتمتع بكثير من النفوذ الاجتماعى، حتى إذا كان لديهم المال اللازم لتحقيق هذا. وكثيراً ما عبر المؤرخون القدامى عن ازدرائهم لوالده، عن طريق القول بأنه لم يكن يملك ما يمكنه من أن يرفع من شأن أسرته، وما لديها من نفوذ اجتماعى على من يحيطون بهم. أما المؤرخون الأكثر حداثة، فإنهم أشاروا بشماتة إلى تصرفاته الجنسية المتحررة وغير المألوفة؛ واتخذوها دليلاً على أنه فظ وفاسق بالفطرة، ومحدث نعمة لم يتمكن من التأقلم مع النفوذ الذى هبط عليه فجأة. وفى هذا الصدد، فإن شهيته نحو الطعام تعتبر إثبات لأنه سيصبح عظيماً سواء كان هذا فى جانب الخير أو الشر. وعلى أية حال، فإن اسم ثميستوكليز – فى اللغة اليونانية – يعنى ما نصه: "المشهور بأنه على حق".

ومن الواجب علينا الإشارة إلى أن تقاليد اليونان القديمة، لم تكن تفصل بين أفكار الرجل والبرنامج الذى يزمع تنفيذه من ناحية، وبين شخصية هذا الرجل وخلفيته الأسرية والأصول

التى انحدر منها جدوده من ناحية أخرى. وكل ما لدينا من ذكر لأحداث تصف المراحل المبكرة من شباب ثميستوكليز، هى أحداث تروى كيفية تغلبه على من هم أفضل منه من حيث الحسب والنسب. ومن هذا، يمكننا استنتاج أنه كان شعلة من الذكاء والطاقة الطبيعية التى لا تنفد. وهو ما أطلق عليه، فيما بعد، المؤرخ "Thucydides" اسم: "قدراته الفطرية". وحيث إن هذا المؤرخ كانت له أصول مختلطة هو الآخر، فإنه زعم أن مواهب ثميستوكليز كانت نابعة من التزاوج المختلط، والقدرة على الحكم بطريقة فطرية سليمة، لم تشذبها الخبرة أو التعليم. أما الحقيقة، فهى أن ثميستوكليز كان عليه أن يدرس بجدية لفترات طويلة وأكثر بكثير من منافسيه أبناء الحسب والنسب، حتى يعد نفسه لمواجهة خصومه، ويدرب عقله كثير التجوال وشديد الالتواء. وعلى سبيل المثال، فإنه وصل إلينا أن ثميستوكليز قد صاح فى وجه منتقديه ومن يحاولون الحط من قيمته قائلاً: "قد لا أستطيع العزف على القيثارة، لكنى أعرف ما هو أكثر أهمية. فأنا أعرف الكيفية التى يمكن بها تحويل مدينة صغيرة غير معروفة إلى مدينة عظيمة تطبق شـــهرها الأفاق". وفى الواقع، فإنه على الرغم من أن ثميستوكليز قد سعى للحصول على أحسن المدرسين والمربيين لكى يقوموا على تعليمه وتثقيفه –مثل الفيلسوف المادى "Mnesiphilos"، والذى أصبح، فيما بعد، صديقه الحميم وكاتم أسراره– إلا أنه ظل يلعب على وتر تذكير الشعب بأصوله البسيطة المتواضعة، حتى يرفع من شعبيته بينهم، ويكسب العامة من سكان أثينا إلى صفه.

عادة ما ظهر الديمقراطيون الأوائل من أهل أثينا، فى كتابات الأقدمين، من خلال النصوص التى خلفتها شخصيات مثل: "Aristophanes"، و"Plato"، و"Thucydides"، و"Plutarch"، و"Xenophon"، و"الأقلية الحاكمة Oligarch"، وكأنهم مجرد مجموعة من الرعاع والدهماء ... لا أكثر. وقد حدث هذا، لأنهم كانوا دائماً ما يستغلون هدفهم النهائى فى "تحقيق المساواة"، لتبرير ما قد يلجأون إلى استخدامه من الوسائل الفظة أو غير المألوفة. وفى هذا الخصوص، فإن

ثميستوكليز كان يَظهر فى هذه الكتابات وكأنه النموذج الأمثل الذى يُعبر عن هذه الوسائل الفظة؛ فهو ذلك الشرير النذل الذى تمكن بمهارته من أن يرتفع بين طبقات أثينا الاجتماعية. وبهذا، كان يمثل النقيض المضاد لشخصيات أرستقراطية رزينة وواعية مثل: "Miltiades"، و"Aristides"، و"Cimon". وقد كان هؤلاء هم المنافسون الرئيسيون له، ولهم تاريخ واحترام يستمدونه من أسراهم وممتلكاهم ... وفى حالة "Aristides" شخصية قوية ومزاج متوازن. وعلى أية حالة، فإن كاتب السير الذاتية "Plutarch"، ذكر فى النصوص التى تركها لنا، مجموعة كبيرة من القصص التى توضح مدى الإساءات التى تعرض لها ثميستوكليز. ومن وجهة النظر اليونانية، فإن ثميستوكليز قد تمكن خلال فترة حياته -عن طريق الغش والخداع والحيل والأساليب الملتوية- من تحقيق النصر فى معركة سالاميز، وتفتيت قوات الفُرس المنسحبة نحو بحر إيجا، وبناء أسوار وتحصينات حول مدينة أثينا. وبالرغم من كل هذا، فإنه كان ينظر إليه على أنه صاحب شخصية غير سوية لا تستحق الاحترام.

فى منتصف عقد السبعينيات (٤٧٠ ق.م.) أصبحت أثينا مدينة محصنة وآمنة، وفى ازدهار مستمر. وكانت قد انتهت، تقريباً، من بناء ما تم إحراقه خلال عام ٤٨٠ ق.م. وكانت هناك "رؤى" جديدة -تهدف إلى تحديث أثينا- منتشرة بين كثيرين. وبدأ الناس فى النظر إلى "النصر العظيم" الذى تم تحقيقه فى سالاميز، على أنه النتيجة الطبيعية والمنطقية لتفوق أساطيل أثينا وقوتها البحرية؛ بدلاً من أن ينظر إليه -كما كان الحال منذ ١٠ سنوات- على أنه نصر غير محتمل ويصعب تحقيقه. ووصل الأمر إلى حد إدعاء بعض أثرياء أثينا، بأن الجهود التى بذلها ثميستوكليز لم تكن ذات أهمية قصوى فى الوصول إلى النصر الذى تم تحقيقه فى سالاميز. ومنذ هذه النقطة، انتشرت القصص التى تنسب النصر العظيم إما إلى حلفاء أثينا أو إلى الوصول المفاجئ لقوات "أريستيدس Aristides" البرية المكونة من "الجنود المدرعين Hoplites".

وما هو أكثر غرابة، أن النمو المتزايد لنفوذ أثينا فى بحر إيجا بين عامى ٤٨٠– ٤٧١ ق.م. قد أصبح، فى عيون العامة، مقترناً بجهود "أريستيدس" وزملائه المحافظين، أكثر منه نتيجة مباشرة للاستراتيجيات التى دعى إليها ثميستوكليز لسنوات طويلة ونفذها رغم معارضة غالبية المحافظين ... ومنهم "أريستيدس" ومجموعته.

وبحلول عام ٤٥٩ ق.م. تناقصت أهمية ثميستوكليز السياسية بشدة، ونسى عامة الناس ما استطاع إنجازه من إصلاحات فى المجال السياسى والعسكرى على وجه الخصوص. وهذا هو ما يجعلنى أرجح أنه قد قام بالفعل بقتل نفسه، حيث أن الانتحار فى تلك الحقبة الزمنية القديمة كان يعتبر مجلباً للعار؛ ورغم هذا، فإن كثير من النبلاء والقادة العظام لتلك الفترة قد لجأوا إليه ... كى ما يضعوا حداً لحياتهم.

فما هى الكيفية التى تمكن بها ثميستوكليز من تحقيق هذه الإنجازات؟

لقد تمكن ثميستوكليز من إعطائنا نموذج للقيادة العظيمة متعددة الأوجه؛ فلقد برز فى مجالات متعددة مثل الدبلوماسية الحصيفة، والشراكة السياسية، والاستراتيجيات العظمى، والتخطيط الحربى، والهدوءِ فى مواجهة الضغوط التى قد تدفع البعض للانهيار، والدهاء الهادئ. وعلى سبيل المثال، فإنه اتخذ العديد من "التدابير الاحتياطية" التى كان يعتقد أنها ستحد من تأثير القوات الفارسية إذا ما قررت مهاجمتهم. وفيما بعد، أثبتت الأحداث أن هذه التدابير الاحتياطية كانت تدل على بعد نظر ثميستوكليز وحصافته. وقد عبر المؤرخ "Thucydides" عن هذا بقوله: "إن بعد نظر ثميستوكليز قد فصل بينه وبين معظم المفكرين العسكريين الناجحين من أهل عصره؛ وجعله فى مستوى أعلى منهم جميعاً". وفى هذا الصدد، فإن هناك

ثلاث مناطق محددة، كانت نصيحة ثميستوكليز فيها هى التى أنقذت الموقف، وغيرت ما كان محتم الحدوث.

أولاً: قضية إصراره على بناء أسطول بحرى ضخم.

إذا كان ثميستوكليز قد توانى فى إصراره على حث مواطنيه من أجل بناء سفن حربية منذ عام ٤٨٣ ق.م. لما أمكن إنقاذ الموقف عندما دعت الحاجة إلى استخدام هذه السفن فى سالاميز عام ٤٨٠ ق.م. وعلينا أن نتذكر فى هذا الصدد، أنه هو الذى استخدم أموال منجم الفضة بدلاً من توزيعها على سكان أثينا. كذلك علينا تذكر أنه قد قاوم بشدة الآراء التى تبناها الجميع بعد انتصارهم فى مارثون من ضرورة التركيز على القوات البرية؛ وكافح بشدة حتى أقنعهم بعكس هذا ... وتم بالفعل إنفاق هذه الثروة على بناء السفن ثلاثية المجاديف التى أنقذهم من مصير بشع بعدها بثلاث سنوات. ولتحقيق هذا، فإنه زعم أن السفن ستستخدم فى هزيمة أعدائهم فى جزر "Piraeus". وباختصار، فإن ثميستوكليز وحده هو الذى تمكن من توجيه هذه الأموال، واستثمارها فى بناء سفن للأسطول.

ثانياً: إخلاء أثينا وتهجير سكانها.

إذا كان ثميستوكليز قد عجز عن إقناع أهل أثينا، والمناطق المحيطة بها، بالرحيل عنها فى سبتمبر عام ٤٨٠ ق.م. لكانوا قد خسروا كل قواهم المدرعة فى معارك عبثية عديمة الفائدة، ومماثلة لما حدث فى "ثرموبيلا" ... وما يتبع هذا من خسائر هائلة فى الأفراد من بين سكان أثينا. وإذا تخيلنا حدوث السيناريو السابق، فإن الخطوة التالية هى إن الأسطول، بعد أن أصبح وحيداً ومنعزلاً، سيجد نفسه –هو الآخر– مجبراً على التراجع إلى الجنوب أو الجنوب الغربى، حيث سيكون أمامه إما أن يتعرض للفناء التام، أو يضطر للدخول فى تحالف إجبارى مع الفُرس. وبالطبع، فإن ثميستوكليز قد أخطا عندما شارك قوات الحلفاء اليونانيين فى زحفهم نحو الشمال لمحاولة إيقاف الفُرس فى السهول الشمالية. لكنه كان قد أدرك خطأه وأصبح واعياً،

خلال منتصف شهر سبتمبر، إن القوات المدرعة لن تستطيع تكرار ما حدث فى مارثون، خاصة وأن جيش الفُرس قد أصبح عشرة أمثالهم فى هذه المرة ... وليس ثلاثة أمثال كما كان فى مارثون. وفى هذا الصدد، علينا التأكيد أن النصر البرى الذى تلا معركة سالاميز البحرية خلال العام التالى (٤٧٩ ق.م.)، كان من الممكن أن ينقلب –هو الآخر– إلى هزيمة بسهولة لولا أن الفُرس كانوا قد خسروا، بالفعل، عشرات الألوف من قواهم البرية فى معركة سالاميز البحرية، إما لتعرضهم للقتل أو الجرح، أو بسبب عودهم عبر المضيق إلى داخل حدود الإمبراطورية الفارسية ... خلال حالة الذعر التى انتابتهم عقب وصول أنباء الهزيمة الساحقة فى سالاميز. كذلك، فإن النصر أصبح متوقعاً، بعد تجمع عشرات الألوف من جنود الحلفاء اليونانيين عقب سماعهم لأخبار انسحاب زيركسز إلى داخل حدود إمبراطوريته، بعد هزيمته البحرية.

ولا توجد أى شخصية أخرى فى تاريخ أثينا كله، تمكنت من إنقاذ المدينة عن طريق اتخاذ قرارات راديكالية حاسمة، تقضى بإخلاء المدينة وتركها لتحترق ... مرتين. وخلال الحقب الزمنية التالية، كان أهل أثينا يشجعون قواهم عن طريق القول بأن الرجال هم الذين يصنعون المدينة وليس العكس، وأن أثينا ليست إلا مجرد أسوار وحوائط من حجارة بدون رجالها ... مثلما فعل جنرال "Nicias". وفيما يتعلق بجهود ثميستوكليز لتحصين أثينا بعد النصر فى سالاميز؛ فإنها استكملت بعد موته من خلال الجهود التى قام بها "بريكليز" لبناء سورين متوازيين يصلان المدينة بميناء "Piraeus". إن مشروعات كِلا الرجلان، تدل على مدى إصرار الأجيال التالية على عدم الوقوع فى الأخطاء التى ارتُكِبت من قبل، أو سماح لمدينتهم بأن تتعرض للاحتراق مرة أخرى.

وفى هذا الخصوص فإن "بريكليز" كانت له نفس طريقة تفكير ثميستوكليز؛ لأنه كان يعتقد بأن أفضل طريقة لهزيمة إسبرطة خلال الحرب "البيلوبونيزاية "Peloponnesian

(٤٣١ - ٤٠٤ ق.م.)، هى أن يتم قتالهم فى البحر، وعدم الدفاع عن أراضى أثينا الزراعية ضد من اغتصبوها من الإسبرطيين. لكن "بريكليز" كان يرى أن مثل هذه الاستراتيجية لا يجب تطبيقها إلا فى حالة الوثوق من أن المدينة وميناءها فى أمان تام خلف الأسوار والتحصينات التى تحمى الغالبية العظمى من سكان أتيكا.

ثالثاً: تحديده لسالاميز على أنها خط الدفاع الأخير

فلقد رأى ثميستوكليز أنه لا يجب السماح للعدو بتجاوز سالاميز، على الرغم من أن معظم أهل الجنوب لم يفهموا، إلا متأخراً جداً، أن هذه الاستراتيجية هى أفضل ما يمكن فعله لتحقيق مصالحهم للدفاع عن شبه جزيرة "بيلوبونيزا"، فى نفس الوقت الذى يظل فيه الأسطول الأثينى جزءاً لا يتجزأ من منظومة الدفاع عن الأراضى اليونانية. وبسبب فهمهم المتأخر هذا، فإنه لم يكن هناك ما يضمن أنهم (أهل "بيلوبونيزا") سوف يشتركون فى القتال فى سالاميز ... خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أنهم كانوا على وشك الانتهاء من بناء الأسوار والتحصينات الموجودة فى "Isthmus". عندما نقرأ ما كُتِبَ فى "قصة حياة ثميستوكليز Life of Themistocles" للمؤرخ "Plutarch"، فإننا لن نجد إلا سلسلة طويلة من الهجمات والانتقادات الموجهة لشخصه ولقدراته على الحكم برزانة على الأشياء، خاصة فى الليلة السابقة للمعركة. لكل هذا، كان من الواجب على ثميستوكليز القيام بأمرين آخرين، حتى يضمن نشوب الحرب فى سالاميز، وتحقيق النصر هناك.

من هنا تأتى الحيلة الخاصة بإرسال خادمه إلى ملك الفُرس، من أجل إقناعه بالهجوم السريع على أساطيل اليونان قبل هروبها. فإن تلك الحيلة أجبرت كل المترددين على حسم موقفهم بسرعة والانضمام إلى قوات الحلفاء اليونانيين. لكن العلماء والباحثين اختلفوا بشأن مصداقية هذا الأمر. ومن وجهة نظري فإن هناك من الأسباب ما يدعو إلى تصديق هذا الأمر فى مجمله:

فأولاً تم استخدام هذه الحيلة عندما أوشك بعض الحلفاء على ترك مواقعهم. عندها، تم إبلاغ القادة المجتمعين بأن القوات الفارسية قد بدأت هجومها بالفعل مستخدمة سفنها ثلاثية المجاديف؛ وبهذا أصبح الخروج والدخول من سالاميز أمراً غير ممكن. عند هذا الحد، اكتشف المترددون من التجمعات اليونانية المتحالفة، أنه من غير الممكن لهم الانســحاب نحو "Isthmus" كما كانوا يخططون. وأن الخيار الوحيد المفتوح أمامهم، الآن، هو قتال العدو أو الاستسلام له.

وحيث أن ثميستوكليز هو الذى تمكن من استدراج الفُرس للدخول بسفنهم إلى المضايق المحيطة بسالاميز؛ فإنه من المحتمل أن تكون "خطة" نشر السفن اليونانية من وضعه أيضاً. وفى هذا الصدد، فإن السر فى نجاح الخطة كان يكمن فى القدرة على أن يتمكنوا من إجبار العدو على الدخول إلى المضايق فى تشكيلات غير منظمة؛ وبهذا لا يتمكن العدو من الاستفادة من تفوقه العددى الكبير. وفى البداية، كان ثميستوكليز قد أمر سفنه بالتجديف إلى الخلف، وهو ما حفز الفُرس إلى المسارعة بالاندفاع نحوهم مفترضين أنهم يحاولون الفرار. وعندما اصطدم الأسطولان لأول مرة، ازداد تخبط السفن الفارسية وانهارت تشكيلاتها أكثر وأكثر ... وهو ما منعها من استخدام كامل قوتها ضد الأسطول اليونانى المنظم.

هناك خلاف آخر لا يزال قائماً فيما يتعلق بأحد الاستراتيجيات التى من المفترض أن ثميستوكليز اتبعها؛ تلك الرسالة السرية الثانية، التى تم الزعم بأنه قد أرسلها إلى الملك الفارسى المهزوم بعد المعركة. فى تلك الرسالة، زعموا إن ثميستوكليز حث الملك زيركسز على العودة بسرعة عبر مضيق "هيليسبونت" قبل أن يتمكن الحلفاء من الوصول إليه وقطع الطريق الوحيد الذى يسمح له بالعودة إلى إمبراطوريته. وزعمت هذه الرسالة أن ثميستوكليز سيعوق قوات الحلفاء اليونانيين من تدمير الجسر العائم ... حتى تتمكن قوات زيركسز البرية من العودة إلى وطنهم فى سلام. إذا كانت هذه الرسالة حقيقية، فإنها بهذا قد دفعت إلى

حدوث انقسام جديد للقوات البرية، وأبعدت أجزاء كبيرة أخرى منها، عن بعضها البعض. وهذا يعنى أن قوات العدو خلال المعركة التالية (معركة "بلِتا Plataea" التى حدثت فى شهر أغسطس من العام التالى)، لم تكن أكثر بكثير من قوات الحلفاء اليونانيين التى هاجمتهم.

حقائق فى غير صالح ثميستوكليز

لقد كان هناك إجماع تام بين القدماء على عبقرية ثميستوكليز، حتى إذا كانت السنوات الأخيرة من عمره قد تلوثت بأفعال مريبة لا يمكن تفسيرها. وبالرغم مما حدث خلال الفترة الأخيرة من عمره، فإنه ظل معتبراً ضمن أكثر واضعى الاستراتيجيات العسكرية موهبة، وأحد أفضل القادة القدماء قدرة على تقييم الموقف والخروج بالحل المناسب. ويمكن العثور على إثبات لما سبق، إذا ما حاولنا تخيل ما الذى كان من الممكن حدوثه لو أن ثميستوكليز قد فشل فى توحيد كلمة الحلفاء وتجميعهم على الحرب فى سالاميز.

وفى هذا الصدد، فإنه لا توجد أى جزر كبيرة أخرى على مقربة من السواحل الجنوبية لبلاد اليونان، كما أنه لا يوجد الكثير من الخلجان أو المداخل للشواطئ الشمالية الشرقية من شبه جزيرة "Argolid"، بحيث تسمح بمكان آمن تستطيع فيه سفن اليونان المنسحبة الاختباء ... وبحيث تحرم الأسطول الفارسى من ميزة تفوقه فى العدد. وحتى إذا كان من الممكن إقناع أهل أثينا بترك سالاميز والقتال فى المناطق الجنوبية البعيدة، فإن الخيارات أمامهم ستكون القتال فى المياه المفتوحة المواجهة لـــ"Isthmus" ، أو الاشتباك فى معركة برية أخيرة من خلف التحصينات التى تم بناؤها هناك. وهما خياران كلاهما مر، ولا يبشران بأى احتمال معقول فى تحقيق النصر. والخيار الأول كان سيعنى الاجتياح التام لهم فى مياه مفتوحة؛ أما

الخيار الثانى فيعنى التعرض للحصار من كل جانب بقوات برية ومنقولة بحراً ... بما لا يسمح بالتفكير فى وجود أى احتمالات للنصر.

وفى هذا الخصوص، فإن المؤرخ اليونانى هيرودوت قد نقل إلينا نص إحدى الخطب التى ألقاها ثميستوكليز، رافضاً فيها الاشتباك فى معركة بحرية عند "كورينث". وبدلاً من هذا، فإنه حاول إقناع القائد الإسبرطى، "يوري بيداس"، بالمزايا الموجودة فى استراتيجيته:

"إذا تخيرت مقاتلة العدو فى "Isthmus"، فإنك ستحاربه فى مياه مفتوحة، لا تعطينا أى مميزات قتالية، حيث أن سفننا أكثر ثقلاً وأقل عدداً. وبالإضافة إلى ما سبق، حتى إذا تمكنا من تحقيق النصر هناك فإنك تكون قد تنازلت بهذه الفعلة عن "Salamis"، و"Megara"، و"Aigina". وحيث أن قواقم البرية ستقتفى أثر أسطولهم؛ فإنك بهذا سوف تقودهم نحو تجمعات السكان فى "بيلوبونيزا"، معرضاً كل ما تبقى من اليونان للخطر.

ومن الناحية الأخرى، فإن ثميستوكليز أظهر لهم مزايا القتال فى سالاميز، لأنه سيضمن إعاقة تقدم الفُرس نحو "Isthmus" وهو ما سيزيد من طول المسافة بينهم وبين تجمعات السكان فى "بيلوبونيزا". كل هذه المزايا جعلت النصر فى سالاميز هو الطريق الوحيد الذى قد يمكنهم من إنقاذ كلا من "أثينا" و"بيلوبونيزا". أما النصر فى "Isthmus" –حتى بافتراض إمكانية تحقيقه– فإنه لن ينقذ أتيكا* من مصيرها والذى سيصبح محتوما عندئذ.

---

* فى هذا الصدد، علينا ملاحظة أن ثميستوكليز نفسه، قد دخل فى مناقشة مطولة للفرضيات التى من الممكن أن تحدث، لو أنهم رفضوا إتباع الاستراتيجية التى دعى هو إليها، طبقاً لما جاء فى كتاب "هيرودوت Herodotus" الجزء الثامن صـــ٦٠ و٦١ وما بعدها. (عادل نجيب)

لقد كان مفتاح الدفاع عن أراضى اليونان هو المحافظة على أكبر قوتين لديها (أثينا وإسبرطة) فى تناغم وتحالف تام، بنية الدفاع عن كل الأراضى اليونانية، بعد ما لقوه من هزيمة وانسحاب من "ثرموبيلا". وفى هذا الخصوص، فإن ثميستوكليز كان يعلم أن عشرات الألوف من الجنود والبحارة والمدنيين، من أهل أثينا لم يتمكنوا بعد من الوصول إلى "Troizen"، و"Aegina"، وأن الغالبية العظمى منهم لا تزال فى سالاميز. وفى هذا الوضع، فإنهم إما سيتعرضون للموت أو العبودية لو أن الأسطول اليونانى تركهم ليواجهوا الفُرس، بالإضافة إلى أنه لم يكن لديهم إمدادات أو مأوى ... مما يعنى أنه لا يجب التأخر فى إنقاذهم.

وجهه أحد شيوخ أثينا الكبار، "Mnesiphilos"، تحذيراته إلى ثميستوكليز، من أن عدم مواجهة الفُرس فى سالاميز، يعنى ضياع الفرصة، إلى الأبد، فى أن تتجمع الأساطيل اليونانية مرة أخرى فى أسطول واحد منظم، حتى إذا ما تقرر القتال فى "البرزخ Isthmus". لقد كان هذا الشيخ الحكيم، يعلم أنهم سيعودون بسفنهم إلى مواطنهم الأصلية؛ ولن يتمكن "يوري بيداس"، ولا أى قائد آخر من تجميعهم مرة أخرى. ولعل هذا هو السبب، فى أن هيرودوت قد نقل عن ملكة "Carian" تحذيرها للفرس بأن يتجنبوا الاشتباك مع الحلفاء اليونانيين فى سالاميز. فهى التى نصحتهم بضرورة الانتظار حتى يتمكنوا من التقدم التدريجى على الأرض نحو الأجزاء الجنوبية. وكانت حجتها فى هذا، أن المعركة البحرية فى سالاميز ستمنح المحاصرين من أهل اليونان فرصة جديدة للتوحد قد تمكنهم من وقف الهجوم الفارسى.

وبالرغم من كل هذا، فإن أهل "بيلوبونيزا"، طبقاً لما ذكره هيرودوت، أصروا فى عناد على فكرة الاشتباك فى معركة برية دفاعية. وخلال الفترة التى استغرقتها المباحثات بين القادة قاموا ببناء تحصينات دفاعية فوق البرزخ الضيق ... لأنهم انتووا، بالفعل، أن يحاربوا الفُرس من خلفها. وطبقاً لما قاله هيرودوت، فإن آراء ثميستوكليز ظلت مرفوضة حتى اللحظة الأخيرة؛ والتى أرسل فيها خادمه بالرسالة إلى ملك الفُرس (تلك الرسالة الأولى التى استدرجت

زيركسيز لأن يبدأ الهجوم مباشرة). كذلك، فإن هناك أسباباً جيدة تدعونا إلى الاعتقاد بأن الدفاعات الأرضية التى أنشأها أهل "بيلوبونيزا"، كانت ستفشل فى وقف زحف الجيش الفارسى.

ومرة أخرى، فإنه علينا التذكير بأنه كان فى إمكان الأسطول الفارسى، بسهولة، إنزال قواته خلف التحصينات وليس أمامهم. وبعد مرور ٥٠ عاماً على هذه الأحداث، تمكن أهل أثينا من إتباع هذه الاستراتيجية فى الإنزال البحرى، خلال حرب "Archidamian" (عام ٤٣١- ٤٢١ ق.م.)، عندما قامت سفنهم بإنزال الجنود خلف التحصينات التى تم بناؤها على البرزخ الذى يصل بين خلجان "Corinthian" و"Saronic". وخلال الفترات التالية من التاريخ، لم تتمكن أى قوة مدافعة من منع المهاجمين من عبور البرزخ عن طريق أسوار أو تحصينات. وهو ما حدث أربع مرات، من قِبَل الجنرال "Epaminondas" (خلال الفترة ٣٧٠- ٣٦٢ ق.م.)، فلقد تمكن فى كل مرة من تحطيم التحصينات والأسوار والمضي نحو هدفه. وكل هذا، يظهر لنا أن أراء ثميستوكليز كانت صائبة؛ وأن محاولة وقف الزحف الفارسى، عن طريق بناء تحصينات، لم يكن سيكتب لها أى نجاح؛ بالإضافة إلى أنها –من الناحية الاستراتيجية– لا تعتبر بديلاً حقيقياً يحقق الأهداف التى أمكن تحقيقها عندما تم الاشتباك مع العدو فى معركة بحرية حاسمة عند ســالاميز.

ومن الناحية الأخرى، فإن النجاح الذى أحرزه أهل اليونان فى سالاميز، لم يدمر الأسطول الفارسى، أو يؤثر كثيراً على قوة الفُرس البحرية. كما أنه علينا تذكر أن هذا النصر العظيم لم ينجح فى تخليص أتيكا من كل جنود الفُرس الذين عاثوا فساداً فيها. وبالرغم من هذا، فإنه كان ضرورة قصوى، ونقطة تحول هامة فى مسار الحرب، حولت ما كان من المتوقع أن يكون "هزيمة مؤكدة" إلى "نصر محتمل"، لأن ثميستوكليز تمكن –فى هذه المعركة– من إغراق السفن الفارسية التى لم تجبر على الانسحاب، كما أنه نجح أيضاً فى تحطيم معنويات قوات فارس

البرية ... والتى لم تستطع تحقيق أى نصر –رغم تفوقها العددى الكبير– بعد ما حدث فى سالاميز. ومما لا شك فيه، أن كل العوامل اللوجيستية كانت فى صف أهل اليونان، إلى جانب معرفتهم الحميمة بطبيعة الأراضى والبحار التى يحاربون عليها، والارتفاع المشهود فى معنوياهم بعد ما حدث فى سالاميز.

شخصية ثميستوكليز

خلال جولته لتفقد جثث الجنود الفُرس الملقاة هنا وهناك على شواطئ سالاميز، قال لمن يرافقه إن بإمكانه نزع ما ترتديه هذه الجثث من مجوهرات وذهب، قائلاً: "خذ منها ما تشاء ... فأنت لست ثميستوكليز". وفى هذا الصدد، فإن هناك عدد من العبارات المأثورة عنه تشبه هذه العبارة؛ وتظهر لنا أن ثميستوكليز كان يشعر بأنه أفضل من كل من حوله، وأسمى خلقياً. وهذه المأثورات، تدلنا على أنه كان فى حاجة دائمة لأن يُظهر المحيطون به إعجابهم وتقديرهم لعبقريته. وفى هذا الخصوص، فإن كثيراً من المؤرخين اتفقوا على أنه كان متغطرساً ومغروراً، ويعامل الآخرين بعنجهية، وثقة تامة فى حكمته وقدراته على القيادة. كذلك فإن ثميستوكليز لم يترفع عن الكيد لمنافسيه حتى يتخلص منهم. ونحن نعلم أنه زور علامات وإشارات لكى ما يثير خوف من يؤمنون بالقوى الخفية وبالخزعبلات، ويجعلهم ينضمون إلى صفه. وهو قد أرسل رسائل "مزدوجة المعنى" إلى عدوه مؤمّناً بهذا خط رجعة لنفسه ... فى حالة ما إذا فشلت استراتيجيته فى تحقيق النصر. كذلك، فإنه تمكن من خداع أهل إسبرطة، وجعلهم يعتقدون أنه يوافقهم الرأى؛ فى نفس الوقت الذى كان يزود فيه أثينا بأسوار وتحصينات تخالف رأيه المعلن أثناء اجتماعه بقادة إسبرطة.

هناك عيب آخر فى شخصية ثميستوكليز، فإنه كان لا يفى بالعهد. ولعله قد تعلم ضرورة هذه العادة السيئة خلال تسلقه لمراتب السلم الاجتماعى، فى مواجهة عقبات لم يتعرض لها منافسوه. فعلينا تذكر، أن ثميستوكليز لم يخرج من نبتة الارستقراطية فى أثينا، فهو لم يكن يتمتع بالمركز والجاه الذى يتمتع به ملاك الأراضى، ولم يكن لديه حلفاء يؤيدونه من الأسر العريقة ذات الأموال الوفيرة والممتلكات التى لا حصر لها. كل هذا، جعله غير قادر على الشعور بالندم أو وخز الضمير عندما قرر هجر قبور الآباء ومعابد أثينا، وتركها لتواجه الحرق والتخريب، حتى يتمكن من إنقاذ أهلها من عامة الشعب. ويخبرنا كل من هيرودوت وبلوتارك، أن كثيراً من المنجزات العظيمة التى حققها ثميستوكليز، تمت من خلال الرشوة والغش والخداع ... بما فيها الأعمال العظيمة التى أنجزت خلال العام الذى تولى فيه القيادة، قبل وبعد، معركة سالاميز. ولعل عدم تمتعه بأخلاقيات الطبقة الأرستقراطية، هو الذى دفع عدداً كبيراً من القادة اليونانيين لأن يصوتوا فى غير صالحه، عندما تم ترشيحه لنيل "جائزة التفوق Prize of Excellence"، كمكافأة له على قيادته الموفقة لمعركة سالاميز.

وفى هذا الصدد، علينا التذكير بأن الاعتماد الكبير على الأساطيل البحرية، والاختباء خلف أسوار وتحصينات، والإخلاء التام لمدن بأكملها، لم يكن يتوافق مع أخلاقيات العظماء من الطبقة الأرستقراطية، ومفهوم الشرف والشجاعة لديهم، والذى كان يقضى بضرورة مواجهة العدو وجهاً لوجه ... بصرف النظر عن الظروف ومقتضيات الأمر الواقع؛ وأن الشخص لا يكون متفوقاً أخلاقياً إذا ما قرر الهرب من وجه عدوه، أو قرر عدم الدفاع عن قبور الآباء والأجداد، ومعابد الآلهة، وديانات الأقدمين. أما بالنسبة لثميستوكليز فإن هذه التصرفات لم تكن أكثر من أدوات مفيدة يمكن استخدامها فى تحقيق النصر وتأمين أرواح مواطنيه. لقد كان كل اهتمامه محصوراً فى قيادة أثينا إلى بر السلام وتحويلها إلى مجتمع ديمقراطى صرف، يستطيع التحكم فى الأراضى الواقعة على كِلا طرفى بحر إيجا. ولعل كل هذا

يفسر المشاعر المتناقضة التى أحسوا بها تجاه ثميستوكليز، واستراتيجياته غير التقليدية. فمن ناحية، كانوا يحبونه لأنه قد تمكن من إنقاذ مدينتهم وسكانها. ومن ناحية أخرى، كانوا يكرهونه لأنه اتبع طرق غير أخلاقية –من وجهة نظرهم– فى تحقيق هذا. وفى هذا الصدد، كان من الواجب علينا معرفة أن شخصية مثل شخصية ثميستوكليز هى وحدها القادرة على تحقيق تلك الإنجازات العظيمة التى أنقذت أراضى اليونان من الاحتلال ووحدت بين قلوبهم المتناحرة. إن الوضع فى سالاميز هو الذى مكن ثميستوكليز من أن يؤثر فى طبيعة أهل أثينا –واليونان بأكملها– وأن يجعلهم يتقبلون تصرفات كانوا مؤمنين بأنها غير أخلاقية، ولا تليق بهم.

لكن الخطوات التكتيكية التى يتم اتخاذها على أرض المعركة، وحتى الاستراتيجيات العظمى، لا تكون كافية –فى حد ذاتها– لاستعادة الديموقراطية التى تضررت خلال الحروب، وما اقترن بها من أزمات. وفى هذا الصدد، فإن الإرث الذى خلفه ثميستوكليز لا يقتصر على نجاحه فى استدراج زيركسز لأن يقاتل فى المنطقة الوحيدة التى ما كان عليه أن يقاتل فيها، ولا فى الخطة التى تم اتباعها لتحسين فرصهم فى تحقيق النصر. إن الإرث الحقيقى، يكمن فى أن سالاميز تعتبر "الخط الفاصل" الذى يفرق بين أجزاء معقدة من وجهات نظر وآراء ثميستوكليز. فإن المدينة، تحت قيادته، قد تعلمت المزايا العظمى التى يمكن أن تجنيها من تفضيل "البشر" على "الأرض والحجارة". كذلك فإن أهل أثينا –واليونان بأكملها– قد أصبحوا مدركين لأهمية السفن الحربية، وأنها أكثر بكثير من مجرد أداة مساعدة للقوات البرية، تستخدمها فى الانتقال من مكان لآخر. وبالمثل، فإن هذه الحرب أشعرت الفقراء بوجودهم ومدى أهميتهم، ومنحتهم قدراً لا بأس به من الهيبة والاحترام. وهكذا، فإنه تحت قيادة ثميستوكليز، أصبح فى إمكان أهل اليونان القول بأنه من الممكن هزيمة الإمبراطورية الفارسية

بطريقة ساحقة ماحقة، تجعل القوة الجديدة فى بحر إيجا هى قوة الإمبراطورية الأثينية مع من ينضم لها من حلفاء.

ومما لا شك فيه أن إنجازات ثميستوكليز هى التى مهدت الطريق –فيما بعد– للإمبراطورية البحرية التى قام "Pericles" بتأسيسها؛ بالإضافة إلى أنها ساعدت على تقبل أهل "بيلوبونيزا"، بعدها بنصف قرن من الزمان، لمبدأ إخلاء مدينتهم عند حدوث وباء الطاعون الذى انتشر خلال الحرب "البيلوبونيزاية" ... وهو ما أنقذ حياة أعداد كبيرة من البشر. والنقطة الفاصلة العظمى هى أن الإرث الذى تركه ثميستوكليز من إشعال نار الصراع بين الطبقات؛ خاصة الصراع بين طبقة الجنود المدرعين من ملاك الأراضى، وبين الجنود والبحارة الذين لا يملكون أرضاً أو ممتلكات. ونحن نعلم أن الصراع الذى دام لما يقرب من مئة عام بين أثينا وإسبرطة، قد انتهى بعد كل هذا بهزيمة أثينا. وهو ما دفع عدداً من المفكرين المحافظين –فيما بعد– للنظر إلى سالاميز على أنها بداية النهاية للأخلاقيات التى تميزت بها "المدينة–الدولة" خلال الفترات المبكرة من العصور الإغريقية؛ لأنه عند هذا الحد، بدأت الحكومات فى إعادة توزيع الثروة، وخلق مستعمرات تابعة. لكن كل هذا لا يزال فى المستقبل. أما مسئولية من اتبع ثميستوكليز فهى رفض أو قبول أو تعديل الاستراتيجيات التى كانت تهدف –خلال فترة حياته– لأن تحمى أهل أثينا من الخطر الفارسى. فمما لا شك فيه، أن استراتيجيته هذه قد نجحت، نجاحا ساحقا، فى تحقيق هذا الهدف.

كذلك، فإن المراقبين خلال العصور القديمة، علقوا على ما سموه بـ"الأخلاقيات السامية" للحلفاء فى سالاميز. فحيث أن أهل اليونان كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أساس أنهم لن يكونوا عبيد لأحد أبداً. حتى أن القائمين على التجديف فى سفنهم كانوا يتغنون قائلين:

"حرروا أرض وطنكم، حرروا أطفالكم، حرروا زوجاتكم، وحرروا معابد آلهتكم ... والقبور التى يرقد فيها آباؤكم وأجدادكم".

وهم فى طريقهم للاصطدام بقوة بسفن الفُرس. فإذا كان أهل اليونان مؤمنين بأهم يتمتعون بتفوق فطرى على الفُرس، فإن ثميستوكليز نفسه كان يؤمن هو الآخر بتميز أهل أثينا وأهم أكثر تفرداً وخصوصية عن غيرهم من البشر. لقد كان ثميستوكليز فخوراً بانتمائه لأهل اليونان جميعاً، لكنه فى معركة سالاميز كان يسعى لإنقاذ مدينته وما سيصبح –فى المستقبل– الإمبراطورية الأثينية، مخترعاً بهذا ما نعرفه –الآن– فى الشرق والغرب على أنه "دولة مسلحة A State in Arms" ذات سيادة يشارك فى الدفاع عنها كل مواطن من مواطنيها، وبصرف النظر عن الطبقة التى ينتمى إليها.

إن ما جعل ثميستوكليز قائداً عظيماً هو قدرته على تقديم استراتيجيات عملية تعكس شخصية الغالبية العظمى من المواطنين فى بلده، ويظهر هذا من خلال أن "القوة البحرية" كانت تشتمل على كل العناصر الحقيقية للقوة الموجودة فى المدينة ذاتها ... وقد كانت قادرة على فعل هذا بمفردها. وهذا هو ما جعل أثينا، فى النهاية، تبرز على غيرها من المدن اليونانية الكبرى. وهى طريقة عملية جداً، خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار نظرات المحافظين المتعصبة فيما يتعلق بـــ"المكانة"، وتحيزاهم الطبقية الجوفاء. هذه الطريقة مكنتهم بطريقة عملية من ضم ما يزيد عن نصف عدد السكان فى أثينا إلى الأشخاص المسئولين عن الدفاع عنها. ومما ساعد فى تحقيق هذا الهدف (جعل أثينا قوة بحرية تعتمد، فى الأساس، على سكاها من غير ذوى الأملاك) هو أن ثميستوكليز كان غزير المعرفة وله خبرة واسعة تزيد بكثير عما لدى أعدائه ومنافسيه من القادة الآخرين. فخلال تلك الحقبة، لم يكن هناك أى جنرال يستطيع ابتكار مثل هذا العدد الكبير من الاستراتيجيات والتكتيكات المختلفة فى حالة حرب واقعة فى هذا الجزء القديم من البحر الأبيض المتوسط.

هناك اختلاف آخر، فإن زيركسز ورث عرشه، بينما تمكن ثميستوكليز من الوصول إلى منصبه عن طريق تسلق سلم القيادة، درجة درجة. وخلال المعركة، كان على قمة أحد سفنه

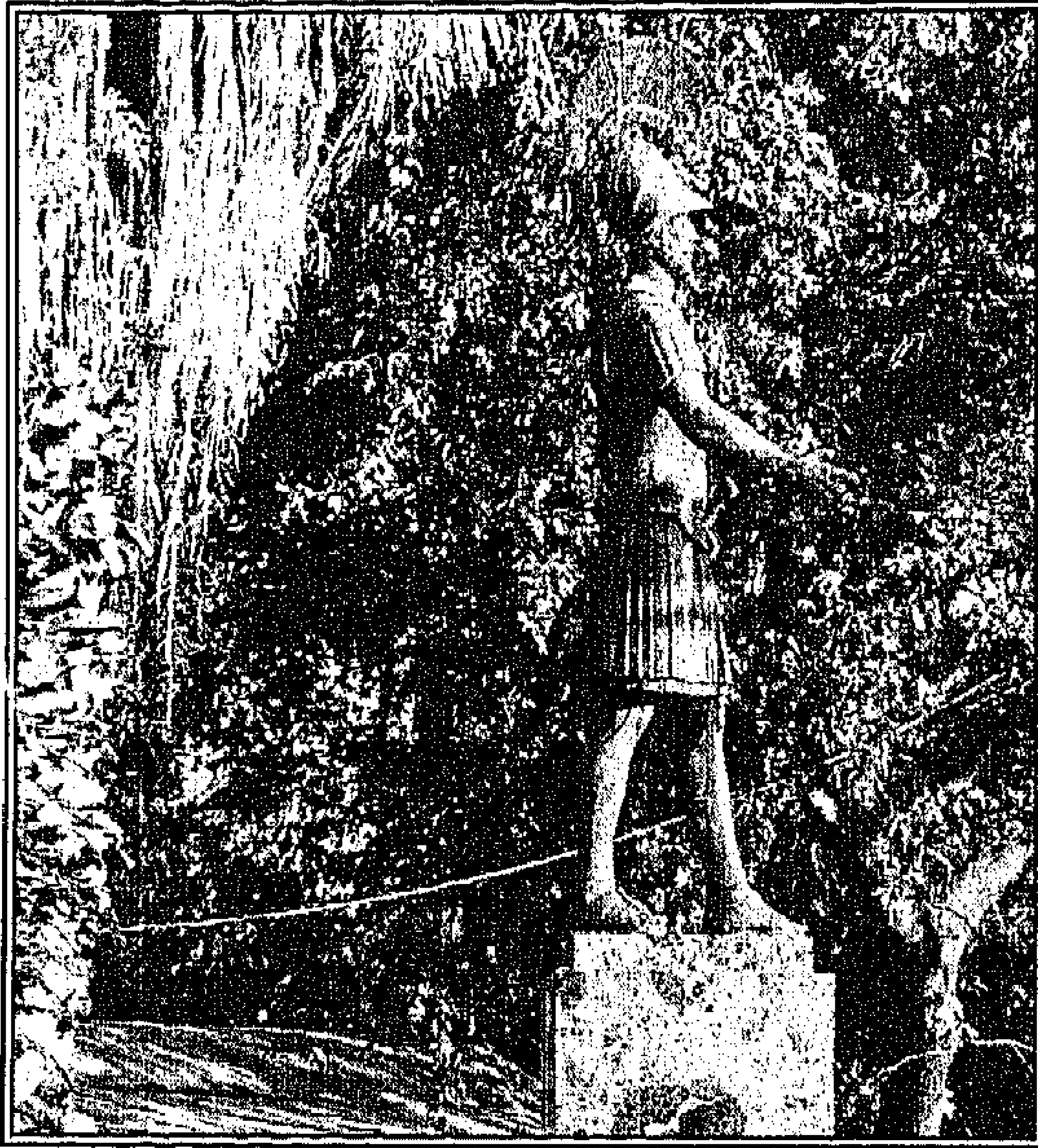
ثلاثية المجاديف؛ فى مقدمة السفن المهاجمة. وفى هذا الصدد، علينا تذكر أن الغالبية العظمى من الجنرالات اليونانيين لم يثقوا فى طبقة العبيد. لكن كانت هناك علاقة خاصة بين ثميستوكليز وعبده الخاص ("Sicinnus")؛ والذى كان بدوره لصيق الروابط والصلات بجنود الصف وغيرهم من صغار الجنود المشاركين فى الدفاع عن أثينا. أما فى الجانب الآخر، فإن كل جنرال من جنرالات فارس كان يخضع خضوعاً تاماً، وينحنى فى خشوع، يقترب من العبودية، لزيركسز. أما القادة اليونانيين، فقد هدد أحدهم ثميستوكليز بالضرب. وبهذا، فإن ثميستوكليز لم يكن "أكثر من مجرد جنرال" بالنسبة لجنوده فحسب، بل إنه كان "أكثر من جنرال" حتى بالنسبة لزملائه من جنرالات اليونان الآخرين ... لقد كانوا يقدرونه لذاته.

ثميستوكليز ذو المهارات الاجتماعية الرفيعة وبُعد النظر الفائق

كان من عادة المؤرخين القدماء إجراء العديد من المقارنات بين القادة العظام لكل من "اليونان"، و"روما" بهدف تحديد حجم الموهبة التى كان يتمتع بها كل منهم. ومن خلال المعايير القديمة فى التقدير، كان ثميستوكليز يعتبر قائداً بارزاً وموهوباً. لكن هذا لم يحدث بسبب نجاحه؛ وإنما لأن نجاحه بدا وكأنه جزء لا يتجزأ ونتيجة طبيعية لعقليته العسكرية. وفى هذا الصدد، فإن "Diodorus" قد اقتفى خطوات المؤرخ اليونانى "Ephoros" ووضع قائمة بالأسباب التى جعلته يصنف ثميستوكليز على أنه أعظم القادة العسكريين الذين أخرجتهم اليونان ("Megistos Hellénôn"). لقد تمكن ثميستوكليز من أن يحقق أعظم النتائج الممكنة من خلال استخدامه لموارد محدودة قليلة جداً. وهذه النتائج العظيمة لم تقتصر على التخلص من الفُرس وطردهم من الضفاف الغربية لبحر إيجا، بل إنها امتدت لتشمل التغلب على منافسيه الإسبرطيين واحتلال مكانتهم التاريخية البارزة بين القوات البرية لمدن اليونان؛ وهو ما أدى

–فيما بعد– لوضع أثينا على الطريق لأن تصبح إمبراطورية. إن عبقرية هذا القائد العظيم، هى التى مكنته من تحقيق النصر فى سالاميز، كما أنها هى التى منحت أثينا أسطولاً يمكنها من السيطرة والتفوق على باقى المدن اليونانية.

على الرغم من أن المؤرخ "Thucydides" لم يكن من المغرمين بديمقراطية أثينا الوليدة؛ إلا أنه استطاع أن يرى بوضوح كيف أن ثميستوكليز قد تمكن من إنقاذ أثينا "بمفرده" ... متجاوزاً الجميع بقدراته على التخطيط والإقناع. وخلال فقرات طويلة قام هذا المؤرخ بمدح وتمجيد أعمال ثميستوكليز، مدعياً أنه تمكن من هزيمة زيركسز من خلال ذكائه الغريزى وبصيرته الثاقبة، وموهبته النادرة القادرة على رؤية أن بعض الأشياء التى يظن الآخرون أنها لا يمكن أن تحدث: يكون من الممكن لها أن تحدث، مرة واحدة على الأقل، فى المستقبل القريب.



تمثال ثمستوكليز فى أحد حدائق المدينة اليونانية "Piraeus". تلك المدينة التى حصنها وحماها خلال حياته، فقامت بتخليده بعد موته.

فى حالة خسارة ثميستوكليز للأجزاء الرئيسية من أراضى اليونان، كان سيجبر على فعل ما قام به شعب "Ionia" المهزوم عندما انضم – مضطراً – إلى الفُرس، وعانى من الركود الحضارى لسنوات طويلة. وفى هذا الصدد، يكون من الواجب علينا الاعتراف بأن "الحضارة الفارسية"

تختلف كثيراً فى أفكارها ونظراتها إلى الحرية الشخصية، والديمقراطية، وحقوق الفرد، واعتمادها على المنطق والعقلانية عن "الحضارة اليونانية". وببساطة، يمكننا القول بأنه لولا وجود "جنرال منقذ" بعظمة وحكمة ثميستوكليز، لكان عالم الحاضر الذى نعيش فيه مختلفاً تماماً عما نعرفه الآن.

إن النصر الذى تم تحقيقه فى مارثون عام ٤٩٠ ق.م. قد أثار انتباه ثميستوكليز، ودفعه للتفكير، واتخاذ الحيطة والحذر؛ بينما دفع الآخرين للتراخى والاستسلام لحالة من الفرح والغبطة. والشيء ذاته، ينطبق على ما عاناه من هزيمة فى ثرموبيلا؛ فبينما استسلم الجميع لحالة من اليأس والإحباط، تمكن ثميستوكليز من التفكير فى استراتيجية تنقذهم مما هم فيه. وفى الواقع، فإن كل أراضى اليونان لم تكن حرة –بكل ما فى هذه الكلمة من معنى– قبل انتصارهم فى سالاميز. وبعد أن تمكن ثميستوكليز من تحقيق هذا النصر الرائع أصبح هناك بعض الأعداء الأجانب فى محيط بحر إيجا. وتحقق حلمه فى رؤية أسطول أثينى متنامى. ومع هذا، تزايدت حدة العداء بينه وبين إسبرطة، وسرعان ما انقلبت إلى حرب معلنة بالفعل.

بعض الأشياء التى يظن الآخرون أنها لا يمكن أن تحدث: يكون من الممكن لها أن تحدث، مرة واحدة على الأقل، فى المستقبل القريب.

الفصل الثانى

صلاح الدين الأيوبي

ولد القائد العربى المسلم صلاح الدين الأيوبى عام ١١٣٨م (أو عام ١١٣٧م طبقاً لبعض الروايات)، وهو أول السلاطين الذين حكموا مصر وسوريا، مؤسساً بهذا الأسرة الأيوبية. وهو من أصول كردية مسلمة. وقد قام بقيادة المقاومة العربية ضد الحروب الصليبية التى هاجمت بلاد الشام. وخلال أقصى اتساع لها، شملت إمبراطوريته كل أراضى مصر، وسوريا، وبلاد ما بين النهرين، والحجاز، واليمن، وأجزاء أخرى من شمال أفريقيا.



تمثال برونزى بالحجم الطبيعى لصلاح الدين الأيوبى فى البهو الرئيسي من المتحف العسكرى المصرى بالقاهرة.

هذا، وقد تم إرساله إلى مصر الفاطمية، بواسطة مولاه "نور الدين زنكي". وهناك، تقدم صلاح الدين وترقى فى الرتب، داخل الدولة الفاطمية، من خلال السمعة الطيبة التى اكتسبها فى المعارك الحربية الناجحة ضد هجمات الصليبيين؛ وبسبب علاقاته الوثيقة مع الخليفة الفاطمي "العاضد لدين الله al-Adid". وعندما توفى عمه ("أسد الدين شيركوه") فى عام ١١٦٩م، تم تعيين صلاح الدين فى وظيفة الوزير الأول؛ وهو شيء نادر الحدوث جداً، ومن الصعب تخيله، حيث أن صلاح الدين كان من أتباع المذهب السني فى دولة تدين بالمذهب الشيعى (الدولة الفاطمية). وبالفعل، بدأ صلاح الدين، خلال مدة وزارته، فى الحط من شأن الشيعة وقوض فى مؤسساهم الفاطمية وأضعفها.

وبعد وفاة الخليفة فى عام ١١٧١م، استولى على الحكم، وأصبحت السلطة الحقيقية بين يديه، وتحالف مع الخلافة العباسية فى بغداد. وخلال السنوات التالية، قاد هجمات متفرقة ضد الصليبيين فى فلسطين؛ كما أنه قاد حملة ناجحة على اليمن؛ انتهت باستيلائه على السلطة فى هذا البلد، وخضوعها التام له. كذلك، فإن صلاح الدين الأيوبى تمكن من إخماد الثورة الفاطمية التى نشبت ضده فى صعيد مصر، ممهداً بهذا الطريق للقضاء على المذهب الشيعى، وتحول بر مصر إلى المذهب السني.

لم تمض فترة طويلة بين وفاة مولاه "نور الدين" –المتسلط على بلاد الشام– فى عام ١١٧٤م، وبين قيام صلاح الدين بغزو سوريا والاستيلاء على السلطة فيها. وهو قد تمكن من دخول العاصمة دمشق بطريقة سلمية، وبدون إراقة أى دماء، بل وبدعوة من حاكمها ذاته. ومع حلول منتصف العام التالى، منتصف ١١٧٥م، قام بغزو "حماة"، و"حمص"؛ مما أثار حنق الأسرة الزنكية عليه (أسرة مولاه السابق المتوفى "نور الدين زنكي")، فهم –من الناحية الرسمية– قد ورثوا عنه التكليف بحكم وإدارة شئون هذه المناطق من بر الشام. وبالفعل، اشتبك صلاح الدين مع جيش ورثة مولاه السابق وانتصر عليه؛ معلناً نفسه سلطاناً على مصر

وسوريا، من قِبَل الخليفة العباسي* المستضيء بأمر الله. وخلال الفترات القصيرة التالية، قام صلاح الدين بالمزيد من الغزوات فى الأراضى الواقعة شمال سوريا، وفى أراضى الجزيرة (ما بين النهرين). وخلال نفس الفترة، نجا بحياته، من محاولتين لاغتياله، قبل عودته لمصر فى عام ١١٧٧م لمواجهة بعض المشكلات التى حدثت هناك. ومع حلول عام ١١٨٢م، كان صلاح الدين قد تمكن من الاستيلاء على حلب؛ وإن كانت غزواته قد فشلت –لسنوات طويلة– فى الاستيلاء على أكبر معاقل ورثة "نور الدين زنكي" (مدينة الموصل).

لقد تمكنت جيوش صلاح الدين الأيوبى –تحت قيادته الشخصية– من هزيمة الصليبيين فى معركة حاسمة وضعت حداً للوجود الأوربى فى الشرق (معركة حطين التى وقعت عام ١١٨٧م). ومن خلال انتصاره فى هذه المعركة استعاد المسلمون نفوذهم على كل أراضى فلسطين التى استولى عليها الصليبيون منذ ٨٨ عاماً سابقة على هذا؛ وبالرغم من أن "مملكة أورشليم Kingdom of Jerusalem" الصليبية استمرت فى الوجود لفترة أطول بعد هزيمتهم فى معركة حطين ... إلا أن الأمر قد انتهى بزوالها هى الأخرى. لقد كان هذا النصر الساحق، هو نقطة التحول فى الصراع القائم بين الجيوش الإسلامية وجيوش الفرنجة.

كانت استعادة فلسطين، خاصة بيت المقدس، سبباً فى شهرة صلاح الدين وشعبيته الكبيرة فى الدول التى تدين بالإسلام، وعند الشعوب التى تتكلم بالعربية، أو لها حضارة كردية. كذلك، فإن سلوكياته التى تميزت بالنبل والشهامة جعلته يكتسب احترام كثيرين، بما فيهم

* هو الخليفة العباسى رقم ٣٣ والذى استمرت فترة خلافته لمدة عشر سنوات (١١٧٠– ١١٨٠م). وعلى الرغم من أنه لم يشهد المراحل الأساسية من عمليات طرد صلاح الدين لجيوش الفرنجة؛ إلا أن فترة خلافته القصيرة شهدت الكثير من الأحداث الهامة التى أثرت على تاريخ صلاح الدين، وقدراته على التخطيط للتخلص من الصليبيين. (عادل نجيب)

أعداؤه من قادة جيوش الفرنجة، مثل الملك الإنجليزى "ريتشارد قلب الأسد" والذى أوكلت إليه قيادة الحملة الصليبية الثالثة. وانتهت حياة صلاح الدين عام ١١٩٣م فى دمشق، حيث تم دفنه هناك بجوار المسجد الأموي.

من بين المعجبين الذين أرخوا لحياة صلاح الدين الأيوبي: "عماد الدين الأصفهانى"، و"القاضى الفاضل" من بلدة عسقلان، و"ابن الأثير". ومن الناحية الأخرى، كان هناك الكارهون له مثل: الفقيه "بهاء الدين" المقيم بالموصل، ومما لا شك فيه أن عماد الدين الأصفهانى من أشد المعجبين بهذا القائد العربى الشهير، لكن عظمته تظهر بطريقة مباشرة وطبيعية، ومن خلال الحقائق التاريخية ذاتها؛ لأن كلماته هى التى ترسم صورة بشرية واقعية صادقة، أكثر بكثير من الصورة الحقودة السوداء التى كتبها بهاء الدين.

ولد السلطان صلاح الدين الأيوبى، عام ١١٣٨م (الموافق ٥٣٢ هجرية)، فى مدينة تكريت ببلاد الرافدين. واسمه الحقيقى يوسف، أما صلاح الدين فهو مجرد لقب من الألقاب الشائعة الكثيرة، والتى تمنح للذكور هناك. وهو قد ولد لأسرة ذات أصول كردية، انحدرت فى الأساس من أحد المدن التى تقع الآن داخل حدود أرمينيا. والقبيلة التى انحدروا منها كانت قد انضمت مؤخراً إلى من يتكلمون اللغة العربية، واعتنقت الإسلام (المذهب الشافعي). وبعد هزيمة جيش عماد الدين زنكي فى عام ١١٣٢م (قبل مولده بست سنوات)، وجد الجيش المهزوم طريق التراجع مسدوداً عليه بنهر دجلة، الذى تطل ضفته الأخرى على قلعة تكريت التى يقود حاميتها "نجم الدين أيوب" (والد صلاح الدين الأيوبي). وقد قام نجم الدين أيوب بتوفير المعديات اللازمة لعبوره، وتوفير ملجأ آمن له وللجيش المهزوم فى تكريت.

خلال هذه الفترة، كان الحاكم العسكرى للجزء الشمالى من بلاد الرافدين، هو أحد العبيد اليونانيين السابقين ("مجاهد الدين بهروز"). وقد تم منحه هذا المنصب، كمكافأة له على الخدمات التى قدمها للسلاجقة. لاقى نجم الدين كثير من النقد، وقام مجاهد الدين بتوبيخه لأنه

سمح بإيواء جيوش عماد الدين زنكي المهزومة ... ومنحه ملاذاً آمناً. وفى عام ١١٣٧م، قام مجاهد الدين بنفى والد صلاح الدين من قلعة تكريت لأن أخاه ("أسد الدين") قتل أحد أصدقائه فى مبارزة دفاعاً عن الشرف. وطبقاً لما كتبه بهاء الدين، فإن صلاح الدين الأيوبى قد ولد عام ١١٣٨م، وفى نفس الليلة التى غادروا فيها تكريت. وفى عام ١١٣٩م انتقلت أسرته إلى الموصل معقل عماد الدين زنكي الذى اعترف بجميله وقام بتعيين والد صلاح الدين فى وظيفة قائد لحامية قلعة بعلبك. وبعد وفاة عماد الدين، تولى ابنه "نور الدين" إمارة حلب، وأصبح على رأس "الأسرة الزنكية Zengids" ذات الأصول التركية، التى تعود إلى قبائل الأوغوز.

بعد أن انتقل صلاح الدين إلى دمشق، أصبح شديد الغرام بهذه المدينة الساحرة. لكنه لا يوجد لدينا ما يكفى من المعلومات عن سنوات حياته الأولى هناك. أما بالنسبة لتعليمه، فإن صلاح الدين كتب ما نصه:

"يتم تنشئة الأطفال بنفس الطريقة التى تم بها تنشئة آبائهم".

وطبقاً لما ذكره "الوهراني" عند تأريخه لحياة صلاح الدين، فإن الأخير سرعان ما أصبح قادراً على الإجابة بوضوح عن أسئلة فى مجالات عدة مثل الحساب والقانون والدراسات القرآنية خاصة علوم الحديث والفقه والتى ربطته إلى الأبد بالمذهب السني.

وقد ادعت عدة مصادر أنه كان أكثر اهتماماً بعلوم الدين من اهتمامه بالعلوم العسكرية. وإن كان هناك عاملاً آخراً، من الممكن أن يكون قد أثر عليه وزاد من اهتمامه بأمور الدين؛ فخلال الحرب الصليبية الأولى، تم الاستيلاء على بيت المقدس، بواسطة هجوم مباغت تم خلاله احتلال المدينة والمناطق المجاورة ... وهو ما أغضب صلاح الدين الأيوبى وأثار حفيظته بشدة تجاه الصليبيين. وبالإضافة إلى ما سبق، فإن صلاح الدين كان له باعاً طويلاً فى علم الأنساب وتاريخ العرب الأوائل وقصص حياتهم. كذلك، فإنه كان خبيراً فى مجال الخيول

العربية وسلالاهما. وبالإضافة إلى اللغة العربية، فإنه كان يتكلم الكردية، بل من المرجح أن تكون له معرفة جيدة باللغة التركية أيضاً.

غزواته الأولى

بدأت مهنة صلاح الدين العسكرية فى ظل رعاية لصيقة من قِبل عمه أسد الدين، والذى كان أحد أهم القادة العسكريين تحت أمرة نور الدين زنكي (أمير دمشق وحلب)؛ وأكثر الشخصيات التى أثرت على حياته. فى عام ١١٦٣م، تم طرد الوزير الأول لدى الخليفة الفاطمى من مصر. وكان هذا قد حدث بواسطة رجل يدعى ضرغام؛ والذى ينتمى إلى أحد القبائل القوية. وطلب الوزير الأول معاونة عسكرية –من نور الدين– لمحاربة ضرغام وقبيلته القوية. استجاب له نور الدين، فى عام ١١٦٤م، وأرسل أسد الدين ليشد أزر الوزير الأول المطرود ويعاونه فى معركته ضد ضرغام. وقد رافق صلاح الدين الأيوبي هذه الحملة عندما كان فى حوالى السادسة والعشرين من عمره.



تصور أحد الفنانين لهيئة وشكل صلاح الدين الأيوبي

وبعد أن استعاد الوزير الأول وظيفته لدى الخليفة الفاطمى، وانتصر على ضرغام وقبيلته، طالبه أسد الدين بالانسحاب، هو وجيشه، من مصر مقابل ٣٠,٠٠٠ دينار. لكن هذا الأخير رفض العرض، مصراً على البقاء فى مصر طبقاً لرغبات مولاه نور الدين. وفى هذا الخصوص، فإن دور صلاح الدين يعتبر صغيراً جداً خلال هذه الحملة، ومن المعروف أنه قد تلقى أوامر –من عمه أسد الدين– بتجميع المؤن من بلبيس قبل أن يتم محاصرتها بواسطة قوة مشتركة من الصليبيين وقوات الوزير الأول للخليفة الفاطمى.

بعد أن تمكنت هذه القوة المشتركة من اجتياح بلبيس ونهبها، اشتبكت فى معركة على الحدود الفاصلة بين الأراضى الزراعية والصحراء، إلى الغرب من منطقة الجيزة. وقد لعب صلاح الدين الأيوبى دوراً رئيسياً فى هذه المعركة، لأنه قام بقيادة الجناح الأيمن من جيش نور الدين زنكي؛ فى نفس الوقت الذى تقدمت فيه القوات الكردية (والتى شكلت الجناح الأيسر من الجيش)، بينما قاد أسد الدين الجزء الرئيسى من الجيش (قلب الجيش). وكان صلاح الدين قد تلقى أوامر بأن يتظاهر بالانسحاب أمام العدو، حتى يستدرجه إلى منطقة وعرة تمكنه من الإيقاع بهم. وبالفعل تقدمت قوات الصليبيين بقيادة "هيو القيساري Hugh of Caesarea "، نحو الأرض الوعرة، وغاصت سنابك الخيول فى الرمال، وسقط "هيو" فى الأسر خلال مهاجمته لإحدى وحدات الجيش الذى يقوده صلاح الدين الأيوبى. وبعد عديد من المناوشات المتفرقة فى الوديان الصغيرة الواقعة إلى الجنوب من مكان المعركة الرئيسى، عاود قلب الجيش –بقيادة أسد الدين– مهاجمة القوات المشتركة للصليبيين، وانضم إليه صلاح الدين الأيوبى خلال هذه الهجمة.

بطبيعة الحال، انتهت هذه المعركة بانتصار جيش نور الدين زنكي، ونسب النصر إلى صلاح الدين الأيوبى لأنه ساعد فى تحقيق أحد أكثر الانتصارات إبهاراً فى التاريخ العسكرى حتى تلك اللحظة ... طبقاً لما ذكره ابن الأثير؛ وعلى الرغم من أن جيش نور الدين زنكي قد عانى من

عدد أكبر من القتلى، وأن عدداً كبيراً من المؤرخين نظروا إلى هذه المعركة على أنها لا تعتبر نصراً كاملاً بأى مقياس من المقاييس.

وتحرك عمه (أسد الدين) نحو الإسكندرية، أكبر مدن مصر فى ذلك الوقت، مصطحباً صلاح الدين الأيوبى معه، حيث قوبلوا هناك بالترحيب. وتم منحهم الأموال، والسلاح، ومكان فسيح يمكن استخدامه كقاعدة لتحركاتهم. بعد دراسة أسد الدين للموقف، اكتشف أنه يواجه قوات تحالف من الصليبيين والمصريين أكبر منه عدداً؛ وأنهم يحاولون محاصرة مدينة الإسكندرية. لهذا، قرر تقسيم قواته؛ فأخذ الجزء الأعظم منها وانسحب به من الإسكندرية، وترك صلاح الدين داخل المدينة مع قوة أصغر لحراستها.

اشتبك أسد الدين فى صراع على السلطة، ومن سيتحكم فى مصر. وكان صراعه هذا مع الوزير الأول للخليفة ("شاور Shawar")، وأمير مملكة أورشليم ("أمالريك الأول Amalric I"). فى عام ١١٦٩م تم اغتيال الوزير الأول "شاور"؛ وقيل أنه كان لصلاح الدين يد فى هذا. أما "أسد الدين"، فإنه مات فى نهاية هذا العام، موته طبيعية. وعندها، قام أمير دمشق وحلب ("نور الدين زنكي") بتعيين شخص آخر كوزير أول؛ لكن الخليفة الفاطمى "العاضد لدين الله" قام بتعيين صلاح الدين الأيوبي فى وظيفة الوزير الأول فى مصر.

لقد اختلفت الآراء فى السبب الذى دعى خليفة، شيعي المذهب، لأن يقوم بتعيين أحد السنة (صلاح الدين الأيوبى) فى وظيفة الوزير الأول. وفى هذا الخصوص، نجد أن ابن الأثير قد ادعى أن مستشارى الخليفة الفاطمى قد نصحوه باختيار صلاح الدين لأنه لا يوجد من هو أضعف أو أصغر منه سناً، وأن باقى الأمراء لم يكونوا فى طاعة وخدمة الخليفة مثلما فعل صلاح الدين الأيوبي منذ نزوله إلى مصر. وطبقاً لهذه الرواية، فإن الغالبية العظمى من الأمراء الآخرين قبلوا صلاح الدين بعد قليل من المساومات والمفاوضات. كذلك، كان من المعتقد أن مستشارى الخليفة الفاطمى يحاولون إيقاع الشقاق فى صفوف الأسرة الزنكية. أما المؤرخ

"الوهرانى" فإنه كتب أن اختيار صلاح الدين قد تم بسبب شهرة أسرته الأخلاقية ونجاحه العسكرى. أما المؤرخ "عماد الدين الأصفهانى"، فإنه كتب:

"بعد مرور فترة قصيرة على وفاة عمه (أسد الدين)، حدثت خلالها مشاورات كثيرة بين الأمراء؛ واتفق غالبيتهم –فى النهاية– على اختيار صلاح الدين الأيوبى، واجبروا الخليفة على تعيينه كوزير أول فى مصر".

وطبقاً لهذا المؤرخ فإنه رغم وجود خلافات بين قادة المسلمين، إلا إن الغالبية العظمى من القادة فى سوريا أيدوا صلاح الدين؛ بسبب الدور الذى لعبه فى الحملة على مصر، والسجل المشرف لمؤهلاته العسكرية.

تم تنصيب صلاح الدين الأيوبى يوم ٢٦ من مارس من ذلك العام، وأعلن توبته، توبة نصوحة، عن معاقرة الخمر، وعودته إلى صحيح الدين، وابتعاده عن المنكر والمعاصى. عند هذا الحد من حياة صلاح الدين، فإنه كان قد وصل لمستوى من السلطة والنفوذ لم يبلغه من قبل أبداً. لكن ولاءه الحقيقى، كان لا يزال مسألة محيرة بالنسبة له. فهل سيكون ولاؤه للخليفة الشيعى الذى عينه، أم لمولاه السني نور الدين زنكي؟ خاصة بعد ما أشيع عن هذا الأخير من أنه يكن مشاعر عداء خفية تجاه صلاح الدين، وأنه يحسده ويستكثر عليه هذا المنصب الكبير الذى تمكن من اعتلائه فى هذه السن المبكرة. لقد وصل إلى مسامع صلاح الدين الأيوبي، ما قاله نور الدين زنكي:

"كيف يتجرأ صلاح الدين على فعل هذه الأشياء بدون أوامر منّي؟".

وفى هذا الخصوص، فإن صلاح الدين قد تلقى عدة رسائل منه، ولكنه تجاهل تنفيذ ما بها من أوامر رغم استمراره فى الشعور بالولاء نحوه.

خلال الشهور المتبقية من ذلك العام (١١٦٩م) وقعت محاولة لاغتيال صلاح الدين من قبل مجموعة جنود مصريين تحت قيادة بعض الأمراء. لكن صلاح الدين كان على علم مسبق

بنواياهم مما مكنه من أن ينجو بحياته. لقد حدث كل هذا بفضل مساعديه وعيونه المنبثة فى كل مكان، وعلى رأسهم شخص يدعى "علي بن سفيان"، والذى فضح المؤامرة، وكشف عن المتآمرين، والذين كان على رأسهم "مؤتمن الخلافة" –الشخص القائم على إدارة شئون قصر الخليفة– وهو شخص يدعى "ناجي". على الفور، أمر صلاح الدين بالقبض على "ناجي" وقتله؛ وتم وأد المؤامرة فى مهدها. لكن المؤامرات لم تتوقف عند هذا الحد، لأن اليوم التالى شهد قيام حوالى ٥٠,٠٠٠ جندى زنجى من فرق الجيش الفاطمى –تحت قيادة عدد من الأمراء المصريين– بثورة معارضة لوجود صلاح الدين فى الحكم. لكنه مع حلول يوم ٢٣ من أغسطس، تمكن صلاح الدين من إخماد هذا التمرد وقمعه إلى الأبد؛ لأنه لم يعان بعد هذا من أى انتفاضات مضادة له فى مصر.

فى نهاية نفس هذا العام، تمكنت قوات صلاح الدين، المؤيدة بتعزيزات عسكرية أرسلها نور الدين زنكي، من هزيمة حملة صليبية ضخمة أرسلتها الدولة البيزنطية بالقرب من دمياط. وفى ربيع العام التالى (١١٧٠م)، طلب صلاح الدين من أمير حلب ودمشق (نور الدين زنكي) أن يرسل والده إلى القاهرة كنوع من التشجيع من قِبل الخليفة العباسي فى بغداد (المستنجد بالله) والذى كان يحاول الضغط على صلاح الدين لكى يتخلص من الخليفة الفاطمى فى مصر والذى يدين بالمذهب الشيعى. ومن ناحيته، كان صلاح الدين الأيوبي يحكم قبضته على السلطة فى مصر عن طريق زيادة شعبيته بين الأمراء والعامة. كذلك، قام بمنح العديد من أفراد أسرته رتب ومناصب هامة، وهو ما زاد من نفوذ السُـنّة فى القاهرة والفسطاط والمناطق القريبة منهما. بالإضافة إلى إنشائه لعديد من المدارس الدينية التى تبشر بمذهب الإمام ابن مالك (أحد المذاهب السنية فى الإسلام)، ومذهب الإمام الشافعى (مذهب آخر من المذاهب ذات المرجعية السنية) والذى كان صلاح الدين الأيوبي ينتمى إليه.

بعد أن وطد صلاح الدين أقدامه فى مصر، وأحكم من قبضته على ما يجرى من أمور فيها؛ قرر أن يشن حملة عسكرية على جيوش الصليبيين الموجودة فى "داروم Darum". وفى عام ١١٧٠م، تم حصار المدينة، بواسطة جيوش صلاح الدين الأيوبي، لكن "أماليك الأول" (أمير أورشليم) استدعى "فرسان الهيكل" القائمين على حماية "غزة" كيما يساعدوه فى الدفاع عن المدينة. لكن صلاح الدين، تمكن بطريقة ما، من تفادى هذه القوات، وهاجم غزة، مدمراً كل المبانى الواقعة خارج أسوار المدينة، ثم قتل معظم من فيها بعد أن حاولوا منعه من دخول القلعة. خلال نفس العام أيضاً، تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على قلعة الصليبيين فى إيلات، والتى كانت مبنية على جزيرة قريبة من شواطئ خليج العقبة. لم تكن هذه القلعة تمثل تهديداً خطيراً لأسطول المسلمين، لكنها قد تتمكن من إلحاق الأذى بالمراكب الأصغر حجماً، وهو ما دعى صلاح الدين للاستيلاء عليها وتدميرها.

صلاح الدين سـلطان مصر

طبقاً لما ذكره المؤرخ "عماد الدين الأصفهانى"، فإن أمير حلب ودمشق (نور الدين زنكي) كتب رسالة إلى صلاح الدين الأيوبى فى شهر يونيو عام ١١٧١م، مطالباً إياه بالقضاء على الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى حظيرة المذهب السنى والخلافة العباسية فى بغداد. وبالفعل، بعد وصول هذا الخطاب بشـــهرين، تمكن صلاح الدين بتشجيع من الفقيه الشافعى "نجم الدين" –والذى كان يكره بشدة المذهب الشيعي وتغلغله فى كافة أرجاء مصر– من تدبير مؤامرة تم خلالها قتل عدد كبير من الأمراء المصريين، وتم تبرير هذه الفعلة، من خلال إخبار الخليفة الفاطمى المنعزل فى قصره، بأنه قد تم قتلهم لاشتراكهم فى مؤامرة تهدف للتخلص من الخليفة الفاطمى ذاته. بعد هذه الأحداث بفترة قصيرة، أصيب الخليفة الفاطمى بمرض غامض،

وذكر بعضهم أنه قد تعرض لجرعه من السم جعلته يعانى من هذه الأعراض الغامضة. خلال مرضه، طلب الخليفة من صلاح الدين الأيوبي أن يزوره لكى يطلب منه رعاية أطفاله الصغار. لكن صلاح الدين رفض، خشية أن يكون فى الأمر خدعة، تهدف إلى التخلص منه. وفيما بعد، قيل إن صلاح الدين قد ندم على رفضه هذا، بعد معرفته بالغرض الحقيقى الذى كان يهدف إليه الخليفة الفاطمى. بعد خمسة أيام من وفاة الخليفة الفاطمى فى يوم ١٣ من سبتمبر من عام ١١٧١م، أعلنت خطبة الجمعة فى مساجد القاهرة والفسطاط تبعية مصر للخلافة العباسية فى بغداد ... وللخليفة العباسي المستضيء بالله.

ترك صلاح الدين الأيوبي مدينة القاهرة، يوم ٢٥ من سبتمبر، للمشاركة فى حملة عسكرية على قلاع "الكرك Kerak" الصحراوية الموجودة فى مملكة أورشليم. كانت الخطة الموضوعة، هى أن يهبط نور الدين زنكي من سوريا مهاجماً هذه القلاع، بينما يأتى إليه صلاح الدين من مصر، فتقع هذه القلاع فى حصار بين الجيشين. لكن صلاح الدين قام بالتوقف قبل أن يصل إلى هناك، بعدما أدرك أن نور الدين زنكي لن يسمح له بالعودة إلى مصر مرة أخرى ... أياً كانت نتيجة المعركة. لقد كان صلاح الدين يعلم بأن مولاه السابق لا يزال متردداً فى السماح له بحكم مناطق شاسعة مثل التى أصبحت تحت سلطة صلاح الدين. كذلك، كان هناك احتمال قوى فى أن تتهاوى مناطق النفوذ الصليبية التى كانت تفصل بينه وبين المناطق التى يحكمها نور الدين زنكي، وهو ما يسمح لهذا الأخير بأن يضم مصر إلى مناطق نفوذه. لقد تحجج صلاح الدين باضطراره إلى الانسحاب الفورى، والعودة نحو القاهرة – بأسرع ما يمكن – بسبب المؤامرات الفاطمية التى كانت تحاك ضده هناك؛ لكن نور الدين لم يتقبل هذا العذر، ولم يصدقه.

خلال صيف عام ١١٧٢م، اكتشفت عيون صلاح الدين وجواسيسه على الحدود الجنوبية وجود جيش نوبي مع وحدات من اللاجئين الأرمن متجهة نحو أسوان فى محاولة لحصارها

والاستيلاء عليها. وقد طالبه أمير تلك المنطقة الجنوبية بأن يمده بتعزيزات عسكرية. وبالفعل، أرسل له صلاح الدين قوة كبيرة تحت قيادة أخيه "توران شاه". تراجع النوبيون فور علمهم بوصول قوات توران شاه، لكنهم عاودوا المحاولة فى العام التالى (١١٧٣م) وتم طردهم مرة أخرى. فى هذه المرة، تقدم الجيش المصرى إلى ما وراء الحدود واستولى على مدينة "إبريم Ibrim" النوبية.

حتى الآن، وبالرغم من مرور أكثر من ١٧ شهر على وفاة الخليفة الفاطمى، فإن نور الدين زنكي لم يتخذ أى خطوات إيجابية فيما يتعلق بمصر، لكنه كان يتوقع أن يحصل على مقابل للأموال الطائلة التى دفعها (٢٠٠,٠٠٠ دينار) عند تجهيزه لجيش أسد الدين الذى استولى على مصر. وقد رد صلاح الدين الأيوبى هذا الدين، خلال رحلته إلى دمشق، عندما دفع ٦٠,٠٠٠ دينار، وبضائع متقنة الصنع، وبعض الجواهر والأحجار الكريمة، وبعض الدواب من حمير وأفيال؛ وخلال نقله لكل هذا، انتهز الفرصة وقام بمهاجمة القرى الواقعة تحت سيطرة جيوش الفرنجة، ودمر الكثير منها. لكنه لم يحاول اجتياح القلاع الصحراوية التابعة لهم، وإن كان قد أصر على طرد البدو المسلمين ومنعهم من الإقامة فى المناطق الواقعة تحت سيطرة الصليبيين؛ لأنه كان يهدف إلى حرمان أولئك الأجانب من أى أشخاص محليين قادرين على معرفة الطرق الصحراوية فى بلاد الشرق ... ويمكن استخدامهم كمرشدين.

فى يوم ٣١ من يوليو ١١٧٣م، أصيب والد صلاح الدين بجراح خطيرة نجمت عن سقوطه من فوق حصانه ... وأدت إلى وفاته فى يوم ٩ من أغسطس من نفس العام. بحلول عام ١١٧٤م، كان صلاح الدين الأيوبى هو المتحكم فى كل بلاد اليمن، بعد أن تمكن أخوه، توران شاه، من الاستيلاء على السلطة هناك وضمها إلى ممتلكات الأسرة الأيوبية. وهكذا، أصبحت اليمن –وميناؤها الشـــهير "عدن"– أرض بديلة، يُمكن لصلاح الدين استخدامها فى حالة الطوارئ، إذا ما قرر نور الدين زنكي عزله والاستيلاء على مصر.

الاستيلاء على بر الشام

خلال الفترات المبكرة من صيف عام ١١٧٤م، سعى نور الدين زنكي إلى حشد جيوشه واستجماع قواته فى محاولة واضحة للهجوم على مصر والاستيلاء عليها. وبالفعل، أرسل أوامر استدعاء، لكى يرسلوا له قوات من "الموصل"، ومن "ديار بكر"، ومن "شبه الجزيرة العربية". على الفور، قامت الأسرة الأيوبية بعقد اجتماع على أعلى مستوى لمواجهة هذا التهديد الجديد المحتمل؛ وقام صلاح الدين بتجميع قواته خارج القاهرة وحشدهم لمواجهة نور الدين زنكي القادم من الشمال. لكن الأقدار كانت فى صف صلاح الدين مرة أخرى، وتوفى نور الدين زنكي يوم ١٥ من مايو، بعد أسبوع من تعرضه لمؤامرة تم خلالها تسميمه.

وانتقلت السلطة إلى ابنه "الصالح إسماعيل El-Salih Ismail"، والذى لم يكن يتعد عمره، وقتها، ١١ سنة. لقد كان تخلص صلاح الدين الأيوبي من هذا المنافس القوى، هو بداية الطريق الذى سمح له بأن يسطر اسمه فى صفحات التاريخ بحروف من نور. وأصبح صلاح الدين -الآن- قادراً على الاستقلال بذاته سياسياً ... رغم تبعيته من الناحية الاسمية للخليفة العباسى فى بغداد. تعهدت القيادة الجديدة فى الشام (القائم بالوصاية على ابن نور الدين زنكي) بأن تكون السيف الذى يدافع عن صلاح الدين؛ وأنها لا يمكن أن تتسبب له فى أى مشاكل أو متاعب بعد موت الأب، والذى كان بمثابة "زلزال مدمر" ... طبقاً لما ذكره الوصى فى رسالته.

كان على صلاح الدين الأيوبى -الآن- اتخاذ قراراً صعباً بعد موت نور الدين؛ فبإمكانه -الآن- تحريك قواته من مصر لمحاربة الصليبيين، أو الانتظار حتى يدعوه الملك "الصالح إسماعيل" إلى بلاد الشام، ليبدأ الحرب من هناك. كذلك، فإنه من الممكن له ضم بلاد الشام، قبل أن تسقط فى يد أحد منافسيها. لكن صلاح الدين كان خائفاً من القيام بهذه الفعلة

الأخيرة؛ لأن القيام بمهاجمة أرض تحت سلطة مولاه السابق ونفوذه، هى من الأمور المحرمة فى الإسلام، ومن الممكن أن تجعل عامة الشعب ينظرون إليه على أنه "منافق" ومسلم غير حقيقى؛ وهو ما سيجعله –فى نظرهم– غير صالح لقيادة الجيوش العربية ضد الصليبيين. لكنه من الممكن الالتفاف حول هذا، والاستيلاء على بلاد الشام رغم كل شيء؛ فكان عليه إما أن يحصل على دعوة من الملك الصالح إسماعيل لزيارة سوريا، أو يذهب إلى هناك بحجة حمايته وتحذيره من الفوضى المحتملة والأخطار التى يمكن أن يتعرض لها ملكه من جانب الصليبيين.

فى شهر أغسطس من نفس العام، تم إرسال الملك الصالح إسماعيل إلى حلب، وقام الوصى عليه (أمير مدينة حلب وقائد قوات الأمير نور الدين) بالاستيلاء على السلطة. لقد كان هذا الأمير ("Gumushtigin") يستعد لخلع كل منافسيه فى سوريا وبلاد الرافدين والجزيرة العربية، والتخلص منهم ... وقرر أن يبدأ بدمشق. عندما وجد "أمير دمشق" نفسه فى خطر، طلب تعزيزات من جيش الموصل بقيادة "سيف الدين"، أحد أقارب أمير حلب، لكن هذا الأخير رفض بسبب القرابة التى بينهما. لم يعد هناك مفر أمام أمير مدينة دمشق من أن يطلب العون من صلاح الدين الأيوبى فى مصر، والذى سارع بالاستجابة له، وذهب بقوة صغيرة إلى هناك. عبر صلاح الدين صحراء سيناء بـــ٧٠٠ فارس من أفضل فرسانه، ومر من خلال الكرك، حتى وصل إلى مدينة "بصرى Bosra"؛ وطبقاً لما ذكره صلاح الدين نفسه، فإن عديداً من الأمراء والجنود والبدو قد انضموا إليه طواعية، وقد ظهرت حقيقة مشاعرهم على وجوههم الناطقة بالرغبة فى القتال إلى جانبه. وصل صلاح الدين الأيوبى إلى دمشق يوم ٢٣ من نوفمبر، وسط عاصفة هائلة من التهليل والترحيب بوجوده. واستراح فى بيت والده القديم، حتى تم فتح أبواب قلعة دمشق بعدها بأربعة أيام. داخل القلعة، نصب صلاح الدين الأيوبى نفسه، وتقبل "البيعة" من مواطنى البلد، الذين تدافعوا فى حماسة لإظهار ولاءهم نحوه.

عندما غادر صلاح الدين دمشق، ترك أخاه ("Tughtigin") حاكماً عليها، وشرع فى إخضاع المدن الأخرى التى كانت خاضعة لسيطرة نور الدين زنكي. سرعان ما تمكن جيش صلاح الدين الأيوبى القوى من اجتياح مدينة "حماه" بسهولة شديدة، لكنه لسبب ما تجنب مهاجمة "حمص"، ولعل قلعتها القوية الشهيرة كانت السبب فى هذا. تقدم صلاح الدين نحو حلب، واستولى عليها يوم ٣٠ من ديسمبر، بعد أن رفض أميرها التخلى عن العرش وتسليم السلطة طواعية. أما بالنسبة للفتى الصغير، الملك الصالح إسماعيل، فإنهم خافوا على حياته إذا وقع فى يد صلاح الدين. ولهذا، أخرجوه من القصر وطلبوا من السكان المحليين عدم تسليمه، أو الاستسلام للقوات الغازية.

طلب أمير مدينة حلب وقائد قوات الأمير نور الدين، من زعيم جماعة الحشاشين المنتمية إلى الطائفة الإسماعيلية ("رشاد الدين سينان") أن يقوم باغتيال صلاح الدين فى معسكره. هذا، وقد كان رشاد الدين يكرهه كراهية شديدة لأنه قضى على الخلافة الفاطمية فى مصر، وحولها إلى المذهب السني. فى يوم ١١ من مايو ١١٧٥م، تمكنت مجموعة من الحشاشين –مكونة من ١٨ شخص تحت قيادة ناصح الدين– من دخول معسكر صلاح الدين بسهولة، لكنه سرعان ما تم كشف أمرهم، وقتل أحدهم بواسطة أحد الجنرالات التابعين لصلاح الدين؛ أما الآخرون فقد قتلوا –الواحد بعد الآخر– خلال محاولاتهم الهروب من المعسكر ... والذى انتفض فى حالة من الاستعداد الكامل بمجرد اكتشاف وجود أولئك الغرباء بين ظهرانيهم.

حاول أمير البلاد، ريمون الثالث ("ريمون الطرابلسي") إعاقة هذا التقدم السريع فى بلاد الشام، فقام بجمع قواته على القرب من ضفاف "نهر الكبير Nahr al-Kabir"، حيث كانوا فى موقع استراتيجى جيد يمكنهم من الهجوم على أى قوات معادية. وفى هذا الصدد، فإن جيش صلاح الدين كان قد تحرك بالفعل تجاه مدينة "حمص"، لكنه تراجع مرة أخرى عندما سمع بوصول تعزيزات من قِبل "سيف الدين" (قائد جيش الموصل).

خلال تلك الفترة، شن منافسو صلاح الدين فى بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية، حملة دعائية شعواء ضده. وتلخصت هذه الحملة الدعائية فى أن صلاح الدين الأيوبى قد نسى نفسه، وأنه ليس أكثر من أحد موالي نور الدين زنكي، ومجرد تابع له؛ وأنه لم يعترف بفضل مولاه عليه. كان على صلاح الدين الأيوبي العمل بسرعة على دحض هذه الادعاءات ... وإلا قضت على سمعته كقائد مسلم صالح. ولهذا، قام على الفور بفك حصار قواته من حول مدينة حلب وانسحب من هناك، زاعماً أنه كان يدافع عن الإسلام ومناطق نفوذه عندما أتى إلى بر الشام ليحميه من الصليبيين. وبالفعل، عاد صلاح الدين بجيشه نحو مدينة "حماه"، حيث اشتبك هناك مع الصليبيين، الذين سارعوا بالانسحاب قبل وصوله إليهم، مما مكنه من ادعاء النصر ... ورفع الروح المعنوية بين جنوده. بعد هذا بفترة قصيرة، تمكن صلاح الدين من اجتياح "حمص"، خلال شهر مارس من عام ١١٧٥م، واحتلال قلعتها الحصينة، بعد قتال مستميت من قِبل المدافعين عنها.

أثارت نجاحات صلاح الدين الأيوبي المتواصلة، انزعاج سيف الدين فى الموصل، باعتباره رأس الأسرة الزنكية. وقد كان فى هذا، مثله مثل أمير حلب، ينظر إلى بر الشام وبلاد ما بين النهرين على أنها الممتلكات الخاصة بأسرته. ولهذا، اشتعل غضبه بشدة، عندما حاول صلاح الدين اغتصاب هذه الممتلكات من أسرته. قام سيف الدين بحشد جيش كبير، وأرسله إلى "حلب"، حيث كان المدافعون عنها ينتظرون قدوم هذه التعزيزات بفارغ الصبر.

قام جيش مكون من القوات المشتركة للموصل وحلب بمهاجمة قوات صلاح الدين فى مدينة "حماه". وحيث أن عددهم قد أصبح أكبر بكثير من القوات الموجودة فى جيش صلاح الدين؛ فإن هذا الأخير حاول التوصل لاتفاق معهم يتخلى بمقتضاه عن كل المناطق الموجودة تحت سيطرته فى بر الشام وإلى الشمال من منطقة دمشق. لكنهم رفضوا هذا العرض، مصرين على عودته إلى مصر خالى الوفاض، ودون أن يكون له أى مناطق نفوذ فى أراضيهم. بعد

فشل المفاوضات، أصبحت المواجهة بين الطرفين أمراً محتوماً. لهذا، استعد صلاح الدين للحرب من خلال احتلاله للتلال التى تطل على الممر الضيق لوادى "نهر العاصي Orontes River". فى يوم ١٣ من أبريل عام ١١٧٥م، تقدمت القوات الزنكية نحو مواقع صلاح الدين، لكنها سرعان ما وجدت نفسها محاصرة من جميع الجوانب بجنود محنكين تابعين له ... وانتهت المعركة بتحقيق نصر حاسم لصلاح الدين؛ والذى قام بمطاردة الهاربين من القوات الزنكية حتى وصولهم إلى أبواب "حلب"، وهو ما اضطر مستشارى الملك الصالح إسماعيل للاعتراف بصلاح الدين وسيادته على دمشق والمناطق المحيطة بها، وعلى حماه وحمص، وعدد آخر من المدن الصغيرة المحيطة بحلب مثل: "معرة النعمان".

بعد انتصاره الساحق على القوات المشتركة للأسرة الزنكية، أعلن صلاح الدين نفسه سلطاناً على بر الشام، ومنع ذكر اسم الملك الصالح خلال صلاة الجمعة، ومُحى رسمه واسمه من على العملات الإسلامية المتداولة. ومنذ ذلك التاريخ، كانت الصلوات فى الجوامع فى كافة أنحاء بر الشام ومصر، تذكر اسمه على أنه السلطان الحاكم. كذلك، فإن دار صك النقود فى القاهرة، أصدرت عملات ذهبية تحمل لقبه الرسمي: "**الملك الناصر يوسف بن أيوب علاء الغاية**". وفى إشارة كريمة وغير معتادة من الخليفة العباسى فى بغداد (المستضىء بالله ١١٧٠- ١١٨٠م)، تم الاعتراف بصلاح الدين كسلطان على مصر وسوريا.

وعلى الرغم من كل هذا، فإن المعركة التى حدثت قرابة "مدينة حماه"، والانتصار الحاسم الذى حققه صلاح الدين الأيوبي، لم يحسما الصراع بين الأسرة الأيوبية من ناحية، والأسرة الزنكية من ناحية أخرى. أما المواجهة الحاسمة بين الأسرتين، فإنها وقعت فى ربيع عام ١١٧٦م، عندما قام صلاح الدين بتجميع عدد هائل من القوات والتعزيزات التى أتت إليه من مصر تحت لوائه. وعلى الجانب الآخر، أعلن سيف الدين التجنيد الإجبارى، وقام بتجميع القوات من ديار بكر وبلاد الرافدين.

أثناء مغادرة صلاح الدين الأيوبي مدينة حماه وعبوره لنهر العاصى، حدث كسوف كلى للشمس؛ وهو ما اعتبره عامة الشعب علامة غضب من السماء. وعلى الرغم من هذا، قرر صلاح الدين أن يستمر فى طريقه ... وتقدم بقواته نحو الشمال. وعند "تل السلطان"، على مبعدة حوالى ٢٥ كيلومتر من مدينة حلب، تقابل الجيشان. على الفور نشبت المعركة، وحدث قتال مرير، وتشابك دموى بالأيدى، تمكنت خلاله الجيوش الزنكية من تدمير الميسرة (الجناح الأيسر) لجيش صلاح الدين.

أدرك صلاح الدين خطورة الموقف على الفور، فانطلق مهاجماً على رأس جنوده قاصداً سيف الدين زنكي وحرسه الخاص؛ وهو ما تسبب فى انتشار الذعر بينهم. وفى النهاية، تعرض معظم كبار قواد "سيف الدين زنكي" للقتل أو الأسر ... بينما نجا الأخير بأعجوبة من كِلا المصيرين. خلال هذه المعركة، تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على كثير من الغنائم القيمة، تمثلت فى: معسكر وخيام العدو، وخيولهم، وأمتعتهم، ومنحها جميعاً لجنوده وكبار القادة؛ ولم يحتفظ بأى شيء لنفسه. والعجيب فى الأمر، أن صلاح الدين قام بإطلاق سراح أسرى الجيش الزنكي –بعد فترة قصيرة– بل إن عدداً منهم حصل على بعض الهدايا عندما تم إطلاق سراحه!

استمر صلاح الدين الأيوبي فى اكتساحه لبر الشام، فتقدم بقواته الظافرة متجهاً نحو مدينة حلب التى ظلت مستعصية عليه، وأغلقت –حتى الآن– أبوابها فى وجهه. وفى طريقه إلى هناك، استولت قواته على عدد من المدن الصغيرة. لكن قبل وصوله إلى هناك، اتجه نحو الغرب فى محاولة منه للاستيلاء على قلعة "الإعزاز A'zaz"، وتم محاصرتها منذ يوم ١٥ مايو.

بعد بدء الحصار بعدة أيام، تعرض صلاح الدين لمحاولة اغتيال أخرى. فبينما كان صلاح الدين يحاول الاسترخاء –فى الخيمة الخاصة بأحد قادته– داخل معسكره، تسلل أحد الحشاشين مقترباً منه، وانتهز فرصة خلعه لدروعه وحاول طعنه بخنجر قصيرة النصل. أصابت الطعنة صلاح الدين فى الرأس، لكن لحسن حظه لم يكن قد خلع خوذته بعد، ولم تتضرر رأسه كثيراً. تمكن صلاح الدين من الإمساك باليد التى تحمل الخنجر، وسرعان ما تم التغلب عليه وقتله. ولم يتمكن الخنجر إلا من تمزيق "النسيج السميك الذى يتم ارتداؤه تحت الدروع Gambeson".

لم تفت محاولات الاغتيال المتكررة فى عضد صلاح الدين، ولم تضعف من عزيمته، بل على العكس؛ فإنه بدأ الآن يبذل جهوداً محمومة فى محاولة منه للإسراع بالاستيلاء على القلعة.



النسيج السميك الذى يتم ارتداؤه تحت الدروع.

تم الاستيلاء على قلعة "الإعزاز" ودخولها يوم ٢١ من يونيو. وبعد أن ترك صلاح الدين حامية صغيرة داخل القلعة، سارع بقواته نحو حلب لمعاقبة الحشاشين وزعيمهم على محاولاته المتكررة لاغتياله. لكن قلعة حلب استمرت فى الصمود أمام الهجمات المتكررة التى شنها صلاح الدين؛ وإن كان هذا قد أضعف من عزيمتهم، وتمكن صلاح الدين من إجبارهم على عقد هدنة والتحالف معه. اتفاق الهدنة، سمح لأمير حلب، والملك الصالح إسماعيل، بإدارة المدينة والبقاء فى داخلها فى أمان، مقابل اعترافهم بسيادة صلاح الدين على كل الأراضى التى استولى عليها وحقه فى إدارتها. أما بالنسبة لأمراء المدن الصغيرة المحيطة بحلب، فإنهم اعترفوا أيضاً بملك صلاح الدين على سوريا وحقه فى إدارتها. بعد توقيع الاتفاقية، طلبت الأخت

الصغرى للملك الصالح إسماعيل من صلاح الدين أن يعيد إليها قلعة "الإعزاز"؛ ووافق صلاح الدين على هذا الطلب، واصطحبها بنفسه –فى موكب مهيب– حتى أبواب القلعة، ومنحها العديد من الهدايا.

تعظيم من لا يستحق التعظيم Glorifyng the Mediocre

خلال هذه الفترة، عقد صلاح الدين اتفاقيات هدنة أخرى مع كل منافسيه من الأسرة الزنكية، بل إنه عقد هدنة أيضاً مع مملكة أورشليم ... فى صيف عام ١١٧٥م. وبدأ يوجه كل اهتمامات نحو الطائفة الإسماعيلية، وجماعة الحشـــاشين –التى حاولت اغتياله أكثر من مرة– المنتمية إليهم، بقيادة "رشاد الدين سينان". كان المقر الأساسى للطائفة الإسماعيلية، هو سفوح جبال "النصيرية"، حيث كان لهم تسعة مواقع حصينة (قلاع صغيرة)، بنيت جميعها على ارتفاعات شاهقة على السفوح المختلفة لهذه الجبال. بمجرد انتهاء صلاح الدين من إعادة الجزء الرئيسى من قواته إلى مصر، قام بتركيز كل انتباهه على منطقة جبال "النصيرية"؛ ووصل إلى هناك خلال شهر أغسطس من عام ١١٧٦م، وإن كان وجوده هناك لم يستمر طويلاً ... حيث اضطر إلى التراجع وترك مواقعه خلال نفس الشهر، بعد تدميره لكل القرى الصغيرة التى اعترضت طريقه ... وإن كان قد فشل فى الاستيلاء على أي من المواقع التسع الحصينة هناك.

فى هذا الصدد، فإن الغالبية العظمى من المؤرخين المسلمين، ذكرت أن عم صلاح الدين (أمير مدينة حماه وحاكمها) توسط لعقد اتفاق سلام بينهما. وإن كان من غير المعقول أن يتقبل صلاح الدين –بهذه البساطة– عقد اتفاق سلام بينه وبين جماعة الحشاشين التى حاولت قتله أكثر من مرة. وفى الأغلب الأعم، فإن عودة الجزء الأكبر من جيوش صلاح الدين إلى

مصر، قد أثر بالسلب على قدراته العسكرية، خاصة وأن الطائفة الإسماعيلية كانت موزعة -كما ذكرنا فيما سبق- على تسع قلاع حصينة مبنية على ارتفاعات شاهقة.

ومن الناحية الأخرى، فإن المؤرخين الموالين لـ"رشاد الدين سينان" ادعوا أن انسحاب صلاح الدين خلال نفس الشهر كان نتيجة لـ"خوفه على حياته" ... وهو يعسكر على مقربة من الطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين التابعة لهم. وقد ادعى أولئك المؤرخون الذين حاولوا تعظيم تاريخ الطائفة الإسماعيلية، أن الحرس الخاص بصلاح الدين، كان مزوداً بـ"بأضواء متصلة **Link Lights**"*، كما أنه كان يتم رش بودرة الطباشير وجمرات الفحم حول خيمة صلاح الدين والمناطق المحيطة ... حتى يمكن اكتشاف أى شخص يحاول الاقتراب من خيمته. وطبقاً للقصة السابقة، فإن أحد الحراس لاحظ سقوط أحد جمرات الفحم من على سفح الجبل، واختفائها بين خيام المعسكر. وتدعى هذه القصة الملفقة، أنه قد تم على الفور إيقاظ صلاح الدين من نومه. وعندها، شوهد شبح يتسلل مبتعداً عن خيمته واختفى بين طيات الظلام. وعندما تم تفتيش الخيمة، لوحظ أن مصباح الزيت قد تحرك من مكانه المعتاد (بجوار فراشه). وعلى الأرض، عثر على كعكة لا تزال ســاخنة! ورسالة مثبتة بخنجر مسموم. كانت الرســالة تهدد صلاح الدين بالموت إذا لم ينسحب من منطقة نفوذ الطائفة الإسماعيلية، ويتراجع عن محاولاته للاستيلاء على قلاعهم. عند هذا الحد فى القصة الخيالية،

---

* هى سلسلة من الأضواء التى يتصل كلا منها بالآخر. والمقصود من استخدام هذا التعبير هنا؛ أن خيمة صلاح الدين كانت محاطة بحرس يحملون الأضواء (سواء كانت المشاعل أو مصابيح الزيت)، وأن ضوء هذه المصابيح كان متصلاً، بحيث لا يسمح بوجود أى بقاع مظلمة يمكن للقاتل استغلالها فى التسلل.

(عادل نجيب)

صرخ صلاح الدين بصوت عظيم معلناً أن "رشاد الدين سينان" كان موجوداً بنفسه هنا؛ وأنه هو الشبح الذى شوهد يتسلل مبتعداً عن خيمته.

بعد قراءة كل هذه التفاصيل السابقة، لا يمكن لأى عاقل تصديق ما بها من تفاصيل؛ ولا بد للقارئ أن يرفضها، لأنها ليست إلا محاولات عقيمة لتزييف التاريخ، وتمجيد من لا يستحق التمجيد (طائفة الحشاشين).

هناك قصة أخرى منتشرة، تدعى أن صلاح الدين سارع بالانسحاب من هناك، لأنه كانت هناك حاجة طارئة لقواته فى المنطقة المحيطة بسفوح جبل لبنان، حيث شوهدت قوات كبيرة من الصليبيين فى طريقها إلى التجمع هناك. وفيما يبدو، فإن صلاح الدين أدرك أن مسألة القضاء على الطائفة الإسماعيلية وجماعة الحشاشين ستستغرق وقتاً أكثر بكثير مما هو متاح لديه. ولهذا، سعى إلى عقد اتفاقيات معهم، للدخول فى نوع من التحالف يمكنه من حرمان جيوش الفرنجة من استغلال هذا الحليف الخطير ضده. وبالفعل، تمكن صلاح الدين من إقناع العقلاء من كبار القادة فى الطائفة الإسماعيلية، بأن التخلص من جيوش الفرنجة يجب أن يكون الأولوية الأولى للجانبين، وأن طردهم من بلاد العرب، سيحقق مصالح كِلا الطرفين؛ وعقد تحالف بينهما على هذا الأساس. ومنذ ذلك الحين، استمر التعاون بين رشاد الدين سينان وصلاح الدين؛ ووصل إلى حد أن الأول أرسل فِرقاً من قواته لتعضيد جيوش صلاح الدين خلال المعارك الحاسمة التالية بينه وبين الفرنجة.

العودة إلى القاهرة والغزوات الفلسطينية

بعد تركه لسفوح جبال النصيرية، توجه صلاح الدين إلى دمشق أولاً، حيث سمح لجنود جيشه ذوى الأصول السورية بالعودة إلى بيوتهم ... معتقداً أن تسريح هذا العدد لن يؤدى إلى

تخفيض قواته بقدر محسوس. ثم ترك توران شاه فى موقع القيادة على كل بر الشام، واستدار عائداً نحو القاهرة، التى وصل إليها يوم ٢٢ من سبتمبر من نفس العام. بسبب غيابه لهذه الفترة الطويلة عن الأراضى المصرية (فترة تقترب من عامين كاملين) كان هناك الكثير من الأمور التى تحتاج إلى اهتمامه الشخصى بها. وعلى سبيل المثال، كانت هناك المسألة الهامة الخاصة بتحصين مدينة القاهرة؛ فإن حوائط المدينة كانت فى أشد الحاجة إلى الترميم والإصلاح، كما تم التخطيط لزيادة طولها وارتفاعها ... بحيث امتدت إلى مناطق لم تكن مسورة من قبل. وبينما شرع فى بناء قلعة القاهرة (والتى تعرف -الآن- باسم قلعة صلاح الدين)، فإنه أمر بحفر بئر عميقة جداً -بلغ عمقها ما يزيد عن ٨٥ متراً (حوالى ٢٨٠ قدم) - عرفت باسم "بئر يوسف Joseph's Well". أما أكبر المشاريع التى تمت خلال عهده، فهى الكبرى الضخم الذى تم بناؤه على نهر النيل فى منطقة الجيزة (خارج حدود مدينة القاهرة مباشرة وإلى الجنوب منها). والذى بني بحيث يشكل جزءاً من خطوطه الدفاعية لمواجهة أى غزوات محتملة من جانب "المراكشيين Moorish" (أهل المغرب العربى من البربر والعرب).

خلال هذه الفترة، كان صلاح الدين يشرف بنفسه على عمليات البناء والإصلاح؛ كما أنه لم يتوقف أبداً عن تشييد المزيد من المدارس الدينية التى تفقه أهل مصر فى المذهب السنى. وإلى جانب كل هذا، وجه عناية خاصة لمسابك المعادن التى كان عليها إنتاج السيوف والرماح والدروع. كذلك، أنشأ عدة مدارس لتعليم الصغار فنون وتقنيات سبك المعادن، حتى ينشأ جيل جديد لديه خبرة كافية بفنون هذه الصناعة الحيوية. وبالمثل، وجه صلاح الدين الكثير من عنايته لترتيب الشئون الإدارية داخل مصر ... واضعاً نظاماً جديداً لتحصيل الضرائب.

فى شهر نوفمبر من عام ١١٧٧م، قرر صلاح الدين أن الوقت قد حان لتوجيه قواته نحو فلسطين. خلال هذه الفترة، كانت الحملات الصليبية قد تمكنت من غزو المناطق المحيطة

بدمشق مؤخراً؛ وهو ما دفع صلاح الدين للنظر إلى الهدنة بينه وبين جيوش الفرنجة على أنها لاغية. خاصة أن جزءاً كبيراً من جيوش الفرنجة كان قد تم إرساله لمحاصرة قلعة "الحريم Harim" الواقعة إلى الشمال من حلب؛ وهذا يعنى أن الجزء الجنوبى من الأراضى الفلسطينية ليس به إلا عدد قليل من القوات. هنا تتضح حكمة صلاح الدين وقدراته على استغلال الموقف لصالحه. فقد سار بجيوشه نحو "عسقلان" والتى كان صلاح الدين دائماً ما يشير إليها على أنها الجسر الأساسى الذى لا يمكن السيطرة على سوريا إلا من خلال التحكم فيه.

وفى هذا الشأن، فإن ويليام من مدينة "صُور"، ذكر فى أوراقه الخاصة بهذه الفترة أن جيش صلاح الدين الأيوبي كان به ما لا يقل عن ٢٦,٠٠٠ جندى، منهم ٨,٠٠٠ جندى محترف من الصفوة، و ١٨,٠٠٠ جندى من الزنوج العبيد الذين تم جلبهم من السودان. فى البداية، هاجم جيشه القرى والمدن الصغيرة الموجودة فى الريف، مثل مدينة رام الله واللد؛ واستمر فى التوغل حتى وصل إلى أسوار مدينة أورشليم.

المعارك والهدنة مع "بالدوين"

بالرغم من أن عسقلان كانت تحت سيطرة صلاح الدين الأيوبي الكاملة، إلا أن الأسرة الأيوبية سمحت لـــ"الملك بالدوين King Baldwin"* بدخول عسقلان، هو وقوة صغيرة من فرسان الهيكل (٣٧٥ فارس من النخبة)، الذين اتخذوا من منطقة "غزة Gaza" قاعدة لهم.

---

*هو الملك بالدوين الرابع (١١٦١- ١١٨٥م) والذى حكم أورشليم خلال الفترة من ١١٧٤-١١٨٥م. وقد كان يعانى من مرض الجذام. وقد تم تتويجه على مملكة أورشليم عندما كان عمره ١٣ سنة فقط؛ وإن كان ريمون الثالث هو الحاكم الفعلى لأورشليم، خلال أول عامين بسبب صغر سن بالدوين، وقد كان ريمون الثالث هو الذى عقد اتفاقية الهدنة مع صلاح الدين. (عادل نجيب)

بالطبع، عَرَّض هذا التصرف صلاح الدين لهجوم مفاجئ من قِبل أولئك الأعداء المندسين بين ظهرانيهم. ولسبب ما، تردد صلاح الدين فى مهاجمة هذه القوة الصغيرة والقضاء عليها. وادعى البعض أن السبب فى تردده هو أن قائدهم كانت له شهرة واسعة فى تدمير الجيوش الأكبر منه حجماً وإلحاق خسائر فادحة بهم. لكن خلاصة الأمر، هى أن صلاح الدين لم يهاجمهم؛ بل إنهم هم الذين هاجموه، يوم ٢٥ من نوفمبر من ذلك العام. فكيف أمكن لمثل هذه الأحداث الغريبة أن تقع مع قائد مخضرم مثل صلاح الدين؟

فى ذلك اليوم، وبينما كان الجزء الأكبر من جيوش صلاح الدين بعيداً عنه؛ تمكن فرسان المعبد من محاصرة صلاح الدين بالقرب من رام الله، فيما عرف تاريخياً باسم: "معركة مونتجيزارد The Battle of Montgisard"، وبدأ فرسان المعبد يعملون قتلاً وتذبيحاً فى الحرس الخاص بصلاح الدين، بينما حاول هو تنظيم قوات جيشه حتى تتخذ تشكيلات قتالية. لكنه سرعان ما أدرك أن الهزيمة فى هذه المعركة هى أمر محتوم، فخرج من الميدان –هو ومجموعة صغيرة من قواته– على ظهر أحد الجمال السريعة، ولم يتوقف حتى وصل إلى حدود مصر.

لم تفت هذه النكسة الصغيرة فى عضد صلاح الدين، وسرعان ما استعد لمقاتلة الصليبيين من جديد. وفى ربيع عام ١١٧٨م، كان يحاصر مدينة حمص، حيث حدثت هناك بعض المناوشات بين جنرالاته وبين جيوش الصليبيين. وتمكنت قواته الموجودة بالقرب من مدينة حماه من تحقيق النصر والاستحواذ على بعض الغنائم، والأسرى. وعندما تم إحضار هؤلاء الأسرى أمام صلاح الدين، أمر بقتلهم بتهمة الفساد فى الأرض؛ وأمضى ما تبقى من شهور هذا العام فى سوريا دون أن تحدث أى مواجهات بينه وبين أعدائه.

تمكن بعض جواسيس صلاح الدين الأيوبي، من اكتشاف أن جيوش الفرنجة تخطط للإغارة على بر الشام؛ وأخبروه بهذا. على الفور، قام صلاح الدين بتكليف أحد جنرالاته (فاروق شاه) بحراسة المنطقة المحيطة بدمشق مع قوة صغيرة مكونة من ألف جندى فقط. وأمرهم بأن

يتظاهروا بالهجوم على جيوش الخصم، ثم ينسحبوا فى آخر لحظة ويتجنبوا الاشتباك معهم؛ ويقوموا بإعطائه إشارة ضوئية من فوق أحد التلال المرتفعة التى تم الاتفاق عليها، لكى يبدأ هو الهجوم من الجهة الأخرى. وبالفعل، فى أبريل من عام ١١٧٩م، هاجمت جيوش الفرنجة بقيادة "الملك بالدوين"، متوقعة عدم حدوث أى مقاومة بسبب عنصر المفاجأة. ثم أخذت تتقدم بسرعة خلال محاولتها لاقتفاء أثر قوات فاروق شاه، والتى كانت مركزة إلى الجنوب الشرقى من مدينة القنيطرة فى مرتفعات الجولان؛ وهو ما أوقعها فى الفخ الذى نصبه صلاح الدين، وتلقت هزيمة نكراء بواسطة قواته. شعر صلاح الدين بالثقة بعد هذا النصر، وقرر استدعاء المزيد من القوات من مصر، طالباً من "العديل al-Adil" أن يرسل إليه ١٥٠٠ فارس بعتادهم وخيولهم.

فى صيف عام ١١٧٩م، أقام الملك بالدوين موقعاً أمامياً متقدماً على الطريق المؤدى إلى دمشق، وكان يخطط لتحصين الطريق الذى يعبر من فوق نهر الأردن متجهاً لأورشليم. كان هذا الطريق معروفاً لدى الفرنجة باسم "مخاضة يعقوب Jacob's Ford" (لأنه كان على المسافر أن يخوض فى جزء ضحل من نهر الأردن خلال استخدامه لهذا الطريق)، وهو الطريق الرئيسى الذى يؤدى إلى "سهول بانياس"؛ والتى كانت مقسمة بين العرب والفرنجة ... وكان لكل منهما نفوذ على جزء منها. عرض "صلاح الدين" دفع ١٠٠,٠٠٠ قطعة ذهبية للملك بالدوين، فى مقابل أن يتخلى عن هذا المشروع (تحصين الطريق)؛ والذى كان يمثل إهانة للعرب والمسلمين ... مؤكداً له أن الحجاج الذين سيستخدمون هذا الطريق لن يتعرضوا لأى أذى. لكن بالدوين رفض عرض صلاح الدين. عندها، قرر صلاح الدين تدمير قلعة "تشاسلِت Chastellet" والتى كان فرسان الهيكل يشكلون حاميتها، ثم قام بنقل مركز قيادته إلى سهول بانياس. خلال تدافع فرسان الهيكل لمهاجمة جيش المسلمين، شاعت الفوضى بين صفوفهم، وتخلف المشاة بعيداً عن الفُرسان ... حتى أصبحت قواهم جماعات متناثرة لا يجمعها

رابط. واستغل صلاح الدين هذا التبعثر لصالحه، مقاتلاً كل جماعة على حدة، وملحقاً بهم هزيمة نكراء. تعتبر هذه المعركة نصراً ساحقاً لصلاح الدين، خاصة أنه تمكن من أسر كثير من فرسان الهيكل ذوى الرتب العالية. وبعدها، تحول صلاح الدين نحو الحصن ذاته، وتمكن من الاستيلاء عليه، يوم ٣٠ من أغسطس عام ١١٧٩م.

خلال فترة وجود صلاح الدين فى منطقة "الصفد Safad" - أثناء شهور ربيع عام ١١٨٠م- كانت رغبته فى مهاجمة مملكة أورشليم قد وصلت إلى أقصى مستوياها. فقد كان صلاح الدين يسعى إلى شن هجوم ساحق يستعيد به المدينة المقدسة، ويعيدها مرة أخرى إلى أحضان العالم العربى. أما ملك أورشليم اليافع -والذى كان على علم بنواياه- فإنه أرسل العديد من الرسل إليه بعروض سخية من أجل عقد سلام دائم بينهما. عانت الأرض خلال هذه الفترة من القحط، وبسبب موجات الجفاف المتكررة كان الحصاد ضعيفاً جداً هذا العام؛ وهو ما تسبب فى إعاقة خطط صلاح الدين لتخزين قدر كاف من المؤن، يسمح له بشن الهجوم الساحق الذى كان يهدف إلى تحقيقه منذ فترة. ولعل هذا هو السبب الأساسى فى أنه وافق أخيراً على عقد هدنة مع الملك بالدوين. عندما عرف ريمون الثالث ("ريمون الطرابلسي") بأخبار هذه الهدنة، اشتعل غضبه بشدة، ورفضها منددا بكل بنودها؛ لكنه اضطر إلى تقبلها، فى النهاية، بعد إن قام صلاح الدين بالإغارة عليه خلال شهر مايو، وبسبب ظهور سفن أسطوله قِبالة الشواطئ المطلة على ميناء طرطوس.

الشـئون الداخلية

فى شهر يونيو من عام ١١٨٠م، أقام صلاح الدين الأيوبى احتفالات كبيرة لـــ"نور الدين محمد" أمير مدينة "Keyfa"، والذى ينتمى إلى الأسرة "الأرتقية Artuqid". وفى هذا الاحتفال،

قدم له –ولأخيه أبو بكر– هدايا ثمينة فاقت قيمتها ١٠,٠٠٠ دينار، طبقاً لما ذكره عماد الدين الأصفهاني فى تاريخه. كانت هذه المعاملة الكريمة تهدف إلى تقوية العلاقات مع الحليف الجديد ("الأسرة الأرتقية"). لقد كان صلاح الدين يهدف إلى ترك أثر لا يمحى عليهم، وعلى أمراء بلاد الرافدين، وأمراء الأناضول. وفيما سبق، كان صلاح الدين قد توسط لإقامة علاقات طيبة بين نور الدين من ناحية، وبين ملك الروم "Kilij Arslan II" (من الأسرة السلجوقية) من ناحية أخرى ... بعد الخلاف الذى وقع بينهما. وقد كان ملك الروم قد طالب نور الدين بإعادة الأرض التى منحت له كـــ"دوطة" (مهر للزواج) عندما تزوج ابنته، عندما وصلت إليه أخبار بأنه يسيء معاملتها من أجل الحصول على المزيد من مناطق النفوذ. وقد كان نور الدين هو الذى طلب من صلاح الدين التوسط له فى هذه المسألة؛ وإن كان ملك الروم قد رفض –فى البداية– وساطته.

بعد تلك المقابلة بين نور الدين وصلاح الدين فى منطقة "چلك سو Geuk Su"، نقل "اختيار الدين حسان" (أكبر أمراء السلاجقة مرتبة) رسالة إليهما تعلنهما بتقبل ملك الروم للوساطة. ولهذا، اشتعل غضب صلاح الدين الأيوبي، عندما وصلته أخبار بأن الطرفين لم يحترما وساطته، وأن "نور الدين" أوقع المزيد من الإيذاء بابنة ملك الروم. على الفور، أرسل صلاح الدين تهديدات للروم بأنه سوف يهاجم مدينة "Malatya" ويستولى عليها قائلاً:

> "هذه المدينة لا تبعد إلا يومين عن جيشي، ولن يستغرق الاستيلاء عليها أى وقت. ولن أنزل من على صهوة جوادى، إلا بعد أن أصبح داخل أسوار المدينة".

أثرت هذه التهديدات فى ملك الروم، وعاد إلى مائدة المفاوضات على الفور. لقد كان صلاح الدين يعرف أن نور الدين هو المخطئ، لكن التحالف الذى نشأ بينهما جعله يأخذ جانبه،

ويعادى ملك الروم. وفى النهاية، تم الاتفاق على إبعاد ابنة ملك الروم لمدة عام كامل، لكن نور الدين رفض السماح لها بهذا؛ مما أجبر صلاح الدين على حل التحالف بينهما.

خلال الشهور الأولى من عام ١١٨١م –طبقاً لما كتبه أبو شامة– ترك صلاح الدين بر الشام تحت قيادة "فاروق شاه" وعاد إلى مصر، عازماً على أن يمضى صيام شهر رمضان فى القاهرة، ويحج بعدها إلى مكة المكرمة مع بداية شهور الصيف. لكن، لسبب ما، تغيرت الخطط السابقة الخاصة بالحج، وتم رؤية صلاح الدين –خلال شهر يونيو– وهو يتفحص المشروعات المقامة على ضفاف نهر النيل ... ويتفقد سير العمل فيها. وخلال نفس الفترة، اشتبك صلاح الدين مرة أخرى فى خلافات مع البدو عندما نزع منهم حوالى ثلثي (٢/٣) الإقطاعيات الممنوحة لهم كبديل يعوضه عن الإقطاعيات التى استولوا عليها فى الفيوم. كذلك، تم توجيه اتهامات إلى البدو بأنهم تاجروا مع الجيوش الصليبية وعملوا لديهم كدليل. لهذا قرر صلاح الدين الاستيلاء على الحصة المخصصة لهم من القمح، وتم إجبارهم فيما بعد، على الهجرة إلى مناطق أكثر تطرفاً فى صحراء مصر الغربية. وبالمثل، هاجمت سفنه الحربية القوارب الخاصة بقراصنة البدو الذين كانوا يعربدون فى بحيرة "تانيس Tanis".

خلال شهور هذا الصيف (صيف عام ١١٨١م)، ذهب "قراقوش" (المسئول السابق عن إدارة قصر صلاح الدين) على رأس قوة للقبض على "مجد الدين" (أحد رجال طوران شاه) فى مدينة "زبيد Zabid" اليمنية. هذا وقد كان أعضاء من حاشية صلاح الدين الموجودين فى اليمن قد اتهموا مجد الدين باستغلال أموال مدينة زبيد لمصالحه الخاصة، لكن صلاح الدين لم يصدق هذه الاتهامات، التى لم ينهض دليل واحد على صحتها. ولهذا، أمر صلاح الدين بإطلاق سراحه بعد دفع غرامة ٨٠,٠٠٠ دينار؛ بالإضافة إلى مبالغ أخرى يجب دفعها لـــ"العديل"، و"تاج الملوك برى" (إخوة صلاح الدين). كانت المؤامرة الخاصة بالقبض على "مجد الدين" مجرد تعبير عن مشكلة أكبر؛ فقد كان هناك سخط واستياء بين كثيرين بعد

مغادرة طوران شاه لأراضى اليمن. وبالرغم من أن وكلاء هذا الأخير قد استمروا فى إرسال الأموال إليه من اليمن. قد كانت المشكلة تتلخص فى افتقادهم هناك لسلطة مركزية؛ وهو ما تسبب فى حدوث خلافات داخلية بين عز الدين عثمان فى عدن، وحيطان فى مدينة زبيد. وفى هذا الخصوص، فإن صلاح الدين قد أرسل مكتوباً إلى "العديل"، قال له فيه:

"إن أرض اليمن كنز لا يفنى. لكنه منذ الاستيلاء عليها –وحتى اليوم– لم تعد علينا بأى ربح أو ميزة خاصة. بل على العكس، فإن تكاليف الاحتفاظ بها بدأت فى التزايد؛ خاصة بعد القوات والحملات التى تم إرسالها أخيراً ... والتى لم تعد علينا بما توقعناه منها".

بناء الإمبراطورية

تولى "عز الدين" إمارة الموصل، بعد وفاة أخيه "سيف الدين" فى شهر يونيو من عام ١١٨١م. وفى الرابع من شهر ديسمبر من نفس العام، توفى "الملك الصالح" (أكبر أمراء الأسرة الزنكية وأعلاهم مرتبة) فى مدينة حلب. وقد كان هذا الأخير –قبيل وفاته– قد أجبر كبير قواده على تأدية قسم الولاء لــ"عز الدين" فى الموصل؛ لأن عز الدين كان أقوى أمراء الأسرة الزنكية، والوحيد القادر على الوقوف فى وجه صلاح الدين الأيوبي. لهذا، تم استقبال عز الدين بترحاب فى مدينة حلب. لكن إدارة هاتين المدينتين البعيدتين عن بعضهما البعض لم يكن بالأمر السهل. فإن قطع المسافة بين الموصل وحلب يستغرق عدة أيام، وهو ما وضع عليه ضغوطاً لا قبل له بها. ولعل هذا هو السبب فى أنه منح أخاه ("عماد الدين زنكي") الحق فى إدارة حلب مقابل حصوله على مدينة "سنجار" بدلاً منها. ولم يعترض صلاح الدين الأيوبى على هذه المبادلة، حتى لا تنهار الهدنة القائمة بينه وبين الأسرة الزنكية.

فى يوم ١١ من مايو عام ١١٨٢م، تحرك صلاح الدين من مصر على رأس حملة مكونة من قوات كبيرة تشكل نصف الجيش المصرى، تاركاً النصف الآخر لحماية القاهرة. ورافقت هذه الحملة أعداد كبيرة من المدنيين الراغبين فى الانتقال لسوريا. خلال الليلة السابقة على رحيله، كان صلاح الدين فى جلسة وسط كثير من أصفيائه، والمدرس القائم على تعليم ابنه، والذى أنشدهم بعض الأبيات الشعرية، التى تعبر عن الاشتياق إلى روائح "نجد"، والأراضى المقدسة، (الأراضى المحيطة بالكعبة). لكن صلاح الدين اعتبر هذه الأبيات نذير شؤم، وعلامة سيئة على أنه لن يتمكن من العودة إلى مصر مرة أخرى. لقد كان هذا القائد العظيم يعرف أن قوات الصليبيين قد بدأت فى التجمع لتقطع عليه الطريق إلى بر الشام. ولهذا، قام بتغيير مسار الحملة، وقطع شبه جزيرة سيناء، من خلال النزول جنوباً إلى خليج العقبة أولاً، ثم التوجه شمالاً مرة أخرى نحو بر الشام، كى يتفادى الصليبيين الذين يحاولون اعتراض طريقه. وصل صلاح الدين إلى دمشق خلال شهر يونيو. وهناك، علم أن فاروق شاه، قد قام بمهاجمة منطقة الجليل واستولى على قلاع المدن الموجودة فيها؛ والتى تشكل أهمية استراتيجية قصوى بالنسبة لقوات الصليبيين. خلال الأيام التالية، قرر صلاح الدين إرسال فاروق شاه على رأس قوة كبيرة للاستيلاء على مدينة "كوكب الهوا". وخلال شهر أغسطس شن جنرالات صلاح الدين هجوماً بحرياً وبرياً على مدينة "بيروت"؛ ولكنهم لم يستطيعوا اقتحامها. أما هو فإنه قام بقيادة جيشه فى وادى البقاع. استغرقت هذه الحملة وقتاً أكبر بكثير مما قدر لها، وهو ما دفع صلاح الدين لصرف النظر عنها وتوجيه اهتماماته نحو بلاد الرافدين.

خلال نفس هذه الفترة، دعى أمير "حران" ("Kukbary")، صلاح الدين للاستيلاء على منطقة الجزيرة، والتى تشكل الجزء الشمالى من بلاد الرافدين. وبالفعل، استجاب له صلاح الدين الأيوبي. وبهذا، تكون الهدنة بينه وبين الأسرة الزنكية، قد انتهت رسمياً فى سبتمبر من عام ١١٨٢م. وبالمصادفة، فإن الخلافات والنزاعات بين أمراء الأسرة الزنكية فى المنطقة

كانت قد وصلت إلى أقصى درجاتها. والسبب فى هذه الخلافات، هو عدم استعدادهم لدفع الجزية والخضوع لأمير الموصل. أما صلاح الدين، فإنه قام بحصار مدينة حلب لمدة ثلاثة أيام قبل عبوره لنهر الفرات، ليشير بهذا إلى انتهاء الهدنة بينهما.

بمجرد وصوله إلى المنطقة المحيطة بمدينة "البيرة" –بالقرب من نهر الفرات– انضم إليه قوات كل من أمير حران، ونور الدين. وتمكنت هذه القوات المشتركة من الاستيلاء على كل مدن الجزيرة؛ والتى سقطت فى أيديهم الواحدة تلو الأخرى. أهم هذه المدن، هى مدينة "الرقة"، والتى كانت تمثل نقطة عبور هامة جداً. وقد كانت هذه المدينة خاضعة –فى الأصل– للأمير "قطب الدين أينال"، والذى كان قد خسر مدينة "منبج" لصلاح الدين منذ ٦ سنوات (عام ١١٧٦م). بمجرد أن رأى قطب الدين حجم الجيش المهاجم، قرر الاستسلام بشرط الحفاظ على ممتلكاته الشخصية. هذا وقد ترك صلاح الدين انطباعاً حسناً على سكان هذه المدينة، بسبب إصداره لقرار أدى إلى إلغاء عدد من الضرائب التى كانت مفروضة عليهم بصفة نهائية، معلناً:

"إن أبغض الحكام عند الله، هو الحاكم الذى تمتلئ بطنه من أموال الرعية، بينما تتضور رعيته جوعاً"

وبعد استيلائه على "الرقة"، أكمل مهمته فى الاستيلاء على باقى مدن الجزيرة؛ والتى أقسمت جميعها يمين الولاء له، ودخلت فى تحالف معه طواعية. بعدها، تم الاستيلاء –بدون مقاومة– على مدينة متوسطة الحجم تدعى "نصيبين"، لكنها ذات أهمية قصوى بسبب موقعها الاستراتيجى بين مدينتي "ماردين"، و"الموصل". كذلك، فإنها كانت على الطريق المؤدية إلى "ديار بكر" ... وهو ما زاد من أهمية التحكم فيها. فى خضم كل هذه الانتصارات المتوالية، وصلت إلى صلاح الدين الأيوبي أخبار بأن جيوش الفرنجة قد قامت بالإغارة على عدد من القرى المحيطة بدمشق، لكنه لم يتأثر كثيراً بهذا وكان رده هو:

"دعهم يفعلون هذا. فبينما يقوم الفرنجة بالاستيلاء على القرى الصغيرة، تمكنت جيوشي من الاستيلاء على مدن عظيمة. وهى مدن ذات أهمية قصوى؛ لأن ولاءها سيمدنى بمزيد من القوات والحلفاء الأقوياء، وهو ما سيجعلنى أكثر قوة منهم ... وسيمكننى –فى النهاية– من التغلب عليهم".

وفى حلب، خلال نفس هذه الفترة، قام أمير المدينة "الزنكي" بالإغارة على المدن التابعة لصلاح الدين والواقعة إلى الشمال والشرق من حلب، والاستيلاء عليها. كذلك، قام هذا الأمير بتدمير أسوار قلعة "الإعزاز A'zaz" الواقعة تحت سيطرته، حتى لا تستخدم ضده بعد وقوعها فى يد جيوش صلاح الدين.

الاستيلاء على حلب

بعد أن انتهى صلاح الدين من هذه السلسلة المتواصلة من الغزوات الناجحة فى بلاد الرافدين، تحول باهتمامه نحو مدينة حلب التى خرجت عن طوعه، ونقضت العهود والمواثيق الموقعة بينهما. ولهذا، أرسل أخاه ("تاج الملوك بوري") على رأس جيش صغير للاستيلاء على مدينة تل خالد الواقعة على مبعدة ١٣٠ كيلومتر إلى الشمال الشرقى من مدينة حلب. وبالفعل، تم حصار المدينة، لكن حاكمها لم يستسلم إلا عند وصول صلاح الدين نفسه يوم ١٧ من مايو. وطبقاً لما ذكره "عماد الدين" فى كتابه، فإنه بعد الاستيلاء على هذه المدينة، اتجه صلاح الدين بجيوشه نحو الشمال فى اتجاه حصن "عين تبويب Ain Tab"، وكان استيلاؤه عليه قد وضعه على مقربة ١٠٠ كيلومتر من حلب؛ والتى وصل على مقربة منها يوم ٢١ من مايو ... حيث أقام معسكره خارج أسوار المدينة، وإلى الشرق من قلعتها الشهيرة.

قامت جيوش صلاح الدين بالاقتراب من المدينة إلى درجة خطيرة متعشمة إحراز نجاح سريع. ولم يتمكن الزنكي من المقاومة لفترة طويلة بسبب عدم شعبيته بين أهل حلب، ورغبته فى العودة إلى "سنجار". وحدثت مفاوضات بينهما، قام الزنكي بمقتضاها بتسليم حلب إلى صلاح الدين مقابل السماح له بحكم "سنجار"، و"نصيبين"، و"الرقة". وعلى أن يكون من المفهوم أن حكمه لهذه المدن الثلاثة، هو من قِبل صلاح الدين وعلى شرط الولاء له، وإرساله لقوات ومدد فى حالة حاجة صلاح الدين لهما. وفى يوم ١٢ من يونيو من نفس العام، أصبحت حلب تحت سيطرة الأسرة الأيوبية رسمياً. وعلى الرغم من أن أهالى حلب لم يكونوا على علم بهذه المفاوضات بين الزنكي وصلاح الدين، إلا أنهم لم يظهروا الكثير من الدهشة عندما ارتفعت أعلام الأسرة الأيوبية فوق قلعتهم صباح يوم ١٢ من يونيو، بسبب كراهيتهم الشديدة للزنكي. كذلك، قام اثنان من الأمراء فى المدينة بالترحيب بصلاح الدين وإعلان ولاءهما له. على الفور، قام صلاح الدين بإحلال المذهب الشافعي، محل المذهب الحنفي فى محاكم المدينة وإداراتها. وفيما عدا هذا، فإنه لم يتدخل فى أمور القيادة الدينية السائدة هناك.

خلال هذه الفترة، كان صلاح الدين فى حاجة شديدة إلى الأموال. وعلى الرغم من هذا، فإنه سمح للزنكي –عند مغادرته لحلب– بأن يأخذ كل ما يستطيع حمله من مخازن القلعة؛ واشترى منه كل ما تبقى فيها. كان المحيطون بصلاح الدين فى شك كبير فى صحة وصواب ما قام به، وهذا الكرم الزائد الذى عومل به الزنكي. أما صلاح الدين، فإنه كان على ثقة كاملة فى قراراته، وأعلن صراحة أن حلب هي مفتاح الأرض المحيطة بها؛ وإنها هى التى ستمكنه من السيطرة على شتى أنحاء بر الشام. إن الاستيلاء على حلب يعتبر تتويجاً للجهود المضنية التى بذلت خلال السنوات الثمانية الماضية.

أمضى صلاح الدين ليلة واحدة فى قلعة حلب. وفى صباح اليوم التالى، ذهب على رأس قواته نحو قلعة "حريم"؛ والتى تقع على مقربة من "أنطاكيا" الواقعة تحت سيطرة جيوش

الفرنجة. الحامية القائمة على حراسة هذه القلعة كانت تحت قيادة أحد صغار المماليك، والذين رأى صلاح الدين أنه من الممكن التفاوض معه للاستيلاء على القلعة بدون قتال. وبالفعل، عرض عليه صلاح الدين تولى قيادة حامية البصرة، وإقطاعية خاصة به فى دمشق فى مقابل تسليم القلعة دون قتال. لكن هذا المملوك الجشع كان يطمع فى الحصول على المزيد؛ وهو ما دفع أفراد حاميته الشخصية للتخلص منه. وقام أحد جنرالات صلاح الدين (تقي الدين) بالقبض عليه بتهمة محاولة التخطيط لضم قلعة حريم لممتلكات "Bohemond III of Antioch" (ملك أنطاكيا التابع لجيوش الصليبيين). بمجرد استيلاء صلاح الدين على القلعة، شرع على الفور فى تنظيم شئون الدفاع عنها ضد الصليبيين؛ وأرسل تقارير بما حدث للخليفة العباسى (الناصر لدين الله*) فى بغداد، وللموالى التابعين له فى بعلبك واليمن، وأخبرهم بنيته فى الهجوم على الأرمن. لكنه قبل أن يشرع فى تنفيذ ما خطط له، كان عليه أن يولى اهتمامه لبعض التفاصيل الإدارية واللوجستية الواجب القيام بها. فى البداية، وافق صلاح الدين على عقد هدنة مع ملك أنطاكيا ("Bohemond III")، فى مقابل أن يسمح هذا الملك بعودة المساجين المسلمين المعتقلين لديه. وبعد هذا، قام بتولية "علم الدين سليمان" (أحد أمراء مدينة حلب الذين انضموا لصلاح الدين واقسموا يمين الولاء له)، قيادة الحامية المدافعة عن حصن "الإعزاز"، أما قيادة حامية حلب فقد تولاها "سيف الدين" (أحد المماليك السابقين الذين عملوا تحت قيادة عمه، أسد الدين شيركوه؛ وقد كان هذا المملوك السابق هو الذى ساعد فى إنقاذ صلاح الدين، عندما حاولوا اغتياله بالقرب من "الإعزاز").

---

* هو الخليفة العباسى رقم ٣٤ الناصر لدين الله، والذى امتدت فترة خلافته حوالى ٤٥ سنة من (١١٨٠- ١٢٢٥م). وهى الفترة التى تمكن خلالها صلاح الدين الأيوبي من الانتصار فى معركة حطين (١١٨٧م)؛ ثم ما تلاها من تحرير بيت المقدس. (عادل نجيب)

الخلاف بشـــأن الموصل

عندما اقتربت جيوش صلاح الدين من الموصل، كان عليه أن يستعد لمواجهة الالتزامات الخاصة بإدارة مدينة كبيرة فى حجم الموصل؛ كما كان عليه -أيضاً- أن يأتى بمبررات شرعية تسمح له بالاستيلاء عليها. وفى هذا الخصوص، فإن الأسرة الزنكية كانت قد استنجدت بالخليفة العباسى فى بغداد (الناصر بالله)؛ والذى كان وزيره الأول دائماً ما يأخذ جانبهم فى كل المشاكل التى حدثت من قبل. أرسل الخليفة العباسى الناصر بالله، أحد كبار الفقهاء ذوى المكانة الدينية المحترمة لدى الجميع للتوسط بين الطرفين. هذا، وقد كان وصول صلاح الدين الأيوبي إلى مدينة الموصل فى يوم ١٠ من نوفمبر ١١٨٢م. عندما جلس الطرفان للتفاوض، وجد عز الدين زنكي أن شروط صلاح الدين ماكرة، وتشتمل على تدخلات واسعة فى شئون الموصل، ورفضها جميعاً. على الفور، قام صلاح الدين بمحاصرة المدينة، فى محاولة منه للضغط على عز الدين للقبول بشروطه. نشبت عدة مناوشات صغيرة بين قوات الطرفين. وفيما يبدو، فإن صلاح الدين كان يحاول البحث عن طريقة للانسحاب بعيداً عن الموصل بدون أن تتأثر سمعته؛ وأن يحافظ فى نفس الوقت على الضغوط العسكرية الموضوعة على الموصل. لهذا، قرر مهاجمة "مدينة سنجار"، والتى كانت -الآن- تحت حكم "شرف الدين" (الأخ الأصغر لعز الدين زنكي). وبالفعل، سقطت هذه المدينة فى يديه بعد أسبوعين من الحصار المستمر (فى يوم ٣٠ من ديسمبر عام ١١٣٢م). وللأسف، لم يلتزم جنود صلاح الدين بالانضباط وضبط النفس، وعاثوا فساداً فى المدينة. ولم يتمكن صلاح الدين، إلا من إنقاذ الحاكم وكبار قادته، عندما أمر بإرسالهم إلى الموصل. وبعد أن تم اتخاذ اللازم بشأن تنظيم الحامية الجديدة لمدينة سنجار، انتظر صلاح الدين وصول جيش عز الدين المكون من قوات متحالفة من جيوش حلب، وماردين ، وأرمينيا. خلال شهر فبراير من عام ١١٨٣م، وبالقرب من مدينة حران،

تقابل الطرفان، وإن كان لم يحدث بينهما أى اشتباك فعلى. بمجرد اقتراب قوات الطرفين من بعضها البعض، سارع عز الدين زنكي بإرسال البعثات إلى صلاح الدين مطالباً بالسلام. وبالفعل، عاد كل من الجيشين مرة أخرى إلى مواقعه الأصلية ... ولم ينشب أى قتال. وفى هذا الخصوص، كتب المؤرخ "الفاضل": "لقد تقدموا (قوات عز الدين المتحالفة) كرجال بواسل، ولكنهم سرعان ما اختفوا كالنساء".

فى الثانى من مارس عام ١١٨٣م، وصلت إلى صلاح الدين رسالة من مصر كتبها "العديل"؛ وفحواها أن الصليبيين، حسب قوله، قد **طعنوا الإسلام فى القلب** عندما قام "رينالد دى شاتيون Raynald de Châtillon" باستخدام سفنه التى أبحرت إلى خليج العقبة للإغارة على القرى والمدن الصغيرة الواقعة على ساحل البحر الأحمر هناك. لم تكن هذه الغارات محاولة من جانب جيوش الفرنجة لتوسيع دائرة نفوذهم فى المناطق البحرية التابعة للمسلمين، كما إنها لم تكن محاولة للسيطرة على طرق التجارة والقوافل التى تعبر هذه الدروب. لقد كانت هذه الاعتداءات من جانبه مجرد خطوات عملية لإضعاف الخصم واستنزاف موارده؛ مثلها فى هذا مثل استراتيجية "الأرض المحروقة Scorched Earth"[٥] التى اتبعها شيرمان خلال الحرب الأهلية الأمريكية، لكى يحرم أهل الجنوب من الموارد التى تمكنهم من الاستمرار فى القتال. وأيا كانت الأسباب، فإن عماد الدين الأصفهانى ذكر فى كتاباته التى أرخ بها لحياة صلاح الدين ما نصه: "لقد أثارت هذه الغارات انزعاج المسلمين بشدة، لأنهم لم يعتادوا –فى تلك المناطق النائية من البحر الأحمر– على حدوث هجمات عسكرية منظمة عليهم". أما ابن الأثير، فإنه ذكر ما معناه إن سكان تلك المناطق من المسلمين لم تكن لهم أى خبرة فى التعامل مع جيوش الفرنجة ... سواء كان هذا التعامل "قتال" أو "تجارة".

وذكر أحد المؤرخين العرب ("ابن الجبير") إن غارات جيوش الفرنجة على هذه المناطق قد أسفرت عن حرق ١٦ سفينة من سفن المسلمين؛ وأهم تمكنوا أيضاً من الإمساك بأحد السفن المحملة بالحجاج الذاهبين إلى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة. وأضاف هذا المؤرخ، ما معناه إن جيوش الفرنجة قد انتوت أن تهاجم "المدينة" فى أرض الحجاز؛ وأن تنبش قبر رسول الإسلام محمد ﷺ. وفى هذا الخصوص، ذكر المقريزي ما معناه أنه سيتم نقل قبر الرسول ﷺ إلى مناطق واقعة داخل حدود نفوذ الصليبيين حتى يتم إجبار المسلمين على الحج إلى هناك. من حسن حظ صلاح الدين، كانت سفن "العديل" الموجودة فى الفسطاط والإسكندرية قد تحركت بالفعل نحو البحر الأحمر تحت قيادة بحار مأجور من الأرمن يدعى "لولو Lu'lu". وعند وصولها إلى هناك، تمكنت هذه السفن من كسر حصار سفن الفرنجة على المنطقة؛ وأحرقت الغالبية العظمى منها، مطاردة من تمكن منهم من الرسو بسفنه، وأسرت عدداً كبيراً منهم. كان عدد الصليبيين الذين تم أسرهم يبلغ حوالى ١٧٠ أسيراً؛ وقد أمر صلاح الدين بقتلهم –فى الميادين العامة لعدد من المدن التابعة له– حتى يكونوا عبرة لغيرهم.

وبالنسبة للأمر الخاص بزيادة مناطق النفوذ، فإن الحرب فى الموصل –من وجهة نظر صلاح الدين الأيوبي– كانت تسير من بطريقة جيدة. ومع هذا، فإنه ظل عاجزاً عن تحقيق أهدافه الأساسية من الذهاب إلى هناك؛ كما أن حجم القوات الموجودة فى جيشه كان قد بدأ فى التناقص بالفعل. وعلى سبيل المثال، فإن تقي الدين قد عاد –هو ورجاله– إلى مدينة حماه. كذلك، فإن نصير الدين محمد قد تركهم هو الآخر وعاد إلى بلاده. وعندما علم عز الدين زنكي بهذه الأخبار، فإنه استبشر خيراً، وتشجع هو وحلفاؤه لاتخاذ خطوة هجومية ضد صلاح الدين. لهذا، قررت قوات هذا التحالف (جيوش حلب، وماردين ، وأرمينيا) التجمع فى مدينة صغيرة على مبعدة ١٤٠ كيلو من حران. وهناك، خلال الأيام الأولى من شهر أبريل

عام ١١٨٣م، تقدمت قوات التحالف لملاقاة قوات صلاح الدين. وفى أواخر شهر أبريل، وبعد ثلاثة أيام من القتال -طبقاً لما ذكره صلاح الدين- فإن جيوشه تمكنت من الاستيلاء على "ديار بكر Amid".وقام بتسليمها لنور الدين محمد بكل ما فيها من مخازن وسلع وعتاد. وحصل منه فى المقابل على شهادة، أمام الجميع، تعترف بخضوع المدينة له؛ ووقع نور الدين أوراقاً تجبره على الدخول فى تحالف مع صلاح الدين عندما يحتاج الأخير إليه، وأن يذهب معه فى كل حملة يخرج إليها ضد الصليبيين، وأن يقوم بإصلاح ما لحق بالمدينة من خسائر على حسابه الشخصى. هذا وقد كان سقوط ديار بكر، هو الذى أقنع حاكم ماردين بالدخول فى تحالف رسمى مع صلاح الدين ... وهو ما تسبب فى تفكك التحالف مع عز الدين وإضعافه.

وفى هذا الخصوص، فإن صلاح الدين الأيوبى استمر فى محاولاته لاكتساب الخليفة العباسى (الناصر لدين الله) إلى جانبه؛ محولاً إياه ضد عز الدين وحلفائه. ولهذا أرسل إليه خطاباً يطلب فيه منحه وثيقة رسمية تعطيه الحق -بطريقة شرعية- فى السيطرة على الموصل والمناطق المحيطة بها. لقد كان صلاح الدين يهدف لإقناع الخليفة بأنه قد سيطر على "مصر" و"اليمن" تحت ظل الخلافة العباسية؛ بينما قامت الأسرة الزنكية فى "الموصل" بإعلان تأييدها صراحة للسلاجقة ... والذين يعتبرون الخصم والمنافس الأساسى للخليفة العباسى. لقد كان صلاح الدين يهدف من كل هذه المناورات لإقناع الخليفة العباسى بأن عز الدين زنكي لم يلجأ إليه إلا عندما اكتشف أنه فى ورطة لا نجاة له منها إلا بمساعدة مباشرة من الخليفة؛ وأن تحركات هذا الرجل (عز الدين زنكي) ومطامعه، تفسد على المسلمين "حربهم المقدسة Holy War" الأساسية من أجل إنقاذ القدس وتحريرها من جيوش الفرنجة ... والذين ظلوا يعيثون فى الأرض فساداً منذ وصولهم، والذى استمر حتى الآن لعشرات السنين. وفى هذا الخصوص، ذَكَّرَ صلاح الدين الأيوبي، الخليفة العباسى بأن "عز الدين وحلفاءه" لا يجرءون على مقاتلة جيوش الفرنجة، ويتسببون فى إعاقة جهود من يستطيع هذا (أى جهوده هو الشخصية). ودافع

صلاح الدين عن أفعاله، مُذَكِراً الخليفة العباسى بأنه قد أتى إلى بر الشام –فى الأساس– لمحاربة الصليبيين؛ ولكى يضع حداً للهرطقات التى خرجت بها الطائفة الإسماعيلية، وأتباعهم من جماعة الحشاشين التى كانت تقتل معارضيها غيلة وغدراً ... حتى عرفوا –فى أنحاء العالم الغربي– باسم: "المغتالين Assassins". كذلك، وعدهم صلاح الدين الأيوبي، بأنه إذا ما تم منحه مدينة الموصل، فإن هذا سيؤدى إلى استعادة بيت المقدس؛ وسيفتح الطريق أمام الوصول إلى القسطنطينية وچورچيا، والقضاء على خلافة "الموحدين Almohads" فى المغرب العربى وبلاد الأندلس. وقد أكد له صلاح الدين على أن كل هذا سيحدث بإذن الله؛ مصراً على أن يكون تأييد الخليفة له فى شكل مادى (أى فى شكل تمويل وقوات مؤهلة للقتال)، وألا يقتصر على تأييده بصورة معنوية فقط (أى من خلال منحه الشرعية فقط). وفى هذا الخصوص، فإن صلاح الدين كان قد وعد الخليفة العباسى بأن يضع مدن جديدة ومساحات شاسعة من الأرض تحت نفوذ الخليفة المباشر، بمجرد تمكنه من الحصول على تأييده المادى والمعنوى، مثل "تكريت"، و"داقوق Daquq"، و"خوزستان Khuzestan"، و"جزيرة كيش Kish Island"، و"عُمان".

الحروب ضد الصليبيين

أخيراً، بدأت تلوح بوادر اليوم المشهود. وعبر صلاح الدين بجيوشه، يوم ٢٩ من سبتمبر ١١٨٢م، نهر الأردن، فى طريقه إلى مهاجمة "بيسان Beisan". عند وصوله إلى هناك، اكتشف أنه تم هجر المدينة؛ وأنها خالية من السكان أو أى حامية للدفاع عنها. فى اليوم التالى، أمر صلاح الدين بتدمير أسوارها وحرقها، واتجه بقواته نحو الغرب. خلال اتجاههم إلى هناك، فى "طريق نابلس Road to Nablus"، تم اعتراض قافلة فى طريقها إلى جيوش الفرنجة بالمؤن

والعتاد. تم الاستيلاء على القافلة وأسر عدد من الجنود القائمين على حراستها. وفى نفس الوقت، كانت القوات الأساسية لجيوش الصليبيين قد تجمعت تحت قيادة "جاى اللوسيجناني Guy of Lusignan"، والذى تحرك بهم من الـــ"صفورية" إلى "الفولا al-Fula".

على الفور، قرر صلاح الدين إرسال ٥٠٠ جندى من أفضل جنوده للدخول فى مناوشات مع الصليبيين والتحرش بهم وإزعاجهم. أما القوات الأساسية الموجودة تحت قيادته، فإنه ذهب بها إلى "عين جالوت". فى هذا الصدد، يمكن القول بأن الصليبيين قد تمكنوا خلال هذه الفترة من تجميع أكبر عدد من القوات فى الجيوش التى تحمى مملكة أورشليم؛ وأن كل هذه القوات –والتى تعتبر الأضخم على وجه الإطلاق حتى تلك اللحظة– كانت كلها من مصادر ذاتية (أى أنه لم يتم إرسالها من أوربا). ورغم هذا، فإن جيوش صلاح الدين كانت لا زالت تفوقهم عدداً وعدة. وعلى أية حال، فإن جيوش صلاح الدين ابتعدت عن عين جالوت فى اتجاه مصب المياه؛ حيث قامت بالاستيلاء على عدد من القرى والتجمعات الصغيرة القريبة من المياه، وتدميرها؛ فى محاولة منهم لاستفزاز جيوش الفرنجة. ورغم هذا، لم يحاول الصليبيون الدفاع عنهم أو حمايتهم؛ بل ظلوا على منأى من قوات صلاح الدين ... يراقبون ما يحدث من بعيد. بعد مرور فترة من الوقت بدون وقوع أى معركة حاسمة، انخفضت المؤن لدى صلاح الدين؛ وهو ما اضطره إلى العودة نحو الضفة الأخرى من النهر، حيث تتوافر العدة والعتاد الذى يحتاج إليه.

قرر قادة جيوش الفرنجة الانتقام لما أحدثه صلاح الدين من دمار فى الأراضي الواقعة تحت نفوذهم. ولهذا، دخل "رينالد دى شاتيون" فى مناوشات حامية مع خطوط التجارة والحج التى يستخدمها المسلمون، وحاول إيقاع أكبر قدر ممكن من الأذى بهم. وهو قد استخدم فى هذا، عدداً من سفنه الموجودة فى "البحر الأحمر"، ذلك الطريق الاستراتيجى الذى يحتاج صلاح الدين للحفاظ عليه مفتوحاً إذا كان يريد تحقيق النصر فى أى معركة حاسمة قادمة. على الفور

قرر صلاح الدين إرسال ٣٠ قارباً حربياً صغيراً لمهاجمة مدينة بيروت وميناءها. لكن "شاتيون" هدد بمهاجمة مدن الإسلام المقدسة ("مكة المكرمة" و"المدينة") فى أراضى الحجاز. ورد صلاح الدين على هذا بحصاره لمدينة "الكرك Kerak" (وهى الحصن الذى ينتمى إليه "شاتيون" وقواته) مرتين خلال فترة لا تتعدى العام (نهاية عام ١١٨٢ وبداية ١١٨٣م). ورد "شاتيون" بمهاجمة إحدى قوافل الحجاج فى عام ١١٨٥م؛ واستولى على ما معهم من أموال وعتاد ومؤن. وطبقاً لما ذُكِرَ فى أحد الموسوعات الشعبية الفرنسية، والتى صدرت فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى، والمسماة: "Old French Continuation of William of Tyre"؛ فإن شاتيون قد تمكن من أسر أخت صلاح الدين فى هذه الغارة! وإن كانت كل المصادر المعاصرة –العربية والأجنبية– قد ذكرت أنه هاجم إحدى القوافل السابقة على قافلتها؛ وأن صلاح الدين كان قد أرسل أخته وابنها للحج فى قافلة محروسة بجنود من قِبَله ... وأنه لم يلحق بهم أى أذى.

استغرق حصار مدينة "الكرك" وقتاً أكثر من المتوافر لدى صلاح الدين. لهذا، تحول بجهوده نحو أحد أهدافه الأصلية الطويلة الأمد (الاستيلاء على الموصل)؛ وحاصرت قواته –مرة أخرى– حصون نور الدين زنكي هناك. لقد كان هذا الأخير، قد تحالف مع حكام "أزربيجان"، و"جبال". وقد كان هؤلاء الحلفاء الأقوياء قد حركوا قواهم، فى عام ١١٨٥م، نحو التلال المعروفة باسم "جبال زاغروس"، وعبروها. هذه التحركات، دفعت صلاح الدين إلى التروى، خاصة أن المدافعين عن الموصل قاوموهم بحماسة وحمية، عندما عرفوا أن حلفاءهم فى الطريق لمساعدتهم. كذلك، فإن صلاح الدين أصيب بالمرض خلال نفس هذه الفترة؛ وهو ما دفعه – فى مارس من عام ١١٨٦م – لتوقيع معاهدة سلام مع نور الدين زنكي.

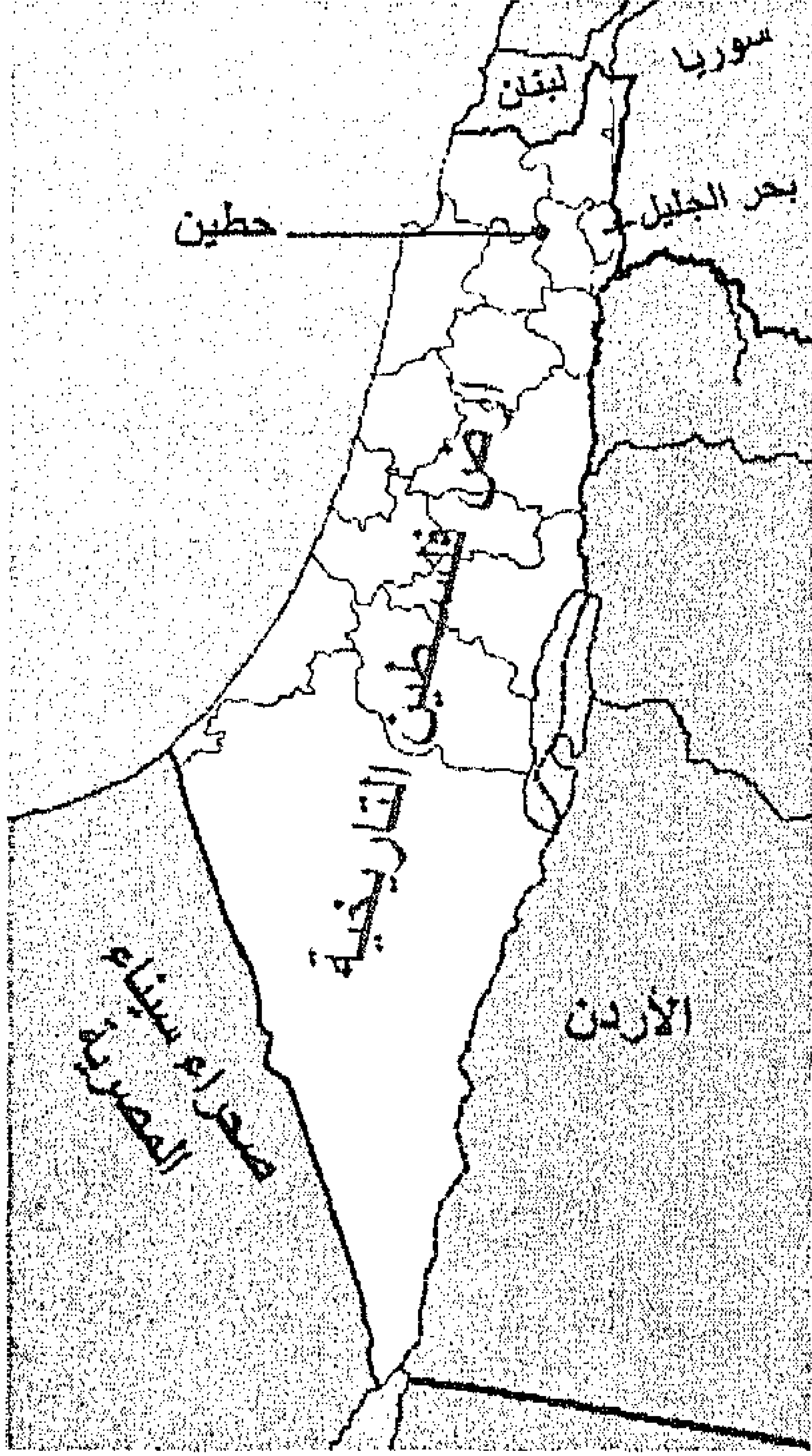
بحلول شهر يوليو من عام ١١٨٧م، كان صلاح الدين قد تمكن من استعادة الغالبية العظمى من أراضى مملكة أورشليم. وعلى سبيل المثال، فإنه انتصر فى **معركة حطين**

(٤ يوليو ١١٨٧م) ضد قوات التحالف المشتركة بين "جاى اللوسيجناني" (الملك المشارك فى حكم أورشليم)، وريمون الثالث ("ريمون الطرابلسي"). وفى هذه المعركة وحدها، خسرت جيوش الفرنجة الغالبية العظمى من قواها؛ والذين وقعوا فى الأسر أو قتلوا أو جرحوا بطريقة تمنعهم من القتال فى المستقبل القريب. لقد كانت هذه المعركة كارثة بكل المقاييس بالنسبة للصليبيين، ونقطة تحول تاريخية فى مسار الحروب الصليبية على أراضى الشرق؛ لم تتعاف منه أبداً. فى هذه المعركة، تمكن صلاح الدين من أسر "رينالد دى شاتيون"؛ وشاهد إعدامه بنفسه، عقاباً له على مهاجمة قوافل الحجاج المسلمين. وفى هذا الصدد، فأن بعض هؤلاء الحجاج قد طلبوا الرحمة من "رينالد دى شاتيون"، مذكرينه باتفاقيات الهدنة المعقودة بينه وبين صلاح الدين، لكنه سبهم، قبل أن يعمل فيهم القتل والتعذيب. وعندما سمع صلاح الدين بهذا، أقسم على أن يعاقب "شاتيون" بنفسه. وبالفعل، كان حاضراً عندما تم إعدامه. كذلك، تم أسر "جاى اللوسيجناني" فى نفس المعركة، والذى توقع أن يتم إعدامه هو الآخر؛ لكن صلاح الدين عفا عنه، لأنه لم يرتكب تلك النوعية من الجرائم التى ارتكبها شاتيون. وفى هذا الخصوص، قال صلاح الدين:

"ليس من شـــيم الملوك أن يقتلوا نظراءهم من الملوك الآخرين. لكن هذا الرجل قد تجاوز كل الحدود؛ ولهذا استحق هذه المعاملة منى".

معركة حطين

تقع حطين على السفوح الشمالية للتلال المعروفة باسم: "قرون حطين Horns of Hattin"، فى أقصى شمال الأراضى الفلسطينية التاريخية (أسفل الحدود الجنوبية للبنان مباشرة، وإلى الجانب الغربى من بحيرة طبرية الملاصقة للحدود السورية). وقد عرفت هذه المدينة الصغيرة بأهميتها الاستراتيجية الخطيرة، لأنها تقع على سهول حطين الشهيرة، والمفتوحة على بحيرة طبرية من ناحية الشرق والغرب، والقريبة من الجليل. وهو ما جعلها –على مر العصور– معبراً للقوافل التجارية، والجيوش الغازية، وقوافل الحجاج الآتية من بر الشام وبلاد الأتراك.



موقع مدينة حطين على الجهة المقابلة للشواطئ الغربية لبحيرة الجليل.

وعلماء الآثار الذين أجروا حفريات هناك، عثروا على آثار فخارية تعود إلى العصر "النحاســى Chalcolithic"، والمراحل المبكرة من العصر "البرونزى". وهناك احتمال كبير، فى أنه قد تم بناء حطين فوق أطلال أحد المدن الكنعانية القديمة المذكورة فى الإنجيل (Siddim or Ziddim)؛ وقد تغير اســمها حوالى القرن الثالث قبل الميلاد إلى المصطلح العبرى "كفر حطين"، والتى تعنى "قرية القمح". وخلال فترة الاحتلال الرومانى لأراضى فلسطين،

والتى استمرت إلى ما بعد الميلاد، عرفت باسم: "كفر الحنطة Kfar Hittaya". أما خلال القرن الرابع الميلادى، فعاد إليها اسم "حطين" مرة أخرى.

تاريخها خلال الفترة الإسـلامية الأولى

سنتكلم هنا عن تاريخ حطين منذ الفترة التى أعقبت الفتح الإسلامى لها، وحتى سيطرة العثمانيين عليها. فبعد الفتح الإسلامى، اعتنق سكان هذه المدينة الصغيرة الدين الجديد. وتم وصفها فى كثير من كتب الرحلات والأسفار التى وصلت إلينا. وعلى سبيل المثال، فإن مقدماً فى الجيش الفرنسي يدعى: "كلود كوندر Claude Conder"، ذكر لنا فى كتابه المعنون: "مملكة أورشـليم اللاتينية Latin Kingdom of Jerusalem" الصادر عام ١٨٩٧م، ما نصه:

"هذه المدينة الصغيرة محاطة بأشجار الزيتون والفواكه، وبها نبع مياه غزير يأتى إليها من خلال وادى الحمام".

خلال هذه الفترة، دفن بها كثير من كبراء المسلمين، طبقاً لما ذكره بعض الجغرافيين العرب مثل: "ياقوت الحموي"، و"الأنصاري الدمشقي". وقد عاش هذا الأخير هناك، وعرف باسم "شيخ حطين". كذلك، فإن "على الدويداري"، المفسر القرآنى والخطاط الشهير مات فيها عام ١٣٠٢م. وقد ذكر بعض المؤرخين العرب أن نبي الله شعيب ("يثرون Jethro" حما موسى) قد دفن هناك هو وزوجته. كذلك، فإن ياقوت الحموي ذكر أن هناك أحد المقامات الأخرى بالقرب من "أرصوف Arsuf"، وصِفت –عن طريق الخطأ– بأنها مقام النبى شعيب. لكن المسلمين السنة، والدروز، استمروا –حتى نهاية الفترة العثمانية– فى القيام بزيارات إلى المقام المقدس الموجود فى حطين؛ وأن الاحتفالات التى يقوم بها الدروز (مولد سيدنا شعيب) كانت تجذب أعدادا كبيرة من الطوائف الأخرى الموجودة فى منطقة سوريا.

تاريخها خلال الحقبة العثمانية

فى عام ١٥٩٦م أصبحت حطين جزءاً من الإمبراطورية العثمانية وتابعة لمركز "ناهية Nahiya"، فى منطقة الصفد. وقد بلغ تعداد سكانها فى ذلك الحين ٦٠٥ فرد. ومن كتابات أحد الرحالة الذين زاروها ("Evliya Çelebi") عام ١٦٤٦م، نقرأ ما معناه:

"هى قرية تتكون من ٢٠٠ بيت، كلهم مسلمين ولا يوجد بينهم أى دروز. وبها كثير من مزارع العنب، والبساتين، والحدائق. والهواء والمياه فى أحسن حالاتهما، وبهما كل صفات النقاء الموجودة فى الطبيعة البكر. ويتم عقد سوق كبير مرة كل أسبوع، يجتمع فيه حوالى ١٠,٠٠٠ بائع من كل المناطق المجاورة لتبادل السلع والمنتجات. وتقع هذه القرية فى وادى فسيح جداً، ومحاطة من الجانبين بصخور منخفضة الارتفاع. ويوجد بها مسجد، وحمام عام، ومكان لاستقبال القوافل".

أما الرحالة "Richard Pococke" فقد زارها عام ١٧٢٧م، وكتب عنها:

"هذه البلدة الصغيرة مشهورة بحدائق الليمون والبرتقال؛ ويوجد لدى الأتراك هناك مسجد يلقى منهم عناية واحترام كبير، لأنه قد تم دفن أحد كبار الأنبياء به (سيدى أشعب)، وطبقاً لعاداتهم وتقاليدهم -طبقاً لما ذكره أحد اليهود العالمين ببواطن الأمور- فإنه ليس إلا "شعيب"، والذى هو حمو (والد زوجة) نبي الله موسى".

فى عام ١٨٥٠م، زارها رحالة يدعى "William McClure Thomson". وهو قد وصفها بأنها قرية صغيرة بيوتها من الحجارة، وبها نباتات صبار عملاقة. وهو قد ذكر لنا، أن السكان المحليين يعتبرون زيارة هذا المقام المقدس علاجاً لمن به مس من الجنون. فى عام ١٨٦٣م، زارها الرحالة "H. B. Tristram"، وكتب عنها أنها مكان جميل به وجوه نضرة وملابس ملونة، وأنهم

يرتدون عُصابة على شكل عقود على رؤوسهم مصنوعة من قطع النقود على طريقة أهل الناصرة. أما الأغنياء منهم، فإن هذه العقود تكون من النقود الذهبية التى يتوسطها قلادة ثمينة فى المنتصف.

هذا وقد انتهى وجود بلدة حطين خلال حرب ١٩٤٨م بين العرب وإسرائيل، عندما شعر عمدة هذه البلدة (أحمد عزام أبو راضي) بالخطر، وأمر بهجر البلدة. وقتها، بلغ عدد السكان ما يزيد عن ١١٠٠ فرد؛ وكان بها حوالى ١٩٠ بيت من الحجارة. وفى يوم ١٧ من يوليو احتلتها القوات الإسرائيلية، ولم تسمح لسكانها بالعودة مرة أخرى بعد استقرار الأمور؛ ويقال إن الغالبية العظمى منهم قد هاجرت للبنان، واستقر بعضهم فى بلدة الناصرة.

خلال الفترة من ١٩٤٩– ١٩٥٠م، بنى بعض القرويين اليهود بيوتهم على أجزاء كبيرة من أرض حطين؛ وخلال عقد الخمسينيات، تم منح الدروز الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية حق الوصايا الرسمية على مقام النبي شعيب ومساحة محيطة به تقدر بمئة دونم. ولكن لم يتم السماح لهم ببناء أى منازل على هذه الأرض. هذا، وقد استمرت عمليات الحج وزيارة المقام المقدس بصفة دورية حتى الآن، وقد اعترفت به إسرائيل –فى عام ١٩٥٤م– على أنه أجازة دينية رسمية.

ويقال إن المسجد الخرب الموجود هناك الآن، هو المسجد الذى بناه صلاح الدين الأيوبي عام ١١٨٧م، لتخليد انتصاره فى معركة حطين. ورغم أن العديد من الأشخاص قد تقدموا بطلبات لإعادة إعمار هذا المسجد، إلا أن هذه الطلبات قد رفضت باستمرار، من قِبل السلطات الإسرائيلية؛ بل إن هناك مشروعات عمرانية حالياً –ومنذ عام ٢٠٠٧م– لابتلاع ما تبقى من أراضى بلدة حطين.

وحتى الآن، تستخدم هذه المناطق فى رعى الغنم، من قبل اليهود المقيمين فى الـ"كيبيتوزم Kibbutzim"* القريب من هناك.

كانت "معركة حطين" هى النصر العظيم الذى مكن صلاح الدين الأيوبي من استعادة بيت المقدس، وإنهاء وجود ما يسمى بـ"مملكة أورشليم Kingdom of Jerusalem". ولم تكن هذه المعركة هى أول المعارك الكبيرة بينه وبين جيوش الفرنجة. لكن عبقرية صلاح الدين هى التى مكنته من استغلال الخلافات الموجودة بينهم؛ والتى قسمتهم إلى شـيع وأحزاب متناحرة ...بالإضافة بالطبع لما هو معروف عن أنهم قد أتوا من دول أوربية مختلفة وتحت قيادة ملوك وأمراء متناحرين. خلال هذه الفترة، كان الجميع يركزون على "الملك بالدوين الخامس king Baldwin V"، ذلك الطفل الصغير الذى انتهت حياته القصيرة فى أغسطس من عام ١٨٨٦م. وفى هذا الخصوص، فإن بالدوين الرابع كان قد عين "ريمون الطرابلسي" ليكون وصياً على العرش. ويقال إنه كان هناك اتفاق شبه جماعى على أن يبقى "ريمون" فى السلطة فى حالة وفاة الملك الصغير، وحتى يحصل بابا روما وملوك أوربا على الوقت الكافى للتشاور من أجل تحديد الملك الجديد لمملكة أورشليم. وقد كانت الآراء مختلفة فى هذا الصدد، بين أخت

---

* "كيبيتوزم" هو النظام الذى ابتكره اليهود فى الحياة الجماعية، حيث يعمل كل من الأب والأم طوال اليوم، ويتم تربية الأطفال فى حضانات عامة، بسبب حاجتهم الشديدة إلى كل يد عاملة داخل المجتمع الإسرائيلى الوليد، خلال العقود الأولى من نشأة إسرائيل. فبسبب الحاجة الملحة لأن تعمل المرأة إلى جانب الرجل طوال الوقت؛ كانت الدولة هى التى تقوم على تربية الأطفال تربية جماعية، لا يرى خلالها الطفل والديه إلا خلال سويعات قليلة فى المساء، أو مرة كل أسبوع. (عادل نجيب)

الملك بالدوين الرابع ("Sibylla")، وبين أم بالدوين الخامس ("Isabella")، وهى ابنة الملك " أماليك الأول Amalric I". لكن مؤامرات القصور تدخلت لتحدد مصير هذا الاختيار. فإن الحاشية المحيطة بـ"Sibylla"، تمكنت من خداع "ريمون" وأرسلته فى رحلة وهمية مختلقة بحجة استدعاء أمراء المملكة من "طبريا Tiberias" للاستماع إلى وصية بالدوين الرابع وتنفيذها. وبمجرد أن تم التخلص منه، تم احتلال الأماكن الاستراتيجية، وتقسيم المملكة إلى قسمين: حَكَمت "Sibylla" وزوجها المكروه ("جاى اللوسيجناني Guy of Lusignan") أحد هذين القسمين والذى تضمن أورشليم. أما القسم الآخر، فحكمه "ريمون" وحلفاؤه من مدينة "نابلس Nablus". فى القسم الأول من المملكة، تم تتويج "Sibylla" ملكة على أورشليم؛ وسمحت بنفسها بتتويج زوجها ملكاً. أما فى القسم الثانى فإن الأمراء وكبار رجال الدولة، فإنهم كانوا يخططون لتتويج "Isabella"، وزوجها؛ إلا أن هذه الخطة فشلت، عندما هرب زوجها وانضم إلى الجانب الآخر فى أورشليم. كان من نتيجة هذا، أن المعارضة القوية لوجود "جاى اللوسيجناني" سرعان ما انهارت. لكن التفكك والانهيار كان قد بدأ بالفعل، لأن بعض أكبر الأمراء وأكثرهم حكمة هجروا المملكة وعادوا إلى أوربا بصفة نهائية. ووصل الأمر إلى حد أن ريمون الطرابلسي ذهب إلى ممتلكاته الخاصة فى الجليل رافضاً الاعتراف بشرعية جاى اللوسيجناني.

من أهم الأشياء التى أدت إلى نشوب القتال فى معركة حطين، هى الأفعال التى قام بها "رينالد الشـــاتيوني Reynald of Chatillon" منذ وصوله إلى الأراضى المقدسة مع الحملة الصليبية الثانية. لقد قرر هذا المغامر منذ وصوله أن يبقى للأبد فى الشرق، ولم يكن يعلم أن الشرق سيلفظه رغم كل محاولاته للبقاء فيه. لقد كان قادة جيوش الفرنجة يعلمون أن بقاءهم على قيد الحياة مرتبط بوجود سلام بينهم وبين جيرانهم المسلمين. لكن الحفاظ على السلام بين الطرفين هو أمر شبه مستحيل؛ خاصة مع استمرار الغزاة فى استجلاب المزيد من الصليبيين

إلى بلاد الشرق. هؤلاء القادمون الجدد، كانوا أقل استعداداً للعيش فى سلام مع المسلمين؛ وكانوا ينظرون إليهم نظرة دونية مستفزة. من وجهة نظر هؤلاء القادمين الجدد، كان العرب مجرد همج، يجب التخلص منهم، لتطهير الأرض التى ولد فيها المسيح عليه السلام. وبالفعل، مع حلول عام ١١٨٧م، كان "رينالد الشاتيوني" قد أصبح مسيطراً على أجزاء كبيرة من الأراضى المطلة على نهر الأردن، فى الجزء الجنوبى الشرقى من مملكة أورشليم. وخلال السنوات العشر السابقة على هذا، نقض الشاتيوني كثيراً من معاهدات الهدنة التى عقدها مع صلاح الدين الأيوبى. ومن مركز تحركاته فى مدينة "الكرك Kerak" التى يحكمها، شن عديد من الهجمات الاستفزازية على قوافل المسلمين التجارية، وبعثات الحج الذاهبة إلى الأراضى المقدسة (مكة المكرمة والمدينة)؛ بل إنه –فى إحدى المرات– قام بهجوم بحرى على البحر الأحمر، هاجم خلاله "مكة" و"المدينة". بالطبع، أشعلت هذه الجرائم نيران الغضب لدى صلاح الدين، ودفعته إلى القيام بهجمة غير ناجحة على مملكة أورشليم.

مع نهاية ١١٨٦م، كانت مملكة أورشليم فى وضع لا تحسد عليه، وكانت فى أمس الحاجة إلى فترة طويلة – تبلغ عدة سنوات – حتى تلتقط الأنفاس وتصلح ما تم تدميره. لكن حماقات الشاتيوني لم تسمح لها بهذه المهلة من الوقت حتى تتعافى. لقد هاجم هذا الأحمق أحد القوافل التجارية التى غادرت القاهرة متجهة شمالاً نحو بر الشام؛ وهو ما اضطرها لأن تمر فى الأراضى الواقعة تحت سيطرة "الفرنجة Frankish"، والمشمولة بحماية اتفاقيات الهدنة الموقعة بين الجانبين. استولى هذا الأحمق على ما كان موجوداً من سلع وأموال، واحتفظ بالتجار كرهائن. فى البداية، حاول صلاح الدين استعادة حقوقه المنهوبة من خلال إصراره على تطبيق بنود الحماية التى توفرها الاتفاقيات المعقودة بين الطرفين؛ فقام بإرسال مبعوثيه مطالبين بعودة ما تم سرقته والإفراج عن التجار وأموالهم. كانت هذه البعثة قد أرسلت –فى أول الأمر– إلى "رينالد الشاتيوني"؛ وعندما تجاهله هذا الأخير، ذهب صلاح الدين برسله إلى الملك "جاى

اللوسيجناني" ... والذى وصل إلى الْمُلك من خلال زواجه من الملكة "Sibylla". استمع هذا الأخير لرسل صلاح الدين واقتنع بوجهة نظرهم، وبأن الحق فى جانب المسلمين. لكنه مع هذا، لم يتمكن من إجبار رينالد الشاتيوني على إعادة الحق لأصحابه. لقد كان هذا الملك الضعيف معتمداً كل الاعتماد على الحماية التى يوفرها له المأمورون الذين يعملون تحت يديه ... ولم يستطع أن يخاطر بإجبارهم على إعادة حقوق صلاح الدين. وكان معنى كل هذا، أن الحرب أصبحت أمراً محتوماً، وأن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة.

الاستعداد للحرب

بمجرد أن اتضحت الأمور، كان من الواجب على الطرفين الاستعداد للحرب. لكن خلال الجهود التى بذلت لتكوين قوة مشتركة من الحلفاء الأوربيين، سرعان ما أظهرت نقاط الضعف الكثيرة فى هذه الجبهة التى تهدف لتكوين جيش واحد مشترك. وعلى سبيل المثال، فإن "بوهيموند الأنطاكي Bohemond of Antioch" أعاد تجديد وثيقة الهدنة الموقعة بينه وبين صلاح الدين. وفى نفس الوقت، سارع ريمون الطرابلسي إلى عقد اتفاقية هدنة جديدة معه. والغريب فى الأمر، أن هذه الهدنة الأخيرة قد امتدت لتشمل ممتلكات زوجته الواقعة فى "الجليل"؛ والتى تعتبر فى الواقع جزءاً لا يتجزأ من مملكة أورشليم.

كان لكل هذا معنى واحد، ولم يخفى هذا المعنى عن فطنة صلاح الدين الأيوبي. ولم يستغرق الأمر طويلاً، قبل أن تتجلى هذه المعانى بوضوح على أرض الواقع. ففى شهر أبريل استدعى جاى اللوسيجناني كل حلفائه، وعندما توافر له قدر كافى من القوات بدأ زحفه نحو الجليل. لقد كان يهدف إلى سحق أى مقاومة موجودة فى تلك النواحى، قبل وصول صلاح الدين بجيوشه إلى هناك. إلا أن ابن صلاح الدين كان قد قرر هو الآخر أن يقود حملة استكشافية،

لاستطلاع أراضى فلسطين قبل وصول جيوش والده إلى هناك. وطبقاً لبنود الهدنة الموقعة بينهما، أرسل ابن صلاح الدين مبعوثيه إلى ريمون حتى يتمكن من المرور إلى هناك. وبالطبع اضطر ريمون إلى الموافقة رغم حرجه الشديد.

فى اليوم الأول من شهر مايو، تقدمت قوة مكونة من ٧٠٠٠ جندى من المشاة المماليك نحو الجليل. وهناك، اشتبكت مع قوة أصغر من فرسان المعبد؛ بعد أن بادأهم فرسان المعبد بالهجوم. وانتهت المعركة بالهزيمة الساحقة لفرسان المعبد، والذين تعرضوا لإبادة شبه تامة، ولم يتمكن إلا ثلاثة من الهرب. عندما وصلت أنباء هذه الكارثة إلى مسامع الملك جاى، وريمون الطرابلسي؛ حاولا تنحية خلافاتهما جانباً لمواجهة الخطر المحتوم (قدوم صلاح الدين). وعلى الفور أعلن ريمون إلغاء الهدنة بينه وبين صلاح الدين، واعترف بشرعية جاى اللوسيجناني، ووضع قواته تحت إمرته. أما "الملك جاى"، فإنه تقبل هذا الحليف الجديد بسماحة.

أما فى الجبهة الأخرى، جبهة صلاح الدين، فإن الوضع كان على العكس تماماً. فلقد تمكن صلاح الدين بحكمته من تنحية الخلافات الموجودة بينه وبين حلفائه؛ وجمع تحت لوائه قوة تقدر بحوالى ٢٠,٠٠٠ جندى ... مما يجعلها أكبر قوة عسكرية قادها صلاح الدين فى حياته. ورغم الخلافات الموجودة بين جيوش الفرنجة، إلا أنهم تمكنوا من تجميع قوة مكافئة لقوة صلاح الدين من حيث العدد.

ومرة أخرى، تتجلى عبقرية صلاح الدين، فحتى تلك اللحظة، لم يكن هناك ما يدل على الهزيمة المنكرة التى ستلقاها جيوش الفرنجة. فلقد تمكنت قوات الصليبيين من هزيمة خصوم مماثلين فى الحجم، عندما رفضت الدخول فى معركة حاسمة وسيطرت على منابع المياه وخطوط الإمداد بطريقة تجبر الخصم على التراجع فى النهاية. بل إن هذا السيناريو ذاته قد تكرر من قبل ٤ سنوات؛ واضطر صلاح الدين الأيوبي للتراجع بدون الاشتباك معهم فى معركة حاسمة.

عبور نهر الأردن

فى الأول من شهر يوليو، قام صلاح الدين بعبور نهر الأردن للمرة الثانية؛ عازماً على مهاجمة "طبريا" والحصن الذى يحميها. وبالفعل، تمكن من الاستيلاء على المدينة، وحاصر بقواته القلعة الصغيرة الموجودة هناك. كذلك فإنه تم إقناع الملك الضعيف جاى اللوسيجناني بالتوجه نحو طبريا هو الآخر. وعلى القارئ الكريم تذكر أن صلاح الدين الأيوبي –حتى تلك اللحظة– لم يكن قد ضمن النصر، أو وضع خصمه فى وضع لا يمكن الخروج منه. إلا أن الصليبيين عسكروا بجيوشهم فى منطقة الـ"صفورية Sephoria"، فى يوم ٢ من يوليو. وكان لديهم هناك ما يكفيهم من المؤن، خاصة المياه. كذلك، فإن جغرافية الأرض كانت فى صالحهم، لأن معسكرهم كان على أرض أكثر ارتفاعاً من كل الأراضى المحيطة بهم. وعلى الرغم من أن الغالبية العظمى من قواد جيوش الفرنجة –المجتمعة هناك– كانت ترى ضرورة التحرك نحو طبريا، إلا أن ريمون الطرابلسي أظهر معارضته الشديدة لهذا، على الرغم من أن زوجته كانت تدافع عن طبريا. لقد كانت وجهة نظر ريمون، هى أنه من الضرورى استدراج صلاح الدين للاشتباك معهم فى هذا الموقع الممتاز؛ ولأنهم –أيضاً– يتوقعون وصول تعزيزات من أنطاكيا. وانفض الاجتماع على هذا الأساس.

لكن الملك الضعيف المتردد جاى اللوسيجناني، سرعان ما اقتنع بالرأى المضاد، بعد انفضاض الاجتماع مباشرة، وانصاع لرأى القائد الأعلى لفرسان المعبد ... والذى يقضى بهجر هذه البقعة. وفى صباح اليوم التالى، زحفت قوات الصليبيين نحو الشرق، سالكة طريقاً قاحلاً ومكشوفاً، وخالياً تماماً من المياه، بالإضافة إلى أنه كان معرضاً لهجمات جنود صلاح الدين الذين لم يتوقفوا عن مناوشاتهم لجيشه خلال هذا الزحف الطويل. سرعان ما عانت جيوش الصليبيين من العطش. ومع حلول ظهيرة هذا اليوم، تمكنوا من الوصول إلى "قرون حطين".

لا يمكن لنا – الآن – معرفة ما الذى كان يدور فى عقول جنرالات جيوش الفرنجة، وقادهم، فرغم عطشهم، وعدم امتلاكهم لأى مصادر مياه قريبة، إلا أنهم قرروا اعتلاء هذه التلال، وشن هجومهم على جيوش صلاح الدين من فوقها. ولعلهم كانوا يفكرون فى ضرورة عثورهم على موقع استراتيجى ممتاز، مثل الذى كانوا يحتلونه فى اليوم السابق فى منطقة الـ"صفورية"، متناسين أن الموقع السابق كان به بئر مياه غزيرة، ولم يكن على هذا الارتفاع الذى كانت عليه قرون حطين. وعلى أية حال، لم تغب هذه الهفوة عن فطنة صلاح الدين الأيوبى، واستغلها أحسن استغلال. خلال ذلك اليوم، فكرت قوات الصليبيين –أكثر من مرة– فى شق طريقها نحو البحيرة، لكن "الملك جاى" قرر عدم الزحف نحوها (البحيرة). وهى الخطوة التى انتقدها العديد من الخبراء العسكريين والمفكرين الاستراتيجيين ... فيما بعد. لكنه علينا تذكر أن الأمر الأرجح هو أن جيوش الصليبيين كانت فى حالة من الإرهاق لم تسمح لها بفعل هذا؛ وأنها لم تكن ترغب فى المخاطرة بالاشتباك فى قتال وهى على هذه الدرجة من عدم الاستعداد. فى نهاية اليوم، عسكرت جيوش الصليبيين فى منطقة بها بئر مياه جاف؛ معتقدين أنه سيكون بإمكانهم الحصول منه –أو على مقربة منه– على بعض المياه. لكن خيبة أملهم، كانت كبيرة عندما عجزوا تماماً عن الحصول على أى مقادير مناسبة من المياه الصالحة للشرب. وهكذا، فإن شمس اليوم التالى، أشرقت عليهم وهم فى حالة من الإعياء الشديد بسبب نقص المياه. وعلى القارئ الكريم، تذكر أننا نتحدث، هنا، عن معركة صحراوية تدور رحاها خلال أيام الصيف القائظ ... وفى شـــهر يوليو تحديداً. أما على الجانب الآخر، فإن صلاح الدين وقواته، أمضوا ليلتهم بدون عطش أو جوع. واستيقظوا فى اليوم التالى، مستعدين لمواجهة ما ستأتى به الأقدار. وقد كان قدرهم، أن يحققوا أحد أعظم الانتصارات فى تاريخ المسلمين. بالإضافة إلى أنه انتصار محورى، غيَّر من مصير الحملات الصليبية إلى الأبد ... والتى لم تتمكن من أن تتعافى من هذه الهزيمة أبداً.

حطين .. المعركة الأساسية

لعل القارئ قد أدرك، الآن، أن هذه المعركة كانت محسومة قبل أن تبدأ؛ وأنه فى أفضل الأحوال، ستتمكن القوات الصليبية من الهرب. لقد أصبح النصر فى يد صلاح الدين، وهو على قدر كاف من الذكاء، لا يسمح له بأن يفلت هذه الفرصة منه. فى فجر يوم ٤ من يوليو، استيقظت جيوش الفرنجة لتجد نفسها محاصرة –من جميع الجهات– بجيوش صلاح الدين على هذه التلال القاحلة الخالية من أى حياة. فى الأوضاع العادية، تعتبر مهاجمة قوات صلاح الدين لقوات مساوية لها فى العدد، لكنها موجودة على مرتفع خطأ استراتيجى خطير، قد يؤدى للهزيمة. لكن صلاح الدين كان يعلم أن خصومه محرومين من المياه لفترة تزيد عن ٢٤ ساعة الآن. وأنه فى هذا الحر القائظ لابد وأن يكون مخزونهم من المياه قد نفد. إن دراية صلاح الدين – الدقيقة والشاملة – بطبيعة البيئة التى يحارب فيها، وقدرته على موازنة الأخطار التى يواجهها، هى التى مكنته من اتخاذ القرار السليم بحصار الخصم وقتاله، على الرغم من أن هذا الخصم كان موجوداً على مستوى أعلى من مستواه. وفى هذا الخصوص، علينا تذكر أن قوات كِلا الطرفين كانت متقاربة من حيث العدد؛ وهو ما يجعل من المرجح أن يتمكنوا من كسر حصاره والوصول إلى المياه. وتتجلى حكمة صلاح الدين فى اتخاذه للقرار بأن الخصم لن يتمكن من اختراق صفوفه، بعد أن أمضى يوماً وليلة كاملة بدون مياه.

وبالفعل، عندما اشتبك الطرفان، حاولت مشاة الصليبيين – دون جدوى – اختراق صفوف صلاح الدين؛ وخلال محاولاتهم العبثية لتحقيق هذا، ابتعدوا عن قلب جيشهم ... مما مكن صلاح الدين من الاستفراد بهم والقضاء عليهم بسرعة. لقد أصبحت الهزيمة الآن، أمراً محققاً. وعلى الرغم من أن فرسان الصليبيين حاربوا بإصرار، إلا أن صلاح الدين تمكن –بطريقة منظمة ومستمرة– من ردهم على أعقابهم، والاحتفاظ بهم على قمة التل، وبعيداً

عن مصادر المياه. وفى هذا الخصوص، فإن "ريمون الطرابلسي" قام بتنظيم محاولة مستميتة لاختراق صفوف صلاح الدين، لكنها أدت إلى كارثة. إن صلاح الدين توقع منه القيام بهذه المحاولة اليائسة. ولهذا أمر جنوده باستدراجهم بعيدا عن مركز جيشهم؛ وترك لهم فتحة ينفذون منها، وبمجرد دخولهم أُغلقت الفتحة، وتم عزلهم ... وتصفيتهم. ومن أعلى التل، راقب الصليبيون، زملاءهم بقيادة "ريمون الطرابلسى" وهم يقعون فى الفخ؛ وعجزوا تماماً عن تقديم أى مساعدة لهم. أما من سقط فى الفخ، فإن صلاح الدين أعمل فيهم ذبحاً وتقتيلاً. ومن لم يقتل، وقع فى الأسر. ولم يتمكن من الهرب، إلا أعداد صغيرة جداً من فرسان الصليبيين، والذين اتجهوا إلى طرابلس. أما الذين لم يتمكنوا من الهرب من على قمة التل -وهم الغالبية العظمى من جيش الصليبيين- فإنهم استمروا فى القتال حتى سقطوا من الإعياء أو تم إجبارهم على الاستسلام.

لقد حقق صلاح الدين نصراً ساحقاً وكاملاً، وتمكن خلاله من أسر "الملك جاى"، والغالبية العظمى من بارونات مملكته. وكما ذكرنا من قبل، فإن "رينالد الشـــاتيوني" قد تم أسره هو الآخر. وكانت كراهية صلاح الدين له عظيمة، حتى أنه قام بإعدامه بنفسه، رغم أنه عفا عن "الملك جاى" وباروناته، مطلقاً سراحهم فى عام ١١٨٨م.

لقد كانت الهزيمة فى **حطين**، هى العامل الحاسم الذى أدى إلى انهيار مملكة أورشليم. فعلينا تذكر أن هذه المعركة قد انتهت بأسر "الملك جاى" (ملك أورشليم) وتدمير جيشه؛ وهو ما مكن صلاح الدين من الاستيلاء على مدن مملكته بسهولة. فى البداية، سقطت طبريا بسرعة، وسَلَّمَت الحصن لصلاح الدين. أما "عكا"، فإنها سقطت فى العاشر من يونيو من العام التالى. وفى النهاية، استسلمت أورشليم ذاتها يوم ٢ من أكتوبر عام ١١٨٧م. والفشل الوحيد الذى صادف صلاح الدين خلال سلسلة النجاحات المستمرة التى أحرزها، هو عدم قدرته اقتحام "صور" والاستيلاء على حصنها، بسبب الدفاع المستميت لحاميتها، بقيادة "كونراد من

مونفيراتو Conrad of Montferrat"؛ والذى أضاف تحصينات جديدة للمدينة قبيل وصول جيوش صلاح الدين إليها. وعلى الرغم من أن أحد الحملات الصليبية التالية قد تمكنت من احتلال "عكا" مرة أخرى؛ إلا أن مُلكَهم هناك لم يستمر إلا حوالى مئة عام ... وتخلص الشرق من وجودهم، حتى قدومهم إلى بلادنا مرة أخرى فى "العصر الحديث" (الحملة الفرنسية، ثم الاحتلال الإنجليزي). ومما هو جدير بالذكر فى هذا الصدد، أن "الملك جاى"، عندما استعاد عكا، قام بإعدام ٣٠٠٠ من المسلمين كان من بينهم نساء وأطفال، طبقاً لما ذكره بهاء الدين فى تاريخه، والذى قال:

"لقد كان الهدف من هذه المذبحة هو الانتقام للقتلى المسيحيين الذين سقطوا على يد المسلمين. وقال آخرون إن الهدف كان عدم ترك هذا العدد الضخم من السجناء داخل عكا. والله وحده يعلم حقيقة الأسباب التى دفعتهم لارتكاب هذه المذبحة".

وقد انتقم صلاح الدين لهذه المذبحة، بقتله كل الأسرى من جيوش الفرنجة الذين وقعوا فى يديه خلال الفترة من ٢٨ أغسطس– العاشر من سبتمبر.

الحملة الصليبية الثالثة

كانت هذه الهزيمة النكراء التى عانى منها الصليبيون فى معركة حطين، وما تبعها من الاستيلاء على أورشليم، هى السبب الأساسى فى تشكيل الدول الأوربية لما عرف فى التاريخ باسم: "الحملة الصليبية الثالثة"، والتى استمرت من ١١٨٩- ١١٩٢م. وقد قامت انجلترا، بقيادة الملك ريتشارد قلب الأسد، بتمويل هذه الحملة بمفردها تقريباً. وقد تمكنوا من هذا، عن طريق تطبيق ما عرف باسم: "عشور صلاح الدين Saladin tithe"؛ عندما قاموا بتجميع العشور من الشعب الانجليزى لتمويل هذه الحملة، والتى ضمت متطوعين من دول أوربية أخرى.

ولقد اشتبك صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد -لأول مرة- فى "معركة أرصوف Battle of Arsuf"، التى نشبت يوم ٧ من سبتمبر ١١٩١م، والتى انتهت بانسحاب صلاح الدين. بعدها، اتجه ريتشارد قلب الأسد نحو "عسقلان"، لكن صلاح الدين كان يتوقع هذه الحركة منه وأمر بإخلاء المدينة؛ بينما أقام معسكره على مقربة منها.

كانت دهشة الملك الإنجليزي شديدة عند وصوله لعسقلان، واكتشافه أن المدينة مهجورة، وأنه قد تم بالفعل تدمير أبراجها. وخلال اليوم التالى، وبينما كان الملك ريتشارد يحاول الانسحاب نحو "يافا"، قامت قوات صلاح الدين بمهاجمته. وبعد أن نشبت معركة شرسة بين الجانبين، تمكن الملك الإنجليزي من إنقاذ بعض قواته والانسحاب بهم إلى "عسقلان". وكانت هذه المعركة، هى المعركة الأخيرة بينهما. ومن الجدير بالذكر، أن كل المحاولات التى بذلها ريتشارد لاستعادة السيطرة على أورشليم قد فشلت؛ وأنه لم يكن لدى هذا الملك إلا ٢٠٠٠ جندى و٥٠ فارساً محترفاً ... وأن باقى قواته كانوا من المتطوعين الذين لم يحترفوا العسكرية من قبل، أو يروا أى قتال حقيقى.

كانت علاقة صلاح الدين بالملك الإنجليزي معقدة، ومتعددة الأبعاد، بكل ما فى الكلمات من معنى. كما أنها كانت محل كثير من القصص المختلقة والأساطير، على الرغم من العداء الموجود ، والمعلن، بين الجانبين. وكل ما نعرفه على وجه الدقة، هو أحداث صغيرة، قليلة الأهمية. وعلى سبيل المثال، فإن صلاح الدين قد أرسل جوادين من أفضل خيوله إلى الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، عندما فقد هذا الأخير حصانه خلال معركة "أرصوف". كذلك، فإن ريتشارد –من ناحيته– اقترح على صلاح الدين عقد زواج بين أخته ("چوان الإنجليزية ملكة سيسلي Joan of England, Queen of Sicily")، وبين أحد إخوة صلاح الدين، وأن تكون مدينة أورشليم هى هدية زواجهما. وبهذا، يتمكنا من فرض السلام على كِلا الجانبين. ولكنه لم يكتب لهذا الاقتراح أن ينفذ، بسبب الصعوبات العقائدية الكثيرة التى اعترضت طريقه.

أما حقيقة الأمر، فهى أن الرجلين لم يتقابلا –أبداً– وجهاً لوجه، وأن كل ما تم بينهما كان من خلال الرسل أو المكاتبات التى حملها هؤلاء الرسل. وباعتبار كل منهما زعيما لأمته (ريتشارد عن أوربا والمسيحيين، وصلاح الدين عن العرب والمسلمين)، توافق الطرفان على توقيع "معاهدة رام الله Treaty of Ramla"، فى عام ١١٩٢م. وبمقتضى هذه المعاهدة تبقى أورشليم فى يد المسلمين، على أن يتولى المسلمون حماية طريق الحج للمسيحيين، ويؤمنوا دخولهم

إلى هذه المدينة. وهكذا، تم تخفيض مساحة مملكة أورشليم – طبقاً لبنود هذه الاتفاقية– لتصبح مجرد الشريط الصغير من الأرض الذى يصل بين "صور" و"يافا" ... والذى يشتمل على أورشليم ذاتها.

وفاة صلاح الدين

توفى صلاح الدين الأيوبي، يوم ٤ من مارس ١١٩٣م، بعد أن عانى من الحمى لفترة قصيرة ... عن عمر يناهز الخامسة والخمسين من العمر. وقد حدث هذا، بعد مغادرة ريتشارد قلب الأسد لأراضى الشرق بفترة قصيرة جداً. وكل ما تم العثور عليه من أموال فى حوزته، كان قطعة ذهبية واحدة، وأربعين قطعة من الفضة. لقد كان هذا الرجل النبيل قد وزع كل ثروته العظيمة على فقراء شعبه؛ حتى أنه لم يعمل حساب الأموال اللازمة لدفنه. فى البداية، تم دفنه فى قطعة صغيرة من الأرض. لكن بعد فترة قصيرة، جمع أغنياء المسلمين الأموال لبناء "ضريح عظيم Mausoleum" (مقام كبير مبنى فوق الأرض وليس تحتها)، بالقرب من المسجد الأموى فى دمشق. وفيما بعد، وبعد مرور حوالى سبعة قرون على وفاة صلاح الدين الأيوبي،، قام الإمبراطور الألمانى "Wilhelm II" بإهداء تابوت جديد من الرخام النادر، ليوضع فى ضريح صلاح الدين. لقد كانت شهرة هذا القائد العظيم وسمعته الطيبة، محل احتفاء وتكريم من الجميع ... حتى أعداؤه. وفى هذا الخصوص، فإن هذا الإمبراطور الألمانى قد أمر بحفر العبارات التالية على إكليل رخام التابوت، الذى وضع فوق قبر صلاح الدين:

"فارس لا يعرف الخوف أو اللوم؛ وعادة ما كان هو الذى يعلّم خصومه الطريقة الصحيحة لممارسة فروسية الرجال وشهامتهم".

By Kaiser Wilhelm II On a wreath he laid on Saladin's Tomb

وطبقاً لما ذكره عماد الدين فى تأريخه لقصة حياة صلاح الدين الأيوبي، فإن هذا الأخير قد أنجب خمسة من الأبناء الذكور قبل مغادرته لأرض مصر عام ١١٧٤م. وقد ولد أكبر أبنائه (الفاضل) عام ١١٧٠م، أما عثمان فولد بعده بعامين (١١٧٢م) من زوجة صلاح الدين

(شمسة) والتى صاحبته فى رحلته إلى سوريا. الابن الثالث لصلاح الدين، هو الظاهر الغازى، والذى أصبح فيما بعد أميراً على مدينة حلب. أما بالنسبة لأم ابنه الأكبر (الفاضل)، فقد ولدت له طفلاً ذكراً آخراً فى عام ١١٧٧م. وفى أحد الخطابات التى حافظ عليها "القلقشندي"، سجل هذا الأخير أن الابن رقم ١٢ هو الذى ولد عام ١١٧٨م. وهذا بالطبع، يخالف القائمة التى سجلها عماد الدين فى تأريخه، والتى تظهر الطفل المولود عام ١١٧٨م، على أنه الابن السابع فقط. وتذكر هذه القائمة أن "مسعود" ولد عام ١١٧٥م. وعلى أية حال، من الممكن أن كليهما على صواب، إذ عرف عن عماد الدين عدم ذكره للمواليد الإناث.

تراث صلاح الدين

لاقى صلاح الدين الأيوبي كثيراً من التكريم فى الشرق والغرب، ومن خصومه قبل محبيه على وجه السواء. وفى هذا الخصوص، فإن الإمبراطور الألمانى "Wilhelm II"، قام بزيارة لدمشق عام ١٨٩٨م؛ ذهب خلالها إلى قبر صلاح الدين لتقديم إجلاله واحترامه. وقد كانت هذه الزيارة –على وجه التحديد– هى التى شحذت ذاكرة العرب والمسلمين، وجعلتهم يتذكرون الأمجاد التى حققها صلاح الدين الأيوبي مرة أخرى. لقد أشعلت هذه الزيارة شرارة الوطنية فى نفوس العرب، وجعلتهم يتدارسون تاريخهم الناجح فى النضال ضد الغرب. ومنذ هذه الفترة، بدأ العرب والمسلمون فى استخدام سيرة صلاح الدين خلال مكافحتهم للاستعمار الغربى لأراضيهم فى العصر الحديث؛ خاصة بعد أن بدأ الكثيرون فى نسيانه بعد النجاحات التى حققها بطل أكثر حداثة مثل "الظاهر بيبرس" فى مصر.

وقد قامت كثير من الدول العربية بتخليد ذكرى صلاح الدين الأيوبي عن طريق إطلاق اسمه على الأماكن والمنشآت الموجودة فيها. وعلى سبيل المثال، قامت العراق بإطلاق اسمه على أحد المحافظات القريبة من "تكريت" و"سمراء". كذلك، أطلق اسمه على الجامعة الموجودة فى "أربيل" أحد أكبر المدن العراقية فى كردستان العراق. وهناك مصيف يحمل اسمه فى تلك المنطقة أيضاً. أما أكبر العلامات التاريخية التى خلفها صلاح الدين الأيوبي، والتى ما زالت موجودة بيننا حتى الآن، فهى القلعة الشامخة التى تحمل اسمه فى القاهرة (قلعة صلاح الدين)؛ والتى قام ببنائها خلال الفترة ١١٧٥- ١١٨٣م، واستكملتها "أسرة محمد على" من خلال بناء جامعهم الشهير فوقها. ومن الجدير بالذكر فى هذا الخصوص، أن صلاح الدين الأيوبي هو الذى أدخل نظام الدفاع عن أى مدينة -مهما بلغ صغرها- من خلال تمركزها حول قلعة محصنة يستطيع معظم السكان الانسحاب إليها فى حالة الخطر.

لقد أصبح صلاح الدين الأيوبي -فى العصر الحديث- هو الرمز الذى تتمركز من حوله شعلة القومية العربية، والتى خرجت شرارتها الأولى مع اندلاع ثورة عام ١٩٥٢م فى مصر، ودعوة الزعيم المصرى الخالد "جمال عبد الناصر" إلى القومية العربية، وتوحيد شتات الأمة ونبذ الخلافات. وقد حدث كل هذا، على الرغم من أن الأسرة الأيوبية ذاتها لم يكتب لها الاستمرار بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى إلا لحوالى نصف قرن من الزمان (٥٧سنة). هذا وقد اكتسب التراث الذى خلفه صلاح الدين، أهمية خاصة مع اشتعال نيران الصراع العربى الإسرائيلى عام ١٩٤٨م؛ فعلى الرغم من كل شيء، كانت بطولة صلاح الدين الأيوبي وحكمته هى التى مكنته من استعادة "القدس" بعد حوالى تسعة عقود طويلة من استيلاء الغرب عليها ... وهو القائد العربى الوحيد الذى تمكن، بنجاح، من الوقوف فى وجه الغرب، ورد كيدهم إلى نحرهم.

أما بالنسبة للغرب، فإن صراعه الحماسى ضدهم، وأخلاقياته النبيلة، وحفاظه على العهد، جعلته يحتل مكانة سامية عندهم أيضاً؛ وجعلت كثيرين من كتابهم ومفكريهم ينسجون القصص والأساطير عنه، حتى أصبح بطلاً لديهم يقتدون به وبسلوكياته مثلما نفعل نحن وأكثر. وعلى سبيل المثال، فإنه ظهر فى الغرب -خلال القرن الرابع عشر- قصائد ملحمية تمجد الكثير من الأحداث الحقيقية وغير الحقيقية التى استطاع هذا البطل العربى المسلم إنجازها. ومثال هذا، أن الخصال النبيلة التى تميز بها صلاح الدين الأيوبي، تظهر بوضوح وفى ضوء إيجابى من خلال أعمال أدبية مثل: مسرحية "ناثان الحكيم Nathan the Wise" التى ظهرت عام ١٧٧٩م، للكاتب والناقد الفنى والفيلسوف الألمانى "Gotthold Lessing" (١٧٢٩- ١٧٨١م)، ورواية "الطلسم The Talisman" التى ظهرت عام ١٨٢٥م من تأليف الكاتب الإنجليزى "Sir Walter Scott". ومن خلال هذه الأعمال الأدبية، وأمثالها، تشكلت صورة ذهنية لصلاح الدين فى العقلية الغربية. وأصبح لديهم أحد النماذج التى يمكن اتخاذها قدوة للأوربي المتحضر فى القرن التاسع عشر؛ وأنه بالرغم من كل المذابح التى ارتكبها الصليبيون عند استيلائهم على أورشليم للمرة الأولى فى عام ١٠٩٩م، إلا أن صلاح الدين لم ينتقم للماضى، وسمح لعامة الشعوب الأوربية، من الذين يتبعون المذهب الكاثوليكي، بممر آمن لزيارة الأراضى المقدسة. وحتى بالنسبة لفرسان المعبد المهزومين، فإنه سمح لهم أيضاً بزيارة القدس بعد دفع الضريبة. أما بالنسبة للطوائف الأرثوذكسية، فإنها عوملت بطريقة أفضل، خاصة أن كثير من مسيحي الشرق ينتمون إلى هذا المذهب؛ كما أنهم شاركوا -أيضاً- فى القتال ضد الصليبيين.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن ريتشارد قلب الأسد، ملك انجلترا، كان كثيراً ما يمدح أفعال صلاح الدين، ويصفه بأنه أمير ذو أخلاق نبيلة. وحتى بصرف النظر عن أن صلاح الدين الأيوبي كان -وبدون منازع- أعظم وأقوى القواد فى الشرق خلال هذه الفترة، فإن مجرد

احتلاله لمثل هذه المكانة السامية عند خصومه، يعتبر فى حد ذاته دليلاً كافياً على سمو أخلاق هذا البطل العربى المسلم. ومن الجهة الأخرى، فإن صلاح الدين مدح هو الآخر أخلاق الملك ريتشارد قلب الأسد؛ مذكراً رفاقه بأنه لا يوجد من هو أكثر شرفاً من ريتشارد بين ملوك أوربا الذين أتوا إلى الشرق. وبعد أن تم توقيع المعاهدة بينهما، أرسل كلا منهما إلى الآخر عدد من الهدايا ... كرمز للاحترام والتقدير. ومن القصص التى تروى عن نبل أخلاق صلاح الدين الأيوبي؛ أنه فى شهر أبريل من عام ١١٩١م، تم اختطاف طفل عمره ثلاثة شهور من أحد نساء الغرب، وهى امرأة كانت مقيمة فى معسكر داخل الأراضى التى يسيطر عليها صلاح الدين، وأن هذا الطفل تم بيعه. وطبقاً لما ذكره بهاء الدين فى تأريخه، فإن صلاح الدين قد استخدم أمواله الخاصة فى شراء الطفل وإعادته إلى أمه.

ومن الناحية الأخرى، لم يخل الأمر من صغار النفوس الحاقدين الذين امتلأت صدورهم بالغل والغيرة. فخلال معارك الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩٨١م)، ، تمكن جنرال إنجليزي لا يستحق منى الذكر، ويدعى: "Edmund Allenby"* من هزيمة الأتراك (جيش الدولة العثمانية) وطردهم من دمشق. وبعد استيلائه على المدينة –طبقاً لما ذكرته بعض المصادر التاريخية– فإنه رفع سيفه فى وجه تمثال صلاح الدين معلناً أنه قد تم اليوم استكمال

* هو نفس الجنرال الإنجليزى الذى كرمته الدولة الصهيونية بإطلاق اسمه على الكوبرى الذى يصل بينها وبين المملكة الأردنية الهاشمية (جسر ألنبي)؛ أما العرب والمسلمون من سكان الضفة الغربية المحتلة، فإنهم يطلقون عليه اسم "جسر الكرمة"؛ ومن الناحية الأردنية يطلق عليه اسم "جسر الملك حسين".

(عادل نجيب)

الحملات الصليبية بنجاح. وقد روت مصادر أخرى، أن هذا الرزيل ركل بقدمه قبر صلاح الدين ... شامتاً، قائلاً: "لقد عدنا يا صلاح الدين"؛ وإن كانت هناك مصادر تاريخية أخرى، قد برأت ألنبي من هذه الفعلة. أما هو؛ فقد أنكر ارتكابها تماماً وبحماسة خلال ما تبقى له من سنوات فى الحياة ... رافضاً تسمية الاستيلاء على فلسطين فى عام ١٩١٧م "حملة صليبية"!

وأياً كانت حقيقة الأمر، فإنه من المتوقع وجود شخصيات ضعيفة على كلا الجانبين؛ فإن التفاهة؛ وضعف الإرادة من الأخطاء التى يرتكبها غالبية البشر. وفى جميع الحالات، فقد ذكر كتاب "محاربين مقدسين: تاريخ حديث للحروب الصليبية Holy Warriors: a modern History of the Crusades" نقل المؤلف (Jonathan Phillips) عن لسان "ألنبي"، قوله:

"إن قيمة أورشليم، لم تكن تكمن إلا فى أهميتها الاستراتيجية فقط؛ ولم يكن هناك أى دوافع دينية لدى القوات التى استولت على هذه المنطقة".

ومع هذا، فإن وسائل الإعلام الإنجليزية (الصحف والراديو والمنشورات المطبوعة)، استمرت فى التهليل والإشادة بانتصاره على الإمبراطورية العثمانية، من خلال الكاريكاتيرات التى تصور ريتشارد قلب الأسد، وهو يطل من السماء على أورشليم، وقد ارتسمت السعادة على وجهه، وتحت الكاريكاتير كتب على لسان الملك ريتشارد:

"أخيراً، تحقق حلمي".

الفصل الثالث "بقلم ڤيكتور داڤيز هانسون"

شيرمان والاستيلاء على أتلانتا

الهدية التى قدمها "شيرمان"، فى صيف عام ١٨٦٤م، لـ"إبراهام لينكولن"، والتى مكنته من أن يحصل على ترشيح حزبه له لفترة ثانية فى الانتخابات الأمريكية ... والفوز بمنصب الرئاسة.

كان "شيرمان" لا يزال فى الرابعة والأربعين من عمره عندما تمكن من الاستيلاء على أتلانتا فى شهر سبتمبر من عام ١٨٦٤م. وهو محارب مخضرم تولى القيادة فى عدد من أسوأ المواقف التى تعرضت لها "قوات الاتحاد Union Forces" خلال الحرب الأهلية الأمريكية. فمن هو "شيرمان" الذى تمكن من تحقيق هذا؟

ولد "وليم ت. شيرمان William T. Sherman" فى فبراير من عام ١٨٢٤م، وهو يعتبر أكثر من مجرد جندى أمريكى؛ لأنه عمل بالتدريس، والكتابة، وكان أيضاً رجل أعمال. وقد خدم كجنرال فى جيش الاتحاد خلال الحرب الأهلية الأمريكية، والتى استمرت من عام ١٨٦١- ١٨٦٥م، وبسبب قيادته الفذة والاستراتيجيات العسكرية التى ابتكرها (استراتيجية "الأرض المحروقة Scorched Earth")[٥] أصبح واحد من أبرز القادة العسكريين فى تاريخ العالم؛ وبالرغم من حدة الانتقادات التى واجهها بعد الحرب بسبب عنف الطرق التى اتبعها. وقد بلغ من عظم مكانته عند المؤرخين العسكريين، أن "B. H. Liddell Hart" قد أطلق عليه اسم: "أول جنرال فى تاريخ العسكرية الحديثة". وهو قد خدم -فى بداية الحرب- تحت قيادة جرانت من ١٨٦٢- ١٨٦٣م؛ ثم احتل مكانته كقائد عام للجيوش فى الجبهة

الغربية منذ عام ١٨٦٤م. وعندها، تمكن من احتلال أتلانتا مغيّراً بهذا مسار الحرب؛ ثم تقدم نحو الشمال عبر ولايات جورجيا وكارولينا الجنوبية ثم الشمالية، حتى أصبحت قوات الخصم (القوات الكونفيدرالية لجيش الجنوب) عاجزة تماماً عن الاستمرار فى الحرب. وهو الأمر الذى دفعهم - فى النهاية - إلى تقبل استسلام هذه القوات فى كارولينا، وفلوريدا فى فبراير من عام ١٨٦٥م.



صورة شهيرة للجنرال شيرمان عام ١٨٥٦م، من تصوير ماثيو برادي. وكعادته دائماً ظهر الجنرال الصغير - كان لا يتجاوز عمره وقتها ٤٥ سنة - بشعر منكوش، وزى رسمى متواضع جداً، وقد عقد حاجبيه. ويمكن للقارئ ملاحظة النسيج الأسود الموضوع على يده اليسرى، والذى يرمز إلى حالة الحداد بسبب اغتيال "إبرهام لينكولن" مؤخراً.
(ڤيكتور هانسون)

أما بالنسبة لتعليمه العسكرى، فإنه انضم للأكاديمية العسكرية فى "West Point"، وهو فى السادسة عشرة من عمره، وهناك قابل أحد أهم جنرالات الحرب الأهلية فى المستقبل ("George H. Thomas"). وظهر نبوغ شيرمان العسكرى، منذ الفترات الأولى فى الدراسة؛ وبالرغم من أنه لم يكن من أكثر الطلاب طاعة لنظام "الضبط والربط" القاسى هناك. وفى عام ١٨٤٠م تخرج من هناك (أكاديمية "West Point") السادس على دفعته، وتم تعيينه فى مواقع عسكرية مختلفة، فى كل من فلوريدا وجورجيا وكارولينا وكاليفورنيا. وتفاوتت المهام التى ألقيت على عاتقه من الإشراف على الأعمال الهندسية وحتى القيام بأعمال عسكرية

لوجيستية. وفى عام ١٨٥٠م تزوج من ابنة "Thomas Ewing"، وهو محام شهير وغنى وذو صلات سياسية رفيعة، وقد حضر الرئيس الأمريكى "Zachary Taylor" حفل زفافه ... حيث أن حماه (المحامى الشهير "Thomas Ewing") كان يشغل منصب وزير الداخلية فى حكومة هذا الرئيس.

لقد شارك شيرمان فى كل معارك الحرب الأهلية الأمريكية، من أول معركة "Bull Run"، وحتى أخر معركة فى "Bentonville". وفى هذا الصدد، وحتى عندما وصل إلى مرحلة دخوله لأراضى ولاية جورجيا فى مايو من عام ١٨٦٤م، فإن شيرمان كان لا يزال يعتبر نموذجاً للتناقض؛ فهو من ناحية، يعتبر من ضمن "الجماعة المفضلة in-group"، لأن لديه اتصالات سياسية رفيعة المستوى. ومن ناحية أخرى، فإنه يعتبر من ضمن "الجماعة المنبوذة out-group"، لأنه كان قد لاقى الفشل الذريع فى كل المهن التى احترفها قبل الحرب.

من حيث المظهر، كان شيرمان يبدو وكأنه متشرد، وعاطل عن العمل، ولم تتاح له الفرصة للاستحمام منذ فترة طويلة. فهو رث الهيئة، ومنكوش الشعر، وذو ملابس متواضعة مجعدة ... حتى عندما أصبحت الزى الرسمى لجنرال (انظر الصورة). وكل الصور التى التقطت له، تظهر لنا رجلاً سقيم الهيئة منكوش الشعر، وعيناه مثبتتان بعيداً عن الكاميرا ... وكأنه يتجاهلها. كما أنها غالباً ما أظهرته فى سن أكبر من سنه الحقيقى.

وبالرغم من كل صلاته رفيعة المستوى، فإنه لاقى فشلاً ذريعاً، عندما حاول الاستقالة من وظيفته العسكرية والدخول فى ميدان إدارة البنوك ... ووصل به الأمر إلى أنه أصبح على وشك الإفلاس مع نهاية هذه المغامرة. وبعدها، دخل فى مجال القانون، وبذل عدة محاولات لأن يصبح رجل أعمال ... لكنه انتهى إلى الفشل فى كل مجال دخل فيه. ثم تغير حظه قليلاً فى عام ١٨٦٠م، عندما تم تعيينه فى وظيفة إدارية، كمراقب عام للتعليم العالى فى ولاية لويزيانا؛ لكنه

اضطر للاستقالة من هذه الوظيفة الحكومية الجيدة، بعدها بعام، عندما انضمت ولاية لويزيانا إلى الاتحاد الكونفيدرالي ... ضد الشمال. بعد عودته إلى الشمال، انضم شيرمان إلى قوات "جيش الاتحاد Union Army" برتبة كولونيل.

بعد أن أظهر كولونيل شيرمان شجاعة ومهارة غير عادية فى معركة "Bull Run"، تمت ترقيته إلى رتبة "عميد Brigadier General"، وتم نقله إلى ولاية كنتاكي، حيث أصبح هناك المسئول الثانى عن إدارة العمليات العسكرية. لكن موجات الحظ السيئ لم تكن قد انتهت بعد، تعرض شيرمان فى ولاية كنتاكي، وبصورة مفاجئة، لانهيار عصبى. قد يكون هذا بسبب عدم قدرته على النوم، وأزمات الربو المتلاحقة التى زادت حدتها مع استمراره فى تدخين السيجار، وابتعاده لفترات طويلة عن أسرته. ومن ناحية أخرى، فإنه ربما كان يعانى من "الاكتئاب ثنائي القطبية Bipolar Depression"، حيث أن عدداً من أفراد أسرته كان لهم تاريخ طويل من المعاناة مع هذا المرض. ولابد وأن فكرة نشوب حرب طويلة الأمد مع ولايات الجنوب قد أثار اكتئاب كثيرين، بعدما أصبح من الواضح أنها ستستغرق سنوات طويلة وتكلف عشرات الألوف من البشر كل غال وعزيز فى حياتهم ... إن لم يكن بالموت أو الإصابة، فمن خلال فقدان الممتلكات وتشتت أفراد الأسرة. كذلك، فإن شيرمان لاحظ أن العديد من رؤسائه لم يقدروا هذا الأمر حق مقداره، ولم يأخذوا فى الاعتبار إمكانية استمرار المعارك القتالية لسنوات طويلة، قبل أن يصبح النصر ممكناً.

ولولا تدخل زوجته وأخيه الأصغر (سيناتور من أوهايو، معروف الآن، لقيامه بوضع "قانون مكافحة الاحتكار Antitrust Act") لما حصل على فرصة ثانية للخدمة فى الجيش تحت إمرة قيادة لامعة فى الجيش (مثل العميد جرانت) الذى بدأ نجمه يسطع مع النجاحات التى حققها مؤخراً. فقد قام جرانت بإعطائه فرقة (عدة كتائب)، وجعلها تحت إمرته. وبالرغم من أنه قد تم مفاجأة الفرقة التى يقودها شيرمان فى اليوم الأول من تواجدها فى أوهايو، عندما نشبت

معركة "Shiloh"، إلا أنه تمكن من الصمود، ورد الهجوم الكونفيدرالي على أعقابه، بعد أن جرح مرتين، وتم قتل ثلاثة خيول من تحته. وبرز شيرمان – بعد تحقيق النصر – فى هذه المعركة كبطل قومى ... يعترف به الجميع.

قبيل الانتصار فى "Shiloh"، كان شيرمان يعتبر نفسه شخصاً فاشلاً لا أمل فيه، حتى أنه اعترف للمقربين منه أنه كان يفكر فى الانتحار. لكن بعد تحقيق هذا النصر اكتسب ثقة جديدة فى نفسه؛ وتعرف على القدرات الفريدة التى يتمتع بها دون الآخرين. عندما اعترف الآخرون بأن أفكاره المتعلقة بالصراع الدائر بين الشمال والجنوب أكثر واقعية وقرباً إلى الحقيقة من أفكارهم؛ والتى فشلت خلال عامي ١٨٦٢- ١٨٦٣م فى هزيمة جيش الجنوب الكونفيدرالي. وخلاصة الأمر أن انتصار شيرمان فى معركة "Shiloh" الدموية؛ هو الذى سمح له بأن يمتهن العسكرية مرة أخرى؛ وأن يظهر مواهبه فى القيادة والتخطيط.

خلال الفترة التى ترك فيها شيرمان الخدمة فى الجيش (بداية من عام ١٨٥٣م) قام معظم زملائه من خريجى الأكاديمية العسكرية بالخدمة فى "حرب المكسيك"، وهو ما مكن كُلا من "Robert E. Lee"، و"Albert Sidney Johnston"، "James Longstreet"، و"George McClellan"، من أن يصلوا إلى مناصب بارزة فى كِلا الجانبين اللذين سيشتبكان فى الحرب الأهلية. ولكن هل كان شيرمان شخصية فاشلة حقاً؟

إذا نظرنا إليه من ناحية قدرته على الاستمرار فى الوظيفة، واكتساب دخل مادى معقول، والمحافظة على سمعته فى هذا المجال، فلا بد وأن نعترف أنه كان فاشلاً. فلقد كان عاجزاً عن مجرد توفير ما تحتاج إليه أسرته من ملبس وغذاء؛ وكان يضطر للاعتماد على أقربائه ومعارفه للحصول على أى وظيفة ممكنة. لكننا إذا فحصنا الأمر بمنظور أوسع، فإنه علينا التأكيد على أنه لم يهتز عند قيامه بقيادة ما يزيد عن مئة ألف رجل إلى داخل ولاية جورجيا؛ ومحاصرة أتلانتا حتى سقوطها.

ولعل رحلة الفشل الطويلة، والتى استغرقت ثلاثة عقود من عمره حتى ذلك الوقت، هى التى علمته –بطريقة عملية، وبعيداً عن الدراسات النظرية فى الكتب– ما كان يحتاج إليه من خبرات لقيادة أعداد ضخمة فى حرب حديثة، تتطلب التخطيط والتنقل باستمرار. فخلال رحلة الفشل التى اســـتمرت ثلاثين عاماً بعد تخرجه من أكاديمية "ويست بيونت"، اشتغل بالمحاماة والتجارة والتدريس ... وحتى الزراعة؛ وتنقل فى جميع أرجاء الولايات المتحدة بسبب تقلبه فى هذه الوظائف. وفقد ثقته بنفسه إلى حد أنه قال، ذات مرة: "لقد أصبحت أخاف حتى من خيالى". قد ذاق شيرمان مرارة الفقر، وإحساسه بالفقر والعار لعدم قدرته على سد حاجات أسرته، وتحمل فى صبر سخرية كثيرين منه بسبب فشله المتواصل. ووصل إلى أسوأ حالاته، عندما تم وصمه بالجنون بعد أن استقال من وظيفته القيادية فى كنتاكي.

لكنه علينا تذكر أن شيرمان، خلال كل هذه المحن، تمسك بالسلوكيات القويمة، وتصرف بشرف، وكان فى معظم الأحيان ضحية للظروف. ففى الوظيفة البنكية التى شغلها، كان الفساد المالى وابتزاز الأموال هو السبب فى انهيار المشروع فى كاليفورنيا، واقتراب نشوب الحرب بين الشمال والجنوب، هو الذى أنهى وظيفته الإدارية، كمراقب عام للتعليم العالى فى ولاية لويزيانا. ومن هذا، لا يمكننا الإلقاء باللوم عليه، لفشله فى هذه الوظائف.

خلال قيادته لجيش الشمال (جيش قوات الاتحاد) فى الجبهة الغربية، عام ١٨٦٤م، لم يكن شيرمان قلقاً بشأن مشاعر عامة الشعب وزملائه من القادة، وما إذا كانوا يكنون له مشاعر الثقة والاحترام .. أم لا! ومضى يؤدى واجبات القيادة بحزم وحسم، محققاً النجاح تلو الآخر. وقد استمر الخلاف فى أمر شيرمان حتى بعد أن تمكن من تحقيق النصر؛ فخلال مسيرة الاستعراض العسكرى الذى أقيم فى العاصمة واشنطن، رفض شيرمان مصافحة وزير الحربية، بسبب توبيخه القاسي، عندما صدرت سلوكيات وتصرفات عنصرية عن بعض جنوده تجاه العبيد المحررين، ولم يعاقبهم شيرمان عليها. وحيث أننا نعلم أن شيرمان ما كان ليهتم بحدوث

فضيحة خلال احتفال رسمى فى العاصمة الأمريكية، لأنه لم يكن لديه ما يخسره؛ فأنه أصبح مرة أخرى محل جدل لسلوكياته غير اللائقة تجاه وزير الحربية.

قيادة آلاف الجنود، مع حمولات التموين اللازمة لهم فى غابات جورجيا، كان يتطلب تدريب مهنى فى الهندسة والرياضيات والمدفعية، بالإضافة إلى ما يتطلبه من خبرة فى الأمور الخاصة بطبيعة ونفقة عمليات النقل الكبيرة باستخدام كُل من العربات التى تجرها الخيول والسكة الحديد. وحيث أن التعليم الرسمى والخبرة العملية التى تلقاها شيرمان جعله مؤهلاً للقيام بهذه المهمة، فإنه نجح نجاحاً باهراً فى أدائها. خاصة مع الخبرة العملية التى لديه فى التعامل مع الطبقات الدنيا من المجتمع. وفى الواقع، فإنه لم يكن هناك، من بين جميع جنرالات الجيش، من هو أكثر كفاءة للقيام بهذه المهمة الصعبة.

المجزرة البشـعة (أغسطس من عام ١٨٦٤م)

يا له من فارق رهيب حدث خلال فترة قصيرة لا تزيد عن العام ونصف العام. فمع نهاية الصيف عام ١٨٦٤م كانت حماسة أهل الشـمال التى تفجرت مع "إعلان تحرير العبيد Emancipation Proclamation" فى (أول يناير ١٨٦٣م)، قد تلاشت تماماً؛ وحل محلها خلافات شديدة بين أنصار إلغاء الرق من ناحية، والرئيس الأمريكى "إبراهام لينكولن" من ناحية أخرى. أما المتعاطفون مع أهل الجنوب، فإنهم كانوا فى حالة عداء مع الجميع؛ لأنهم اختلفوا مع الرئيس، وأنصار إلغاء الرق، وحتى بين أنفسهم.

ومع حلول ربيع عام ١٨٦٤م، لم يعد كثير من عامة الشعب فى الشمال يتذكرون سبب إعجابهم بالأداء الرائع لـ"جرانت"، والذى تمكن –منذ أكثر من عام (الرابع من يوليو ١٨٦٣م)– من تحقيق ذلك النصر الرائع فى "Vicksburg"؛ ذلك النصر الذى قصم ظهر

جيش الجنوب، وفتت قواهم ... وكان خير ختام لمجموعة من الانتصارات الصغيرة فى كل من: "Fort Henry"، و"Fort Donelson"، و"Shiloh". وكانت الأنباء الخاصة بسقوط المعقل القوى لقوات الجنوب الكونفيدرالية فى "Vicksburg" —مع ما رافقه من استسلام ٣٠,٠٠٠ جندى كونفيدرالي— هى الذروة التى توجت ابتهاجهم بالنصر على الجنوب.

ومما لا شك فيه، أن تعيين "الجنرال جرانت" لقيادة جيوش الشرق فى منطقة "Potomac" (فى شهر مارس من عام ١٨٦٤م)، هو الذى أنعش آمال الشعب ... وبعث بالتفاؤل فيه. وحتى بمجرد النظر لهيئته فى الصور التى وصلتنا، فأن "الجنرال جرانت" يبدو وكأنه شخص بالغ الصلابة، ولا يمكن هزيمته. فإن مظهره الخشن، قوّى من مظهر المدافعين عن واشنطن، وجعلهم جميعاً يبدون وكأنهم أكثر صلابة وتصميماً. ومن المؤكد أن مثل هذا الجنرال الصلب لن يتراجع أمام قيادة الجيش الكونفيدرالي مثلما فعل بعض جنرالات جيش الشمال فيما سبق. وفى الواقع، فإن انتصارات جرانت جعلته موضع ترحيب فى كل مكان ذهب إليه داخل العاصمة واشنطن. لكن الوضع أصبح مختلفاً تماماً، بعدها بشهور قليلة، عندما تعرض عشرات الألوف من جنود جيش الشمال للقتل والجرح خلال المعارك التالية، إلى جانب الاستنزاف المستمر خلال المناوشات الدائمة مع جنود الجنوب الكونفيدراليين. كل هذا جعل سمعة جرانت تتأذى كثيراً، وغير من نظرة الناس إليه فى واشنطن؛ وأصبح يطلق عليه اسم "الجزار" بسبب ما فقده من جنود. ومع حلول شهر يونيو، ازداد الغضب عليه إلى درجة كبيرة جداً، حتى أن سيدة أمريكا الأولى، علقت —أمام زوجها الرئيس الأمريكى— فى غضب قائلة: "إن جرانت ليس إلا أحمق متعنت الرأى، و"جزار" لا يهتم بأرواح جنوده".

خلال شهر أغسطس ١٨٦٤م، أصبح من الواضح أن هناك إجماعاً على أن "إبراهام لينكولن" لن يتمكن من الفوز على منافسه الديمقراطى خلال انتخابات الخريف القادم؛ بسبب الأداء السيئ لجنرال جرانت. ومنافسه الديمقراطى هو "جورج ماكليلان George McClellan"

الذى تم تنحيته –بواسطة "إبراهام لينكولن" نفسه– عندما أضاع عدة فرص للهجوم على "ريتشموند Richmond"، بعد النصر الجزئى الذى تم تحقيقه فى معركة "Antietam" عام ١٨٦٢م ... ولم يتم إعطاؤه أى منصب ذى أهمية بعدها. كان هذا الأخير، من المؤيدين للفكرة التى انتشرت بين أعضاء الحزب الديمقراطى فى الشمال عن أن الهزيمة التامة والساحقة لــ"الانفصاليين" هى أمر مستحيل أو لا يستحق ما سيتم بذله من تضحيات ونفقات وجهد من أجل تحقيقه.

وهكذا، فإن الوضع كان على النحو التالى: "ماكليلان McClellan" سينافس على مقعد الرئاسة فى الانتخابات الرئاسية التى ستعقد الخريف القادم؛ فى نفس الوقت الذى تعانى منه قوات الشمال الاتحادية من خسائر فادحة فى الأرواح ... وهو ما يرجح من كفة المنافس الديمقراطى فى هذه الانتخابات، ويجعل فوزه أكثر احتمالاً، خاصة أن الشعب قد نسى بالفعل ما حدث منه فى عام ١٨٦٢م، وأن الخسائر الفادحة فى الأرواح لا تزال أخبارها تتوالى مع اقتراب موعد التصويت.

وفى الواقع العملى، فإن الكثير من القادة يستسلمون لأسباب أقل من هذه، وحتى إذا لم يتعرضوا لكم النقض الذى تعرضت له قيادات جيش الشمال. ومما زاد من الأمور سوءاً، أن "McClellan" –والذى أصبح متزعماً للمنادين بوقف الحرب، حتى إذا كان الثمن هو انفصال الجنوب– كان قد تمكن من الوصول إلى مسافة قريبة جداً من "ريتشموند" ... أكثر قرباً من المسافة التى تمكن "جرانت" من الاقتراب فيها من "ريتشموند"، وبدون الخسائر الفادحة فى الأرواح التى لحقت بقوات "جرانت".

كل هذا يعنى أنه إذا ما تم انتخاب "جورج ماكليلان" فى الانتخابات الرئاسية القادمة فإن هذا سينهى الحرب، وما يتبع هذا من انفصال الجنوب عن الشمال من خلال توقيع معاهدة لوقف إطلاق النار. أو من الناحية المثالية –وفى أفضل الحالات– فإن القوات الكونفيدرالية ستوافق

على وقف القتال بمجرد تفهمها أنه من الممكن لها الانضمام مرة أخرى إلى الاتحاد بدون توقيع أى عقوبات عليها أو إجبارها على التخلى عن نظام العبيد. أما بالنسبة للمسائل المعلقة، مثل التوسع فى نظام العبيد، والسماح لهم بالدخول إلى ولايات الغرب الجديد، فإنه من الأفضل تأجيل تقرير مصير هذه المسألة لفترات قادمة؛ عندما تكون الأمور قد أصبحت أكثر هدوءاً. وفى هذا الصدد، فإنه من الممكن للشعب الأمريكى أن ينهى الضغائن بين الشمال والجنوب، ويتفق على أن خلافه فى الرأى فيما يتعلق بمسألة "استمرار نظام العبيد"، لا يجب أن تؤدى إلى حرب أهلية ومجازر جماعية استمرت –حتى الآن– ثلاث سنوات. ومن وجهة نظر الديمقراطية الناشئة فى الولايات المتحدة، فإنه من الممكن النظر إلى هذه الحرب الأهلية الدموية على أنها دراما بشعة تسبب فيها عناد أحمق بين القادة فى الشمال والجنوب؛ وأن المتطرفين ، من كِلا الجانبين، خالفوا إرادة عامة الشعب الأمريكى فى الشمال والجنوب، ودخلوا فى حرب لا فائدة منها، إلا إرضاء كبرياء المتطرفين فى الجانبين ... وأن مسألة الخلاف بشأن "العبودية" لم تكن إلا ذريعة فارغة كانت ستحل بطريقة تلقائية مع مرور الزمان.

من أجل تحقيق كل هذا، يكون من الضرورى فوز "ماكليلان" لأنه ضمن المجموعة الديمقراطية التى اتخذت موقفاً بالفعل مضاداً للحرب، ويسعى إلى إنهائها مهما كان الثمن. وتحت قيادته، من الممكن للجروح –النفسية والبدنية– أن تندمل؛ وعلى أن يواصل الملايين من العبيد الأفارقة، فى المستقبل القريب على أقل تقدير، عملهم كالمعتاد فى مزارع الجنوب. وفى البداية على الأقل، كان "ماكليلان" حريصاً، على إخفاء تعاطفه مع سكان الجنوب. لكنه بالتدريج بدأ يفقد حرصه، وأصبح من المنادين إلى أن هدف الحرب يجب أن يقتصر على إعادة أهل الجنوب إلى وحدهم السابقة مع الشمال، وأنه لا داعى للتمادى، ومحاولة إجبارهم على إلغاء العبودية فى والولايات التى تفضل استخدام هذا النظام. وفى الكلمة التى ألقاها، فى شهر أغسطس من عام ١٨٦٤م، ليعبر عن قبوله ترشيح الحزب الديمقراطى له فى الانتخابات

الرئاسية القادمة عبر "ماكليلان" –بسذاجة– عن ضرورة بقاء أمريكا موحدة، فى نفس الوقت الذى وعد فيه بزيادة فرص إنهاء الحرب وقبول أى ولاية جنوبية فى الإتحاد بدون إجبارها على إلغاء نظام العبيد كشرط لقبول عودتها مرة أخرى. وتناسى ماكليلان فى كلمته هذه المذابح التى حدثت خلال السنوات الثلاث الماضية، وأنه من المستحيل على أي من الجانبين أن يتناسى الأسباب التى دخل من أجلها هذه الحرب الضروس.

وبالرغم من هذا التفاؤل غير العادى، فإن "ماكليلان" كان يعتبر أحد الحمائم غير المتشددين بالنسبة لمجموعة من حلفائه الجدد من المتعاطفين مع أهل الجنوب. وكان يقود هذه المجموعة الصحفى وعضو الكونجرس السابق "Clement Vallandigham" عن أوهايو. وقد قام هذا الأخير، بجولة فى ولايات "الغرب الأوسط Midwest" منادياً بأن استمرار اتباع سياسة الرئيس الحالى ("إبراهام لينكولن") سيؤدى إلى هزيمة الشمال، وغرقه فى الديون، وارتفاع الضرائب، وتزايد عدد القتلى. وبالفعل، فإنه خلال الشهور الأولى من ١٨٦٤م، بدأت أعداد قليلة من هذه الولايات فى مقاومة نظام التجنيد الإجبارى، وبدأت تتواصل مع ولايات الجنوب، وتسمح بتهريب الأسرى السجناء على أرضها من جنود القوات الكونفيدرالية. وقد كان هذا، هو بداية ظهور مصطلح "اختلاط الأجناس Miscegenation"*، وبدأ المتعاطفون مع الجنوب فى نشر إشاعات بأن الرئيس الحالى ("إبراهام لينكولن") لا يسعى إلى إلغاء العبودية فحسب، بل إنه سَيُشَرِّع لـــ"اختلاط الأجناس"، وحرمان الجنس الأبيض فى الجنوب من حقوقه الشرعية التى ورثها عن آبائه.

---

* مصطلح يشير إلى حدوث تزاوج "شرعى" (ترضى عنه السلطات الحاكمة من الناحية القانونية فقط) بين أجناس مختلفة؛ مثل تزاوج رجل أبيض بامرأة سوداء، أو العكس، وهو أمر كان مرفوض تماماً خلال تلك الحقبة، ويتم نبذ من يمارسه، اجتماعياً، حتى الآن. (عادل نجيب)

وحيث أن كل ولاية من ولايات الإتحاد كانت تتحكم فى القوات الخاصة بها والتى تساهم بها فى جيش الشمال؛ فإن أى متعاطف مع أهل الجنوب من بين حكام وقيادات هذه الولاية يستطيع -من الناحية النظرية- أن يعوق التمويل ويؤخر انضمام القوات المشتركة فى القتال ضد ولايات الجنوب. لكننا نعلم أن المتعاطفين مع الجنوب ومن يؤيدونهم فى الخفاء، لم يكن لديهم عدد كاف من الأصوات يسمح لهم بالفوز فى انتخابات الرئاسة؛ لكن تأييدهم لماكليلان قد يرجح كفته فى هذه الانتخابات، ويسمح لهم بالفوز بمقعد الرئاسة. وقد كان من المرجح حدوث هذا إذا استمر أعضاء الحزب الجمهورى على انقسامهم مع استمرار قدوم الأنباء السيئة من الجبهة. ومن هذا، يمكننا رؤية أن نبض الحرب، وما كان يحدث فى ڤيرچينيا، هو الذى تحكم فى سياسات واشنطن خلال ربيع وصيف عام الانتخابات الرئاسية. وعلى وجه العموم، فإن معظم المتعاطفين مع الجنوب، كان لهم مصالح أيضاً تجعلهم متعاطفين مع الشمال وما به من صناعات أكثر تقدماً. وفى وقت من الأوقات، وصل الأمر بالمتطرفين من المتعاطفين مع الجنوب إلى أنهم كانوا يحلمون بتشكيل الحكومة الخاصة بهم، والاستقلال عن الإتحاد بكل ولايات الغرب وولايات "الوسط الغربى".

ولم تكن هذه هى الأزمة الوحيدة التى تعرض لها بيت إبراهام لينكولن، خلال هذا العام الحرج من أعوام الحرب الأهلية. فإن زوجته ("Mary Todd Lincoln") قد تجاوزت نفقات الميزانية المسموح بها للبيت الأبيض. لم يكن هذا التبذير المادى أمراً بسيطاً، لأنه تجاوز الميزانية بآلاف من الدولارات؛ وتضمن عنصراً من عناصر الغش عندما قامت بتحويل مبالغ نقدية من الأموال العامة واستخدمتها فى أمور شخصية تحت مسميات غير حقيقية. وخلال شهور هذا العام، كانت زوجته تسعى للحصول على تمويل من المؤيدين الأثرياء لتتمكن به من تغطية هذا

الدين المتزايد. وزعم خصوم إبراهام لينكولن أنها كانت تبتزهم، وهو ما عرّض الرئيس لموقف حرج خلال تلك الفترة الحساسة من الانتخابات الرئاسية.

كذلك، فإن إبراهام لينكولن لم يكن فى أفضل حالاته العقلية. حتى أنه أخبر أحد المقربين منه، بأن هذه الحرب قد استهلكت حياته، وأصبح لديه شعور قوى بأنه لن يعيش حتى يرى نهايتها. وهناك احتمال كبير فى أنه قد عانى من الجدري فى عام ١٨٦٣م، وأنه لم يتعاف تماماً من هذا المرض. وبالمثل، فإن حزن "إبراهام لينكولن" وزوجته على موت اثنين من أطفاله منذ فترة قصيرة، ترك أثره الذى لا يمحى على كل منهما. وهكذا، فإن كوارث السياسة والحرب أضافت عبئاً لا يحتمل على كاهل رجل حزين معلول البدن.

وطوال شهور هذا العام، حدثت الكثير من الأمور المزعجة، مثل الحريق الغامض الذى اشتعل فى إسطبلات البيت الأبيض خلال شهر فبراير. وبعدها بشهور قليلة، تم التغلب على محاولة لاغتياله، إلى جانب استمرار الشائعات الخاصة بمحاولة اختطافه من قِبَل الكونفيدراليين، أو المتعاطفين معهم. وفى كل ما سبق، أكثر من الكفاية بجعل إى إنسان يغرق فى الاكتئاب العميق، إلى درجة أنه أجبر كل أعضاء حكومته بالتوقيع على خطابات استقالة وقام بالاحتفاظ بها فى خزانة البيت الأبيض.

فى بداية عام ١٨٦٤م، بدأ الخوف يملأ قلب لينكولن من أنه لن يفوز بدورة رئاسية ثانية خلال الانتخابات القادمة. ومع حلول شهر يوليو، تعمد الظهور فوق الأسوار والتحصينات فى الخطوط الأمامية ... معرضاً نفسه لنيران قناصة العدو.

والصحافة أيضاً لم تكن رحيمة به، وتركزت هجمات خصومه السياسيين عليه شخصياً، وتم وصفه بأنه ساذج وغير مؤهل؛ إلى جانب الشتائم البذيئة التى وصفته بالقرد العنيد، ووصمته بالطغيان وأنه الجزار الذى سمح بوقوع كل هذه المذابح ... وما هو أسوأ من هذا بكثير. وفى هذا الصدد، فإن صحف نيويورك –فيما عدا صحيفة "Times" الجمهورية– شنت هجمات

بشعة عليه؛ وتزايدت حدة هذه الهجمات مع الأنباء السيئة القادمة من ڤيرچينيا عن تزايد أعداد القتلى من بين أبناء جيش الشمال. وبلغت ذروتها عندما تم مطالبة "جرانت" بترشيح نفسه فى الانتخابات القادمة عن الحزب الجمهورى ... حتى يكون هناك أمل فى إنقاذ "الاتحاد The Union" من عجز لينكولن الصارخ، وعدم قدرته على القيام بواجبات وظيفته بكفاءة!

وفى هذا الصدد، فإنه على الرغم من قوة الصحافة فى ذلك الوقت، فإنها عجزت عن الوقوف فى وجه إعادة ترشيح لينكولن لفترة رئاسية ثانية؛ والسبب فى هذا هو أنه لم يكن هناك أى مرشح جمهورى أو مستقل لديه خطة لوقف المذابح الجارية بدون أن يُضَيع النتائج التى أحرزها الشمال حتى الآن. إن هزيمة جيش الجنوب قد لا تكون أمراً صعباً؛ لكن الأمر الصعب حقيقة، هو هزيمة جيش الجنوب واحتلال مناطق شاسعة من الأرض. مناطق تزيد فى مساحتها عن مساحة كل دول أوربا الغربية.

كذلك، فإنه كانت هناك حزازيات ومشاكل كثيرة بين أفراد حكومة لينكولن أنفسهم؛ وبدا وكأن الفوضى قد نشرت أجنحتها عليهم جميعاً. وعلى سبيل المثال، فإن وزير العدل، ووزير البريد، ووزير الخزانة، ووزير الدولة، ووزير الحرب. مختلفون فيما بينهم، ويتآمرون فى نفس الوقت للاستيلاء على منصب الرئيس وإعفائه من مهامه بسبب عجزه عن إدارة الأمور والانتصار فى هذه الحرب التى طالت بلا داع. ولعلهم كانوا يفكرون أن كل الرؤساء السابقين –ومنذ عهد "Andrew Jackson"– لم يتمكنوا من الحصول على فترة رئاسية ثانية. ومن المنطقى أن يظن الجميع أن لينكولن سيفشل هو الآخر فى الحصول على مقعد الرئاسة مرة أخرى.

ومما زاد الطين بللاً، أن وزير الخزانة ("Salmon Chase") – وهو من المنادين بإلغاء العبودية– كان يتواصل، فى الخفاء –فى بداية الأمر– مع خصوم لينكولن من الجمهوريين المتزمتين. لقد كان هذا الوزير الخائن لرئيسه، يحلم بأن يتمكن من انتزاع مقعد الرئاسة، عن

طريق إقناع الحزب الجمهورى بترشيحه هو شخصياً بدلاً من لينكولن. لقد كان وزير الخزانة، يظن أن لديه فرصة أكبر فى الفوز على المرشح الديمقراطى من فرص لينكولن، وأنه -بعد الفوز- سيكون أكثر قدرة على فرض قوانين تلغى العبودية تماماً فى كافة أرجاء الولايات الأمريكية، وفرض احتلال لولايات الجنوب يتم خلاله إخضاع المتمردين الانفصاليين من القوات الكونفيدرالية بالقوة. وفى الواقع فإن بعض مؤيدى وزير الخزانة كانوا يتعشمون فيما هو أكثر من هذا، وطالبوا باحتلال دائم وكامل لولايات الجنوب، ونقل أعداد من فقراء الشمال لكى ما يستوطنوا الجنوب مع العبيد المحررين والمهاجرين الجدد ... حتى يتم تحقيق محو تام لحضارة المهزوم (أهالى الولايات الجنوبية) وتزداد بهذا قوة المنتصرين.

هذه الطريقة الـــ"دراكونية Draconian" فى عقاب الانفصاليين من أهل الجنوب، كانت تمثل الباب الخلفى الذى سيمكن -من خلاله- المعارضين لنظام الرق من الحصول على تحكم دائم فى مجريات الأمور داخل الكونجرس الأمريكى. لتحقيق هذا، كان من المزمع حرمان الكونفيدراليين السابقين من حق التصويت؛ وقصر هذا الحق على المهاجرين الجدد ومن يتم تحريرهم مشكلين بهذا غالبية جمهورية دائمة تدين بوجودها لمن قاموا بإلغاء الرق فى الجنوب. وهكذا، فإن الوضع -الآن- هو أن كُلا من الديمقراطيين والجمهوريين فى الشمال أصبحوا متفقين على أن افتقار لينكولن للأنصار والمؤيدين، يجعله غير قادر على لعب دور القائد القوى الذى يمكن له الانتصار فى هذه الحرب، ووضع حَدّ للمذابح الجارية؛ كما أنه لن يتمكن من حشد إجماع سياسى يستطيع فرض إرادته على الجميع.

مع حلول شهر يونيو، عرف لينكولن ما فيه الكفاية عما يحاك ضده من مؤامرات؛ وتخلص من وزير الخزانة، عن طريق قبول استقالته الشكلية. وفى حقيقة الأمر، فإن وزير الخزانة تلقى صدمة عمره، لأن الاستقالات الثلاث السابقة والتى تقدم بها، فيما مضى، كانت قد رفضت. لكن التهديد الذى كان يمثله المنشقين كان فى حقيقته أخطر وأكبر بكثير من هذا

(وزير الخزانة ومجموعته)؛ فإن البطل القومى "چان فيرمونت John Frèmont" قد تبنى، هو الآخر، هدف المنشقين فى إزالة الرق تماماً. و"فيرمونت" هذا يعتبر من الرواد الذين شقوا أول الطرق إلى الغرب عندما تم استعماره، ويتميز بتصرفاته الغريبة، الهوجاء، التى لا تخلو من العصبية. وكان قد تم ترشيحه، فى ٣١ من مايو، بواسطة مجموعة منشقة من الجمهوريين المتزمتين والديمقراطيين الراغبين فى استمرار الحرب حتى نهايتها. وفى الواقع، لم يكن ترشيح فيرمونت، إلا مجرد "فعلاً رمزياً" يمثل احتجاجهم على المرشحين للرئاسة، ورفضهم التام لـــ"لينكولن" و"ماكليلان". وبالرغم من هذا، قد يكون لهذا الفعل الرمزى تأثيره الفعال فى إضعاف موقف "لينكولن" الانتخابى، بما يسمح لـــ"ماكليلان" بالفوز من خلال أفراد الحزب الديمقراطى المتوحدين خلفه. وخلال كل هذه المؤامرات والتقلبات السياسية، ازداد قلق لينكولن من تصرفات عدد آخر من جنرالات جيش الشمال. فبالنسبة للجنرال "جرانت"، فإن لينكولن اعتاد أن يرسل أصدقاءه لكى "يجسوا نبض" الجنرال، ويتأكدوا من أنه لا يطمع فى الوصول إلى مقعد الرئاسة، قبل أن يوليه القيادة العامة لكل قوات الاتحاد ... فى شهر مارس. بل أنه أرسل من يستكشفون ما إذا كان الجنرال "بنيامين بتلر Benjamin Butler" قد يكون مهتماً بأن يحل محل نائب رئيس الجمهورية الحالى ("Hannibal Hamlin"). وفى الواقع، فإن هذا الأخير كان مرتاحاً إلى أنه لم يرشح مرة أخرى لمنصب نائب رئيس الجمهورية؛ وأنه سيتمكن من القفز من هذه المركب الغارقة قبل أن تغوص إلى الأعماق السحيقة.

خلال شهر فبراير ١٨٦٤م بدأت المنشورات تنتشر فى كل مكان، وكان أشهرها معنون: "الانتخابات الرئاسية القادمة". فى هذا المنشور، تم نشر أسماء كبار أعضاء الحزب الجمهورى الذين أعلنوا –صراحة– معارضتهم لإعادة ترشيح لينكولن، وسجلوا هذا كتابة. لكن هذه الأفعال الصبيانية ما كانت ترقى إلى مستوى إحلال وزير الخزانة "Salmon Chase" محل لينكولن كمرشح للحزب الجمهورى؛ لكنها ساهمت فى زيادة الضغوط الموضوعة على كتفي

لينكولن. وخلال شهر يوليو من هذا العام، تم التصويت، فى الكونجرس، على مشروع القانون الخاص بـــ"Wade -Davis"؛ والذى لم يكن أكثر من مجرد محاولة خرقاء تسعى إلى تدمير ما تبقى من حضارة أهل الجنوب البالية ومحو طرقهم العتيقة فى الحياة. وعندما حل شهر أغسطس، أصبحت هناك حركة قوية مؤيدة لـــ"ماكليلان" فى مدينة نيويورك. وقد لاحظ المراقبون أنه كلما ازدادت الأنباء القادمة عن الحرب سوءاً، كلما ازدادت قوة المؤيدين له.

وفى هذا الخصوص، اقترح لينكولن تقديم اسم أحد كبار أعضاء الحزب الجمهورى المتزمتين على تذكرته الانتخابية، حتى يُهَدِّئ من قلق الجماهير الذى ازداد اشتعالاً بسبب نقص الأنباء المفرحة، والتى طال انتظارهم لوصولها من ميدان الحرب؛ وحتى يتمكن بهذا من كسب أصوات الديمقراطيين الذين لم يحددوا بعد لصالح من سيصوتون.

بعد التخلص من وزير الخزانة، تم اختيار "أندرو جونسون Andrew Johnson" ليكون المرشح لمنصب نائب رئيس الجمهورية مع لينكولن؛ وإن كان هذا القرار لم يسعد الكثيرين. وبالرغم من كل الانتقادات التى تعرض لها لينكولن، فإنه لم يغير الكثير من نواياه الأساسية الخاصة بإلغاء الرق فى جميع أرجاء الاتحاد بمجرد انتهاء الحرب. وهو أيضاً لم يتمكن –حتى الآن– من الانتصار فى الحرب رغم مرور ما يزيد عن ثلاث سنوات. وبالإضافة إلى كل هذا، فإن دين الدولة قد تضخم، وأصبح يزيد عن ٢ بليون دولار، وقد قُدِرَ أن النفقات اليومية للحرب تزيد عن ٢ مليون دولار يومياً. وفى هذا الصدد، كان لدى لينكولن خطط يائسة يستدعى بمقتضاها حوالى نصف مليون جندى للخدمة فى الجيش. واعتمدت هذه الخطط، على جذبهم من خلال الحوافز المادية والمكافآت ... لكى يتمكن من إبقائهم بعد انتهاء فترة السنوات الثلاث الإجبارية فى التجنيد.

منذ بداية عام ١٨٦٤م، كان حظ جيش الشمال يزداد سوءاً مع مرور الوقت. وفى هذا الصدد، فإن جيش الشمال فقد حوالى ربع مليون جندى منذ ربيع عام ١٨٦٢م، بسبب

الأعمال القتالية أو الأمراض المنتشرة بينهم؛ وتم انتزاع ما يزيد عن ٢ مليون من وظائفهم فى الشمال لكى ما يتم ضمهم للجيش. وبرزت ظاهرة غريبة ازداد خلالها أعداد مواطنى الشمال الذين يرغبون فى التصويت إلى جانب القوة السياسية المنتصرة ... أياً كانت؛ وأصبح واضحاً أنه مع حلول شهر أغسطس من عام ١٨٦٤م، لن يتمكن لينكولن من تحمل النفقات الباهظة اللازمة لهزيمة القوات الكونفيدرالية.

إن هذه الحقيقة الأخيرة، وحدها، أكدت لهم على أن لينكولن لن يتمكن من الفوز بفترة رئاســية ثانية.

تغيير الاســتراتيجيات (مارس - أغســطس ١٨٦٤م)

خلال شهر أغسطس، زار "Alexander McClure" البيت الأبيض، ووصف حالة الرئيس بأنه كان دائم الحزن والاكتئاب، وأن عامة الشعب كانوا غاضبين عليه لأن الجنوب تمكن من المقاومة والاستمرار فى القتال حتى الآن. وحيث أن جميع الدول الأجنبية لم تعترف بانفصال ولايات الجنوب الكونفيدرالية؛ فإن الاقتصاد هناك كان يختنق ببطء. وبالرغم من هذا، فإن الولايات الانفصالية حافظت على قدرتها لحشـــد المزيد من القوات الجديدة، وتزويدها بما تحتاج إليه من مؤن وعتاد؛ وهو ما جعل إحراز نصر حاسم عليهم أمراً شديد الصعوبة ... خاصة فيما وراء ڤيرچينيا.

وبالطبع، فإن الجنوب شعر بازدياد هذه الموجات الشعبية المعادية لاستمرار الحرب خلال عام ١٨٦٤م؛ وعرف أن تنامى هذا الغضب هو المفتاح الذى سيمكنه من إحراز النصر. فحتى لو أن مناطق كبيرة من "Alabama"، و"Arkansas"، و"Louisiana"، و"Mississippi"، و"Tennessee"، و"Virginia"، أصبحت تحت حكم الشمال، فإن الجزء الأكبر من الولايات الكونفيدرالية –بما فيها أكبر مدن الجنوب– سيظل قادراً على الاستمرار فى القتال ضدهم.

وأغرب ما فى الأمر، أنه بالرغم من حرمان الولايات الكونفيدرالية من أكثر أراضيها الزراعية، واليد العاملة القادرة على الإنتاج، وبعض صناعتها، فى الأراضى التى تم انتزاعها منهم خلال القتال، إلا أن ما تبقى لديهم من رجال للدفاع عن المساحات المتبقية، كان أكبر مما لدى قوات الشمال. إنها المشكلة الأزلية، التى واجهت كل الغزاة من نابليون وهتلر فى روسيا، وحتى القادة الكوريين والصينيين الذين قرروا مواصلة التقدم وعبور خط عرض ٣٨ ليصلوا إلى الـــ"بوسان Pusan". ومن الممكن الظن بأنه كانت هناك رؤية عظمى سعى الإمبراطور "جســتينيان Justinian" لتحقيقها؛ بأن يرى "روما جديدة" فى البحر الأبيض المتوسط. إلا أن قيود الأمر الواقع، أجبرته على ترك المزيد من قواته، وراءه، مع كل تقدم تمكن من إحرازه، وهو ما جعله يفشل –فى النهاية– فى تجســيد هذه الرؤية.

وهذا، هو ما حدث مع القوات الكونفيدرالية، وبالرغم من استمرار انخفاض المساحات الموجودة تحت سيطرتها، إلا أنها كانت لا تزال أكبر بكثير من معظم دول أوربا الغربية مجتمعة. وكانت تحت سيطرة القيادة أعداد أكثر من كافية لحماية هذه المساحات. لقد كان الجنوبيون يأملون فى أن تصبح الحرب الأهلية مكلفة جداً بالنسبة للشمال، حتى أن الجماعات المنادية بالسلام يصبح بإمكانها التغلب على لينكولن والسماح لمنافسه الديمقراطى بالفوز بمقعد الرئاسة. وهذا الأخير، أكثر استعداداً لتقديم تنازلات والوصول إلى هدنة بين الفريقين المتحاربين. وبالفعل، فإن القلاقل والفوضى الاجتماعية بدأت فى الظهور مع استمرار استنزاف الأيدى العاملة فى الشمال، وإرسالها لكى ما تنضم إلى الجيش فى الجبهة. أما فى الجنوب، فإنه تمكن بطريقة ما من استدعاء ٧٠٠,٠٠٠ جندى وضمهم إلى قواته، بدون أى قلاقل تذكر. وبالرغم من أن إجمالى سكان الجنوب أصغر بكثير من الشمال.

أما قائد هذه القوات الجنوبية، "روبرت ليي Robert Lee"، فإنه تحصن خلف الاستحكامات التى تم بناؤها فى شمال ڤيرچينيا؛ وقد بدأ يدرك أن أمله فى النصر يأتى عن

طريق استغلاله العوامل السياسية ... وأنه من غير الممكن له الانتصار باستخدام القوة الغاشمة. لم يعد "روبرت لي" يحاول التقدم نحو الشمال. فليس عليه الآن التضحية بالآلاف من جنوده بحثاً عن النصر. وبدلاً من هذا، فإن مجرد تمكنه من البقاء بجيشه على قيد الحياة يعنى نجاحه فى تحقيق هزيمة سياسية لقوات الشمال؛ وفى كل شهر يتمكن فيه جيشه من الصمود وإلحاق الخسائر بجيش "جرانت"، فإن احتمالات رفض الشعب فى الشمال لـ"لينكولن" و"جرانت" تتزايد ... ويقترب معها موعد عقد "الهدنة" التى ستعيد السلام بين الجنوب والشمال؛ وبدون إلغاء نظام الرق. وعلى حد قول "روبرت لي": "إذا ما انتشر الاعتقاد بأن السلام هو الذى سيتمكن من إعادة الوحدة بين ولايات الجنوب والشمال، فلن تجد الحرب من يؤيدها، وهذا هو ما نسعى إليه فى الواقع".

المذابح الميدانية (صيف عام ١٨٦١م)

لم تنبع المشاكل السياسية التى واجهها "لينكولن" فى أغسطس ١٨٦٤م، من الأخبار السيئة الواردة من جزء معين من ميدان العمليات العسكرية، وإنما نبعت من التقارير الفظيعة التى كانت تأتى من مختلف مناطق الجبهة. فلقد كانت عملية الاستنزاف التى يتعرض لها كل من "جرانت Grant" و"مييد Meade" على أشـــدها فى فيرجينيا. أما "Benjamin Butler"، فإنه تعرض للإذلال فى مواجهة له مع قوة أصغر من قواته بكثير. كذلك، القائد غير الكفء "Nathaniel P. Banks"، والذى كاد يخسر جزءاً كبيراً من قواته فى "ألاباما Alabama". وبالمثل، فإن "Franz Sigel" تحرك ببطء شديد حتى أنه فشل فى ملاقاة قوات العدو فى وادى "Shenandoah".

ومن الناحية الظاهرية، فإن الهدف من كل هذه العمليات المختلفة، هو وضع المزيد من الضغط على قوات الجنوب ... على أمل أن يتصدع ترابطها، وتنهار. لكن المشكلة فى تنفيذ مثل هذه الاستراتيجية، هو أن جيوش الاتحاد (قوات الشمال) كانت مبعثرة، ومتناثرة بلا رابط عبر آلاف الأميال المحيطة بقوات الجنوب. هذه الأخيرة، تمكنت مع انكماش المساحات التى تسيطر عليها، من نقل المؤن والعتاد –من جيش إلى آخر– بطريقة متزايدة السهولة. وبالإضافة إلى كل ما سبق، فإن عديداً من جنرالات قوات الشمال المكلفين بتنفيذ هذه الاستراتيجية الهجومية مثل: "Butler"، و"Banks"، و"Sigel" لم يكن لديهم الخبرة العسكرية الكافية، أو تنقصهم الكفاءة، أو كلاهما. وأخيراً، فإن "جرانت" خصص أعداداً كبيرة من القوات للقتال فى أماكن نائية مشكوك فى أهميتها تحت قيادات لا تتميز بالكفاءة الشديدة؛ وبالرغم من الحاجة الشديدة إلى تركيز القوات فى كُل من "ريتشموند" و"أتلانتا".

والحقيقة هى أن الصراع الأســـاسى كان دائراً بين جيش "روبرت ليي"، وجيش الــ"بوتومك Potomac"، تحت قيادة "جرانت"؛ فى المنطقة المحصورة بين مدينتى "ريتشموند" و"واشنطن". فقد كانت خطة "لينكولن" تقضى بالزحف نحو "ريتشموند"، والاستيلاء عليها مهما كان الثمن، حتى يتمكن من هزيمة جيش "روبرت ليي" قبل انتخابات شهر نوفمبر الرئاسية. لكن هذه الاستراتيجية فشلت، وبالرغم من القوات التى تم ضمها لجيش "جرانت"، وتحولت إلى مستنقع تورط فيه الجيشان، وما تبع هذا من تنامى أعداد القتلى بين الجانبين. والآن، أصبح على جيش الشمال أن يخاطر بتنفيذ عمليات عسكرية غير محسوبة، حتى يثبت أنه قادر على إحراز نجاحات واضحة قبل حلول الانتخابات؛ وعلى أن لا يخاطر بخسارة جسيمة فى قوات جيشه فى الــ"بوتومك" ... وهو أمر لا يمكن التيقن من تحقيقه.

بعد مرور ثلاثة أيام، على ما يسمى بــ"Wilderness Campaign" (من ٤– ٧ مايو)، لحقت بجيش جرانت خسارة فادحة فى الأرواح بلغت ١٨,٠٠٠ جندى ما بين قتيل أو جريح

أو مفقود أو أسير. وبخلاف ما قام به "ماكليلان" فإن جرانت استمر فى مهاجمة قوات الجنوب، ولم يتوقف ليضمد جراحه. هذا الإصرار والمكابرة ترك أثره الذى لا يمحى على العمليات العسكرية التالية؛ وعلى المؤرخين الذين قاموا بتسجيل الأحداث. لكن خلال تلك الحقبة من التاريخ، اعتبر الكثيرون ما قام به "جرانت"، مجرد إراقة انتحارية للدماء ... وأمر لا لزوم له. وخلال المراحل التالية من القتال حول "Spotsylvania" (خلال الفترة من ٢٠ – ٢١ مايو)، فقد "جرانت" عدداً مماثلاً من الجنود (١٨,٠٠٠ جندى) مرة أخرى. وهو قد فعل كل هذا، حتى يثبت لــ"لينكولن" أنه أفضل من "ماكليلان"، أو "Pope"، أو "Burnside"، أو "Hooker"، أو "Meade"، والذين اضطروا للتراجع عندما تزايدت أعداد القتلى. أما جرانت فإنه تفاخر قائلاً: "سأستمر فى القتال حتى لو استغرق الأمر كل شهور الصيف". وهو قول قد يتسبب – فى أيامنا هذه – فى إشعال غضب الحركات المناهضة للحرب.

وفى هذا الصدد، فإن مشكلة لينكولن كانت استمرار تزايد عدد المناهضين للحرب فى الشمال، حتى يتحولوا إلى أغلبية قد تتمكن من السعى إلى إيقاف "جرانت" ومنعه من تنفيذ وعده المشئوم، الذى قد يكلف الشمال ٣٦,٠٠٠ جندى آخر.

وهذا هو ما حدث فى الواقع، لأن إصرار جرانت على المضى قدماً مهما كانت الخسائر، كان وفقاً لاستراتيجية موضوعة تهدف إلى إيقاع خسائر لا يمكن لجيش "روبرت ليي" أن يتحملها. والفكرة من وراء هذا، هى أن هذه المعارك المتوالية، وهذا القتال المستمر، سيؤثر على جيش الجنوب أكثر من تأثيره على الشمال ... والذى كان يتمتع باحتياطيات أكبر من حيث العدد والعدة. لقد كان "جرانت" يراهن على أن "روبرت ليي" سيكون أول من يستسلم ويطالب بوقف هذه المذابح الدموية المستمرة. ومن ناحية أخرى، فإنه مع حلول منتصف عام ١٨٦٤م، كان لا يزال ينظر إلى مثل هذه النوعية من الحسابات على أنها "غير عملية Academic". وفى هذا الصدد، فإن هذا النزيف الدموى المستمر، تسبب فى هستيريا

أكبر فى الشمال عنه فى الجنوب. فإن أهل الشمال لم يعودوا مهتمين بسحق جيش "روبرت ليي"؛ وكل ما أصبحوا راغبين فى تحقيقه هو وضع حد للخسائر الفادحة التى كان "جرانت" يتلقاها كل يوم. ومن وجهة نظرهم، فإن "الانسحاب" بدا وكأنه استراتيجية أفضل عندما تكون جيوش الطرفين متعادلة من حيث قواها.

لكن كل هذا، لم يفت فى عزيمة "جرانت". وخلال الفترة من ١- ٣ يونيو فقد -تقريباً- كل ما لدى جيش الــ"بوتومك من قدرة على الهجوم، من خلال هجمات عديمة الجدوى على تحصينات جيش الجنوب. وبدا الأمر لأى مراقب خارجى وكأنه عمليات قتل عقيمة؛ حيث أن جرانت خسر حوالى ١٢,٠٠٠ جندى آخرين. حتى الآن، فإن القوات الموجودة تحت إمرة "جرانت" خسرت حوالى ٤٠,٠٠٠ قتيل، بالإضافة إلى ما خسرته من جرحى ومفقودين وأسرى، خلال الثلاثين يوماً الماضية. وبالرغم من كل هذا، فإنه استمر فى التقدم نحو "بيترزبرج Petersburg". وبسبب عدم كفاءة بعض قواده، فإن الهجوم على هذه المدينة لاقى فشلاً زريعاً ... ولحقت بهم خسائر فى الأرواح تقدر بحوالى ١١,٠٠٠ جندى، فى نفس الوقت الذى لم يتمكنوا من إحراز أى تقدم نحو "ريتشموند". وخلال الحصار الذى تلا هذا، تكبدت جيوش الشمال خسائر جديدة تقدر بحوالى ٤٢,٠٠٠ جندى آخرين.

من الناحية النظرية، فإن مصطلح "ضحايا Casualties" يعنى من تعرضوا للقتل والجرح والفقد والأسر. ولكن بخلاف ما يحدث فى الحروب الحديثة، الآن، فإن الغالبية العظمى من الجرحى خلال الحرب الأهلية الأمريكية توفوا، أو تعرضوا لتشويه حاد يمنعهم من العودة للخدمة فى الصفوف الأمامية مرة أخرى. والأمر ذاته، ينطبق على الأسرى، حيث كانت تتعرض أعداد كبيرة منهم للموت فى معسكرات الاعتقال، هناك، فى مجاهل الجنوب. أما بالنسبة للمفقودين، فإنهم ينقسمون إلى قسمين: الهاربين من الجندية، وهؤلاء نادراً ما عادوا إلى وحداتهم. والقسم الآخر من الممكن أن يكونوا أشلاء لا يمكن التعرف على صاحبها ...

أو ما شابهها من أسباب. وباختصار، فإن عدد من اختفوا إلى الأبد من الخدمة فى جيش "جرانت" كان يقارب الـ٤٢,٠٠٠ جندى.

ومما زاد من سوء الأمور، هو أن جيش الـ"بوتومك" كان فى قبضة مميتة بسبب قوات "روبرت ليي" المدافعة عن ريتشموند. وعلى هذا، فإنه –خلال تلك الفترة– لم يكن هناك أى جيش تابع لولايات الشمال قادر على وقف الجيوش الكونفيدرالية ومنعها من التقدم فى وادى "Shenandoah" نحو شمال واشنطن العاصمة. وكنتيجة لهذا، تزايدت ثقة "روبرت ليي"، وطلب أحد قواده بالاتجاه شمالاً ومحاولة دخول واشنطن من الجانب الشمال الغربى، والذى لا يتمتع بأى حماية. وبالفعل، تقدم هذا القائد نحو مشارف العاصمة ومعه حوالى ١٢,٠٠٠ جندى كونفيدرالي، ووصل إليها ١١– ١٢ من يوليو، ولكنه لم ينتهز الفرصة ليجتاحها من هذا الجانب غير المحمى. وسرعان ما تدارك جيش الشمال الأمر، وأجبر جنود الجنوب على الانسحاب فى يوم ١٣ من يوليو. لكن مجرد تمكن جنود الجنوب من الاقتراب إلى هذا الحد من "البيت الأبيض" الأمريكى، بينما لا تزال جيوش "جرانت" متورطة فى معارك عديمة الجدوى خارج مدينة "ريتشموند"، قد أكد لعامة الشعب صحة مشاعره بأن الأمور تسير فى مجرى خاطئ تماماً، وبعيداً عن ما يجب القيام به حقيقة. فلم يتمكن أى جيش جنوبى، خلال السنوات السابقة من الحرب الأهلية، من الاقتراب –بهذه الطريقة– من عاصمة البلاد وتهديدها بهذه الطريقة ... حتى أن الرئيس ذاته كان فى مرمى نيران العدو، وهو ما جعلهم يستعيدون الذكريات الأليمة لـ"Bull Run".

فى وسط كل هذه الاضطرابات، وفى يوم ٢٣ من أغسطس قال الرئيس لينكولن لأحد مؤيديه من أعضاء الحزب الجمهورى: "إذا كنت تظن أننى لا أعرف أننى سأتعرض للهزيمة فى الانتخابات القادمة، فأنت مخطئ. أنا مدرك تماماً لحقيقة ما يجرى من حولي؛ وإنه إذا لم يحدث تغير كبير ... فإن الهزيمة فى الانتخابات ستكون ساحقة". صدرت هذه الكلمات عن الرئيس

لينكولن، بينما كان الأمل –على الجبهة الغربية– لا يزال قائماً فى حدوث طفرة هائلة قبل الانتخابات. إن حدوث نصر لقوات الشمال خلال شهر نوفمبر من العام الماضى (١٨٦٣م) فى "Chattanooga"، هو الذى ضمن لهم الاستيلاء على المناطق الجنوبية من ولاية "تِينسي Tennessee"؛ وترك الأجزاء الشمالية من ولايتي "Alabama"، و"Georgia" مفتوحة ومهيأة للغزو. وهناك، كان "شيرمان" يقود الجيوش الثلاثة الموجودة حول نهر المسيسيبى. وعندما رأى أن هناك فرصة مفتوحة أمامه للهجوم، انتهزها على الفور. لقد كان "شيرمان" يظن أنه من الممكن لقواته التقدم نحو چورچيا، ومن هناك يمكنه قطع الطرق المحيطة بمدينة أتلانتا، والاستيلاء عليها. وحيث أن "مدينة أتلانتا" تعتبر المركز الرئيسى الذى تستخدمه قوات الجنوب فى تحريك المؤن والرجال؛ فإن الاستيلاء عليها سيوجه ضربة قاصمة، وفى الصميم إلى كل القوات الكونفيدرالية. ومن الممكن تحقيق هذا، عن طريق مراوغة جيوش الجنوب ... والتغلب عليها فى شئون المناورة. ومن يعلم، فإنه قد يستطيع شق وحدة القوات الكونفيدرالية وتفتيتها قبل حلول الخريف. ونجاحه فى هذا، سيحسن من احتمالات نجاح لينكولن فى الانتخابات، وحتى إذا استمر جرانت عاجزا فى الاستيلاء على "ريتشموند".

مع نهاية الصيف، أصبح من الواضح أن جرانت لن يتمكن من دخول عاصمة الجنوب واحتلالها قبل شهر نوفمبر. وكل هذا، جعل الساحة مهيأة لمجموعة من الظروف المتناقضة. فمن ناحية، كانت الأمة تتجه بأنظارها إلى جرانت العاجز عن دخول "ريتشموند"، بينما فى الحقيقة كان خلاص لينكولن فى يد شيرمان. لكن العمليات العسكرية التى كان شيرمان قائم على تنفيذها، لم تكن معروفة بالنسبة لعامة الشعب من سكان الشمال. وفى هذا الصدد، من الممكن لنا القول بأن شيرمان بالرغم من كونه منقذاً غير متوقع، إلا أنه امتلك الشخصية التى تؤهله للقيام بهذا؛ فقد كان يكره العمل بالسياسة، مثل كراهيته للصحافة ومن يشتغلون بهما.

شيرمان يتجه نحو الجنوب (مايو ١٨٦٤م)

كان شيرمان قد عزم بالفعل على تجنب الاشتباك فى تلك النوعية العقيمة من المعارك الدموية التى تورط فيها جنرال جرانت وجيشه فى الـ"بوتومك". وبالرغم من أن شيرمان كان قد تولى قيادة جيوش الميسيسيبي فى ١٨ من مارس، إلا أنه كان هناك تفاهم مع جنرال جرانت على أن يتم التنسيق بينهما، من أجل تحقيق هدفهما المشترك فى تحطيم قوات المتمردين قبل أن يدفعهم عامة الشعب فى الشمال إلى عقد هدنة حقناً للدماء. كان من رأى شيرمان أنه من الممكن توجيه جيوشه الغربية -عن طريق المناورة، بدلاً من الهجوم بطريقة مباشرة- نحو أراضى ولاية جورجيا؛ وهى استراتيجية مناسبة بسبب اتساع أراضى هذه الولاية، على خلاف الممر الضيق الموجود بين مدينتى و"اشنطن" و"ريتشموند"؛ وأنه لا داعى للدخول فى مواجهة مباشرة مع عدوه (جنرال "جو جونستون Joe Johnston") وقوات جيشه الموجود فى "تِينسي Tennessee".

فبدلاً من الدخول فى مواجهة مباشرة، فإن استراتيجية شيرمان كانت تسعى إلى الإيقاع بقوات الخصم، مما قد يمكنه من مهاجمتها من الخلف خلال تراجعها نحو الجنوب. لأنه عندما يكون ظهر قوات الجنوب متجه نحو أتلانتا، يصبح جنرال "جونستون" مجبراً على ترك المدينة لمصيرها، أو الاستدارة، نحو الشمال مرة أخرى، ومواجهة الدخول فى قتال مع جيش يتفوق عليه من حيث العدة والعتاد، وتحت ظروف فى غير صالحه. وبهذا، ستكون عملية إذلال مهينة لأهل الجنوب عندما تتمكن قوات شيرمان -فى حرية تامة- بأن تذرع أراضيهم ذهاباً وإياباً خلال عام الانتخابات الرئاسية. وفى هذا الصدد، فإن بعض من قاموا بالتأريخ لما يسمى بـ"الحملة على أتلانتا Atlanta campaign" خلال ربيع وصيف عام ١٨٦٤م انتقدوا استراتيجية شيرمان التى لم تكن تسعى إلى تدمير الجزء الأساسى من قوات جيش الخصم، ولأنه

لم يتجه بطريقة مباشرة نحو أقرب المسالك التى تمكنه من الوصول إلى أتلانتا. لقد كان شيرمان يحاول تكرار ما فعله "Belisarius" من قبل، عندما سعى إلى تجنب المعارك التى تعرض جيشه لخسائر هو فى غنى عنها ... خاصة أنه موجود فى أعماق الأراضى الخاضعة لنفوذ الجنوب. إذا كانت قوات "جرانت" فى حالة حرب سافرة ومباشرة مع قوات "روبرت ليي"، فإن شيرمان على العكس من هذا كان يحاول أن يشتبك فى حرب مع البنية التحتية التى تعتمد عليها قوات الجنوب فى الحصول على ما تحتاج إليه من مؤن وعتاد. وخلال العام التالى، قام شيرمان بتقديم الأدلة التى تؤيد صواب استراتيجيته، وكيف أن سياسة "الأرض المحروقة"[٥] تُعتبر أكثر كفاءة وأكثر أخلاقية لأنها تقلل من الدماء المراقة بلا داع فى معارك شبه متكافئة. ومرة أخرى، فإنه حتى إذا كانت قوات الشمال قادرة على استيعاب الخسائر التى أصيبت بها، فإن قدرة لينكولن على الاستمرار، والفوز بفترة رئاسية ثانية، تصبح شبه معدومة مع استمرار الأنباء السيئة القادمة من ڤيرچينيا. وبالطبع، فإن شيرمان كان قد أكد بوضوح لجرانت على أنه لن يسمح لأجزاء من جيش "چونستون" بالاتجاه شرقاً بهدف الانضمام إلى قوات "روبرت ليي" المدافعة عن ريتشموند. لكن مثل هذا التأكيد المبهم، سمح لشيرمان بحرية واسعة فى الحركة، مكنته من تنفيذ استراتيجيته الخاصة فى القتال.

قبل أن يشرع شيرمان فى التوجه نحو الطريق المؤدى إلى أتلانتا، كان قد ناقش مع جرانت الخطوط العامة التى تحكم الشراكة العظمى بينهما. وطبقاً لما ذكره جرانت نفسه، فإنه كان على شيرمان الاشتباك مع قوات "چونستون" بهدف تفتيتها؛ وأن يتوغل فى أرض الجنوب إلى أبعد حد ممكن ... بهدف حرمانهم من الموارد التى يعتمدون عليها فى تزويد قوات الجنوب بالمؤن والعتاد. ومن الناحية النظرية، فإنه عندما يقوم كلا من جرانت وشيرمان بتنسيق هجماتهم على قوات الخصم لتبدأ فى نفس الوقت؛ فإن كلاً من "روبرت ليي" و"چونستون" سيعجز عن تدعيم زميله بما يحتاج إليه من جند أو مؤن.

وللأسف، فإن هذا هو ما حدث –بالفعل– فى معركة "Chickamauga" خلال أواخر شهر سبتمبر من عام ١٨٦٣م، عندما تمكنت المساعدات الجنوبية (فرقتان كاملتان من جنود الجنوب المزودتان بالمؤن والعتاد، بعد رحلة ٨٠٠ ميل باستخدام السكك الحديدية) من الوصول إلى ميدان المعركة فى الوقت المناسب، لإلحاق الهزيمة بقوات الشمال التى تقاتل هناك. وفى الواقع، فإن جنرال جرانت لم يعط أوامر مباشرة، تُلزم جنرال شيرمان بمهاجمة القوات الكونفيدرالية أو أتلانتا ذاتها. وفيما يبدو، فإن الهدف من الاستراتيجية التى تم إتباعها فى ربيع ١٨٦٤م هو حرمان "روبرت ليي" وقواته من أى مساعدات يمكن أن تقوى موقفه وتسمح له بالاستمرار فى الدفاع عن ريتشموند. وهم قد سعوا إلى تحقيق هذا، من خلال التخريب ونشر الفوضى فى كل الطرق التى تربط بينه وبين الجنوب؛ على طريقة "Gallipoli"*.

وعلى أية حال، فإن هذا هو ما تفهمه شيرمان ... فهو قد تصرف على أساس أن مهمته هى شغل قوات الجنوب، وتدمير بنيته التحتية، مع تجنب الخسارة فى الأرواح؛ خاصة أنه متواجد بكامل قواته فى أعماق أرض الجنوب. لقد كان العامل النفسى الخاص بـــ"تدمير معنويات الخصم" هو هدفه الأساسى الذى سعى إليه خلال تلك الفترة. ومع هذا، فإن شيرمان كان يعلم أن أتلانتا–چورچيا شديدة البعد عن مركز عملياته العسكرية؛ خاصة إذا ما قورنت بالمسافات التى تفصل جرانت عن ريتشموند–ڤيرچينيا. كذلك، وأن استمراره فى التقدم بطريقة مطردة، لن يطمئن عامة الشعب فى الشمال ويضمن لهم أن "النصر الحاسم"؛ قد أصبح قاب قوسين أو أدنى، وأنه قد تم بالفعل وضع حد لكل هذه المذابح الدموية.

---

* "حملة جايبولي Gallipoli Campaign" (٢٥ أبريل ١٩١٥– ٩ يناير ١٩١٦م) هى إحدى معارك الحرب العالمية الأولى القليلة التى خسرها الحلفاء. وقد كانت تهدف إلى فتح ممر للبحر أمام روسيا ... وفشلت. مما يجعلها مثالاً غير موفق من ڤيكتور هانسون؛ خاصة مع كثرة قتلاها من الجانبين. (عادل نجيب)

عندما انطلق شيرمان من ولاية تِينيسي – فى السابع من مايو – بادئاً رحلته نحو النصر المبين؛ فإن هذا كان فى تزامن مع الهجوم الذى قام به جرانت على قوات "روبرت ليي". ومن الناحية الظاهرية، فإن نجاحه بدا وكأنه أمر بعيد الاحتمال؛ على الرغم من أن شيرمان كان لديه ما يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ جُندى (وهى أكبر قوة عسكرية قام بقيادها حتى الآن)، وأن لديه جنرالات موهوبين يمكن الاعتماد عليهم مثل: "George Thomas" (جيش الكمبرلاند)، و"James McPherson" (جيش تِينيسي)، و"John Schofield" (جيش أوهايو). وفى الواقع، فإن هؤلاء القادة كانوا أفضل بكثير من الجنرالات الذين تحت أمرة جرانت. وفى هذا الصدد، فإن غالبية قواته تشكلت من جنود مهرة ومحترفين من ولايات "الغرب الأوسط Midwest"، خاصة المزارعين فى ولايات "Illinois"، و"Indiana"، و"Michigan"، و"Missouri"، "Ohio". وهذه النوعية من المقاتلين، كانوا يروا أنفسهم أكثر تفوقاً من الجنود الذين تم ملء صفوف الجيش بهم. وقد ذكر "Liddell Hart"*، ذات مرة، أن قوات شيرمان كانت مكونة من أفضل الجنود العسكريين الذين شهدهم العالم الحديث حتى ذلك الوقت.

كذلك، فإن جيش شيرمان كان فى وضع أفضل من جيش جرانت، بسبب قدرته على العيش فى معسكرات متنقلة والاعتماد على ما حوله من مزارع وغابات فى الحصول على حاجته من الغذاء؛ وهو الأمر الذى لم تتمكن جيوش جرانت من تحقيقه طوال فترة القتال، لأنها دائماً ما كانت تقاتل على الحدود الفاصلة بين الشمال والجنوب، ولم تدخل أبداً إلى قلب الولايات الكونفيدرالية. وفى هذا الصدد علق "Rice Bull" قائلاً: "لقد كانوا جميعاً يرتدون

---

* هو سير "Liddell Hart" (أكتوبر ١٨٩٥– يناير ١٩٧٠م)، العسكرى الإنجليزى الشهير (المولود فى فرنسا) والذى كان له فضل تطوير الحروب المدرعة، وصاحب "النظرية" التى تعتبر أساساً كل الاستراتيجيات المطبقة حالياً لتخفيض حجم أعداد الضحايا أثناء الهجوم. (عادل نجيب)

القباعات الضخمة بدلاً من غطاء الرأس العسكرى التقليدى؛ وتنقلوا بطريقة غير تقليدية، ولم يكن لهم -حسب زعمهم- أى نمط خاص يلتزمون به، وأهم يصبحون فى غاية الجدية -خلال لحظات قصيرة- عندما يستدعى الأمر هذا. وقد كان الواحد منهم يعبر عن رأيه بطريقة مباشرة، وفظة، ومخالفة لطريقة الجندى الرسمى، والذى عادة ما كان يلتزم بكل الأوامر والنواهى المفروضة على القوات النظامية".

أدرك شـــيرمان، منذ البداية، أنه من الممكن للعدو تعويض قصوره العددى، من خلال اختياره للدفاعات الاستراتيجية المناسبة لطبيعة الأرض وجو المنطقة ... وأهل الجنوب أدرى بشعاب أراضيهم. إن تقديره السليم لإمكانيات العدو، الذى يحارب على أرضه، هو الذى جعل شيرمان لا يغتر بتفوقه العددى؛ والذى لا يعنى -أبداً- أنه قد ضمن النصر. ولعل هذا، هو ما دفع شيرمان لأن يتصرف بحرص أثناء هجومه على العدو. وفى مذكراته، كتب لنا شيرمان ما نصه: "خلال معظم أيام شَهريّ مايو ويونيو، نام الجنود فى خنادقهم، والأمطار الغزيرة تنهمر فوق رؤوسهم، وهو ما تسبب فى حدوث خسائر فى الأرواح، بسبب التعرض لعوامل الجو السيئ، وما ينتج عنه من أمراض. وبالرغم من هذا، فإن المراوغة، ظلت هى الخيار الأفضل؛ وبدلاً من التعرض لنيران العدوِ خلال هجوم مباشر على مواقعه التى أعدها بحرص واحتمى خلف حصونها ومتاريسها".

وفى هذا الصدد، فإن المفاجأة لن تخدم الهدف الذى تسعى إليه شيرمان وقواته؛ لأنه لم يكن هناك أى غموض بشأن الهدف النهائى الذى يسعى إليه شيرمان (مدينة أتلانتا)، ولا بشأن الطرق والممرات التى سيكون عليه سلوكها من أجل الوصول لهذا الهدف. وفى البداية، فإن شيرمان كان يعتمد على المؤن التى تأتيه بواسطة عربات السكة الحديد. أربعة من خطوط السكك الحديدية كانت تلتقى فى مدينة أتلانتا-جورجيا، والتى بلغ عدد سكانها حوالى ٢٠,٠٠٠ نسمة. وفى هذا الصدد، يقول لنا شيرمان: "لقد بدأت أدرك أننى كنت أحارب

أتلانتا منذ البداية، وأن هذه المدينة قد قدمت بالفعل (لقوات الجنوب) خدمات أكثر بكثير من الخدمات التى يمكن لريتشموند أن تقدمها. فكل البنادق والأسلحة التى تم الاستيلاء عليها كانت تحمل علامات أتلانتا، كما أن هذه المدينة كانت مركزاً للسكك الحديدية المتجهة إلى الجنوب، وأحد أكبر الأماكن المنتجة للذخيرة، والبوابة الرئيسية المؤدية إلى ساحل المحيط الأطلنطى، وساحل الخليج، وما بهما من موانئ" لقد كتب شيرمان رسالة إلى جرانت ذكر له فيها: "إذا ما وصلت قوات "چونستون" إلى ما وراء الـ"Chattahoochee"، فإننى سأتظاهر بالتوجه نحو اليمين. لكنى سأتجه – فى الحقيقة – إلى اليسار وأهاجم أتلانتا أو خطوط اتصالها بالشرق، طبقاً لما أرى من حقائق الأمور فى الواقع".

وبالإضافة إلى مخاطر الجو السيئ، والأرض الموحلة، والتضاريس الأرضية المناوئة، وغيرها من العوامل التى عادة ما تكون إلى جانب القوات المدافعة (قوات الجنوب)، فإنه كان على شيرمان أن يواجه جيشاً ثانياً تحت قيادة مجموعة من الجنوبيين الأكْفاء من الكونفيدراليين الموجودين تحت إمرة "چونستون". وقد كان لدى هذا الأخير ما يزيد عن ٦٠,٠٠٠ جندى، كما أنه كان ماهراً فى استخدام تقنيات الدفاع "الفابية Fabian". والتى تقضى باستنزاف الخصم، دون الدخول معه فى أى معارك حاسمة. وفى هذا الصدد، فإن القادة الموجودين تحت إمرة "چونستون" كانوا أكثر خبرة بمراحل، من القيادة العليا المتوفرة لدى شيرمان.

من الناحية النظرية، كان من الممكن لـ"چونستون" الاعتماد على أن خطوط إمداده ستزداد قصراً، وأنه سيتمكن من الحصول على مساعدات قيمة من سكان الأرض المحيطة به. كذلك، فإنه من الممكن لتحصينات أتلانتا الصمود فى وجه حصار الجيوش التابعة لشيرمان؛ بينما تكون الجيوش التابعة لـ"چونستون" لا تزال بكامل عدتها وعتادها قادرة على الحركة والمناورة عند مؤخرة جيش شيرمان ... وهو ما سيلحق الكثير من الخسائر به ويخفف من الضغوط الموضوعة على المدينة المحاصرة. وعلى العكس من هذا، فإن كل تقدم أحرزه شيرمان

–نحو أتلانتا– جعل خطوط إمداده تزداد طولاً. كذلك، فإنه أصبح هناك حاجة متزايدة لوجود مراكز لتجمع القوات، و"حاميات Garrisons" للأرض التي يتم احتلالها. وقد ذكر لنا شيرمان: "أنا مدرك تماماً أن ترك "حامية" يضعف قواتي بنفس الدرجة التي تزداد بها قوة خصمي، لأنه يقوم بتجميع الحاميات –التي تركها فيما سبق– خلال تقهقره".

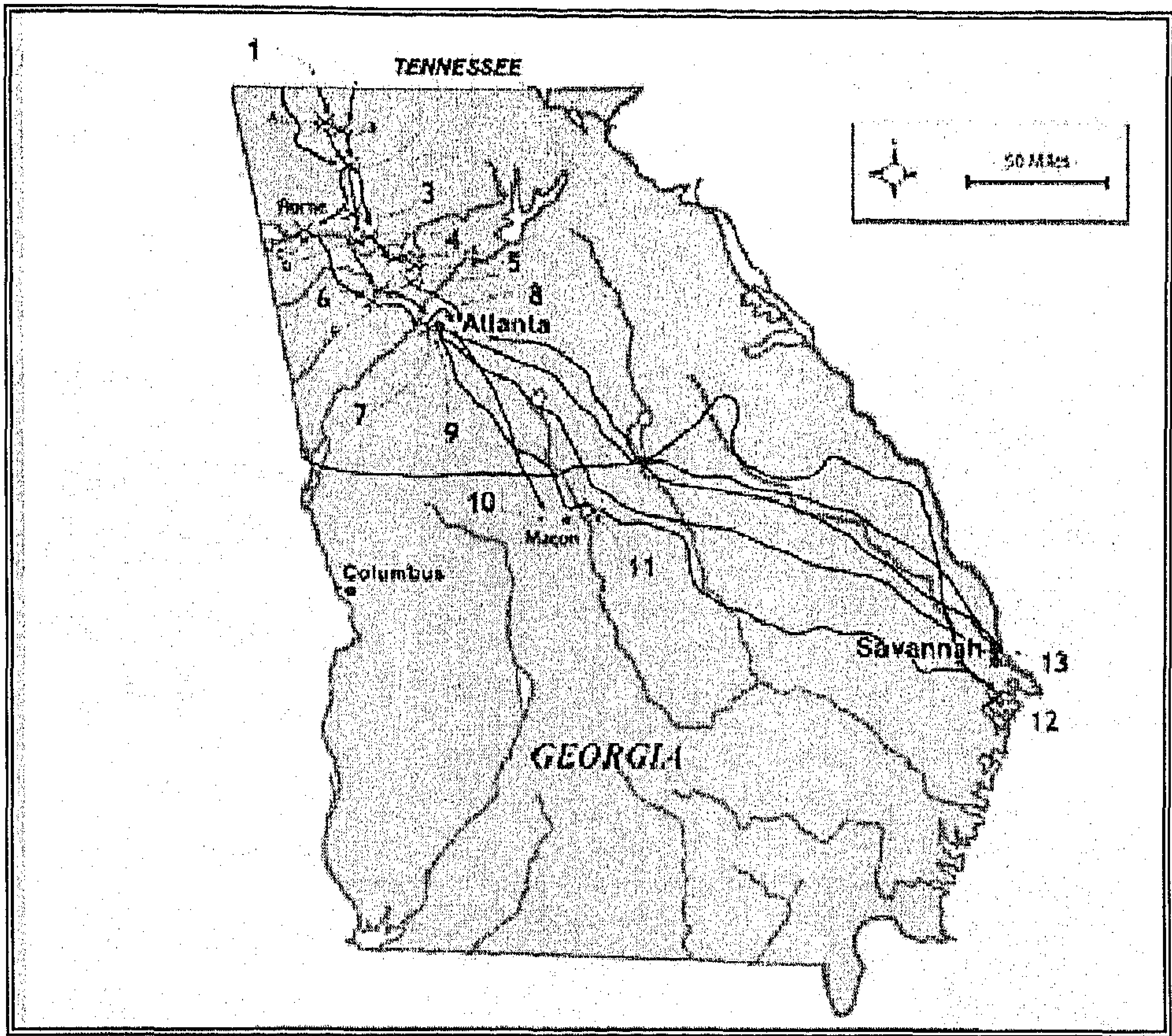
وفى النهاية، تمكن شيرمان من الحصول على ما يحتاج إليه من غذاء وعلف من المستودعات الفيدرالية الموجودة فى ناشــڤيل–تِينســـي. بالنسبة لطريقة شيرمان فى التفكير، من المحتمل إنه كان يعتقد بعدم قدرته على منع القوات الكونفيدرالية، التى تلاحق مؤخرة جيشه، من مهاجمة الإمدادات التى تصله عن طريق السكة الحديد. ولهذا كان لديه مهندسين ومعدات قادرة على إصلاح ما يتم تدميره من خطوط السكك الحديدية، بمجرد معرفته بأنها قد تضررت من هجمات خصومه. وقد جعلته هذه النوعية من الاستعدادات أفضل قائد على الإطلاق – من كِلا الجانبين – من حيث عنايته بكل التفاصيل اللوجيستية لما يجرى من حوله؛ والتنبؤ بما ستحتاج إليه قواته خلال تقدمها المعيارى نحو هدفها (مدينة أتلانتا). ومن كل هذا، يمكننا رؤية أن ما قام به شيرمان من اصطحابه لحوالى ٤٠,٠٠٠ بغل وحصان، و٦٠,٠٠٠ مستسفى ميدانى وعربات للنقل، يعتبر بعد نظر من جانبه. وهو الذى مكنه من أن يحارب بثقة بعيداً عن خطوط السكك الحديدية لفترات وصلت إلى عدة أسابيع فى بعض الأحيان.

الطريق الطويل الشــاق (يونيو ١٨٦٤م)

فى السابع من شهر مايو، قام شيرمان بتحريك جيشه الكبير نحو دالتون–چورچيا، حيث يوجد المركز الذى يستخدمه "چونستون" فى إدارة عملياته العسكرية. وخلال الفترة من ٧ من مايو– الثانى من سبتمبر كانت تحركاته نحو الجنوب شديدة البطء؛ حتى أنها لم تتجاوز ميلاً

واحداً فقط كل يوم، ولفترة زادت عن أربعة شهور. وبرغم كل المناورات التى اتبعها، فإنه لم يضطر إلى تغيير اتجاهه الأساسى نحو الجنوب، ولم يتوقف عن الحركة أبداً. وتتلخص طريقته فى التقدم، فى أن يجعل ثلاثة من جيوشه تتقدم نحو الجنوب، من اتجاهات مختلفة، مهددة قوات "چونستون" بإمكانية تطويقها. فى البداية، كانت قوات الاتحاد قلقة من احتمال قيام القوات الكونفيدرالية بهجوم استباقى من دالتون وحتى تِينسي. وبالفعل، كان "چونستون"، فى أواخر الربيع، قد زود جيش تِينسي ونظمه ليجعل منه قوة فعالة، يمكن استخدامها فى القتال خارج حدود مدينة جورجيا. لكن الجنوب كان يفتقر إلى كثير من الإمدادات اللوجيستية اللازمة للسماح بتحريك أعداد كبيرة من القوات بعيداً عن مصادر تموينها الأساسية. وبالطبع، كان "چونستون" يعرف أنه لا يستطيع تحمل المخاطرة بأن تنقطع خطوط إمداده الواصلة بينه وبين الجنوب؛ لتتركه معزولاً فى المناطق الشمالية القريبة من أتلانتا.

وبالرغم من أن "چونستون" قام بتحصين دالتون لمدة ستة شهور؛ إلا أنه شعر – خلال الفترة التى تقدمت فيها جيوش شيرمان الثلاثة بالقرب من دالتون– بعدم قدرته على الاحتفاظ بها لفترة طويلة. وبالفعل، عندما تزايد اقتراب جيوش شيرمان، قام "چونستون" بالانسحاب منها – دون قتال– وتراجع نحو "رساكا Resaca". وقد كانت هذه الحركة من جانبه ذات أهمية قصوى. لقد أظهر "چونستون" من البداية، عدم مقدرته على التعامل بفاعلية مع التقنية التى اتبعها شيرمان فى التحرك بطريقة غير متوقعة وبصورة مفاجئة من مكان لآخر. وبالفعل فإن قدرة جيوش شيرمان الضخمة على الحركة بصورة مستقلة بعيداً عن خطوط السكك الحديدية، والتوغل إلى أعماق بعيدة فى أرض العدو، أجهض كل المناورات التى قام بها المدافعون من قوات الجنوب.



الأحداث والمعارك الرئيسية التى وقعت فى ولاية جورجيا والمناطق المحيطة بها.

بدأت المرحلة التالية يوم ١٣ مايو، عندما حاولت قوات شيرمان –دون جدوى– القضاء على ما يمكن العثور عليه من بقايا جيش "چونستون"؛ والذى سارع بالتدفق إلى داخل "رِساكا"، فى أول اشتباك من حوالى ١٥ اشتباكاً متوالياً سوف تحدث فى المستقبل القريب. وتضافرت عدة عوامل لتمكن قوات "چونستون" من الدفاع بنجاح عن نفسها خارج "رِساكا"، منها اضطرار شيرمان لقيادة وتحريك ثلاثة جيوش فى نفس الوقت، وكثافة الأشجار

والخضرة ووعورة الأرض، وبراعة القوات الكونفيدرالية فى استغلال كل هذا ضد شيرمان. هناك، حدثت الاشتباكات الأساسية خلال الفترة من ١٣- ١٥ من مايو. وإذا كانت القوات الشمالية الغافلة قد تعثرت فى خنادق وتحصينات الكونفيدراليين، عندما افترضوا أن "چونستون" لا يزال منهمكاً فى تنفيذ التراجع؛ فإنهم تصرفوا بطريقة غير مناسبة، ولم يلاحقوا بحماسة قوات الجنوب المنسحبة.

وفيما يبدو، فإن شيرمان -والذى عادة ما كان حاداً ومشاكساً فى تصرفاته- كان مقتنعاً، تمام الاقتناع، بأن قوات الطرفين تكاد تكون متكافئة؛ مما سيجعلهما يشتبكان فى نفس النمط الدموى العقيم الذى تكرر مراراً فى الشمال بين قوات "جرانت" و"روبرت ليي". أما الحقيقة، فهى أن القوات الكونفيدرالية كانت منهمكة فى إخلاء "رِساكا"؛ وهو ما جعلها ضعيفة وغير قادرة على الدفاع إذا كان قد تم مهاجمتها. وفى هذا الخصوص، فإن جنرالات شيرمان كانوا مدركين إلى أنه قد تم التخطيط -فى المستقبل القريب- للاشتباك فى قتال ضارى، إلا أنهم كانوا قلقين بشأن مكان وزمان هذه المعركة المزمعة. وقد يكون هذا، هو السبب فى أنهم سمحوا لقوات "چونستون" بالهروب. وبخلاف ما هو معتاد من شيرمان، فإنه وجه اللوم إلى جنرال "ماكفرسون McPherson" وحمله مسئولية التخاذل فى مطاردة القوات المنسحبة. وقد كتب لنا شيرمان فى مذكراته: "إن فرصة مثل هذه، لا يمكن أن تتكرر مرتين خلال حياة الفرد. لكن "ماكفرسون" كان حذراً أكثر من اللازم، ولم يطاردهم بحماسة كافية". وفى أوقات أخرى، كان يلوم كُلا من "ماكفرسون" و"توماس"، معتقداً أنه كان من الواجب عليهما استخدام جناحي الجيش فى الإحاطة بالقوات المنسحبة وتدميرها؛ بدلا مما فعلوه (مجرد دفعها بعيداً، وهو ما زاد فى سرعة انسحابهم). وفى هذا الصدد، فإن شكوى شيرمان المريرة، لم تكن نابعة من غروره، وإنما عبرت عن شعوره بالإحباط وخيبة الأمل لأن مثل هذه الفرصة

العظيمة قد أفلتت منه؛ وأن جنرالاته مازالوا –حتى الآن– عاجزين عن تفهم حقيقة مقاصده، وأسلوبه فى التفكير، بالسرعة الكافية.

مع حلول ليلة ١٥ مايو، تمكنت القوات الكونفيدرالية من إلحاق خسائر ثقيلة بقوات الشمال رغم تفوق الأخيرة عليهم فى العدة والعتاد (قُدر عدد ضحايا قوات الشمال بحوالى ٤,٠٠٠ جندى، بينما كان عدد ضحايا قوات الجنوب لا يزيد عن ٣,٠٠٠ جندى فقط). لكن حقيقة الأمر، هى أن خسارة "چونستون" لـــ٣,٠٠٠ جندى قد أثرت فيه بما لا يمكن تعويضه؛ بينما خسارة "شيرمان" تم تعويضها بطريقة أوتوماتيكية من خلال استمرار تدفق المتطوعين القادمين إليه من التعزيزات المخصصة لجيوشه.

إذا كان شيرمان قد أضاع فرصة تدمير الجناح الأيمن لجيوش "چونستون" خلال انسحاب هذا الأخير نحو "رِساكا"، فإنه قد تمكن – بمهارة– من عبور نهر "Oostanaula" ... وهو ما يعتبر نصراً استراتيجياً هاماً فى حد ذاته. هذه الحركة ضمنت أن القوات الكونفيدرالية أصبحت مجبرة على المزيد من التراجع نحو الجنوب، أو المخاطرة بأن يتمكن جيش الشمال من اختراق صفوفهم والوصول إلى ما لديهم من مؤن وإمدادات. وعلينا تذكر أنه أمر غير ذى أهمية أن يتمكن "چونستون" من الادعاء بأنه كان يحاول منع وصول المزيد من التعزيزات إلى "جرانت" عن طريق جذب "شيرمان" نحوه، وإبعاده عن المؤن الخاصة بشيرمان فى تِينسي، بينما يتقدم جيش ضخم متزايد العدد نحو أتلانتا فى وضع لا يمكنه من إيقافهم، حتى إذا كان قد عقد العزم على هذا. وهكذا، فإن الخطر الأساسى الذى أصبح يتهدد الجنوب الآن، لم يعد خسارة ريتشموند، وإنما الخطر المحدق بأتلانتا.

بعد الاشتباك الأول الذى حدث فى "رِساكا"، لم يحاول "چونستون" القيام بهجمة مضادة على قوات الشمال، كما أنه لم يتجه غرباً (داخل أراضى الاباما) ليتمكن من مهاجمة مؤخرة

جيش شيرمان. وقد حدث هذا، لأن كلا منهما (شيرمان وچونستون) كان يعتقد بأن التحركات البطيئة لجيوش الشمال (ميل واحد كل يوم كما سبق وأن ذكرنا) نحو چورچيا سوف تثبت صحة الاستراتيجية التى يتبعها.

لقد تعشم چونستون أن ما حدث مع جرانت سوف يتكرر هنا مرة أخرى، وأن جيوش شيرمان لن تتمكن من تحقيق ما هو أكثر من الاقتراب من أتلانتا؛ وأنها ستعجز عن دخول المدينة كما حدث مع جرانت. لكن مع نهاية شهر مايو، أصبح من الواضح أن استراتيجية شيرمان هى الاستراتيجية الصحيحة الوحيدة التى ستحقق أهدافها. وهكذا، فإن ادعاء چونستون، بأنه هو السبب فى إعاقة تقدم جيوش شيرمان؛ وأن هذا سيؤدى – فى شهر نوفمبر– لأن يكون ماكليلان هو الفائز بالانتخابات، لم يجد ما يبرره فى النهاية. وفى الواقع، فإنه كلما تم توجيه اللوم لشيرمان بسبب إضاعته للفرص المتاحة لتدمير أجزاء من جيش چونستون، كلما تزايد اقتراب جيش شيرمان من أتلانتا دون أن يلحق بها الكثير من الخسائر، وكلما تزايد التفاف جنوده من حوله وإيمانهم بعبقريته. إن الوضع ببساطة، هو أنه لم يكن هناك مساحات كافية من الأرض بين قوات شيرمان ومدينة أتلانتا بحيث تضمن أنه لن يصل إلى هناك قبل "انتخابات نوفمبر". وباختصار، فإن شيرمان كان يتفادى وقوع أى معركة حاسمة يكون فيها النصر محتملاً، بينما چونستون كان يدفع دفعاً إلى الاشتباك فى معركة من المؤكد خسارتها. إن مأساة چونستون، هى أنه كان يعرف الكيفية التى يمكن بها التعامل مع جنرال مثل "جرانت" وإعاقة تقدمه؛ لكنه لم يكن يدرى أى شيء عن كيفية التعامل مع الكيفية التى كان يفكر بها شيرمان.

الخطوة التالية التى اتخذها چونستون، حدثت فى ١٧ من مايو، عندما قرر إعاقة تقدم شيرمان عند "Adairsville". هناك، تجمع ما لا يقل عن ثلاث فرق للاشتباك معه فى حرب جماعية. وسرعان ما اكتشف چونستون أن طبيعة الأرض غير مناسبة تماماً للاشتباك مع قوات

تتفوق عليه فى العدد؛ وأنه من الصعوبة بمكان الدفاع عن مواقعه فى تلك البقعة من الأرض. ولهذا، قرر الانسحاب مرة أخرى. وبدأ الجميع يتساءل فى عجب –خاصة داخل أتلانتا– عن نهاية كل هذه المناورات ... ومكان وزمان المعركة الحاسمة؟

البقعة التالية من الأرض التى تخير چونستون الدفاع عنها، كانت "Cassville" على مبعدة بضعة أميال من جنوب المكان الأول. لقد كان رأى چونستون هو أن المكان هنا، مناسب جداً للإيقاع بشيرمان والاشتباك معه فى معركة حاسمة على أرض لا يعرفها، وبعيداً عن خطوط تموينه. وحتى بعد مرور أسبوعين على المناوشات والقتال مع قوات الشمال، فإن چونستون كان لا يزال لديه ما يزيد عن ٧٠,٠٠٠ جندى تحت إمرته. وتمكنت قوات الجنوب، فى يوم ١٩ من مايو –خلال المناوشات الأولية– من إلحاق خسائر ثقيلة بجنود شيرمان. لكن خوف چونستون من أن يتم تطويقه ومهاجمته من كل جانب، جعله يوقف هذه الاشتباكات وينسحب مرة أخرى حتى وصل إلى الضفة الأخرى من نهر "Etowah"؛ متوجهاً نحو نقطة الدفاع التالية عند نهر "Chattahoochee".

فى كل مرة شعر فيها چونستون بأنه قد تمكن من الإيقاع بأحد جيوش شيرمان، كان الخوف يملؤه من أن الجيشين الآخرين قد تمكنا من الإحاطة به أو التسلل إلى الخلف من مؤخرة جيشه. وفى هذا الصدد، فإن مجال المناورات (المساحات المفتوحة أمامه للحركة) كان يتزايد أمام جيش شيرمان كلما اقتربت قواته من أتلانتا. كذلك، فإن الطبيعة الثلاثية لقوات شيرمان –خاصة جوانبه الواسعة– وقدرته على التواصل الجيد معها –خاصة الأجنحة– جعل من المستحيل على قوات أقل عدداً (جيش چونستون) الاشتباك معه فى المكان الذى تتخيره.

فى البداية، سامحت حكومة الجنوب، وعامة الشعب، چونستون بسبب انسحابه المتكرر من "دالتون" و"رِساكا". وافترض أهل چورچيا وجود حاجة ملحة دعته للانسحاب فى كل مرة، وتجنب الدخول فى المعركة الحاسمة ... التى طال انتظار الجميع لها. ولم تتأثر معنويات الجيش فى

البداية بسبب الانسحاب، خاصة أن شيرمان كان لا يزال أقرب إلى تِينسي منه إلى أتلانتا. لكن چونستون كان قد وعد بإيقاف جيوش الشمال عند خط "Adairsville"، وهو وعد لم يتمكن من الحفاظ عليه؛ وظل يتراجع –فى فترة لم تتجاوز الشهر– حتى تمكنت قوات شيرمان من قطع ما يزيد عن نصف المسافة إلى أتلانتا. وها هو الآن، يكاد لا يبعد ٥٠ ميلاً عن المدينة، وما زال أمامه خمسة شهور، أو أكثر قليلاً، ليصل إليها. ومن الواضح أنها فترة زمنية أطول بكثير مما يحتاج إليه شيرمان فى الواقع.

خلال الشهر التالي، أصبح النمط واضحاً ومتوقعاً. فإن كل ما كان يحدث بينهما، هو مجرد مناوشات فوق مساحات شاسعة من الأرض؛ ولم تقع المعركة الحاسمة التى ظل الجميع ينتظرها. كانت كل مناورات شيرمان تهدف إلى الإحاطة بقوات چونستون، وتطويقها؛ بغرض إجباره على الانسحاب ... وبدون أن يكون هو نفسه مجبراً على مهاجمة نقاط حصينة لقوات تحارب من خلف متاريس أو خنادق. أما چونستون، فإنه ظل يحاول الاشتباك مع قوات الغزاة، فى محاولة منه لإنهاكهم واستنزاف ما لديهم من مؤن وعتاد ... قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى أتلانتا. لكن هذه الاستراتيجية فشلت فى تحقيق أهدافها، لأن شيرمان استمر فى الاقتراب من أتلانتا؛ كما أنه تمكن من الاستغناء عن المؤن المنقولة بالسكك الحديدية؛ والتعيش من خيرات الأرض المحيطة به. ومن الناحية العملية، تلاشت فرص چونستون؛ وبدا الأمر وكأنه من الصعب إنجاح استراتيجيته. وبالرغم من كل هذا، لم يكتب للمعركة الحاسمة أن تتحقق أبداً، وبالرغم من اشتباك الطرفين فى سلسلة طويلة من المعارك الصغيرة خلال الأيام الأخيرة من مايو وطوال شهر يونيو.

فى هذا الصدد، فإن محاولات چونستون لمقارنة وضعه مع الوضع الجارى بين "جرانت" و"روبرت ليي"، لم تعد صالحة للتطبيق. فقد كان جرانت خارج ريتشموند بالفعل؛ ومع هذا

وجد من المستحيل عليه اجتياح المدينة واحتلالها. أما شيرمان، فبالرغم من بعده عن أتلانتا، إلا أنه كان يتقدم نحوها بثبات؛ وبطريقة توحي باستحالة الوقوف في وجهه.

وقعت المعركة الدموية التالية، بالقرب من "New Hope Church" في يوم ٢٥ من مايو عام ١٨٦٤م، عندما أعطى شيرمان أوامره بالهجوم على الخطوط الأمامية من قوات جونستون؛ معتقداً أنها في حالة تراجع. قائد القوات المهاجمة "Hooker"، معروف عنه جرأته الزائدة خلال الهجوم، وهو ما مكن قوات الجنوب من رده على أعقابه، بعد أن عانى من خسائر فادحة في الأرواح والعتاد. وخلال اليومين التاليين، عانت قوات الشمال من خسائر غير معتادة في الأرواح، وصلت إلى عشرة أضعاف ما فقده جونستون من خسائر في الأرواح. على الرغم من هذا، فإن جونستون هو الذى تراجع وترك مواقعه في "New Hope Church".

وفي يوم ٢٧ من مايو اشتبك الجيشان، مرة أخرى، عند "Pickett's Mill" حيث تعرض جيش الشمال لهزيمة أخرى فقد خلالها أعداداً كبيرة من الضحايا. حتى الآن، تمكن جونستون من استنزاف قوات خصمه؛ عندما تسبب له في خسائر تزيد عن ١,٦٠٠ جندى، بينما لم يخسر هو إلا حوالى ٥٠٠ جندى فقط. وتكرر السيناريو السابق مرة أخرى، عندما تراجعت قوات جونستون وتخلت عن مواقعها. في اليوم التالى، اشتبك الجيشان عند "دالاس Dallas"- جورجيا، وتكرر ما حدث من قبل؛ لأن جيوش الشمال فقدت ما بين ١,٠٠٠- ١,٥٠٠ جندى في هجمات عقيمة، لم يكن هناك أى داعى لها، تمت ضد قوات الجنوب المتحصنة في خنادقها. لكن تقنية الانسحاب التكيكى واستتراف القوات، لم يؤديا إلى إحباط شيرمان أو إعاقة تقدمه. كل هذا، وضع ضغوطاً كبيرة على جونستون لكى يعثر على استراتيجية مناسبة يمكن بها مواجهة شيرمان؛ خاصة أن "روبرت ليي" قد عثر على طريقة تمكنه من رد "جرانت" وحماية ريتشموند. وإذا كان كلا منهما قد عجز عن تحطيم الآخر والقضاء عليه، فإن قوات شيرمان قد نجحت في تقليص المسافة بينها وبين أتلانتا. أما على الجبهة الأخرى، فإن جرانت

قد فقد ٤٠,٠٠٠ جندى؛ وهو الآن يكاد أن يكون قد فقد، تماماً، فاعلية جيشه الموجود فى "Cold Harbor". وعندما وصلت هذه الأنباء إلى چونستون، ازدادت جرأته، وتعشم أن يتمكن من أن يلحق بشيرمان المصير ذاته.

كل هذه الأنباء السيئة، دفعت أحد المستقلين لنزول الانتخابات فى نهاية شهر مايو عن الحزب الديمقراطى. هذا الطامح الجديد فى منصب الرئاسة هو "John Fremont"، كان يتعشم أن يجبر الجمهوريين على التخلى عن لينكولن، وتبنى مرشح آخر أكثر قوة وإيماناً بقضية إلغاء الرقيق. وأصبح الأمل الوحيد فى إنقاذ لينكولن، هو تحقيق "نصر نوعى" فى غابات جورجيا.

التكتيكات الفابية (يوليو ١٨٦٤م)

بعد مرور عدة أسابيع من الانسحاب المستمر، بدأ چونستون يجنى المزايا الطبيعية لوجوده داخل أراضيه وبين سكان ومواطنين مؤيدين له. وخلال بداية شهر يونيو -وبعد أن تم، بالفعل، إعادة ترشيح "إبراهام لينكولن"، خلال الاجتماع الذى عقده الحزب الجمهورى- بدأت المناورات بين چونستون وشيرمان لاحتلال أفضل موقع يمكّن كِلا الطرفين من تحقيق أهدافه. وحدث الاشتباك التالى بينهما يوم ٩ من يوليو بالقرب من "Marietta". وخلال المناوشات الأولية فشل شيرمان فى الإحاطة بقوات چونستون؛ خاصة بعد أن تمكن جنوده من تحصين مواقعهم. وعزز من موقف القوات الكونفيدرالية أن الأرض التى كانوا يدافعون عنها، ("Kennesaw Mountain")، كانت أكثر ارتفاعاً من أراضى الخصم. وبالرغم من عجز شيرمان عن تطويق چونستون وقطع اتصالاته بخطوط السكك الحديدية؛ إلا انه تمكن من إجباره على الانسحاب، وتعديل خطوطه مرة أخرى، بعد المناوشات التى وقعت فى يوم ٢٢يوليو ١٨٦٤م.

الخطوة التالية، تعتبر تطوراً غير متوقع، يحدث لأول مرة خلال الحرب؛ فلقد غير شيرمان من استراتيجيته التى اعتاد عليها من محاولة تطويق خصمه، وقرر مهاجمة القوات الكونفيدرالية فى خنادقها المحصنة عند "Kennesaw Mountain". لكن هذه الخطوة غير الحكيمة أدت إلى إراقة دماء جنوده بطريقة لم تحدث من قبل، منذ الخسائر التى لحقت بجيش الشمال فى "Shiloh". وفيما بعد، زعم شيرمان أنه كان من الضرورى القيام بهذا الهجوم، حتى يتأكد من قدرات قواته المقاتلة على التنقل. لكن الحقيقة هى أن هزيمة شيرمان فى هذه المعركة تسببت فى خسارة جيش الشمال لـــ ٣,٠٠٠ جندى، وأنه لم يكن هناك أى حاجة فعلية للدخول فى مثل هذا الاشتباك العقيم، والذى تم التخطيط له دون تفكير أو روية. انتهت هذه المعركة خلال أربع أو خمس ساعات على أكثر تقدير، بعد أن تم حصد جنود الشمال كما لو كانوا مجرد نباتات جافة لا تملك الدفاع عن نفسها.

وبالطبع، كان چونستون سعيداً بهذه النتيجة التى كان يأمل فى تكرارها المرة تلو الأخرى. لكنه كان لا يزال عليه مواجهة حقائق الموقف كما هى فى الواقع. فبالرغم من كل الخسائر التى لحقت بشيرمان، والطقس السيئ، وفيضان الأنهار، والأراضى والطرق الموحلة، وانتشار الأمراض، إلا أنه كان لا يزال يملك جيشاً أكبر بكثير من جيشه ... كل هذا إلى جانب أن معنويات جيش الشمال كانت أفضل بكثير من معنويات المدافعين عن الجنوب. كذلك، فإن الدرس الذى تلقاه شيرمان من هذه الخسارة، جعله لا يأمر بهجوم مماثل مرة أخرى. وكان ما حدث فى "Kennesaw Mountain" هو أول وأخر خطأ ارتكبه شيرمان فى چورچيا. وبالفعل، فإن شيرمان سرعان ما التزم باستراتيجيته القديمة التى تقضى بتطويق الخصم وإجباره على التراجع، والتى نجحت –حتى الآن– فى أن تمكنه من قطع ما يزيد عن نصف الطريق المؤدى إلى أتلانتا، وبدون أى خسائر تذكر. وفى هذا الصدد، فإن شيرمان تعلم من أخطائه بطريقة

أسرع وفاقت غيره من قواد الشمال الذين كان الواحد منهم يصر –المرة تلو الأخرى– على استخدام نفس الاستراتيجية التى ثبت فشلها فيما سبق.

ظهرت نتيجة كل هذا يوم ٥ من يوليو عام ١٨٦٤م، فبالرغم من سوء الأحوال الجوية، والهزيمة التى لحقت به فى "Kennesaw Mountain"، إلا أن شيرمان أصبح على ضفاف نهر "Chattahoochee"، أى أنه أصبح على مسافة ٩ أميال من أتلانتا. اتخذ شيرمان استعداداته لعبور ضفة النهر، ونقل ما يحتاج إليه من مؤن وعتاد نحو الضفة الأخرى من النهر. فى البداية، تلخصت خطط شيرمان فى حصار أتلانتا من الشرق والغرب فى نفس الوقت، وقطع خطوط اتصالها بالسكك الحديدية، وبعدها يمكن إجبار أهل المدينة على الاختيار بين الاستسلام أو الموت جوعاً. لكن المشكلة التى واجهته، هى وجود ما يقرب من ٦٠,٠٠٠ جندى كونفيدرالي يفصلون بينه وبين المدينة. كذلك، فإنه لم يسبق لأى جنرال من الشمال احتلال مدينة بحجم أتلانتا؛ وبالتالى فإنه لم يكن لديه أدنى فكرة عما يمكن القيام به بعد الاستيلاء على المدينة.

أسعدت هذه الأنباء المفرحة كثيرين من عامة الشعب فى الشمال، وأزالت بعض المرارة الموجودة فى حلوقهم من الأخبار السيئة التى توالت عليهم بلا انقطاع لفترة طويلة. وفى هذا الخصوص، يقول لنا الخبير الاستراتيجى "Liddell Hart": لقد تلخص نجاح شيرمان فى استمرار قدرته على الدفع بــ"جونستون" إلى الوراء، باستمرار وبمعدل ثابت. وهذا، دمر معنويات قوات الجنوب، ورفع من الروح المعنوية لأهل الشمال فى ظل الانتخابات الرئاسية المتوقعة قريباً. وهذا يذكرنا بأن النصر يتم إحرازه من خلال الحملات الإعلامية، بنفس القدر الذى يتم إحرازه من خلال تدمير قوات العدو على أرض المعركة. إن استمرار شيرمان فى الاقتراب من أتلانتا، يدل على نجاحه فى التمسك بهدفه الأساسى الذى سيمكنه من إحراز النصر.

ترقية هود (يوليو - أغسطس ١٨٦٤م)

فى يوم ١٧ من يوليو من عام ١٨٦٤م، تم اتخاذ خطوة هامة، ساعدت فى تحديد مصير الحملة العسكرية على أتلانتا. فلقد قام رئيس الحكومة الكونفيدرالية ("چيفرسون دافيز Jefferson Davis") بإقالة چونستون من قيادة جيش تِينسي، ووضع محله "چان هود John Hood" المتقد الحماسة. لقد ظن "دافيز" أن استراتيجية چونستون لم تكن ملائمة لردع شيرمان وإبعاده عن أتلانتا، وأنه لم يعد هناك أى مساحة لارتكاب المزيد من الأخطاء فى هذا الخصوص. وأياً كان رأى القارئ فى هذا القرار، فإن "هود" يعتبر قائداً كفئاً ولا غبار عليه بأى معيار. خلال تلك الفترة، أصبح هود فى الثالثة والثلاثين من عمره، وقد تمتع خلال تاريخه العسكرى بسمعة جيدة بسبب قيادته للهجمات التى تم شنها خلال حملة شبه الجزيرة عام ١٨٦٢م. وعندما وصل إلى رتبة "قائد فرقة" عانى من إصابة فى ذراعه الأيسر أفقدته القدرة على استخدام هذا الذراع. وفى معركة أخرى، فى سبتمبر ١٨٦٣م، فقد ساقه اليمنى. وبعد أقل من عام، حصل على ترقية، وأصبح أحد القادة المفضلين لدى الرئيس الكونفيدرالي "چيفرسون دافيز". ومثله مثل چونستون، كان "هود" يسعى إلى الاشتباك فى تلك المعركة الحاسمة التى ستحدد من سيكون الفائز فى هذه الحرب الدموية الطويلة. وبعد انتشار الشائعات بأن چونستون قد أصبح متردداً وفقد تحفزه، بسبب تعافيه البطيء من الإصابات التى عانى منها فى ڤيرچينيا، منذ عامين. وعلى العكس تماماً من هذا، فإن الإصابات التى عانى منها "هود" جعلته أكثر تصميماً على العودة لقتال جيش الشمال. وفى هذا الصدد، فإن الفارق العمرى بين الرجلين كان له أكبر تأثير على حماسة كلا منهما ("هود" عمره ٣٣ سنة، و "چونستون" فى السابعة والخمسين من عمره).

بالرغم من هذا الاقتراب الخطير لجيوش شيرمان، وحتى أنها أصبحت على مسافة تقل عن ١٠ أميال من أتلانتا، فإن تغيير القائد الأعلى لجيش الجنوب لم يكن التغيير المناسب الذى يصلح لإيقاف تقدم شيرمان الرهيب نحو هذه المدينة. فبالرغم من صلابة القائد الجديد (هود) -كان فى حاجة إلى ثلاثة رجال على الأقل ليعاونوه على اعتلاء حصانه- إلا أنه تسبب فى حدوث خسائر فادحة للقوات التى كانت تحت إمرته. فهو قد خسر أعداداً تتراوح ما بين ثلث ونصف قواته فى كل معركة من المعارك التى اشترك فيها مؤخراً. وفى هذا الخصوص، فإن عديداً من القادة الموجودين تحت إمرة شيرمان -خاصة أولئك الذين يعرفون شخصية هود من خلال زمالتهم له فى كلية ويست بوينت العسكرية- كانوا متحمسين لملاقاته بعد أن تولى قيادة جيوش الجنوب.

أما بالنسبة لجونستون، فإنه جعل مميزات قيادته معروفة للجميع، وأوضح أنه كان -بالتأكيد- أفضل من "روبرت ليي" فى قتاله ضد "جرانت"، وأنه عانى من خسائر أقل فى الأفراد بالرغم من أن حجم جيشه كان أصغر نسبياً من حجم الجيش الموجود تحت إمرة "روبرت ليي". وهناك نقاط أخرى، من الممكن أن تقال دفاعاً عن جونستون، فهو الذى أجبر شيرمان على التقدم ببطء أكثر مما كان مخططاً له. متعشماً أن يتمكن من تكرار القيام بما فعله نظيره أمام مدينة ريتشموند. فمن وجهة نظر جونستون، فإنه كان يعد جيشه للدخول فى حرب استنزاف طويلة يتم فيها القتال من خلف التحصينات الموجودة أمام أتلانتا؛ وأن هذه هى الطريقة الوحيدة لتدمير جيش شيرمان المتفوق على جيشه من حيث العدد والعتاد ... مثلما فعل نظيره مع جيش جرانت أمام مدينة ريتشموند. ولهذا، شعر جونستون بأنه لم يكن من المناسب تغيير الاستراتيجية التى اتبعها قبل أن تؤتى ثمارها.

وفيما بعد، علق "هود" على مسألة تعيينه فى القيادة قائلاً: "هل كانت استراتيجية جونستون هى التراجع المستمر حتى تنهار معنويات الجيش"؟ وعلى أية حال فإن المشكلة

الملحة التى كان على "هود" مواجهتها لم تكن معنويات الجيش المنهارة، ولا حتى رفض البعض للطريقة المفاجئة التى تم بها التخلص من چونستون، وإنما العثور على استراتيجية أفضل يمكن بواسطتها إنقاذ أتلانتا. خلال هذه الفترة، أصبح شيرمان فى قمة قوته. وظل مشغولاً بتنظيم قواته الضخمة وتزويدها بما تحتاج إليه من مؤن وعتاد، حتى أصبح لديه حوالى ١٠٠,٠٠٠ مقاتل، ارتفعت معنوياتهم مع كل خطوة توغلوا فيها داخل أراضى الجنوب، خلال تقدمهم الثابت نحو أتلانتا. وفى هذا الصدد، فإنه مع اقتراب شيرمان من أتلانتا، فإن كتاباته أصبحت توحى بأنه قد تحول إلى إله منتقم يوقع العقاب بمن يقفون ضده؛ وبدأ شيرمان يتصرف وكأنه الأداة التى تذكر البشر بعاقبة ما فعلوه من خطايا فى الماضى. ولنقرأ هذه الفقرة، كمثال:

> "لقد تجرأوا على الدخول فى حرب معنا، والجميع يذكر كيف أنهم استفزونا –بطريقة وقحة– للدخول فى هذه الحرب. وها نحن قد قبلنا التحدى؛ ومن الواجب علينا، الآن، أن نحسم هذا الأمر. لأنه لا يمكن التفاوض بتعقل معهم. وعلى أية حال، فإن "الحرب" هى العلاج الذى تخيره أعداؤنا بأنفسهم".

أما بالنسبة للقائد الجديد على جيوش الجنوب ("هود")، فإنه سرعان ما اكتشف أنه لا يتعامل مع أستاذ خبير فى وضع التقنيات وتطبيق الاستراتيجيات الحربية فحسب، وإنما مع "معلم" مصمم على تلقين الأعداء درساً لا ينسونه أبداً. لقد عقد شيرمان النية على تعليم الجنوب –كل الجنوب– درساً قاسياً على طريقته الخاصة. فخلال الأيام الأولى للقائد الجديد المدافع عن أتلانتا، اكتشف "هود" أن أمامه خيارات سيئة، وخيارات أكثر سوءاً فقط لا غير. فإما أن يشتبك فى قتال مباشر (وجهاً لوجه) مع قوات تفوقه فى العدد والعتاد، وليس من خلف تحصينات. وإما أن يتم تطويقه أو تجاوزه خلال تقدم جيوش شيرمان نحو أتلانتا. وفى هذا الصدد، فإن عبقرية شيرمان قد تجلت فى أنه كان دائماً ما يتحكم فى الظروف المحيطة بالمعركة.

وليس أدل على هذا، من أنه كان فى وضع أفضل من وضع المدافعين من حيث المؤن، بالرغم من أهم يحاربون على أرضهم. على الرغم من كل الظروف المضادة، فإن "هود" كان مستعداً للقتال على أية حال. وبدأت المعركة الحاسمة بثلاث مناوشات منفصلة.

المناوشة الأولى: وقعت فى "Peachtree Creek" يوم ٢٠ من يوليو، وقتل فيها ما يقرب من ٥٠٠٠ جندى كونفيدرالي.

المناوشة الثانية: وقعت فى "Decatur/Atlanta" يوم ٢٢ من يوليو وسقط فيها ما يقرب من ٨,٥٠٠ قتيل.

المناوشة الثالثة: وقعت فى "Ezra Church" يوم ٢٨ من يوليو، وقتل فيها ما يقرب من ٣,٠٠٠ قتيل.

وهى كلها معارك لا تنسى، وحققت نتائج إيجابية باهرة بالنسبة لشيرمان، فيما عدا أن أشهر قواده (جنرال "James McPherson") قد قتل. وفى هذا الخصوص، فإن شيرمان ترك كل التفاصيل التكتيكية للقواد الأصغر منه رتبة. كذلك، فإن كلا الجانبين عانى خسائر فادحة فى الأرواح. وخلال الأيام الأخيرة من شهر يوليو، ركز شيرمان كل اهتماماته على أتلانتا؛ والكيفية التى سيتم بها حصار هذه المدينة.

من الأشياء الهامة الواجب ذكرها، هى أنه بعد مرور ١١ يوماً على تولى "هود" القيادة، كانت قواته قد أصيبت مرتين بخسائر فادحة، من قبل الجيش الأساسى لخصمه. وفى هاتين المرتين، خسر "هود" ١٦,٠٠٠ جندى دون أن يحقق أى نتائج إيجابية فى مقابل هذه الخسارة الفادحة. وبالطبع، تسبب هذا فى تدهور جديد لمعنويات جنود الجنوب، وافتقادهم للاستراتيجيات الفابية التى اعتاد چونستون استخدامها؛ والتى اتضح للجميع، الآن، أنها الطريقة الوحيدة لإنهاك القوة الساحقة لجيوش شيرمان. ومع نهاية المعركة الأخيرة فى

"Ezra Church"، تفتت قوات الجنوب، وتم فقد حوالى ٣,٠٠٠ جندى لم يكتب لهم أن يشاركوا فى القتال مع زملائهم.

بالرغم من هذه الانتصارات، فإن شيرمان لم يندفع نحو أتلانتا، بل اكتفى بالاستمرار فى قطع المؤن القادمة إليها عن طريق السكة الحديد وعربات النقل؛ وهو ما كان يفعله طوال الشهر الماضى. وبدلاً من هذا، بدأ الآن فى عمليات قصف مكثفة بالمدافع للمدينة المحاصرة. من الناحية النظرية، أصبحت القوات الكونفيدرالية –الآن– فى نفس موقف نظيرتها عند ريتشموند: فهناك نواة مركزية مكونة من آلاف الجنود المتحصنين فى خنادقهم والموجودين بين أهالى المدينة التى يدافعون عنها (أتلانتا)، وهناك جيش يحرسهم فى نهاية خطوط الإمداد الواهية التى لا زالت تربطهم بالعالم الخارجى. وفى هذا الخصوص، فإنه كان بإمكان طوابير من قوات "هود"، ترك المدينة ومهاجمة جنود شيرمان من الخلف إذا استمر فى حصاره للمدينة، خاصة أنه لم يعد لدى شيرمان أى قوات إضافية يمكنها تطويق هذه الطوابير المهاجمة. أخيراً، كان على شيرمان أن يختار بين حصار المدينة وتجويعها، وبين الهجوم عليها مباشرة.

حدثت مناوشات كثيرة بين شيرمان وهود طوال شهر أغسطس، تم خلالها قطع أخر خط للسكة الحديد يربط أتلانتا بالعالم الخارجى (الخط الذى يربطها بمدينة "Macon" فى جنوب أتلانتا). وعندما عجز بعض الخيالة من رجاله عن تدمير آخر خط سكة حديد، أرسل شيرمان وحدات من المشاة لخلع القضبان وتدمير خط السكة الحديد.

عندما بدأت قوات شيرمان فى ترك خنادقها، تخيل الخصم أنهم يتراجعون عن حصار أتلانتا؛ وأن شيرمان وقوته قد يتراجعون نحو أراضى ولاية تِينسي. وفى الواقع فإن الآلاف فى مدينة أتلانتا بدأوا، بالفعل، يحتفلون بهزيمة جيوش شيرمان؛ على أساس أن خصمهم قد عجز عن قطع المؤن القادمة إليهم، وأصبح الآن قلقاً من إمكانية تعرضه لهجوم مضاد من قبل قوات "هود". لكن هذه الأحلام تبخرت على الفور، بعد معركة "Jonesboro" يوم ٣١ من

أغسطس، عندما تمكنت قوات شيرمان –أخيراً– من تدمير أخر خط سكة حديد، ذلك الخط الواصل بينهم وبين مدينة "Macon". وخلال هذه المعركة، تم إجبار الخيالة على التراجع مرة أخرى إلى داخل مدينة أتلانتا، والتى أصبحت الآن محرومة تاماً من أى مؤن جديدة. وقرر "هود"، يوم أول سبتمبر ١٨٦٤م، أن يخرج بكل قوات جيشه الكونفيدرالي بعيداً عن المدينة حتى لا يصبح محاصراً معهم ... وما يعنيه هذا من الحرمان من أى مؤن جديدة.

وهكذا، فإنه بعد مرور أقل من ١٥ أسبوعاً على خروجه من تِينسي، تمكن شيرمان من الاستحواذ على ثانى أهم مدينة كونفيدرالية، وبدون أن تلحق به خسائر فادحة فى الأرواح. فبالرغم من كل ما حدث، فإن جيشه ظل تعداده أكبر من ٨٠,٠٠٠ جندى. وبالطبع، فإن مهمة شيرمان لم تكن قد انتهت بعد. لقد أصبح الآن فى موقف يمكنه من إلحاق خسائر فادحة بكل من هو موجود على أراضى الجنوب. وفى الواقع، فإن قوات هود انتشرت بعيداً عن أتلانتا، ولم يكن عددها يتجاوز الـــ٤٠,٠٠٠ جندى؛ حيث أنهم خسروا ما يقرب من ٣٤,٠٠٠ جندى فى المعارك والمناوشات التى حدثت فى أتلانتا ومحيطها، بينما لم يخسر شيرمان إلا ٣١,٠٠٠ جندى فقط.



صورة بالألوان للفنان السويدى "Thure de Tiwistrap" تخيل فيها شيرمان على صهوة جواده، وهو يرمى بنظره نحو الأفق حيث يَظهر القذف الذى تتعرض له قوات الجنوب فى مدينة "أتلانتا" قبيل سقوطها بين يديه.

عندما بدأ هذا الصراع فى ربيع عام ١٨٦٤م كانت مهمة "چونستون" الأصلية هى أن يمنع جيوش "شيرمان" من التوجه نحو الشرق والوصول إلى "جرانت" لمساعدته فى الاستيلاء على ريتشموند. لكن خطراً أكبر بدأ يهدد القوات الكونفيدرالية، فلم يكن هناك قوات كافية تفصل جيوش شيرمان عن ساحل المحيط الأطلنطى؛ وهو ما يعنى أن المنتصر فى الحملة على أتلانتا، سوف يتمكن من الوصول إلى مؤخرة جيوش "روبرت ليي".

أما بالنسبة للمؤرخين، فإنهم اعتبروا أن السماح لـ"هود" وقواته بالهرب من أتلانتا، هو أحد الأخطاء التى ارتكبها "شيرمان"؛ خاصة أنه كان قد تمكن من حصار المدينة من كل جهة تقريباً. لكنه إذا كان قد فشل فى تدمير هود وقواته، فإن شيرمان قد نجح فى تحقيق العديد من الأهداف الرئيسية.

أولاً: إن استيلاء شيرمان على أتلانتا مكنه من رفع الروح المعنوية بين جنوده إلى حد غير مسبوق من قبل؛ خاصة مع اقتراب الانتخابات الرئاسية فى نوفمبر. وفى الواقع، فإنه يمكن وصف ما حدث، بأن شيرمان قد تمكن –خلال ٢٤ ساعة– من القضاء نهائياً على أى آمال للمرشح الديمقراطى، ماكليلان، للفوز بالرئاسة.

ثانياً: لقد أصر شيرمان –طوال حملته على أتلانتا– على القتال بطريقة مكنته من تقليل عدد الضحايا الذين يتم فقدهم، مقارنة بأعداد الضحايا الكبيرة التى فقدتها جيوش الشمال على الجبهات الأخرى.

ثالثاً: نجح شيرمان فى إلحاق خسارة كبيرة فى الأرواح بجيوش الخصم، جعلت هود ينتهى بجيش نصف عدد الجيش الذى بدأت به المعارك.

رابعاً: نجح فى منع هود من اللحاق بجيوش "روبرت ليي"، وتدعيمه فى الدفاع عن ريتشموند.

خامساً: نجح شيرمان فى الوصول بجيش ضخم إلى أعماق أراضى الجنوب، حيث يمكن استخدامه فى النهب والسلب والإغارة على قوات جيوش الجنوب.

سادساً: أنقذ شيرمان السمعة العسكرية لجرانت، عندما كشف عن الطبيعة المزدوجة للاستراتيجية المتبعة. فبفضل شيرمان أصبح عامة الشعب فى الشمال مدركين لأن خطة الجيش هى شغل جيش روبرت ليي، بينما تتمكن جيوش شيرمان من التقدم نحو أتلانتا والاستيلاء عليها. وهكذا، بدت حمامات الدم التى أريقت بالقرب من ريتشموند وكأنها ارتكبت عن عمد لتخفيف الضغوط على جيوش شيرمان حتى تتمكن من الوصول إلى هدفها.

وعلى أية حالة، وبعد ما حدث له عند سفح جبل "Kennesaw"، فإن شيرمان لم يكن على الاستعداد للمخاطرة بالدخول فى معركة أستعد فيها الخصم –بالفعل– لملاقاته. بعد الاستيلاء على أتلانتا، ترك شيرمان أحد قادته (جنرال "George Thomas") ليتولى مسئولية مواجهة هود إذا ما حاول هذا الأخير التوجه إلى تِينسي. فلقد قرر شيرمان عدم البقاء فى المدينة المدمرة (أتلانتا) والتجول لقطع خطوط المؤن عن قوات الجنوب. وخلال كل هذه الفترات، فإن قوات شيرمان كانت تتعيش على ما تستطيع سلبه من محاصيل الجنوب الوفيرة.

الاستيلاء على أتلانتا، نصر مستحق (سبتمبر ١٨٦٤م)

ضجر عامة الشعب الأمريكى فى الشمال من الأخبار السيئة القادمة باستمرار من ريتشموند، حتى أن أى شيء تمكن شيرمان من تحقيقه –بدون إراقة الكثير من الدماء– كان يعتبر أنباء سعيدة، ومحل ترحيب من الجميع. لكن بمجرد سقوط أتلانتا، تغير كل شيء. فإن رد فعل عامة الشعب فى الشمال أصبح مناصراً له، مهما كانت الخسائر. لقد تمكن شيرمان من الاستيلاء على أحد أهم مدن الجنوب، وبدون أن يفقد الكثير من قوات الجيش الذى استطاع تحقيق هذا النصر العظيم. وها هو الآن يستعد لشن المزيد من الحملات العسكرية على الجنوبيين، بغرض استنزاف ما بقى لديهم من قدرات على المقاومة.

وتغيرت توجهات الصحف فى الشمال بطريقة كاملة ومخالفة تماماً لتوجهاتهم قبيل الاستيلاء على أتلانتا. فلقد خففوا من حملاتهم الدعائية ضد كلا من "لينكولن" و"جرانت"؛ أما "شيرمان" فإنه أصبح يلقب بـ"مخلِّص البلاد National Savior"، والاستراتيجى العبقرى الذى لا يهزم. أما كل المخاوف الناجمة عن هروب جيش هود، والقلق بشأن المستقبل القريب وما يمكن أن يحدث فيه، فإنها تلاشت وسط السعادة التى شعروا بها، والحماسة البالغة التى

غمرت الجميع بعد الاستيلاء على أتلانتا. وفى اليوم التالى، كتب الرئيس لينكولن رسالة لشيرمان قال فيها: "إن كل العمليات الحربية التى قمت بها خلال الحملة على أتلانتا، من الزحف نحو البحر، والمعارك المختلفة، وتطويق وحصار أتلانتا، سوف تخلد فى تاريخ الحروب. وتستحق منا كثير من الشكر والتمجيد لكل من شاركوا فى تحقيقها والتخطيط لها".

أما الصحف –المعادية للينكولن والمؤيدة له– فإنها اشتعلت حماسة. وعلى سبيل المثال، فإن الصحف الموالية للينكولن خرجت بعناوين مثل: "إن الأفق السياسى يزداد ازدهاراً"، و"لقد انتهت الأيام المظلمة". أما صحف الخصوم فإنها كتبت: "من الآن فصاعداً سيكون علينا أن نرفع رايات إبراهام لينكولن، ونؤيد ترشيحه –مرة أخرى– لرئاسة الجمهورية لفترة ثانية"، و"إن جرانت وصل إلى "Vicksburg"، وماكليلان اكتفى بالدوران حول "ريتشموند"، أما شيرمان فإنه الوحيد الذى استطاع أن يقتحم "أتلانتا"، وهذا هو النصر الحقيقى". أما فى الجنوب، فإن أمالهم فى عقد هدنة تلاشت، وأصبح من الواضح للجميع أنه سيتم انتخاب لينكولن لفترة رئاسية ثانية؛ وأن خسارة أتلانتا قد تسببت لهم فى إحباط أكثر من خسارة "Vicksburg"، أو "Gettysburg". لقد كان هذا، هو بداية النهاية. لأن جيوش شيرمان –الموجودة فى قلب الجنوب– لا زالت متماسكة وتستطيع إلحاق المزيد من الخسائر بهم.

أما فيما يتعلق بالانتخابات، فإن تأثير هذا النصر كان سريعاً ومباشراً. وفى مصادفة غريبة، فإن أعضاء الحزب الديمقراطى المعاديين لاستمرار الحرب، عقدوا اجتماعاً –يوم ٣١ من أغسطس فى شيكاغو– بغرض ترشيح ماكليلان. والآن، وبعد الاستيلاء على أتلانتا، فإن ماكليلان أصبح فى موقف لا يحسد عليه؛ فإما عليه أن يقلل من أهمية وحجم الإنجاز الذى حققه شيرمان، أو الاعتراف بحجم الإنجاز والانضمام للغالبية الساحقة التى تقوم بتمجيده ... وهو ما سيؤدى لتدهور فرص ترشيحه من أجل التنافس ضد لينكولن فى الانتخابات الرئاسية القادمة. وفى هذا الصدد، فإن السعادة الغامرة التى انتشرت بين جميع رتب الجيش وجنوده من

الأفراد الذين يحق لهم التصويت، جعلت من المؤكد أن لينكولن سيكون الفائز بالانتخابات القادمة؛ وسحقت أى فرص ضئيلة كان ماكليلان يتعشم من خلالها الوصول إلى مقعد الرئاسة. وبالرغم من هذا، تم ترشيح ماكليلان عن الحزب الديموقراطى.

فى ميدان القتال، كان شيرمان مدركاً تماماً أن الاستيلاء على أتلانتا، هو نقطة التحول التى يمكن أن تغير أصوات الناخبين لصالح لينكولن. وفى مذكراته، كتب لنا شيرمان ملخصاً لحوار قصير دار بينه وبين لينكولن، اعترف فيه الأخير، بفضل شيرمان فى حسم نتيجة الانتخابات لصالح لينكولن: "لقد ذكر لى مستر لينكولن بنفسه، أنه كان يشعر بعدم قدرته على الفوز فى الانتخابات، لأن أيام وشهور الصيف كانت قد انتهت، ولم يتمكن جنرال جرانت من حسم المعركة لصالحه فى ريتشموند، وهو ما جعل الأمر يبدو وكأن جيوشنا قد وصلت إلى طريق مسدود لا يمكن تجاوزه ... عندما وصلت أنباء الاستيلاء على أتلانتا، ذلك النصر المستحق".

أما بالنسبة لأهمية ترشيح ماكليلان، فإن شيرمان نفسه استنتج أن استيلائه على أتلانتا قد تحول إلى ضرورة سياسية كان الشعب فى حاجة إليها قبل انتخابات نوفمبر حتى يستطيع أن يقرر من الذى يستحق الفوز بمقعد الرئاسة.

كذلك فإن شيرمان ذكر فى خطاب كتبه -لوالده بالتبنى- يوم ١٥ سبتمبر ١٨٦٤م أن كل الخطط والمناورات التى قامت بها قوات الشمال، منذ مارس ١٨٦٤م وحتى الآن، قد فشلت فى تحقيق أهدافها، فيما عدا الاستراتيجية التى اتبعها هو بالزحف البطىء نحو البحر بهدف الاستيلاء على أتلانتا ... وأنها الوحيدة التى استطاعت تحقيق هدفها.

وفى هذا الخصوص، علينا توضيح أن شيرمان لم يكن من المؤيدين، قلباً وقالباً، لإعادة ترشيح لينكولن لفترة رئاسية ثانية. فهو الذى قال: "من المفترض أن لينكولن هو أفضل اختيار متاح أمامنا، لكننى لست مصوتاً". لقد كان شيرمان يعلم أن الخيارات المتاحة أمامهم -فى

حالة عدم ترشيح لينكولن- ستكون محصورة بين "Frémont" غير المستقر والآتي من جانب اليساريين، وبين اليميني "McClellan" ... خياران كلاهما مر.

ولا يوجد ما هو أدل على حقيقة مشاعر ماكليلان، من أنه قد تأخر لشهر كامل، قبل أن يرسل تهنئته لشيرمان بما حققه من إنجاز فى أتلانتا؛ وقد كان اعتذاره عن التأخر فى إرسال التهنئة يمثل حقيقة موقفه من هذا النصر العظيم الذى حققه شيرمان، وكيف أنه قضى -عملياً- على فرصه فى التغلب على لينكولن.

إعادة انتخاب لينكولن (الثامن من نوفمبر ١٨٦٤م)

بالرغم من أن الآراء قد توحدت تقريباً، إلا أن الجدل قد استمر بخصوص ما إذا كان الاستيلاء على أتلانتا -والذى حدث قبل يوم الانتخابات بما يزيد عن شهرين- هو الذى أنقذ لينكولن من خسارة مقعد الرئاسة. وفى هذا الصدد، فإن المتشككين قد أشاروا إلى أن الرأى العام قد تغير مع نهاية شهور الصيف. وعلى سبيل المثال، فإن بعض قادة الشمال قد تمكنوا من تحقيق انتصارات مثل "David Farragut" الذى تمكن من الاستيلاء على "Mobile Bay" يوم ٥ أغسطس ١٨٦٤م. كذلك، فإن جنرال "Philip Sheridan" تمكن من غزو "Jubal Early"، منهياً بهذا دورها كقناة وصل بولايات ميريلاند، وبنسلفانيا.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن لينكولن قد تمكن من الفوز بانتخابات الرئاسة الثانية بما يزيد عن ٤٠٠,٠٠٠ صوت، وهو ما يعنى ٥٥ ٪ من الأصوات التى تم الإدلاء بها. أما بالنسبة لماكليلان، فإنه لم يتمكن من الفوز إلا بولايات "New Jersey"، و"Kentucky"، و"Delaware". ومما لا شك فيه، أنه لا يمكن نسبة كل النجاحات التى حققها لينكولن، وحصرها فى النصر الذى تم إحرازه فى أتلانتا. فبينما فاز لينكولن بأصوات أفراد القوات

المسلحة – خاصة الأفراد الموجودين فى جيش شيرمان، والذين صوتوا بنسبة ٨٠٪ لصالحه– فإن أصوات الجنود على وجه العموم، لم تكن هى التى شكلت النسبة الأساسية التى سمحت له بالفوز واحتلال مقعد الرئاسة مرة أخرى. وحتى إذا كان لينكولن قد خسر أمام ماكليلان، فإن هذا الأخير ما كان ليستطيع أن يهدئ من سعير الحرب المشتعلة بدون أن يتسبب فى حدوث انقسام بين المواطنين فى جبهة الشمال.

إن كل ما تمكن النصر فى أتلانتا من تحقيقه هو إحداث تغيير فى أصوات حوالى ٨٠,٠٠٠ شخص لصالح لينكولن داخل بعض الولايات الجوهرية الحاسمة؛ وأنه فى حالة عدم حدوث هذا، كان ماكليلان سيتمكن من الفوز بمقعد الرئاسة. بالإضافة إلى ما سبق، فإن استيلاء شيرمان على أتلانتا لم يكن هو السبب الوحيد الذى أعاد لأهل الشمال ثقتهم فى لينكولن؛ وإنما الأسلوب الذى اتبعه فى احتلالها ثم تركها لأحد قواده مستكملاً حملة "الأرض المحروقة" بهدف حرمان جيوش الجنوب من خطوط مؤنها التى تمدها بالرجال والعتاد. ومع نهاية أغسطس، كان غالبية السكان فى الشمال مكتئبين، ويشعرون باقتراب نهاية الجيش الذى يقوده جرانت فى ڤيرچينيا؛ متناسين النصر الذى تم إحرازه بالاستيلاء على "Mobile Bay". كذلك، فإن نجاح "Sheridan" فى غزو "Jubal Early" حدث بعد الاستيلاء على أتلانتا؛ ولم يتسبب فى موجة جديدة من التفاؤل والثقة بالذات. حتى أن المؤرخ العسكرى "Liddell Hart" قد أطلق على هذه الاعتبارات السياسية اسم:

"الخلفية المظلمة للمرحلة الأخيرة من حملة شيرمان على أتلانتا"، ثم أضاف قائلاً: "إن كل هذا قد حدث لأن جرانت كان عاجزاً عن القيام بأى شيء إيجابى يؤثر –بطريقة محسوسة– على اتجاهات الرأى العام فى الشمال".

بعد احتلاله لأتلانتا مباشرة، ازداد ضجر شيرمان من المناوشات المستمرة التى شنها مشاة جيش الجنوب عليه. ولهذا، كلف أحد قادته ("George Thomas") بتتبع جيش هود الذى

توجه نحو الشمال. وفى الواقع، فإن شيرمان كان مغتبطاً لأن هود قد توجه نحو الشمال لمقابلة جيش "توماس Thomas" المتفوق عليه عددياً، وهو ما مكنه من التحرر من البقاء فى أتلانتا، والتوجه بقواته نحو الشرق. إلا أنه كان على درجة كافية من الحكمة سمحت له بالبقاء فى أتلانتا مدة كافية حتى انتهاء الانتخابات؛ وذلك حتى لا يوحى للناخبين بأنه قد استسلم أو أجبر على مغادرة المدينة، كما أنه لم يكن راغباً فى المخاطرة بحملة جديدة قبل انتهاء عملية التصويت تماماً.

بعد أن تفحص شيرمان إمكانية التوجه بقواته نحو عدد من موانئ الجنوب، بدأ فى يوم ١٧ من نوفمبر زحفه نحو الشرق. وخلال هذا الزحف، كان يمد قواته بما تحتاج إليه من مؤن وغذاء عن طريق الاستيلاء على ما يجدونه أمامهم فى ريف چورچيا. لقد كانت خطة شيرمان تقضى بالسماح لجيش هود بالتوجه نحو الشمال، بينما يستمر هو فى احتلال المزيد من أراضى الجنوب. وهو ما جعل مهمة هود فى قطع خطوط الإمداد القادمة إليه من الشمال غير مجدية، وعديمة الفائدة تماماً. لقد كان شيرمان يعتقد بأنه يستطيع الوصول إلى "Savannah" بعد ما ألحقه بچورچيا من خسائر. أما بالنسبة لهود، فإنه لن يتمكن من تحقيق إنجاز مماثل فى الشمال خلال زحفه نحو "Nashville".

زحْف شيرمان الناجح على أتلانتا، وما تبعه، ساعد فى استعادة جرانت لسمعته بين عامة الشعب فى الشمال. بينما توقع الشماليون، أن يتولى بطل معركة "Vicksburg" قيادة جيوش "Potomac" والاستيلاء على ريتشموند، وهزيمة "روبرت ليي" بطريقة نهائية تسمح للشمال بإنهاء الحرب. وقد كانوا يتعشمون فى أن كل هذا سيحدث خلال المائة يوم القادمة. لكن مع نهاية شهر أغسطس تبخرت هذه الأوهام من رؤوسهم، وأصبح من الواضح أن الحرب ستستمر فترة طويلة أخرى.

عندما تمكنت قوات شيرمان من أن تتوغل فى أراضى الجنوب –وبدون أن يلحق بها خسائر تذكر– أصبح كثيرون ينظرون إلى الحملة التى يقودها جرانت حول ريتشموند على أنها شيء ضرورى، لأنها تمكنت من شغل قوات "روبرت ليي"، ومنعه من تقديم يد المساعدة لزملائه فى الجنوب، بينما تمكن شيرمان من الاستيلاء على أتلانتا. وبعد أن أعاد الشمال انتخاب لينكولن بالرغم من الخسائر الفادحة التى عانى منها جرانت، فإن كل ما يحتاجون إليه –الآن– هو إقناع عامة الشعب فى الشمال، بأنه سيتم استغلال هذه التضحيات لتحقيق انتصارات مماثلة للانتصار الذى حققه شيرمان. وقد عبر شيرمان فى رسالة لجرانت – بعد استيلائه على أتلانتا– عن هذه المشاعر، عندما قال:

"لقد أصبح الجميع – الآن – يقدرون جهودك الدءوبة ومثابرتك أكثر من قبل. وبعد أن تتمكن من سحق قوات روبرت ليي، وأتمكن أنا من الوصول إلى ساحل الأطلنطى، فإن لينكولن لن يمانع فى منحنا أجازة لمدة ٢٠ يوماً نقضيها مع أسرنا".

أتلانتا وما بعدها (نوفمبر ١٨٦٤- أبريل ١٨٦٥م)

تَذكر لنا أحداث التاريخ أن الغزاة الناجحين الذين تمكنوا من الاستيلاء على مدن خصومهم، من أمثال: زيركسز فى "أثينا"، ونابليون فى "موسكو"، والألمان داخل حطام مدينة "ستالينجراد"، والجيش الشيوعى الصينى فى مدينة "سيول"، سرعان ما يجدون أن احتلال مدينة الخصم هو أمر قليل الأهمية ومحفوف بالمخاطر والمحظورات، خاصة إذا كانت جيوش الخصم لا تزال حرة طليقة على مقربة من المدينة المحتلة؛ والتى أصبحت الآن عبئاً على المحتل لأن عليه تزويدها بما تحتاجه من مؤن وإمدادات. لكن على العكس من هذا، فإن شيرمان كان

ينظر إلى أتلانتا على أنها مجرد بداية ناجحة لحملته العسكرية. ومن جانب آخر، فإن شيرمان كان غير مستقر نفسياً خاصة خلال الفترة التى وقعت بين "Bull Run" و"Shiloh" عندما عانى من اكتئاب فظيع. وخلال صفحات مذكراته، فإن شيرمان عادة ما كان ينتقص من قيمة جهود الآخرين أو يهمل ذكرهم بطريقة غير عادلة. وفى هذا الخصوص، فإنه كان هناك عديد من واضعى الاستراتيجيات والتقنيات الحربية الناجحة من كِلا الجانبين، من أمثال: "Lee"، و"Long-street"، "Jakson"، و"Sheridan"، و"Thomas"، و"Grant"، إلا أن شيرمان كان أفضل منهم جميعاً، بسبب قدرته على تقدير الموقف بطريقة صائبة، ومعرفته العميقة بطبيعة العمليات الحربية المعاصرة، وإصراره على الالتزام باستراتيجية عظمى ناجحة عند انتقاله من معركة لأخرى، وإدراكه العميق للوشائج التى تربط بين العمليات الحربية والمجتمع المدنى والتأييد الشعبى اللازم لاستمرارها، وتأثير كل هذا على أصوات الناخبين.

تسبب الاستيلاء على أتلانتا فى حدوث صدمة للباقين فيها من السكان – دخوله لأتلانتا تسبب فى هروب غالبية سكانها– وأصاب هود بموجة من الغضب العارم. وبدأ شيرمان فى تنظيم حامية قادرة على أن تصبح قاعدة لعملياته العسكرية المستقبلية. وفى هذا الخصوص، فإنه لم يعتذر أبداً أو يندم على قصفه المكثف للمدينة قبيل استيلائه عليها. وقد عبر عن هذا فى خطاب أرسله لهود قال فيه: "إن قواعد وقوانين الحرب لا تجبرنى على تحذيركم قبل قصف المدينة، فهى تحتوى على تحصينات وترسانة ومسابك، راجع الكتب فى هذا الشأن. هذه هى نهاية مراسلات لم أبدأها، لكنى سعيد بأننى وضعت نهاية لها".

غادر شيرمان مدينة أتلانتا يوم ١٧ من نوفمبر عام ١٨٦٤م، ليبدأ زحفه الشهير – والذى استغرق خمسة أسابيع – نحو البحر. وهناك، استولى على "سافانا Savannah" يوم ٢١ من ديسمبر. ثم شرع فى زحفه نحو "كارولينا" فى طريقه للوصول إلى ڤيرچينيا والوصول إلى مؤخرة جيش "روبرت ليي" الموجود فى الجزء الشمالى من هذه الولاية. عندما انتهت الحرب

فى أبريل من عام ١٨٦٥م، كان شيرمان قد تمكن من تمزيق الجنوب وإلحاق العار بالعدو. كذلك، فإنه تسبب فى حدوث هروب لأعداد كبيرة من جنود جيش روبرت ليي؛ عندما وصلتهم أخبار مدى ضخامة قوات الإتحاد التى سوف تهجم على مواقعهم فى ڤيرچينيا.

وحيث أن شيرمان كان من مواطنى أوهايو، بالإضافة إلى أنه عاش لفترات طويلة فى ولاية كاليفورنيا، فإنه كان يعتبر من مواطنى الغرب الذين يعرفون كل خباياها. وعلى سبيل المثال، فإنه كان مدركاً تماماً لطبيعة الأرض، وحجم ما تستطيع أن تمده به من مؤن، وكيفية التنقل -بأفضل الوسائل- من منطقة إلى أخرى. كذلك، فإن قواته كانت على أتم استعداد للتنقل الفورى، والإقامة فى العراء لفترات طويلة، والتعامل بكفاءة مع نقص الإمدادات وتقلبات الطقس. وبعد ما حدث فى "Bull Run"، أولى المعارك العظيمة فى هذه الحرب، فإن شيرمان لم يقاتل مرة أخرى فى ڤيرچينيا أو ميريلاند ... تلك الولايتين اللتين تسببتا فى سقوط أعداد ضخمة من جيش "Potomac" (جيش جرانت المحاصر لريتشموند).

وهذا هو ما حدث بالفعل، لأن شيرمان لم يعد مرة أخرى نحو الشرق، إلا بعد انتهائه من زحفه على كارولينا الشمالية والجنوبية. وفى هذا الصدد، فإن المعارك الضارية حول ريتشموند وواشنطن كانت تختلف فى طبيعتها عن الزحف الطويل البطيء الذى قاده شيرمان عبر ولايات چورچيا وكارولينا الشمالية والجنوبية. ولا يمكن لنا الآن، معرفة ما الذى كان سيحدث لو أن شيرمان تولى قيادة جيوش "Potomac" بدلاً من جرانت خلال فترة ربيع وصيف عام ١٨٦٤م. إلا أن الاحتمال الأكبر هو أن شيرمان لم يكن سيتمكن من تنفيذ أفكاره المتطورة الخاصة بـــ"الحرب الشاملة المعاصرة Modem Total War" كما طبقها فى معاركه الجنوبية.

إســاءة فهم شــيرمان

كثيراً ما يقال عن شيرمان إنه ذلك الرسول القاسى عديم الرحمة، والذى أتى إلينا بالقواعد المعاصرة للحرب الشاملة، عندما قصف مدن مثل: "أتلانتا" و"كولومبيا" حتى احترقتا تماماً؛ وهو بهذا قد مهد الطريق لما حدث –فيما بعد– لمدن مثل "Dresden"، و"Hamburg" خلال الحرب العالمية الثانية. وقد انتشرت هذه الأقوال، بسبب مغالاة شيرمان فى استخدام الألفاظ القاسية والتعبيرات الدرامية عند وصفه للأفعال التى قام بها ضد قوات الخصم ومدنه فى الجنوب. لكنه علينا تذكر أن هذه الألفاظ والتعبيرات لم تكن دقيقة فى وصفها لحقيقة ما حدث على الأرض ... سواء كان هذا لقوات الجنوب المسلحة أم للمدنيين من السكان. وليس أدل على هذا، من مقارنة أعداد القتلى التى تسبب فيها شيرمان – من الجنود والمدنيين– بأعداد القتلى فى المعارك الأخرى التى قادها غيره من جنرالات هذه الحرب. وإذا كان شيرمان قد قام بثورة أخلاقية فى شن الحروب، فإن ثورته هذه لم تكن فى إباحة قتل المدنيين، أو شن "حرب شاملة"، وإنما كانت فى تحديد من هو المسئول الأول الذى يجب توجيه اللوم إليه فى إشعال نيران هذه الحرب "Proper Culpability in War" فى الأساس.

من وجهة نظر شيرمان، فإنه لم يكن من المقبول خروج طبقة أصحاب المزارع الأغنياء ملاك العبيد بخسائر نسبية قليلة، بينما يتحمل الفقراء الذين لا يملكون عبيداً الجزء الأكبر من تكلفة هذه الحرب، من خلال تطوعهم للقتال دفاعاً عن ريتشموند– ڤيرچينيا؛ ولهذا، نقل شيرمان الحرب إليهم، لأنه كان يرى أنه من الضرورى تحطيم أسطورة الطبقة العسكرية المتفوقة التى تتميز بالبسالة والشهامة فى الجنوب ... وأن هذا أمر ضرورى حتى يمكن توفير بعض فرص النجاح لأفكار لينكولن الخاصة بتحرير العبيد. ونحن هنا لا نتفق مع شيرمان تمام الاتفاق، فهو قد اتبع طرقاً بغيضة ومذمومة فى شرحه للطبيعة المزدوجة للحرب، وفى أن التصنيع

والتفوق المادى سوف يلغى البسالة والشهامة الحربية. وبهذا، فإنه –حسب افترضات شيرمان– سيتشكك الجميع فى مدى حقيقة الأسطورة التى نسجها الجنوبيين حول أنفسهم.

وفى هذا الخصوص، كثيراً ما حاول شيرمان شرح وجهة نظره فى أخلاقيات الحرب المعاصرة. وعلى سبيل المثال، كتب شيرمان –عند اقترابه من أتلانتا– فى خطاب المؤرخ فى ١٤ من أغسطس ١٨٦٤م، للسياسى الحليف والإدارى فى السكك الحديدية، "James Guthrie"، ما نصه:

> "من الواجب علينا أن نحيا ونتقدم ونزدهر فى ظل قوانين تحكمنا جميعاً؛ وبحيث تظل أقرب ما تكون إلى القوانين التى ورثناها ... حتى لا يكون هناك هزات انتقالية. ومن هذا، يكون من الواجب علينا تسوية خلافاتنا –السياسية والخاصة– من خلال النقاش أو اللجوء إلى التصويت أو الخضوع للأحكام الصادرة عن القضاء. ونحن ما زلنا على استعداد إلى العودة لهذا النظام. لكن الخصم هو الذى يرفض ذلك الخيار، ويفضل الحرب ... بالرغم من وجود بدائل أخرى أمامه. ولهذا فإننا –جميعاً– قررنا منحهم الخيار الذى فضلوه (الحرب). لم يعد هناك مجال لمفاوضات أو تهاون أو قبول بحلول وسط، حتى ينتصر أحدنا على الآخر ... والمنتصر هو الذى سيفرض إرادته فى النهاية".

من أكثر الأشياء التى تم ذكرها طعناً فى شيرمان، هى تصويره فى صحف الجنوب على أنه إرهابى، لم يكن يهدف إلا لتدمير مبانى الجنوب، وخطوط السكك الحديدية، ونظم التلغراف، وممتلكات المزارعين ملاك العبيد والذين يشكلون صفوة مجتمع الجنوب. وهذا هو السبب فى أنهم لم يغفروا له –أبداً– ما فعله فى أراضيهم. وفى هذا الخصوص، فإن ماكيافيللي قد حذرنا، فى كتابه "الأمير Prince"، من أصداء التداعيات السياسية الناجمة عن تدمير الممتلكات، عندما قال ما نصه:

"إن الإنسان سرعان ما ينسى موت والده وأعز أقربائه، لكنه لا ينسى -أبداً- خسارة ممتلكاته التى أمضى كل حياته فى جمعها".

ولهذا، علينا تذكر أهداف شيرمان النهائية، والتى كانت تقضى بتقصير أمدَ الحرب -وإنقاذ حياة الآلاف- من خلال زحفه الذى تسبب فى إذلال الجنوبيين وتحطيم الروح المعنوية بين عامة الشعب هناك. وهذه الخطوة الأخيرة - وحدها- قد أنقذت حياة آلاف من الجنود الذين كانوا يتعرضون للموت بصورة مستمرة فى اشتباكات لا جدوى منها، بين قوات تكاد تكون متكافئة عددا وعتاداً. ورغم هذا، فإنه حسب أقوال ماكيافيللي السابقة فإن كراهيتهم له كانت تزداد كلما ركز شيرمان على تدمير الممتلكات بهدف تقصير مدة الحرب وإنقاذ الأرواح. أو حسب أقوال "Noah Trudeau":

"إن مصطلح الحرب الشاملة يتضمن عمليات عسكرية تهدف إلى التدمير الشامل للبنية التحتية المدنية؛ استعداداً لفرض نظام جديد على المجتمع المهزوم. لكن شيرمان لم يكن يرغب فى إحداث هذا؛ وكل ما كان يهدف إليه هو إحباط قدرتهم على الاستمرار فى التمرد، وإجبار المدنيين من أهل الجنوب على رؤية أن العودة إلى الإتحاد هى أقل الشرور ضرراً، وأنها بالتأكيد الخيار الأفضل من الاستمرار فى التمرد المسلح. هذا، وقد كانت القوة الساحقة التى استخدمها شيرمان تهدف إلى توضيح أن القوات الكونفيدرالية لا تملك ما يكفى للدفاع عن أهل الجنوب ولتأمين سلامة أراضيهم. وفى هذا الخصوص، فإن قرار شيرمان بإضافة الممتلكات المدنية لقائمة الأهداف العسكرية قد نبع من إيمانه بوجود "مسئولية جماعية Collective Responsibility"، وتصميمه على عقاب قادة الجنوب والأثرياء

الذين كان من واجبهم رعاية مصالح شعبهم والتفاوض معه بهدف الوصول إلى حلول وسط بدلاً من الإصرار على الاشتباك فى حرب أهلية".

لقد كان الأمر بالنسبة لشيرمان، هو استخدام الجيش كأحد الأدوات السياسية للضغط على الخصم. وفى هذا الخصوص، فإن شيرمان هو الذى ذكّر الأمة بأن الجيش وأفراد الشعب الذين يؤيدونه هم وحدة واحدة لا تنفصم؛ ويجب التعامل معها على هذا الأساس. لكن شيرمان لم يكن يرى أن هناك ضرورة قصوى للتركيز على جنود العدو وتحطيم جيشه فى ميدان المعركة. لقد كان مفتاح المشكلة هو إجبار الإرادة العامة للعدو على الخضوع والاستسلام –سواء كان هذا الاستسلام مادياً أو نفسياً– وبهذا تزول البنية التحتية التى تم على أساسها حشد هذه الجيوش المتمردة. ومن هذا نرى، أن الاستراتيجية العامة التى تهدف للوصول إلى نصر حقيقى لا تكون دائماً مستندة إلى ما يحدث فى ميدان القتال فقط، ولكنها تعتمد –أيضاً– على انتزاع الجذور وسحق البنية التحتية التى سمحت فى الأصل لهذه الجيوش بأن تتشكل، وأمدتها بما يسمح لها بالاشتباك فى القتال والاستمرار فيه. وعندما يتم القضاء على هذه الجذور، فإن الفروع تموت بطريقة تلقائية وتختفى من الوجود.

بالنسبة لشيرمان، كان من الممكن للحروب أن لا تنتهى إلى نتيجة حاسمة فى العديد من الأوضاع الأخرى؛ فعندما يستسلم الجيش، أو يكون فى عزلة عما يدور من حوله ... فإن نتيجة الحرب لا تكون حاسمة أيضاً. وعلى العكس من هذا، فإن السلام الدائم، والذى يستمر لمدة طويلة، لا يحدث إلا من خلال إقناع كل جماهير الشعب بأنها قد تعرضت لهزيمة جماعية وتم سحق إرادتها؛ وأنها –الآن– تدفع ثمن القرارات غير الحكيمة التى اتخذتها عندما انتخبوا أولئك القادة والسياسيين الذين ألقوا بهم فى خضم هذه الحرب، وهم مجبرون الآن على وقف إمداد الجيش بالرجال، وبالمواد التى تصلح للاستخدام فى الحرب. وقد عبر شيرمان عن كل هذا فى رسالة لجنرال "George Thomas" قال فيها:

"إن الخطة التى أقترحها لإظهار مدى ضعف الجنوب، هى إقناع السكان هناك بأن الحرب والخراب هم مصطلحان لهما معنى واحد؛ وأهم عندما يتخيرون الحرب، فإنهم قد تخيروا الخراب فى نفس الوقت".

وتظهر حكمة شيرمان، من خلال وقائع التاريخ العسكرى الحديث، ففى كل مرة كانت إرادة جيوش العدو جزءاً لا يتجزأ من إرادة الشعوب التى خرجت منها هذه الجيوش. وليس أدل على هذا، من حالة السلام العابرة والتى سرعان ما تبخرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، خاصة إذا ما قارناه بالسلام النسبى الذى ساد حتى الآن بعد الحرب العالمية الثانية.

وفى هذا الخصوص، علينا أن نعترف بأن شيرمان كان أكثر مهارة فى تحطيمه لمعنويات سكان الجنوب بدون تعريض كثيرين منهم للقتل، وأنه فعل هذا بطريقة أفضل -بكثير- من جنرالات القرن العشرين. وبالرغم من أنه لم يشتبك مع القوات الكونفيدرالية فى معارك كبيرة حاسمة خلال حملته على أتلانتا، وزحفه نحو البحر؛ إلا أن شيرمان قد أدرك تماماً طبيعة خصمه والكيفية التى يمكن إخضاعه بها. فهو لم يكن فى حاجة إلى معارك حاسمة، وكل ما يحتاج إليه هو تحطيم أسطورة الطبقة العسكرية المتفوقة التى تتميز بالبسالة والشهامة فى الجنوب. وقد عبر شيرمان عن هذه الأفكار فى رسالة كتبها لأحد معارفه من أهل الجنوب:

"لقد كانت أكبر جيوشكم فى ڤيرچينيا وچورچيا تحارب من خلف تحصينات، ولم تجرؤ على الخروج من خنادقها لمقاتلة قوات الشمال التى توغلت فى أراضيكم لمسافات تزيد عن ٥٠٠ ميل فى بعض الأحيان".

كذلك، فإنه من المعروف عن شيرمان تقديره غير العادى للموارد المادية التى أتت بها الثورة الصناعية الجديدة. فحتى قبل أن تبدأ الحرب، فإن شيرمان كان يرى أن المنتجات الصناعية الحديثة ستكون هى العامل الفاصل، وأن الشجاعة والبسالة فى القتال لن يكون لها نفس المكانة التى تمتعت بها خلال العصور السابقة. ولقد أظهر شيرمان بصيرته النافذة خلال مناقشة

مع أحد زملائه فى الأكاديمية العسكرية بلويزيانا (والتى أصبحت تعرف فيما بعد باسم "جامعة ولاية لويزيانا Louisiana State University") –قبل نشوب الحرب الأهلية– عن طبيعة الحرب التى تلوح فى الأفق:

"إن الشمال قادر على تصنيع محركات بخارية، وقاطرات، وعربات سكك حديدية؛ أما الجنوب فإنه بالكاد يستطيع تصنيع الملابس والأحذية. وبالرغم من هذا، فإنكم تندفعون للدخول فى حرب مع أحد أكبر الكيانات الصناعية فى العالم. مما سيجعل الفشل هو النتيجة المحتومة لجهودكم. وفى الواقع، فإن استعدادكم للدخول فى حرب لا تزيد عن كونها عناد أحمق وشحن معنوى فقط لا غير؛ وفيما عدا هذا، فإنه ينقصكم كل شىء، بما فى ذلك الهدف الأساسى الذى تحاربون من أجله ... لو أن أهل الجنوب توقفوا ليفكروا، فإنهم سيرون أن الهزيمة أمر محتوم فى النهاية".

أما بالنسبة لجرانت، فإنه من المحتمل أن تكون آراؤه –فى هذا الصدد– مختلفة عن أراء شيرمان، لأن جرانت كان يؤمن بأن تفوق الشمال من حيث عدد السكان (٢٢ مليون فى الشمال، فى مقابل ٩ مليون فى الجنوب بما فيهم العبيد) هو العامل الحاسم فى الحرب ... بالرغم من أنه لم يعبر عن هذا الرأى صراحة أبداً. من المحتمل أن يكون هذا راجعاً إلى قدرة جيوش الشمال على تحمل خسائر فى الأرواح أكثر من جيوش الجنوب. لكن مثل هذا التفكير يفترض أن أهل الشمال سيتقبلون –بروح رياضية– وقوع هذا القدر من الخسائر بين أبنائهم. وعلى العكس من هذا، فإن شيرمان كان يرى الأمر بطريقة مختلفة. فمن وجهة نظر شيرمان، فإن الشمال تفوق على الجنوب بنسبة ٢٣– ١ فى مجال التصنيع، و١٠– ١ فى مجال إنتاج الأسلحة الحربية، وأكثر من ٢– ١ فى مجال السكك الحديدية والتلغراف. وإلى جانب كل هذا، فإن عامة الشعب فى الشمال كانوا أكثر معرفة بمجريات الأمور، وقادرين على تغيير

آراءهم وموقفهم من الحرب - بين ليلة وضحاها - حسب مقتضيات الأمور. والمعنى المستخلص من كل ما سبق، والذى يظهر لنا عبقرية شيرمان وقدرته على إدراك حقيقة الأمور، هو أن الشمال لديه موارد كافية لتسليح جيوش ضخمة العدد يمكن إرسالها إلى الجنوب لتدمير بنيته التحتية، وإهدار الموارد المحدودة التى يمتلكونها، وأنه من الممكن تحقيق هذا بدون خسارة كبيرة فى الأرواح ... وهو ما سيمكنه من الحفاظ على تأييد عامة الشعب.

هذا وقد تمكن كل من "Grant"، و"Hood"، و"Lee"، من تفهم هذا فى النهاية؛ وأن القصف المدفعى المميت يستطيع القضاء على المئات -بل والآلاف- خلال ساعات قصيرة. وهم فى هذا الصدد، لم يكونوا على استعداد لرفض الاشتباكات التلاحمية على الفور ... بعكس شيرمان، الذى هجر الأساليب القديمة للحرب الغربية المجيدة، والتى ثبت بالفعل عدم صلاحيتها فى هذه الحالة. وبعد بدايته الصعبة فى "Shiloh" (٦ من أبريل من عام ١٨٦٢م)، فإن شيرمان بدأ فى وضع استراتيجية متكاملة جديدة لـــ"الحرب المتنقلة Mobile Warfare" تستطيع تحقيق النصر، وفى نفس الوقت تحافظ على أرواح عشرات الآلاف من الجنود الأمريكان التى تم إهدارها بسبب الأسلحة الجديدة فى معارك شبه متكافئة فى "Antietam"، و"Gettysburg"، و"Cold Harbor".

وفيما بعد، خلال تحليله للدروس المستفادة من الحرب الأهلية، فإن شيرمان أكد -مراراً وتكراراً- على أهمية الفوائد المادية والمعنوية التى يمكن أن يجنيها الجيش من المحافظة على جنوده فى حالة حركة دائمة. لقد كان شيرمان يؤمن بأهمية تحقيق تقدم خطى، يتحرر من قيود القبضة الخانقة للنظام البيروقراطى الذى وضعه القادة الكبار فى مكاتب بعيدة عن ميدان المعركة الفعلى. وبعبارة أخرى، فإنه بمجرد وصولنا إلى ميدان المعركة الفعلى فإن: "الضروريات تبيح كل ما هو محظور بحكم القواعد والقوانين". وفى هذا الصدد، فإنه كلما تمكن القائد الناجح من ضمان أن الغالبية العظمى من جنوده ستعيش لتهنأ بالنصر، كلما تمكن

من أن يطالبهم ببذل المزيد من الجهد والتضحيات المادية خلال هذا الزحف الطويل. وهكذا، فإن كلمات شيرمان وأوامره – فى ميدان المعركة– أصبحت هى القانون الذى يطيعه الجميع ... وليست الأوامر القادمة ممن هم أعلى مرتبة منه، مثل: جنرال "Grant"، وجنرال "Henry Halleck"، و"Lincoln".

من العوامل الإيجابية الأخرى التى تميز بها شيرمان، هى تقديره العظيم لأهمية المخترعات الجديدة ووسائل التواصل الحديثة. فعندما تم إدخال التلغراف والصحف التى يتم طباعتها وتوزيعها على نطاق واسع على مستوى الولاية بأكملها، فإنه أصبح بإمكان عامة الشعب معرفة ما حدث فى ميدان المعركة خلال أيام قليلة أو حتى ساعات. وعادة ما كانت هذه الأنباء، فى غياب القواعد التى تحكم مهنة الصحافة، تشكل فى صورة درامية أو هستيرية. وفى مجتمع توافقى، فإن هذا يعنى أن الخسائر فى الأرواح –مثل التى عاناها الشمال فى معارك "Shiloh"، و"Antietam"، و"Gettysburg"– يمكن أن تتسبب فى حالة من الهلع والهستيريا، وتغطى على القصة الحقيقية التى تصف نجاح استراتيجية الزحف الطويل الذى يهدف لاستنزاف موارد العدو. فى ذلك العصر الجديد، من الممكن للجنرال أن ينتصر فى معركة، وأن يخسر تأييد "الرأى العام" له على المضى قدماً فى تنفيذ الاستراتيجية الموضوعة. وفى هذا الصدد، فإن التقديرات الأولية للانتصارات الصعبة التى تم إحرازها هو أنها كانت باهظة الثمن جداً، ولا تستحق ما بذل فيها من تضحيات. وقد تفهم شيرمان مدى قوة النفوذ الجديد لوسائل التواصل الحديثة خلال تعامله مع مراسلى الصحف الذين يستطيعون تغيير "الرأى العام" وتحويله إلى غير صالحه عن طريق نقل معلومة غير دقيقة أو خبر غير كامل.

ومن الممكن القول بأن "Lee"، و"Grant" كانا جنرالاين أفضل من شيرمان فى مجال نشر القوات فى ميدان المعركة والحفاظ على ثبات أعصابهم خلالها. لكنه علينا تذكير القارئ بأن كلا منهما قد خسر تأييد "الرأى العام" له، وللاستراتيجية التى يدعو إلى تنفيذها. ولعله من

سوء حظ "Lee"، أنه كان فى زمالة مع جنرال طائش ومتهور مثل هود. بعكس "جرانت" الذى كان فى حالة زمالة مع "شيرمان". ومن يعلم، فلو أن شيرمان تولى قيادة جيش الجنوب بدلاً من هود لأمكنه أن يشق طريقه فى أراضى الشمال مسبباً الخراب والدمار للاقتصاد هناك؛ وتحويل "الرأى العام" لغير صالح الحرب ... مما كان سيسمح للجنوب بالانفصال. ومن هذا نرى، أنه كان لدى جرانت قائد أقل منه رتبة (شيرمان)، نجح فى أن يحسّن من صورة جرانت، ويحافظ على تأييد الرأى العام، بما يسمح له بالاستمرار فى تنفيذ استراتيجيته.

فى النهاية، وكما هو الحال مع معظم حالات "الجنرال المنقِذ Savior General"، فإنه تم تجاهل عبقرية الرؤية الاستراتيجية الثورية التى نفذها شيرمان، وغطت عليها الخلافات التى ثارت حول تبنيه لنظرية "الحرب الشاملة Total War". وبالرغم من أن المؤرخين العسكريين قد قدروا استراتيجية شيرمان حق قدرها، وأدركوا أنها هى التى أنقذت حياة كثيرين من الهلاك دون داع؛ إلا أن الملايين من سكان الجنوب –وأعداد مماثلة لهم من أهل الشمال– وصموه إلى الأبد بأنه متوحش وبربرى، وأنه ما كان له أن يتبع مثل هذه الوسائل العنيفة ضد مواطنيه فى حرب أهلية. والغريب فى الأمر، هو أن شيرمان لم يتقبل هذه التهمة بترحاب فقط، وإنما أضاف إليها تهمة أنه هو الذى جلب على نفسه كل هذا من خلال حديثه بحرية مع الجميع ... وبدون أى تحفظات. وفى أحد خطاباته لزوجته، لخص شيرمان هذا التناقض من خلال رغبته فى أن يفسر للأمة الأمريكية حقيقة الحرب وويلاتها؛ وأنه يتقبل النتائج رغم علمه بأنها ستكون غير مستساغة، وهذا نص ما قاله: "أنا على علم بأن ما صرحت به سيتسبب فى غضب ومرارة كثيرين، لكنه سيجعل الجميع يفكرون ويدركون حقيقة الحرب". ومن ناحية أخرى، فإن شيرمان كان يبدو وكأنه يريد أن يتسبب فى صدمة عنيفة للرأى العام، أو على أقل تقدير لم يبال برأيهم فيه عندما كتب لأخيه أثناء الحملة على أتلانتا ما نصه: "لقد كنت أتعشم أن أظل على ما أنا عليه من افتقارى للشعبية".

أسلوب شيرمان

ترى ما هى الطريقة التى اتبعها شيرمان خلال الحرب الأهلية؟ مما لا شك فيه، أن شيرمان قد وضع استراتيجية متكاملة خطط لها بعناية وتنظيم حتى يضمن أن الجيوش الموجودة تحت قيادته ستظل هى الأكثر عدداً، والأفضل من حيث حصولها على ما تحتاج إليه من مؤن وعتاد. وخلال حملته على أتلانتا، فإن شيرمان تعرض للقتل مرتين (مرة فى "Adairsville" ومرة فى "Cassville") عندما كادت تصيبه شظايا من قصف العدو. وخلال قتاله فى "Shiloh" أصيب وجرح فى يده، وفقد حصانه ٣ مرات. وعلى وجه العموم، فإن شيرمان كان نافذ الصبر، ولا يتحمل الوقوف دون حركة. ولقد أدرك أن الجيوش التى لا تتحرك لابد وأن يعلوها الصدأ. أما الجيش الذى يظل فى حالة حركة دائمة فإنه يكتسب المزيد من الثقة بالنفس، وغالباً ما يصبح فى وضع أفضل يؤهله للقتال وتحمل مشاق المعارك.

فكيف يمكن لنا أن نفسر نجاح شيرمان فى الاستيلاء على أتلانتا يوم ٢ من سبتمبر ١٨٦٤م، بدون أن تلحق بجيشه خسائر فادحة فى الأرواح أو العتاد؟ وكيف أمكن له أن يعد لزحفه نحو البحر –الذى استولى خلاله على "Savannah"– فى أعماق أرض الخصم وبالرغم من أن عديد من القوات الكونفيدرالية كانت تلاحقه؟ فى هذا الخصوص، يصبح من الواجب علينا ذكر أن شيرمان كان خبيراً فى كل التفاصيل اللازمة لقيادة قوات بهذه الضخامة. وقبل أن يبدأ حملته العسكرية، كان شيرمان قد أدرك أنه فى حاجة إلى ١٣٠ عربة سكة حديد، كل يوم، حتى يمكن لجيشه أن يتوغل فى الجنوب. وحتى يمكن سد هذه الحاجة، استولى شيرمان على خطوط السكك الحديدية –وما عليها من قطارات– حتى وصل الأمر فى النهاية إلى أنه أغلق تماماً حركة التنقل بالقطارات بين المدنيين. فعندما تتيقن القوات بأنها ستحصل على ما

تحتاج إليه من مؤن وعتاد، وأن قائدهم على قدر كاف من الكفاءة يضمن وصولها باستمرار، فإنها ستقاتل وتواصل زحفها بنفس الحماسة التى بدأت بها عندما تحركت فى يومها الأول. أما أكثر الأمور أهمية، فهى أن شيرمان كان قادراً، دائماً، على توفير مخزون مناسب من المواد التى قد يحتاجها الجيش عندما يبتعد عن خطوط السكك الحديدية، إلى جانب قدرته على تزويد قواته بما تحتاج إليه من أرض الخصم ذاته.

لكى يستمر الجندى فى القتال، لا بد له من الحصول على قدر كاف من الغذاء إلى جانب الذخيرة التى يستخدمها. وقد لخص المؤرخ "John Marszalek" عبقرية شيرمان فى هذا الصدد ... خاصة خلال حملته على أتلانتا، عندما قال:

> "لقد أصبح شيرمان ينظر إلى أى جنوبى – بصرف النظر عما إذا كان جندياً أم مدنياً – على أنه العدو الذى يجب القضاء عليه. ولهذا، نجده يعتبر كل ما على أرض الجنوب من بشر وموارد مادية جزءاً لا يتجزأ من المجهود الحربى الذى يستخدمونه ضده. هذه القدرة على النظر إلى الحرب بطريقة شاملة، إلى جانب قدرته على تنظيم الموارد الضخمة التى كان يحتاج إليها، هى التى جعلته هذا القائد العسكرى العظيم الذى استطاع الاستيلاء على أتلانتا. وحتى قبل أن يبدأ شيرمان فى مناوراته الضخمة، بهذا العدد الهائل من القوات، فإنه كان قد أثبت عبقريته العسكرية بالفعل".

كذلك، فإنه كان يختلف تماماً عن "Johnston"، و"Hood"، لأننا كنا مدركين لحقيقة الهدف النهائى الذى يسعى إليه. فهو لم يكن يخطط للاستيلاء على أتلانتا فحسب، بل كانت لديه رؤية متكاملة تقضى بتدمير موارد العدو أو الاستيلاء عليها خلال زحفه نحو البحر، أو توجهه نحو الشمال داخل أراضى ولايتي كارولينا الجنوبية والشمالية. والعبارات التى تبادلها

"شيرمان" مع "هود" بعد استيلاء الأول على أتلانتا، نشرت فى الصحف والكتب على أنها الدروس التى يمكن تعلمها فيما يتعلق بطبيعة الحرب الحديثة. أما بالنسبة لاعتراضات "هود" بأن شيرمان هو الذى بدأ بقصف أتلانتا حيث كان عديد من المدنيين المختلطين ببطاريات المدفعية الموجودة هناك، وكيف أنه -بعد استيلائه على المدينة- أمر بإخلائها من سكانها المدنيين؛ فإن شيرمان رد ببلاغة وبراعة، معطياً حدوداً جديدة أوسع للحرب الحديثة والمنطق الذى تتبعه:

"باسم المنطق والعقل، أطلب منك أن لا تلجأ إلىٰ الرب العادل بهذه الطريقة التى تدنس كل ما هو مقدس. عندما كنا فى قمة السلام والازدهار، قمتم باستدراج الأمة الأمريكية لهذه الحرب الشعواء التى لم تبق ولم تذر، وقمتم بإهانة العلَم والاستيلاء على المعسكرات وما بها من أسلحة، وألقيتم القبض على جنودنا والحاميات التى أرسلت لحمايتكم من الزنوج والهنود. وقد فعلتم كل هذا، قبل أن يصدر من جهة حكومتنا، ورئيسها المكروه لينكولن أى فعل ضدكم. ثم حاولتم إجبار كنتاكي وميسوري على الانضمام إليكم غصباً؛ وقمتم بتزوير أصوات لويزيانا. وبعدها، أطلقتم القراصنة ضد سفن الشحن غير المسلحة. وطردتم آلاف من عائلات الشمال من أرض الجنوب، وأحرقتم منازلهم، أصدرتم قرارات زائفة من هذا الكونجرس الجنوبى المزعوم تبيح لكم الاستيلاء على أملاك الشماليين للوفاء بديون مزعومة.

فإذا كان من المفروض علينا أن نصير أعداء، فلنقاتل كالرجال بلا نفاق، وادعاءات زائفة بأننا قد خرجنا عن أوامر الدين، والإنسانية".

ومرة أخرى، دعونا نتذكر أنه كان من الممكن لـــ"George Thomas" أن يطارد "چونستون" و"هود" إلى مالا نهاية؛ وأنه كان من الممكن لـــ"جرانت" أن يتجه مباشرة نحو أتلانتا، وأن يخسر ما يقرب من ٨٠,٠٠٠ جندى فى محاولات فاشلة للاستيلاء على المدينة. ومن الواجب علينا أن لا ننسى أن كل جنرال من الجنوب حاول التوجه نحو الشمال –مثل: "چونستون" فى "Shiloh"، و"روبرت ليي" فى "Gettysburg"، و"هود" خارج "Nashville"– قد فشل فى مهمته وخسر جزءاً كبيراً من جيشه، وانتهى به الأمر إلى التراجع مرة أخرى نحو الجنوب. لكن شيرمان أدرك الكيفية التى يمكن بها حماية نفسه من هذا المصير، من خلال الاستمرار فى الزحف البطىء، والتقليل من خسائره فى الأرواح، والاستيلاء على مدينة هامة مثل أتلانتا كي ما يستخدمها فى تحقيق أهداف أعظم وأكثر خطورة ... وهو ما مكن لينكولن من الفوز فى الانتخابات الرئاسية الثانية. والأمر الأكثر أهمية، هو أن شيرمان قد تمكن من ترجمة فلسفته الحربية إلى بيانات بليغة أقنعت كل أفراد الشعب فى الشمال.

إن الاستيلاء على أتلانتا لم يكن مجرد نصر عسكرى عادى، بل إنه نصراً مستحقاً بجدارة لجهود ضخمة بذلت من خلال استراتيجية متكاملة للحفاظ على وحدة الولايات المتحدة الأمريكية؛ وأن شيرمان لم يكن يهدف إلى تقسيم جورجيا وتفتيتها، بل إنه حاول إلحاق الأذى بهم فى حرب بشعة، حتى يقترن اسم "الحرب"، بـــ"الخراب" فى أذهان المدنيين. ومن أكثر الأقوال المأثورة عنهم شهرة: "الحرب جحيم War is Hell"، وقد كرر نفس المعنى –طوال سنوات الحرب الأهلية– فى كل كلمة كتبها أو وجهها للشعب الأمريكى.

كذلك، فإن الانتصارات العسكرية التى حققها شيرمان –مثله فى هذا مثل ثميستوكليز– لم تكن هى النهاية المبتغاة فى حد ذاتها، وإنما كانت مجرد عناصر أساسية لحرب اجتماعية طويلة الأمد، كان يهدف من خلالها إلى تحقيق تغيرات جذرية فى المجتمع الأمريكى. وإذا كان شيرمان قد لاقى الهزيمة، بدلاً من النصر، فى أتلانتا؛ فإنه كان من الصعب على لينكولن –بل من

المستحيل تقريباً– الفوز فى الانتخابات الرئاسية الثانية. ومعنى هذا، هو أن ماكللين هو الذى سيدخل البيت الأبيض. ومن هناك، ستكون هناك ضغوط عظيمة من أجل التوصل إلى حل وسط من خلال انفصال الجنوب عن الشمال، أو على اقل تقدير رضوخ الشمال لعودة نظام العبودية فى ولايات الجنوب.

إن كل هذا، يعنى ببساطة أنه لولا نجاح شيرمان فى احتلال أتلانتا خلال الأيام الأولى من شهر سبتمبر عام ١٨٦٤م لكانت الولايات المتحدة الأمريكية مختلفة تماماً عن التى نعرفها الآن.

فيكتور دافيز هانسون.

الفصل الرابع "بقلم ڤيكتور داڤيز هانسون"

بتراس وإنقاذ حرب العراق

كان يوم ١١ من سبتمبر من عام ٢٠٠٧م فى طريقه لأن يصبح أحد الأيام الطويلة التى مرت على "Capitol Hill"*، فقد كان من المقرر أن يقدم أحد الجنرالات شهادته أمام الكونجرس بخصوص ما يحدث فى العراق. جنرال "دافيد بتراس David Petraeus" قائد القوات متعددة الجنسيات فى العراق، كان يعتقد أن لديه أنباء طيبة عن الطفرة التى أحدثها وجود ٣٠,٠٠٠ جندى أمريكى إضافى فى العراق؛ أرسلت إلى هناك من أجل إخماد العنف المتصاعد. حتى الآن، مضى ما يزيد عن أربع سنوات على الجهود التى تبذل فى العراق من أجل القضاء على الفوضى المميتة التى تفشت هناك بعد التدخل الأمريكى. وكان بتراس يعتقد أن هذه القوات الإضافية قادرة على إحداث التوازن اللازم ونشر الأمن داخل العاصمة العراقية. وخلال عامه الأول فى قيادة القوات كان بتراس يعتقد أنه قادر على تقديم تفسيرات مقنعة –لرؤسائه من المدنيين فى العاصمة الأمريكية– بخصوص تزايد حجم العنف والفوضى، وما إذا كانت القوات الإضافية ذات تأثير إيجابى فى خفض هذا العنف. لقد كان بتراس يأمل فى إقناع الكونجرس بأن يستمر فى تأييده للاستراتيجية المطبقة حالياً خاصة وأنها كانت قد بدأت فى إظهار نتائج إيجابية ملموسة.

---

* مقر الكونجرس الأمريكى بمجلسيه (مجلس الشيوخ، ومجلس النواب). (عادل نجيب)

هذه القوات الإضافية، كان قد تم إرسالها فى بداية عام ٢٠٠٧ م تنفيذاً لوعد الرئيس بوش الابن بإرسال المزيد من القوات لميدان المعركة قبل شهر يونيو. استعد بتراس لتوضيح شهادته أمام الكونجرس بجداول إحصائية وخرائط تفصيلية، آملاً أن يتمكن من إقناع قادة الكونجرس بأن تلك الزيادة فى القوات، إذا ما اقترنت بالتغييرات التكتيكية التى وضعها بنفسه، فإنها ستمثل الحل الأمثل للمشاكل التى يواجهونها فى العراق ... وتقضى على العنف المتزايد هناك.

وفى واقع الأمر، فإن فرق مكافحة العنف قد انتشرت بعيداً عن أماكن تمركزها الأصلية الآمنة، وأخذوا يمارسون عملياتهم بطريقة "لا مركزية"، مركزين جهودهم على حماية العراقيين من العنف الطائفى، وضمان وصول الخدمات الأساسية لمستحقيها من المدنيين. كان هدف بتراس هو أن يفسر لرؤسائه من المدنيين السبب فى إحداث هذه التغيرات التكتيكية، والتى تطلبت إرسال هذا العدد الكبير من القوات الإضافية، لقد كان يأمل فى إقناعهم فى أن زيادة عدد القوات سيقلل من عدد القتلى بين الجنود الأمريكان، وبين العراقيين أنفسهم، عندما يتم تخفيض عدد العمليات الإرهابية التى ترتكب كل يوم؛ وأن هذا التقدم الإيجابى سيتزايد معدله مع مرور الزمن ... وهو ما يتطلب –حسب رأى بتراس– استمرار تأييد الكونجرس وتمويله لهذه التقنية الجديدة. وهكذا، فإنه كان يأمل فى إقناعهم بأن هذه الحرب غير المحبوبة (حرب العراق أو حرب الخليج الثالثة) لم يتم خسارتها بعد.

جلس بتراس مع السفير الأمريكى فى العراق يتصفحان الأنباء الطيبة المتعلقة بمعدلات التقدم فى إنجاز أهدافهم فى العراق؛ والتى تراوحت ما بين تزايد قدراتهم على إنتاج الكهرباء، وحتى وصلت إلى قدرتهم على تخفيض أعداد القتلى بين الأمريكان خلال الشهرين السابقين. وتم تلخيص كل هذا، فى الكلمة التى ألقاها بتراس أمام الكونجرس:

"لقد تمكنا من تحقيق نسبة كبيرة جداً من الأهداف العسكرية الموضوعة.

وتم القضاء على كثير من الحركات الإرهابية التابعة لتنظيم القاعدة، أو

على أقل تقدير لحقت بهم خسائر كبيرة فى الأرواح. كذلك، نجحنا فى منع عديد من التنظيمات الشيعية المتطرفة من تنفيذ عملياتها الإرهابية. وانخفض عدد القتلى بين قواتنا خلال شهر سبتمبر ٢٠٠٧م إلى ٦٨ قتيل فقط بدلاً من ١٢٦ قتيل خلال شهر مايو الماضى".

وطبقاً لما ذكره بتراس، فإن السبب فى هذه الأنباء الطيبة هو العراقيون أنفسهم، والذين بدأوا فى المشاركة بفاعلية دفاعاً عن أمنهم. وفى هذا الصدد قال بتراس:

"إن تزايد أعداد قوات الأمن العراقية قد مكنها من تحمل قدر أكبر من المسئولية، وحياة المدنيين فى العراق تتحسن تدريجياً".

ومضى الجنرال الأمريكى فى شهادته أمام الكونجرس مؤكداً لهم أن العراقيين قد بدأوا ينظرون إلى القوات الأمريكية على أنها شريك لهم، وليست قوات احتلال. كذلك، فإنه هناك العديد من العلامات الإيجابية التى تشير إلى تزايد مستوى الاستقرار السياسى فى العراق مع انخفاض حجم العنف الحادث هناك. وختم بتراس شهادته أمام الكونجرس بقوله:

"إن كل رجال ونساء القوات المسلحة قد أدوا واجبهم على أكمل وجه، وفى مواجهة صعوبات وعراقيل هائلة. وعلى جميع أفراد الشعب الأمريكى أن يفخروا بأفراد القوات المسلحة الأمريكية التى استطاعت -خلال فترة قياسية- أن تحقق كل هذا فى العراق".

أما السفير الأمريكى فى العراق، فإنه شاركه التفاؤل، وإن كان أكثر حذراً منه فى تقديره لنتائج الطفرة الأمنية التى تم إنجازها فى العراق. وحذر فى كلمته المترددين من أعضاء الكونجرس فى تأييد زيادة عدد القوات:

"لا يمكن لى أن أضمن النجاح فى العراق. وكما ذكرت من قبل، فإن نجاحنا فى تحقيق أهدافنا فى العراق هو أمر ممكن، إذا حصلنا على ما نحتاج

إليه من مدد. أنا على يقين من أن الفشل سيكون مصير جهودنا إذا تم تقليص حجم القوات أو تبنّى تقنيات وتكتيكات مخالفة لما هو متبع الآن ... أتعشم أن أكون قد أوضحت هذا الأمر بما فيه الكفاية لكم".

إن الإجابة على التساؤل الخاص بما إذا كان جنرال بتراس والسفير الأمريكى فى العراق قد تمكنا من إقناع النواب فى مجلس الشيوخ بضرورة القوات الإضافية التى أمر بها الرئيس بوش الابن، ليست سهلة على الإطلاق. فمن ناحية، هناك عديد من مشاهير الديمقراطيين من أمثال: "Joe Biden"، و"Hillary Clinton"، و"Chris Dodd"، والذين لم يكتفوا بتأييد الحرب والتصويت لها فى أكتوبر من عام ٢٠٠٢م، بل قاموا بتأنيب حكومة بوش الابن –فيما بعد– لأنها لم ترسل قوات كافية تستطيع فرض السلام فى العراق.

وفى أكتوبر ٢٠٠٢م، تم إلقاء خطب عديدة مؤيدة للحرب من قبل نواب مثل: "Joe Biden"، و"John Kerry"، و"Harry Reid"، وكانوا جميعاً يدعون لبذل كل عزيز وغال من أجل التخلص من "صدام حسين" بزعم أنه نقض الاتفاقات السابقة؛ وأنه يسعى، الآن، للحصول على أسلحة دمار شامل. وفى حقيقة الأمر، فإن أولئك الديمقراطيين المؤيدين للحرب فيما سبق، كانوا قد أعطوا تأييدهم للتخلص من صدام، على اعتبار أنه استمرارية لسياسات حكومة كلينتون الرسمية الداعية لتغيير نظام الحكم فى العراق. وبهذا، فإن الاستجوابات المقدمة لحكومة بوش الابن – الآن – تعتبر بالنسبة لهؤلاء الديمقراطيين فرصة عظمى، ومناسبة كبيرة تسمح لهم بإظهار مدى معاداتهم للحرب الدموية المكلفة فى العراق، وأنهم يقفون بكل قوة وحزم ضد هذه الحرب الآن، مثلما أيدوها بكل قوة منذ أربع سنوات مضت.

وفى هذا الصدد، علينا توضيح أن فكرة الحرب على العراق –من وجهة نظر الرأى العام الأمريكى– قد تغيرت بسرعة من "فكرة رائعة" لحرب سينتصر فيها الجيش الأمريكى خلال ثلاثة أسابيع أو أقل فى أبريل من عام ٢٠٠٣م، إلى مستنقع آخر شبيه بفيتنام تورط فيه

الجيش الأمريكى خلال الشهور الأولى من عام ٢٠٠٤م. فما هو الموقف الآن، فى شهر سبتمبر من عام ٢٠٠٧م؟ لا أحد يعلم. وهكذا، فإن "الفكرة الرائعة" التى تبناها الجميع منذ أربع سنوات فقط لا غير، أصبحت الآن "يتيمة" لا يريد أحد أن يعترف بأن له أى صلة بها.

ولعل أكثر التساؤلات اللاذعة حدة، هى تلك التى أثارها الكونجرس عندما قاموا بخلع "Douglas MacArthur" خلال الحرب الكورية منذ حوالى ٦٠ عاماً مضت (مايو ١٩٥١م). فى هذه المرة، أيضاً، كانت أسئلة النواب لاذعة، وتشكك معظم النواب فى صدقه. وبالرغم من أن قيادة القوات متعددة الجنسيات فى العراق لم تكن تقيس "النجاح" و"الفشل" بمعيار عدد القتلى من الجنود الأمريكان، إلا أن الخسائر فى الأرواح وصلت خلال عام ٢٠٠٧م إلى أكبر معدلاتها منذ بداية الحرب، وإن كان هناك تناقص تدريجى فى هذه المعدلات خلال شهرى أغسطس وسبتمبر من هذا العام. وستكون حصيلة القتلى مع نهاية هذا العام هى ٩٠٤ جندى أمريكى. وبالطبع، ستتزايد هذه الحصيلة خلال عام ٢٠٠٨ عندما يتم تطبيق التقنيات التى تقضى بخروج القوات بعيداً عن مراكزها المحصنة، لتبدأ فى الاختلاط بجموع الشعب العراقى من المدنيين. أما الاستراتيجية السابقة لجنرالات مثل "Casey"، و"Abizaid" فإنها كانت تقضى بعدم الظهور كثيراً فى الشارع العراقى إلا لمقتضيات الضرورة القصوى فى جو سياسى كان يهتم بعدد القتلى من الجنود الأمريكان أكثر من اهتمامه بالقضاء على العنف العرقى والطائفى. وفى بعض الأحيان، أظهر عدد من النواب فى الكونجرس الأمريكى رفضهم لبتراس واستراتيجيته الجديدة، لأن جلسات الاستماع هذه حدثت خلال بدايات الحملة الانتخابية الرئاسية لعام ٢٠٠٨. وعلينا توضيح أن بتراس لم يكن القائد الأعلى فقط، ولكنه أصبح – أيضاً– رمزاً لاستراتيجية أكثر اتساعاً تمثل الجهود السياسية الراغبة فى تبرير الحرب على العراق. أما الرئيس الأمريكى المغلول اليدين فإنه كان فى أضعف حالاته، بسبب انخفاض شعبيته إلى أدنى درجاتها منذ اعتلائه مقعد الرئاسة لأول مرة. كذلك، فإن حزبه (الحزب

الجمهورى) كان فى حالة فوضى شاملة بعد الخسارة المؤلمة التى لحقت به فى الانتخابات النصفية للكونجرس عام ٢٠٠٦م؛ تلك الانتخابات التى أصبحت تعتبر استفتاء علنياً ومفتوحاً يظهر للجميع كيف أن الحرب على العراق قد أصبحت مرفوضة تماماً من قبل الرأى العام الأمريكى. خلال هذه الفترة، كان على أى مرشح ديمقراطى للسلطة أن يظهر رفضه التام لحرب العراق ... إذا كان يريد جذب الرأى العام الأمريكى لصفه. وخلال جلسات الاستماع التى نتكلم عليها، كان معظم النواب قد قرروا استغلال فترات ظهورهم الإعلامية فى إظهار أن بتراس، وإدارة بوش الابن، يعرضون أرواح جنودهم وموارد البلاد للضياع فى معركة خاسرة فى مستنقع العراق.

وبالطبع فإن النواب القائمين على استجواب بتراس كانوا على علم كاف بأن استطلاعات الرأى الأخيرة قد أظهرت أن ٦٤٪ من الشعب الأمريكى لا يوافق على الحرب فى العراق. وهو ما أشاع حالة من الرفض بين جميع النواب فى الكونجرس تجاه السيناريوهات الوردية التى حاول بتراس أن يقنعهم بها؛ فلم يكن من المعقول أن يتقبلوا آراء أعلن الشعب الأمريكى رفضه لها. بعد انتهاء بتراس من تقديم شهادته بلحظات، ظهر كثير من النواب فى لقاءات مخصصه لهذا الغرض تحديداً، أظهرت رفضهم للآراء المتفائلة التى حاول بتراس إقناعهم بها. ومن ناحية أخرى، فإن السيناتور هيلارى كلينتون تقدمت على كل منافسيها الديمقراطيين فى استطلاعات الرأى التى أجريت نهاية عام ٢٠٠٧م؛ وأصبحت هى المرشح الأول لحزبها فى انتخابات الرئاسة القادمة (بالطبع سيتغير هذا الوضع –كما هو معروف– خلال عام ٢٠٠٨م). وبعد انتهاء بتراس من شهادته، انتقدته هيلارى بشدة، وكان ملخص كلامها، هو أنه لا يمكن الثقة بقدرة بتراس على تنفيذ تقنياته الوردية على أرض الواقع، عندما قالت:

"أعتقد أن التقارير التى قَدمتها لنا تبدو غير معقولة، وكل المعايير التى استخدمتها خلال الساعات الطويلة التى إستغرقتها شهادتك أمام

الكونجرس، لا تشير إلى أن التكتيكات الجديدة المستخدمة ستحدث التأثير المطلوب؛ بل إن العكس صحيح".

ومن الصعب - فى هذا الخصوص- الحكم على ما إذا كانت هيلارى تتهم بتراس بتقديم بيانات زائفة عن عمد، أم أنها تقدم تحليلات ماكرة للمعلومات الصحيحة التى عرضها بتراس على الكونجرس. وقد حدث هذا، لأن هيلارى كانت تبدو قلقة من أن منافسها الأول على ترشيح الحزب الديمقراطى لمنصب الرئاسة، باراك أوباما، والذى لم يكن سيناتور فى أكتوبر من عام ٢٠٠٢م، عندما سمح الكونجرس باستخدام القوة لإخراج صدام حسين من العراق (صوتت هيلارى بالموافقة على هذا القرار)، قد أعلن بالفعل موقفه الصريح ضد الحرب فى العراق. وعلى أية حالة، فإنها غيرت موقفها، وأعلنت منذ الشهور الأولى فى عام ٢٠٠٧م رغبتها سحب القوات الأمريكية فى العراق من جانب واحد. عندما أعلنت: "لقد حان وقت الرحيل عن العراق".

وعلينا تذكر أن معظم المرشحين لمنصب الرئاسة لم يهتموا بتوجيه أى أسئلة لبتراس أو السفير الأمريكى فى العراق. وعلى سبيل المثال، فإن السيناتور أوباما قام بتوجيه النصح لهما لمدة سبع دقائق، ولم يترك لهما أى فرصة للرد على ما قاله أو للتعقيب على نصائحه من أي منهما، عندما قال:

> "لقد أصبحت معاييرنا الآن شديدة الانخفاض حتى أننا نعتبر أى تحسن طفيف فى الموقف طفرة، وأصبحنا مستعدين لتقبل مستويات العنف غير المقبول التى كانت سائدة خلال يونيو من عام ٢٠٠٦م، ونعتبرها النجاح المشهود الذى نبتغى الوصول إليه ... والأمر ليس كذلك. إن استمرار الحال على ما هو عليه الآن، يعتبر كارثة بالنسبة لسياستنا الخارجية، وخطأ لا يجب السماح باستمراره".

ورغم قسوة العبارات الأخيرة، إلا أنها تعتبر رحيمة مقارنة بتأكيداته السلبية التى صرح بها فيما سبق. لكنها –على أية حال– كانت تمثل حقيقة شعور الرأى العام الأمريكي بالضجر من الحرب التى استمرت، حتى الآن، لأكثر من خمس سنوات. وهو قد نظر بتشاؤم إلى أخبار الطفرة الناتجة عن التكتيكات الجديدة وزيادة أعداد القوات قائلاً:

"أنا لم اقتنع بأن إرسال ٢٠,٠٠٠ جندى إضافى إلى العراق، سيحل مشكلة العنف الطائفى هناك. وفى الحقيقة، فإننى أعتقد أن العكس هو الذى سيحدث".

وهكذا، فإنه لم يعد هناك أى شك فى إيمان سيناتور أوباما فى أن "الطفرة" فى عدد القوات الأمريكية فى العراق ستجعل الأمر يزداد سوءاً وليس العكس. وخلال الأيام التالية، صرح أوباما:

"خلال كل أحاديثى مع الخبراء المتخصصين فى منطقة الشرق الأوسط، والعسكريين الذين عملوا هناك، لم أجد من يوافق على أن زيادة عدد القوات الأمريكية هناك سيحدث أى فارق جوهرى فى الموقف على الأرض".

وفى شهر يناير من عام ٢٠٠٧م، دعا أوباما لسحب كل القوات الأمريكية المقاتلة فى العراق قبل نهاية مارس من عام ٢٠٠٨م. وهكذا، فإنه أصبح من المفترض أن يبدأ سحب القوات قبل السماح للطفرة بأن تبدأ. وحتى مع بداية ظهور النتائج الأولية للطفرة، فإن أوباما استمر على إصراره على أن زيادة أعداد القوات هى خطة فاشلة، وفى الدعوة إلى سحب القوات. لقد كان هذا نتيجة لتزايد الضغوط من جانب الرأى العام المعارض للحرب. وعلى سبيل المثال، فإنه خلال الجولات الانتخابية التى قام بها فى ولاية "New Hampshire" يوم ٢٠ من يوليو ٢٠٠٧م، أعلن أوباما صراحة فشل هذه التقنية فى حرب العراق عندما قال:

"إن كل ما أعرفه، هو أن هذه "الطفرة" لم تنجح فى الوصول بنا إلى ما هو متوقع منها من نتائج".

ومع حلول موعد جلسة الاستماع فى ١١ من سبتمبر ٢٠٠٧م، كان قد أصبح من الواضح، أنه من صالح المرشح الرئاسى أوباما أن يظهر سياسته الخارجية الناشئة على أنها معارضة لتقنية "الطفرة"، والتى توقع فى الماضى فشلها. أما الآن، فإنه ظهر على شاشات التليفزيون فى كل أنحاء أمريكا –مثله فى هذا مثل غيره من أعضاء الكونجرس– متحفزاً لإثبات عدم صدق بتراس فى شهادته التى قدمها خلال جلسة الاستماع، وإجباره على الاعتراف بأن تكهناته السابقة كانت خاطئة.

أما بالنسبة لعضو لجنة العلاقات الخارجية بمجلس النواب، وعضو الحزب الديمقراطى "Joe Biden"، فإنه زار العراق عدة مرات فيما سبق. وقبل جلسة الاستماع بيوم واحد استبق رفض هيلارى لشهادة بتراس عندما أكد للشعب الأمريكى أن بتراس مخطئ تماماً فى تكتيكاته. وفى اليوم التالى، خلال جلسة الاستماع نفسها، شكك "Joe Biden" فى صحة الإحصائيات التى قدمها بتراس، وذكر بعض القصص والحكايات التى تثبت –من وجهة نظره– استحالة التنقل والسفر داخل العراق. ثم أخذ يحاضر بتراس، باستعلاء، عن "خطته الخاصة"؛ والتى تقضى بتقسيم العراق وإنشاء ثلاث دول مستقلة: كردية فى الشمال، وسنية فى الوسط، وشيعية فى الجنوب. وهو المشروع الذى قدمه لمجلس النواب باعتباره "قراراً غير ملزم Nonbinding Resolution" ... وتم نسيانه تماماً، فيما بعد، عندما انخفضت حدة العنف فى العراق.

لم يكن عضو الأغلبية "Harry Reid"، عضواً فى لجنة العلاقات الخارجية بمجلس النواب. وآراؤه فى هذا الخصوص، كانت أكثر حده وتطرفاً من آراء باقى النواب. حتى أنه قبل جلسة الاستماع بخمسة شهور، فى أبريل من عام ٢٠٠٧م، أعلن:

"لقد خسرنا هذه الحرب، والتقنية الخاصة بـــ"الطفرة" لم تحقق أى نجاح".

لم تمض فترة كبيرة على هذا الإعلان، عندما بدأ النواب -بما فيهم "ريد"- يشككون فى التكهنات المتفائلة التى ذكرها بتراس فى شهادته أمام جلسة الاستماع. وادعى "ريد" أن بتراس قد خرج بعدد من التصريحات، خلال السنوات الماضية، لم يثبت صحة أي منها. وخلال نفس هذه الفترة، صرح المرشح الرئاسى "Dodd scoffed"، بأن بتراس يخبرنا بالأشياء التى تسعدنا فقط.

وهكذا، فإن غالبية النواب كانوا يرون أن شهادة بتراس أمام جلسة الاستماع لم تكن شهادة صادقة كل الصدق ... بالرغم من أنه قد تم تأديتها بعد حلف اليمين. أما بالنسبة لرئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس النواب "Tom Lantos"، فإن انتقاده لبتراس والسفير الأمريكى فى العراق لم يكن أكثر من عبارات منمقة تغطى اعتقاده بأن شهادهما غير أمينة، بل ومضللة، عندما قال: "لا يمكن لنا تقبل التأكيدات المقدمة بخصوص العراق على علاهما".

لكل هذا، أصبح بتراس، وتقنية الطفرة، أمراً مكروهاً مع تزايد كراهية الرأى العام للحرب الدائرة فى العراق. وبدأ البعض ينظرون إليه على أنه مدافع متحيز لإدارة رئيس أمريكى لا يتمتع بأى شعبية، بدلاً من أن ينظروا إليه على أنه جنرال يحاول الانتصار فى حرب خاسرة خاضتها بلاده ... ولم يخطط هو لها منذ البداية.

ووصل الأمر، إلى أن بعض ردود الأفعال كانت شديدة الحدة، مثل العنوان الذى خرجت به جريدة "نيويورك تايمز"، رغم مخالفته لسياسات الجريدة ذاهما والتى تقضى بعدم قبول إعلانات بها جناس أو سجع؛ عندما ذكر العنوان هذا التساؤل المهين: "هل اسمه جنرال بتراس أم جنرال خيانة؟ GENERAL PETRAEUS <u>OR</u> GENERAL <u>BETRAY US</u>?".

لقد أوحى مثل هذا الإعلان بأن بتراس كاذب فى شهادته، وربما يكون خائناً. وفى هذا الصدد، فإنه من المفترض أن قائداً عسكرياً مثل بتراس كان فى حالة صراع دائم مع الحقائق،

ويستطيع استبعاد الكذب والخيال من التقارير التى يقدمها. وبهذا، فإن الإعلان السابق أكد على أن بتراس قدم معلومات مغلوطة للكونجرس وللشعب الأمريكى؛ وأنه من المرجح أن يكون خائناً.

وخلال كل هذا، لم يكن هناك كثير من النواب، أو وسائل الإعلام، القادرة على رؤية أن تقنية "الطفرة" قد بدأت بالفعل فى تحقيق أهدافها؛ وبالرغم من تزايد مستوى العنف خلال الـــ١٢ شهراً التالية ليونيو ٢٠٠٦م. وفى الواقع، وبالرغم من أن عام ٢٠٠٧م كان أكثر الأعوام سوءا من حيث عدد الضحايا، فإن الخسائر فى أرواح الجنود الأمريكان ستنخفض إلى النصف خلال عام ٢٠٠٨م، وسيتكرر هذا مرة أخرى خلال عام ٢٠٠٩م. وكما قال بتراس فإن عدد الضحايا بين العراقيين قد انخفض بشدة خلال عام واحد فقط، من ٣,٣٨٩ قتيل فى سبتمبر ٢٠٠٦م، إلى ٧٥٢ قتيل فقط فى سبتمبر ٢٠٠٧م.

هذه الأرقام، لا تدل –بالضرورة– على أن المتمردين قد خسروا الحرب، وإنما تدل على أن القوات الأمريكية لديها فرصة أكبر لفرض الاستقرار والأمن فى العراق.

وعلينا تذكر أنه لم يكن هناك ما يدل –حتى تلك اللحظة– على أن أعداد الضحايا من الجنود الأمريكيين ستنخفض بحدة حتى تصل إلى ٢٣ جندياً فى شهر ديسمبر ٢٠٠٧م. وهو أقل عدد تم تسجيله منذ الشهور الأولى لعام ٢٠٠٤، عندما بدأ العنف يتزايد ليصل إلى حد الحرب المفتوحة. وكلما حاول بتراس إقناع الكونجرس بأن البيانات الأولية لديه تدل على أن تقنية الطفرة قد بدأت فى النجاح بالفعل، وأنها هَدَّأت من الوضع فى العراق؛ كلما زاد تجاهلهم لها ولشهادته، وازداد انحيازهم لغضب الرأى العام على هذه الحرب.

كان المزاج السائد لدى الشعب الأمريكى –والعالم ككل– لا يزال منحازاً ضد الحرب، حتى قبل أن تبدأ؛ وبطريقة لم نرها من قبل إلا خلال سنوات حرب فيتنام، أو حقبة ما قبل الحرب الأهلية الأمريكية. ووصل الأمر إلى أن مخرج الأفلام الوثائقية الأمريكى المثير للجدل

"Michael Moore" بدا وكأنه يتمنى النصر للمتمردين، عندما قارنهم بالثوار الأمريكان خلال حرب الاستقلال عن انجلترا. وفيما يبدو، فإن "مور" رأى أن تزايد عدد القتلى الأمريكان هو عقاب إلهى بسبب قرارنا غير الحكيم بالتدخل بطريقة لا أخلاقية فى أمور لا تعنينا، عندما قال:

"إن العراقيين الذين يحاربون القوات الأمريكية المحتلة، ليسوا "متمردين" أو "إرهابيين" أو "الأعداء"، إنهم الثوار الذين سيتزايد عددهم حتى ينتصروا. حاول أن تتفهم هذا يا سيد بوش! أنا آسف، لكن غالبية الشعب الأمريكى أيدت الحرب عندما بدأت. وللأسف، فإنه يجب على الغالبية –الآن– دفع ثمن هذا الخطأ من خلال دماء أبنائهم المراقة فى العراق ... حتى ندفع الثمن كاملاً. وربما يغفر لنا الله والعراقيون ما فعلناه".

كذلك، تم التعبير عن هذا الغضب من خلال وسائل أخرى، مثل القصة التى كتبها "Nicholson Baker" فى عام ٢٠٠٤، تحت اسم "Checkpoint". والتى تتحدث عن اغتيال القائد الأعلى فى زمن الحرب "جورج بوش الابن". وتكررت نفس الفكرة، فى أحد أفلام مهرجان تورنتو السينمائى عام ٢٠٠٦م (فيلم "موت رئيس Death of a President")، والذى فاز بجائزة النقاد. وفى افتتاحية جريدة "Guardian" الإنجليزية تمنى صحفى يدعى "Charles Brooker" لو أنه كان من الممكن عودة أشخاص مثل: "John Wilkes Booth"، و"Harvey Oswald"*، عندما قال: "أين أنتم عندما نحتاج إليكم؟". إن مثل هذه الكراهية العالمية تجاه جورج بوش الابن، بدت وكأنها قابلة للانتقال إلى أى شخصية مدنية أو عسكرية

---

* هم القتلة الذين قاموا باغتيال "إبراهام لينكلون"، و"جان كينيدى" على التوالى. وهو بهذا يشير إلى أن ذلك الصحفى كان يتمنى لو أن أحد هؤلاء القتلة المحترفين قد عاد إلى الوجود –مرة أخرى– وقام بتخليصهم من جورج بوش الابن أيضاً. (عادل نجيب)

استمرت فى تأييدها لقراره بدخول الحرب فى العراق؛ والتى يجب أن تنتهى –من وجهة نظرهم– لانتصار المتمردين وانسحاب القوات الأمريكية بطريقة مذلة وبائسة. ومما لا شك فيه، أنه كان هناك –فى الخفاء– كثير من الضباط والجنود المعارضين للحرب فى العراق منذ البداية؛ والذين شعروا أن المنطق الاستراتيجى لهذا التدخل العسكرى غير سليم. ومع هذا، فإنهم كانوا يدركون أن أسوأ شىء يمكن فعله فى حرب لم يتم التخطيط لها بطريقة جيدة، هو الخروج منها مهزومين، أو الانسحاب بطريقة مذلة.

كيف أمكن لجنرال لا دخل له بالسياسة، وغير معروف فى السابق، مثل بتراس،أن يجد نفسه –وسط هذه الدوامات من الاضطرابات الهائلة– يحاول إنقاذ حرب يتيمة، كانت فيما مضى محل تأييد ٧٠٪ من الشعب الأمريكى، ووافق عليها كِلا المجلسين فى الكونجرس، وكان ينظر إليها على أنها أهم نجاحات إدارة بوش الابن فى تفتيت الوشائج التى تربط بين الحكومات الاستبدادية فى الشرق الأوسط والإرهاب العالمى.

كيف انتقلنا من "أنجزنا المهمة" إلى "كابوس مذل"
(مارس ٢٠٠٣- ديسمبر ٢٠٠٦م)

لقد كان هناك العديد من الأسباب الواضحة، والأقل وضوحاً، فى أن الرأى العام قد رحب فى البداية بهذه الحرب الثانية –بعد أحداث ١١ من سبتمبر ٢٠٠١م– المثيرة للجدل. من الناحية العملية، فإن الحرب الأولى فى أفغانستان، كانت قد بدأت قبل حرب العراق بـــ١٨ شهر (فى يوم ٧ من أكتوبر ٢٠٠١م على وجه التحديد) وتطورت بطريقة رائعة، ومن خلال تأييد ٨٨٪ من الرأى العام الأمريكى لها، وبالرغم مما أشيع عن أن أفغانستان هى: "مقبرة الإمبراطوريات The Graveyard of Empires"، وأنه من غير الممكن تحريرها من نفوذ تنظيم

"طالبان". وبالرغم من كل هذه التوقعات المتشائمة، فإنه تم التخلص من آخر كوادر طالبان وطردهم خارج مدن أفغانستان قبل نهاية شهر ديسمبر عام ٢٠٠١م. أى أنه تم إحراز النصر خلال حوالى تسعة أسابيع فقط من بداية الغزو، ولم يسقط من الضحايا إلا ١٢ جندياً أمريكياً فقط لا غير. ومع حلول شهر يناير من العام التالى، كان شيوخ القبائل الأفغانية يجتمعون فى أوربا، من أجل تشكيل دولة شبه دستورية. وخلال ما تبقى من عام ٢٠٠١م، كانت فكرة أن بواقى كوادر طالبان ستكون قادرة على الاستمرار فى قتل الجنود الأمريكان تبدو بعيدة وغير معقولة.

فى هذا الصدد، كانت الأمم المتحدة قد وافقت على التدخل العسكرى فى أفغانستان واحتلالها. ولهذا، قامت الدول الأوربية الأعضاء فى حلف الـــ"ناتو NATO" –كما فعلوا من قبل فى حالة الحرب الكورية– بالمشاركة بقوات لحفظ السلام، وليعاونوا فيما بدا وكأنه تحول مذهل من حكومة ثيوقراطية (حكم رجال الدين) إلى حكومة قريبة الشبة من الحكومات الديمقراطية. وانتشر التفاؤل، فإذا كان من الممكن تحرير أفغانستان فى أقل من تسعة أسابيع، ووضع حكومة توافقية خلال أربعة شهور؛ فإنه من الممكن تكرار هذا فى العراق، خاصة أن الجيش الأمريكى قد انتصر على العراق بسهولة فى عام ١٩٩١م. وبالمثل، فإنه من الممكن خلال نزهة عسكرية لثلاثة أو أربعة أسابيع إسقاط نظام صدام. وخلال عام واحد، يكون من الممكن تشكيل حكومة انتقالية. كان هذا –على أقل تقدير– هو تفكير المؤيدين للحرب فى العراق، وعدد كبير من عامة الشعب الأمريكى.

وافق الكونجرس الأمريكى يوم ١١ من أكتوبر عام ٢٠٠٢ – بنسبة كبيرة من كِلا المجلسين – على قرار مشترك يسمح باستخدام القوة لإسقاط صدام حسين. وكان البعض يشعر بأن هذا القرار ليس إلا صياغة جديدة لقرار الكونجرس فى عام ١٩٩٨م، والذى أذن لهم باتخاذ اللازم من أجل "تغيير النظام Regime Change" فى العراق. وأيده، ووقع عليه،

الرئيس الأمريكى السابق "بيل كلينتون". من الواضح أن غالبية أعضاء الكونجرس شعروا بأنه بعد مرور ١٢ عاماً من الحرب الباردة مع صدام حسين ونظامه، كانت الطائرات الأمريكية خلالها تجوب سماء شمال وجنوب العراق فيما عرف باسم: "المنطقة المحظور الطيران فيها"، إنه قد حان الوقت لمواجهة هذا النظام؛ خاصة أنه كان يؤيد أنواعاً مختلفة من الإرهاب بين الحين والآخر، فى بيئة ترفض هذا ... خاصة بعد أحداث ١١ من سبتمبر ٢٠٠١م. خلال هذه الفترة، تقبل الكثير من حلفاء أمريكا التقليديين، مثل: إنجلترا، وإيطاليا، وأسبانيا، وبولندا، وأستراليا، وغيرها قرار أمريكا بإجبار صدام حسين على الخضوع لقرار الأمم المتحدة؛ حتى لو تراجع مجلس الأمن عن التصريح باستخدام القوة لإزالة هذا النظام المستبد، وحتى إذا استمرت دول مثل فرنسا وروسيا فى معارضتهما الصريحة لهذا القرار.



ثلاثة من جنود أمريكا، أثناء اقتحامهم لأحد قصور صدام حسين الموجودة فى بغداد، خلال الأسابيع الأولى من العملية العسكرية التى أطلق عليها اسم: "الحرية العراقية **Iraqi Freedom**".

وطبقاً لهذا، أصدر الكونجرس الأمريكى وثيقة رسمية ذكرت ٢٣ سـبباً للدخول فى هذه الحرب ضد العراق، موثقة كل ما يمكن تخيله من أسباب تبرر إعلان الحرب على العراق، وتسمح لأمريكا باستخدام القوة ضدها. وتراوحت الأسباب الموثقة بين المذابح التى ارتكبها صدام ("استمراره فى استخدام طرق وحشية لكبت السكان المدنيين، وهو ما يشكل تهديد للسلام والأمن العالميين")، وحتى إمداده لمختلف أنواع الإرهابيين بمساعدات مادية ولوجوستية ("ساعد وأوى منظمات إرهابية")، ومحاولته لقتل الرئيس السابق جورج بوش الأب، وعرقلته لتنفيذ قرارات الأمم المتحدة ("محاولة قتل الرئيس السابق جورج بوش الأب، وإطلاقه النيران على القوات الأمريكية فى مناسبات عديدة، بينما كانوا يحاولون تنفيذ القرارات التى أصدرتها الأمم المتحدة ومجلس الأمن").

وخلال فترة الشهور الخمسة التالية على الأقل، تم تجاهل هذا التفويض، بطريقة غريبة، من قبل إدارة بوش الابن، دار خلالها نقاشات حامية بخصوص مدى حكمة التخلص من نظام صدام حسين. وعندها، ارتكبت إدارة الرئيس الأمريكى أكبر خطأ سجل عليها خلال فترة إدارتها التى امتدت لفترة ثمانى سنوات، عندما قامت بالتركيز على سبب واحد من الأسباب الـ٢٣ السابق ذكرها فى الوثيقة، والذى تحدث عن مدى خطورة "أسلحة الدمار الشامل" التى يمتلكها صدام حسين. وفيما يبدو، فإن القائمين على التخطيط فى إدارة الرئيس الأمريكى ظنوا أنه من الأفضل التركيز على خطر ملموس لحشد الرأى العام فى صف الحرب ... خاصة إذا ما اعتبرت المذابح التى ارتكبها صدام من قبل، ومحاولته اغتيال بوش الأب، والتأييد الممنوح لمرتكبى التفجيرات الانتحارية من مختلف الفصائل الفلسطينية، وتوفيره ملاذ آمن للإرهابيين المطلوبين دولياً لا تمثل خطراً ملحاً أو سبباً كافياً للدخول فى حرب الآن. وهكذا، فإن الغالبية العظمى من الشعب الأمريكى ظنت أن الحكومة قد دخلت حربها ضد العراق من

أجل التخلص من "أسلحة الدمار الشامل" الموجودة لدى صدام ... وحتى تحرمه من استخدامها فى تهديد السلام والأمن العالمى.

السبب الخاص بـــ"أسلحة الدمار الشامل" مقنع بما فيه الكفاية، لكنه جعل الإدارة الأمريكية تضع كل بيضها فى سلة واحدة. فقد تم إقناع الرأى العام بدخول الحرب على أساس التخلص من "أسلحة الدمار الشامل" الموجودة لدى صدام، والتى لم يكن لدينا ما يكفى من المعلومات عنها، مع ما هو معروف عن الطبيعة السرية المتميزة بالتكتم لإدارة حزب البعث العراقى. وعلى الرغم من تزايد قوة الحركة المعادية للحرب، وفشل الإدارة الأمريكية فى إثبات وجود صلة بين صدام وأحداث سبتمبر عام ٢٠٠١م، فإن الرأى العام الأمريكى أصبح مقتنعاً برأى إدارة بوش فى ضرورة تغيير النظام العراقى من أجل التخلص مما لديه من "أسلحة الدمار الشامل". كذلك، فإن الشعب الأمريكى اقتنع بأن الحرب على العراق لن تكون أكثر صعوبة من حرب أفغانستان؛ وأنه سرعان ما سيتم إنشاء حكومة توافقية هناك بعد إسقاط صدام حسين. لكن، بعد دخول العراق، لم يتم العثور على "أسلحة الدمار الشامل"، وحيث أن الإدارة الأمريكية لم تعتمد على أي من الأسباب الأخرى الموثقة فى قرار الكونجرس الذى يسمح باستخدام القوة لتغيير النظام العراقى؛ فإن استخدامها لسبب جديد (نشر الحرية والديمقراطية فى الشرق الأوسط) بعد دخولها الفعلى للحرب لم يكن مقبولاً، خاصة أن هذا السبب الجديد لم يكن ضمن الأسباب الـــ٢٣ الموثقة فى قرار الكونجرس.

الأيام الأولى من الحرب فى العراق، كانت فى صالح آراء المؤيدين للحرب من أمثال "Donald Rumsfeld"، واستراتيجيته الناجحة ("القدم الخفيفة Light Footprint")[٣]، والتى تم تطبيقها فى أفغانستان. تم استخدام نفس الاستراتيجية، مرة أخرى، ضد صدام حسين. وسرعان ما تمكن حوالى ٢٠٠,٠٠٠ جندى من قوات التحالف (متمركزين فى الكويت)، من اجتياح بلد تعداده ٢٦ مليون نسمة، لتحطيم أى مقاومة منظمة. وبالفعل، تم إزالة حكومة

البعث العراقية فى أقل من ثلاثة أسابيع (من ٢٠ مارس- ٩ أبريل ٢٠٠٣م) فى واحدة من أكثر الحملات العسكرية فاعلية، والتى لم يسقط فيها إلا ١٣٩ جندى أمريكى فقط. ومن المفترض أن السياسة المتبعة ("الصدمة والرعب Shock and awe") قد أربكت الجيش العراقى والمدنيين وجعلتهم فى حالة من الذعر والهلع، دون أن تتسبب فى وقوع خسائر مادية كبيرة ... خاصة تلك النوعية من الخسائر التى قد تعوق إعادة بناء العراق بعد الحرب.

أما بالنسبة لمعارضى الحرب، والذين توقعوا حدوث سيناريو مشابه للمستنقع الفيتنامى، أو الذين طالبوا بأن يكون حجم القوات لا يقل عن نصف مليون جندى، حتى يكون مكافئاً لحجم القوات التى أخرجت صدام من الكويت عام ١٩٩١م، فإن الأيام الأولى من الحرب أثبتت خطأهم. من الناحية الظاهرية، بدا أن كثيراً من العراقيين قد ابتهجوا وهللوا عندما تم إسقاط نظام صدام حسين، وتحطيم تمثاله فى العاصمة بغداد. وفى الشمال، تحررت كردستان وسط نشوة كاسحة من قبل السكان المؤيدين للقوات الأمريكية، ولم يكن هناك أى اضطرابات كبيرة فى الشارع العربى. وبالمثل، فإنه لم يحدث أى تزايد فى عدد الهجمات الإرهابية الإسلامية على المستوى العالمى. لقد بدت العراق هادئة، كما أن أسعار البترول عادت إلى مستوياتها الطبيعية بسرعة. وفى يوم أول مايو ٢٠٠٣م، ألقى الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن "خطبة النصر الرسمية"، من فوق حاملة الطائرات "إبراهام لينكولن"، معلناً انتهاء العمليات العسكرية الأساسية فى العراق، ومن فوقه ظهرت لافتة ضخمة تعلن بزهو "أنجزنا المهمة MISSION ACCOMPLISHED". وهكذا، فإن القائد الأعلى قد تمكن من الانتصار فى حربين متواليتين، وضد اثنين من أكثر الأنظمة الاستبدادية تطرفاً فى منطقة الشرق الأوسط، ولم يكلفنا هذا إلا ١٥١ جندى أمريكى قتيل فقط لا غير.

لكنه سرعان ما زالت السكرة وجاءت الفكرة، وأصبح من الواضح أنه قد تم التسرع عندما أعلن الرئيس الأمريكى أن مهمتنا فى العراق قد أنجزت على أكمل وجه ... وبدأت

اللحظات المحرجة تتوالى الواحدة بعد الأخرى. فى البداية، لم يتم العثور على "أسلحة الدمار الشامل" التى خضنا من أجلها الحرب. هذه الحقيقة - على وجه الخصوص - كانت سبباً فى إحراج كبير لإدارة بوش الابن لأنه لم يكن قد تم التأكيد على باقى الأسباب الواردة فى وثيقة الكونجرس التى أذنت له باستخدام القوة لتغيير النظام العراقى. وبدلاً من هذا، تم العثور على كثير من مخازن الذخيرة التقليدية، ودانات المدافع، والقنابل، وتم تركها بلا حراسة، وهو ما مكن الخصم -فيما بعد- من الحصول على المواد الأولية اللازمة لصنع آلاف الأجهزة المتفجرة.

وبالنسبة لصدام حسين وولديه قُصيّ وعديّ، فإنه لم يتم العثور عليهم. ومما زاد من حدة الارتباك السائد، هو أن جنرال "تومي فرانكس Tommy Franks" القائد المركزى، والمسئول عن القوات الأمريكية الموجودة فى الشرق الأوسط، والذى أشرف على الغزو منذ بدايته، أعلن -بطريقة مفاجئة- نيته التقاعد يوم ٢٢ من مايو ٢٠٠٣م. وقد أعطى هذا انطباعاً لدى الجميع بأنه يرغب فى ترك العراق قبل أن يتم تشويه انتصاره السريع على صدام من خلال العنف المتزايد فى الشارع العراقى؛ والذى من الممكن أن يلطخ سمعته ويخفض من إمكانية عمله فى القطاع الخاص بعد نهاية حياته العسكرية. ومع حلول عام ٢٠٠٤م، كان فرانكس قد نشر مذكراته بالفعل. وبينما كانت معدلات العنف فى العراق تتزايد، كتب فرانكس قائمة بالأشياء التى يتمنى لو أنه كان من الممكن تغييرها، معلناً أسفه على أن وزارة الخارجية لا تستطيع التعاون مع البنتاجون (وزارة الدفاع) بكفاءة وبدون حزازيات. وظهرت مطبوعات منشورة، أعرب فيها الجنرال السابق فرانكس عن أسفه لأن العالم لم يعقد ما فيه الكفاية من المؤتمرات الدولية لإعادة بناء العراق، ولأنه قد تم تسريح الجيش العراقى، وغيرها من المواضيع؛ وبدون أن يعترف أن تقاعده المفاجئ قد زاد من حجم الارتباك السائد وسط العنف المتزايد من جانب المتمردين. ومما يؤسف له، أن جنرال فرانكس -خلال ذروة الحاجة

لقيادة أمريكية راسخة فى بغداد – أمر بسحب مشاة قوات التحالف تحت قيادة " John Abizaid"، ونقلها خارج العراق. وأضاف إلى هذا الخطأ، خطأ آخر، عندما أمر بأن يحل محلها "قوات التحالف المشتركة Coalition Joint Task Force" رقم ٧، تحت قيادة " Ricardo Sanchez"، وهو قائد غير خبير ولم يسبق له أداء مثل هذه المهمات؛ إلى جانب إنه لم يكن لديه عدد كاف من العاملين تحت إمرته.

خلال نفس هذه الفترة، لم يتمكن أول حاكم مدنى للعراق* (جنرال متقاعد "چاي جارنر Jay Garner") من البقاء فى منصبه إلا لبضعة أسابيع قليلة، بعد أن تزايد حجم العنف، وأصبحت الفوضى هى الطابع السائد للشارع العراقى. كذلك فإنه تم رفض دعوته للإسراع بعقد الانتخابات العراقية، وتم النظر إلى هذه الدعوة على أنها أمر غير واقعى فى ظل الظروف الحالية. وفشل كثير من المحللين فى توصيف الفترة القصيرة التى قضاها جارنر فى حكم العراق؛ وما إذا كان قائداً غير كفء، أم أنه كان يخطط بحرص لتنفيذ استراتيجية كان من الممكن لها النجاح لولا الخلافات الطاحنة التى سادت بين أعضاء الإدارة الأمريكية. وعلى أية حال، ظهرت بوضوح الخلافات الشديدة بين وزير الخارجية "Colin Powell"، ووزير الدفاع "Donald Rumsfeld" ومن ورائه البنتاجون، بشأن كيفية إدارة العراق والتعامل مع المتمردين، وتزايدت حتى أصبحت مادة إعلامية تتحدث عنها الصحف الأمريكية كل يوم.

---

* رغم أن "چاي جارنر"، هو جنرال عسكرى متقاعد؛ ورغم أنه يحكم العراق تنفيذاً لأوامر قوات الاحتلال العسكرية، التى تدخلت فى العراق بدون أى موافقة من مجلس الأمن، أو أى سند "شرعى"؛ إلا أن إدارته كانت تسمى "الإدارة المدنية للعراق". هذا مجرد نموذج للتناقضات فى التفكير الأمريكى، سأترك للقارئ العربى محاولة تفسيرها والتعليق عليها. (عادل نجيب)

تم تعيين "بول برمير Paul Bremer" فى ١١ من مايو ٢٠٠٣ ليحل محل جارنر فى إدارة العراق، وتم منحه صلاحيات واسعة جداً. هذا وقد سبق لبرمير العمل كمدير موجه فى مؤسسة "كيسنجر وشركاه Kissinger and Associates"*، ولم تتضمن خبراته السابقة أى شيء له علاقة بالشرق الأوسط. كذلك، فإن إقامته داخل حدود "المنطقة الخضراء"، زاد من إحساس كثيرين بأنه يمثل طموحات أمريكا الاستعمارية فى منطقة الخليج العربى الغنية بالبترول. خلال الفترة الأولى من حكمه، لم يكن من الواضح من هو المسئول عن قرارات برمير، وهل هو معين من قبل الرئيس بوش الابن، أم وزير الخارجية، أم وزير الدفاع. سرعان ما اتضح أن برمير يقدم تقاريره إلى الرئيس الأمريكى مباشرة، وأن هذا يعنى أنه على الرغم من أن القوات العسكرية كانت لا تزال متحكمة فى كل شيء؛ إلا أن المدنيين هم الذين اتخذوا القرارات النهائية. كل هذا كان يهدف إلى إحلال النظام، واستبعاد الخلافات التى من الممكن أن تنشب بين البنتاجون ووزارة الخارجية. وكثيراً ما أعرب وزير الخارجية كولين باول –بطرق غير رسمية– عن قلقه بشأن هذا التضارب داخل أمريكا وخارجها. وخلال أسابيع قليلة، ظهر حجم الفوضى المنتشرة فى ما يسمى عملية إعمار العراق؛ وإنها لا تقل عن الفوضى السائدة فى العمليات العسكرية التى يتم شنها ضد المتمردين. وعندما تزايد حجم العنف، فإن كل من كان لديه شك فى هذه الحرب –سواء فى الكونجرس أو فى البنتاجون– سعى إلى تخليص نفسه، وإظهار معارضته لها فى الصحف بوضوح؛ وغسل يديه من عواقب النتائج المترتبة عليها.

---

* شركة كان يديرها هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا الأسبق، وأمضى "برمير" ١٥ عاماً من حياته فيها، بالإضافة إلى عمله فى وزارة الخارجية لفترة تصل إلى ٢٣ عاماً. (عادل نجيب)

بالإضافة إلى المشاكل الخاصة بإزالة الخلافات بين الإدارة المدنية والعسكرية للعراق، فإن البرلمان التركي قد أصدر قرار غير متوقع بمنع الفرقة الأمريكية الرابعة مشاة من استخدام أراضى تركية فى دخول أراضى العراق من الشمال. وفى واقع الأمر، فإن هذا الرفض لم يتسبب فى أضرار كبيرة خلال الأسابيع الأولى من الحرب؛ خاصة بعد النصر الساحق لقوات التحالف على جيوش صدام. ومع هذا، فإنه مع مرور الوقت بدأ يظهر من الواضح غياب القوات الأمريكية فى المقاطعات التى يتحكم فيها السنة فى العراق. إن مثل هذا الغياب، قد تكون له عواقب وخيمة خلال الفترات التالية؛ لأن غياب قوات أمريكية فى الشمال سيحرم قوات التحالف من تشكيل "حركة كماشة" على قوات الخصم ... وإخضاعه لإرادتها. وبالفعل، فإن غلاظ الرقبة من أهل السنة، لم يكونوا قد تعرضوا لأى أذى عندما توقفت العمليات الحربية الأساسية، بعد الاستيلاء على العراق وتسريح الجيش. أما بالنسبة لتركيا، والتى تعتبر أحد الدول الأعضاء فى حلف الـ"ناتو"، فإنها لم تكتف بعدم مؤازرتها للحرب والبقاء على الحياد، بل أنها نشطت فى معارضتها لحصول الأكراد على الحكم الذاتى من خلال إظهار نفورها المتزايد من سياسات واشنطن وما تقوم به فى المنطقة.

وفيما يبدو، فإن الملايين من العراق السنّة لم يكن لديهم ما يكفى من الأسباب للخوف من قوات الاحتلال الأمريكية صغيرة العدد ولا احترام لوجودها؛ خاصة أن هذه القوات كانت حريصة على ألا تشعل نيران حرب أخرى. وبالفعل، بدأ بعض العراقيين السنة فى استغلال هذا الحرص. وفى هذا الخصوص، علينا تذكر أن سياسة "القدم الخفيفة"[٣] قد نجحت بالفعل بعد الاستيلاء على أفغانستان، وخلال الأسابيع الأولى من اجتياح العراق. لكن بمجرد إعلان حل حزب البعث العراقى، بدأ آلاف العراقيين الذين يشعرون بالإذلال فى إدراك أنهم قد استسلموا للاحتلال دون قتال حقيقى. والغالبية العظمى من العراقيين السنّة، لم تكن حتى هذه اللحظة قد رأت قوات أمريكية خلال حرب الأسابيع الثلاثة، أو فترة الاحتلال التى تلتها.

مع استمرار انتشار الفوضى فى عراق ما بعد الحرب، انخفضت ثقة بول برمير فى قدرات الشرطة العراقية، والسلطات المؤقتة للمجلس الإقليمى على فرض النظام والقانون. وعندما حان وقت اختيار مجلس إقليمى أكثر ديمومة فى يوليو من عام ٢٠٠٣م، كانت السلطات السابقة قد تمكنت من نشر فكرة "قوات أمريكا المحتلة للعراق" بدلاً من "قوات أمريكا التى حررتنا من صدام". بالإضافة إلى هذا، فإن النفوذ الإيرانى وأموال بترول الخليج –بهذا الترتيب– أشعلت نيران الحزازيات الدينية الموجودة بالفعل بين المتمردين من الشيعة والسنّة. وبالطبع سارع كثير من الأعضاء السابقين فى حزب البعث، إلى سكب المزيد من الوقود على هذه النيران. وحيث أن أى نوع من أنواع الفوضى سيضعف من قدرة الولايات المتحدة على أداء مهمتها، وسيجعلها عاجزة عن ترك "حكومة دستورية Constitutional Government" عند مغادرتها للبلاد؛ وهو ما سيترك أسوأ الأثر فى البلاد المجاورة، لأنهم سيعتبرونه نموذجاً لما يمكن أن يحدث عند تدخل أمريكا فى شئون بلادهم.

أما داخل أمريكا نفسها، فإن المحللين الأمريكيين كانوا منقسمين على أنفسهم بشأن الرد المناسب الذى يمكن اتخاذه فى مواجهة تزايد العنف. وفى هذا الصدد، كان البعض يرى أن إرسال المزيد من القوات هو الحل الأمثل لاستعادة النظام فى العراق؛ أما البعض الآخر فإنهم كانوا مقتنعين بأن الوجود الأمريكى فى العراق كبير بما فيه الكفاية بالفعل، ولا حاجة إلى إرسال المزيد من القوات مما قد يتسبب فى اشتعال روح الوطنية لدى العراقيين وازدياد كراهيتهم للوجود الأمريكى. وإذا كان هناك كثير من الديمقراطيين فى أمريكا لم يرغبوا فى حرب العراق، فإن كثيراً من الجمهوريين المحافظين كانوا يرغبون فى قصف العراق وتركها. أما الغالبية العظمى فإنها شعرت بأن إدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن لم تقدّر الأمور قدر حقها، ولم تعرف ما فيه الكفاية عن مدى تحزب القبائل فى العراق؛ وأن اهتمامها الأكبر كان مركزاً على التخلص من الإرهابيين والحكومات التى تؤيدهم، أكثر منه على بناء العراق بعد

الحرب. وهو أحد المبادئ "الويلسونية Wilsonianism"* التى يرفضها الغالبية العظمى من المحافظين الجمهوريين، وعلى رأسهم جورج بوش الابن، والذى أعلنها صراحة خلال حملته الانتخابية للرئاسة فى عام ٢٠٠٠م.

أما الوضع على الأرض، فإنه كان يزداد سوءاً يوماً بعد يوم. ومع حلول صيف عام ٢٠٠٣م –وبالرغم من تزايد عدد الدوريات التى تقوم بها قوات الاحتلال الأمريكى– بدأ المحتلون فى اتخاذ أوضاع دفاعية بالمعنى النفسى، عن طريق حرصهم على ألا يضرموا نيران الحرب الشاملة بينهم وبين المقاومة العراقية، ولكى يحافظوا على النصر الرائع الذى تم تحقيقه فى ثلاثة أسابيع فقط.

كان يبدو من المنطقى انتقال مقر القادة الأمريكان إلى القصور الرئاسية التى تركها صدام، خاصة قصره الفخم فى "الفوه Al Faw" الواقعة فى ضواحى بغداد؛ لكنه سرعان ما ثبت أنها غير صالحة من الناحية الأمنية؛ كما أنها يمكن أن تضخم من الانطباع الموجود بالفعل عن أن الأمريكان قد تخلصوا من صدام بغرض احتلال مكانته فى إدارة شئون البلاد وما بها من ثروات. ومن المؤسف أن سمعة أمريكا كقوة لا تبارى، سرعان ما انهارت مع تزايد العنف والسرقة وما تبعه من تدمير للبنية التحتية فى جميع أنحاء العراق. وقد استمر الوضع على هذا المنوال حتى يونيو ٢٠٠٣م، عندما تم تغيير قواعد الاشتباك[٦] وإطلاق النيران؛ والتى سمحت للجنود بإطلاق النيران على كل من يهدد المنشآت الحيوية فى العاصمة. ومع هذا، فإن

---

* هى المبادئ الأربعة عشر الحاكمة للسياسة الخارجية الأمريكية، والرافضة للعزلة السياسية، والتى تقضى بالتدخل فى الساحة العالمية من أجل نشر الديمقراطية فى كل مكان. وقد أتى بهذه المبادئ الرئيس الأمريكى "وودرو ويلسون Woodrow Wilson"، بعد الحرب العالمية الأولى وما بها من مذابح دموية؛ وكان يهدف من خلالها لتحقيق السلام العالمى. (عادل نجيب)

الأجهزة المتفجرة المصنعة محلياً ظلت قادرة على تدمير عربات التنقل من طراز "همفي Humvee" التى تستخدمها القوات الأمريكية خلف خطوط القتال. وفى يوم ٢٣ من مايو، أصدر بول برمير أمره بحل الجيش العراقى، وفصل الأعضاء الكبار فى حزب البعث السابق من وظائفهم الحكومية وحرمانهم من المشاركة فى الحكم.

لقد كان يبدو للحاكم العسكرى الجديد أنه من الحكمة التخلص من كل من شارك فى النظام الاستبدادى السابق، حتى يضمن -على المدى الطويل- ولاء كل من سيشارك فى الجيش والحكومة الجديدة. لكن عملية التطهير الأيديولوجي والتخلص من فلول النظام السابق أتت بنتائج كارثية على المدى القصير. فقد امتلأت الشوارع بعديد من الشباب العراقيين المسلحين، والذين لم يعد لديهم أى مصدر للدخل بعد فقدهم لوظائفهم. وهكذا، فإن طبقة الشباب المسلح المطرودة من وظائفها، ملأت الفجوة بين أنصار صدام حسين السنيين، والقوة الصاعدة للوطنيين من الشيعة ... لتتوحد جهودهم فى المقاومة. وعلى سبيل المثال، فإن تسريح الجيش جعل ٣٨٥,٠٠٠ جندى يفقدون وظائفهم. بالإضافة إلى هذا، فقد ٣٣٥,٠٠٠ وظائفهم فى الشرطة وغيرها من وظائف الأمن الداخلى. وبالرغم من أن الإدارة الأمريكية بذلت محاولة متأخرة فى إصدار شيكات - خلال شهر يوليو ٢٠٠٣م- لهم، إلا أن الوقت كان قد فات لمحاولة استرضائهم فى هذا الخصوص.

لقد وجد عشرات الآلاف من البعثيين السابقين -والذين كان لدى معظمهم خبرات عسكرية- عملاً مجزياً بانضمامهم للمتمردين وغيرهم من مثيرى العنف فى الشارع العراقى. وبهذا، رأت جموع الشعب العراقى، والبالغ عدده ٢٦ مليون نسمة، أن قوات الاحتلال لن تكون قادرة على فرض النظام والاستقرار داخل البلاد، فى ظل تفوق المتمردين عليهم من حيث العدد. ولعل هذا هو السبب فى أن عديد من المدنيين رضخوا للمتمردين وبدأوا يتعاملون معهم على أساس أنهم القوة الصاعدة التى ستتحكم فى البلاد.

هناك غلطة أخرى ارتكبتها السلطات الأمريكية فى تقديرها للأمور، عندما ظنت أن الموظفين العراقيين الجدد الذين تم تعينهم سيدينون لها بالولاء لمجرد أنهم لم يكونوا من أنصار صدام حسين. كذلك، هناك مسألة الكفاءة، فإن كثيرين ممن تم رفضهم فى الحكومة الاستبدادية السابقة، لم يكونوا بالضرورة على درجة عالية من الكفاءة تؤهلهم لشغل الوظائف التى خلت بطرد البعثيين منها. وهكذا، فإن الإدارة الأمريكية وجدت نفسها بين نارين، إما الحفاظ على البعثيين ذوى الكفاءات، أو تقبل موظفين غير أكْفاء لمجرد أنهم لم يكونوا أعضاء فى النظام المستبد السابق؟

لم يكن هناك من هو على استعداد لتحمل نتائج الإجابة على التساؤل السابق.

مع الفوضى المنتشرة فى كل مكان، شعر تنظيم القاعدة بأنه هناك مكان له على المسرح العراقى؛ وقرر أن يجعلها مركزاً للجهاد والحرب ضد الغرب. وبالفعل، سرعان ما دعا أسامة بن لادن، وأيمن الظواهرى كل الإرهابيين فى الشرق الأوسط للتوجه نحو مقاطعتى الأنبار ونينوى لتطهيرهما من الكفار المحتلين. ومع تزايد العنف فى العراق، ارتفعت أصوات المعادين للحرب داخل أمريكا مرة أخرى، وبدأوا ينادون بأنه قد تم تزييف الأسباب التى دخلت أمريكا من أجلها الحرب فى الأساس ... وأنه من الواضح أن أمريكا قد غرقت فى مستنقع شبيه بفيتنام. ومما زاد الطين بللاً، أن تكاليف الاحتلال وإعادة إعمار العراق بدت هى الأخرى، وكأنها لم تلق ما تستحقه من العناية والتقدير خلال تخطيطهم لها.

لكنه كان هناك ضوء فى نهاية النفق، وأتت بعض الأخبار السارة خلال شهر يوليو عندما تم حصار أبناء صدام حسين (قُصيّ وعديّ) فى الموصل وقتلهما، كما أن مجلس الحكم العراقى بدأ فى تأدية وظيفته الهادفة لتمهيد الطريق لاختيار حكومة ديمقراطية منتخبة.

وفى جميع الحالات، فإنه حتى أكبر المؤيدين السابقين للحرب بدأ يرى أن فشل قوات الاحتلال فى تأدية مهامها بعد الاستيلاء على العراق مبرراً قوياً لكى يعكس موقفه من الحرب

ويصبح أكثر تطرفاً ممن رفضوا الحرب منذ البداية. لقد تسببت حرب العراق فى انقسام الشعب الأمريكى بنفس الطريقة التى حدثت خلال حرب فيتنام. وكرد فعل لهذا، خرج الرئيس جورج بوش الابن فى يوم الثالث من يوليو ٢٠٠٣م، متحدياً المتمردين ومعلناً عزمه القضاء عليهم قضاء مبرماً. وفيما يبدو فإن المتمردين قبلوا التحدى لأنهم قاموا خلال شهر أغسطس بقصف السفارة الأردنية بالقنابل، ثم بعدها تكرر نفس الشيء مع المقر الأساسى للأمم المتحدة، وكان من بين القتلى مندوب الأمم المتحدة المحبوب " Sergio Vieira de Mello". وازداد الأمر سوءاً خلال ربيع ٢٠٠٤م، بعد انتهاء مفعول الأنباء الطيبة الخاصة بالقبض على صدام حسين فى ديسمبر ٢٠٠٣م، وثورة "جيش المهدى" التى أوحى بها الشيخ الشيعى المتطرف "مقتضى الصدر"، والتى بدأت تنتشر فى كل أرجاء الجنوب العراقى. لقد أصبح

على الإدارة الأمريكية – الآن – أن تتعامل مع السنة من أنصار صدام، ومع المنتمين إلى تنظيم القاعدة، ومع جيش المهدى المكون من المتمردين الشيعة ... أيضاً. وسقطت بعض القنابل على ثكنات القوات الإيطالية مع توسع الإرهابيين فى استهداف كل القوات الأجنبية على أمل تفتيت وحدة التحالف الذى تقوده الولايات المتحدة، وإجبار بعض الدول الأوربية التى ساهمت بقوات صغيرة على سحب مساهماتها والعودة بقواتها إلى أوربا مكللة بالعار. بين الحين والآخر، تمكن المتمردون من إسقاط بعض طائرات الهليكوبتر الأمريكية، كما أن بعض الطائرات النفاثة تعرضت لعدة هجمات بالصواريخ، وهو ما أعاق تقدم جهود الإمداد والتموين. ومع اقتراب موعد الانتخابات الأمريكية فى عام ٢٠٠٤م، أصبح تزايد العنف فى العراق أحد الشئون الأساسية الهامة التى تحدد من سيتم التصويت لهم.

فى الفترة الأخيرة من شهر فبراير ٢٠٠٤م، تكشفت فضائح تعذيب المسجونين فى سجن أبو غريب، الواقع فى العاصمة بغداد، وشوهت السمعة الأمريكية عندما ربطتها بما يحدث فى

سجن "جوانتانامو Guantanámo" بكوبا. لكن حتى إذا كان ما حدث فى سجن أبو غريب قد أثار غضب كثير من الأمريكان، فإن الاتجاه الذى بدا أن الحرب تتخذه، أثار غضب عدد أكبر من الأمريكان؛ وبدا أن العجز والفوضى هما السمات السائدة لكل ما يجرى فى العراق. وعلى سبيل المثال: تمكن بعض البحارة الإيرانيين من الإمساك بمجموعة صغيرة من القوات البريطانية، وتمكن أحد المتفجرين الانتحاريين من إصابة عدد من العاملين الأجانب الذين تم تعيينهم بعقود، وبدأ الإرهابيون فى خطف وإعدام الأجانب فى عمليات مسجلة بالفيديو (صوت وصورة). وانتشر إحساس بين كثيرين، من كلا الجانبين، بأنه لم يتم التخطيط بطريقة جيدة للحرب، وأنها لم تكن حرباً مشروعة فى الوقت ذاته.

قبيل اكتشاف فضيحة أبو غريب، قتلت خلية إرهابية من السنة، أربعة أمريكان من الذين يعملون بعقود فى مجال الأمن فى مدينة الفالوجا. وسرعان ما نشرت وسائل الإعلام صور جثثهم المحترقة والمقيدة فى كل أنحاء العالم. هذه الفظائع، دفعت إدارة الرئيس الأمريكى بوش، لأن تعلن عزمها السيطرة على المدينة مهما كان الثمن. وبالفعل، بدأ الحصار الرسمى لمدينة الفالوجا فى يوم ٤ من أبريل، وسرعان ما بدأت النتائج الإيجابية فى الظهور، إلا أن بول برمير – تحت ضغوط من الحكومة العراقية المؤقتة – أمر بوقف إطلاق النار عدة مرات، قبل أن يقوم بفك الحصار والانسحاب التام فى الأول من مايو، بالرغم من أن الإرهابيين كانوا مسيطرين على المدينة، ولم تنهار قبضتهم عليها بعد. وبدا الأمر وكأن الأمريكان قد تركوا الفالوجا لتصبح مخبأ آمن للمتمردين والإرهابيين؛ وهو ما أجبرهم –بعد انتخابات شهر نوفمبر الرئاسية– على بذل الكثير من الدماء والتضحيات لوضع المدينة تحت سيطرتهم مرة أخرى.

فى يوم ٩ من نوفمبر ٢٠٠٤م، بدأت العمليات الخاصة بالاستيلاء على مدينة الفالوجا، والتى لم تنتهى إلا يوم ١٥ من نفس الشهر، وبعد معارك تعتبر الأكثر دموية فى تاريخ حرب

المدن (سقط ١٠٦ قتيل وأكثر من ٦٠٠ جريح من بين قوات التحالف)، منذ المعارك التى وقعت داخل مدينة "Hue" الفيتنامية فى شتاء عام ١٩٦٨م. المجموعة الثانية من المعارك للاستيلاء على مدينة الفالوجا تعتبر نصراً حاسماً للقوات الأمريكية، لأنها نجحت فى إلحاق خسائر فادحة، فى الأرواح والمعدات، بمقاتلى حزب البعث وأنصارهم من أعضاء تنظيم القاعدة. وبالرغم من هذا، فإن هذا النصر لم يخفض من قلق الرأى العام الأمريكى بشأن ما يجرى فى العراق. ومثل ما حدث بعد انتصار القوات الأمريكية على مدينة "Hue" الفيتنامية، فإن النصر فى الفالوجا مكن الأبواق الإعلامية للخصم من أن تحقق نصراً دعائياً. وفى حقيقة الأمر، لم يكن هناك حاجة لإزهاق كل هذه الأرواح – من كلا الجانبين– من أجل السيطرة على مدينة نعلم مقدماً أنه من الواجب علينا السيطرة عليها عندما يسمح المناخ السياسى بالقيام بعمليات عسكرية ضدها.

وبالطبع، كان الأمر الأساسى الذى تسبب فى غضب الرأى العام الأمريكى والمعارضين السياسيين للحرب فى العراق، هو تزايد عدد القتلى من الأمريكان. فإن مرحلة ما بعد الاستيلاء على العراق، لم تشهد أى سلام، بل على العكس حدث تزايد ثابت فى عدد القتلى من ٤٨٦ قتيل فى عام ٢٠٠٣م لما يزيد عن ٨٠٠ قتيل فى كل عام من الأعوام التالية (عام٢٠٠٤: ٨٤٩ قتيل؛ وعام ٢٠٠٥: ٨٤٦ قتيل؛ وعام ٢٠٠٦: ٨٢٢ قتيل). وفى واقع الأمر فإن عدد القتلى من الأمريكان شهد تزايداً ملموساً خلال عام ٢٠٠٥، وهو ما سبب تناقص تأييد الرأى العام الأمريكى للحرب. وعندما حل موعد الانتخابات النصفية فى عام ٢٠٠٦م كان عدد القتلى قد وصل إلى حوالى ٣,٠٠٠ قتيل. ومن المفترض أن الرقم السابق يعتبر صغيراً مقارنة بأرقام القتلى فى بعض المعارك التاريخية مثل: "Belleau Wood"، و"Iwo Jima"، و"Chosun"، لكن الشعور العام السائد خلال هذه الفترة –والتى من المفترض أنها فترة إعادة البناء– جعله يبدو أكبر مما هو عليه فى حقيقته.

خلال الفترة بين نهاية عام ٢٠٠٣ وحتى عام ٢٠٠٦، فإن جهود الولايات المتحدة كانت فى سباق ضد الزمن ... داخلياً وخارجياً (داخل أمريكا ذاتها، وخارجها مع الرأى العام العالمى). فهل من الممكن لأنباء اقتراب الانتخابات العراقية المزمع عقدها فى يناير ٢٠٠٥م، والتخلص من حزب البعث، وتطهير الجيش، أن تنتج عراق ديمقراطية جديدة قبل أن يتمكن المتمردون من أتباع حزب البعث، وإرهابى تنظيم القاعدة، وأنصار إيران من الشيعة من تمزيق البلاد، أو قبل أن يستسلم الرأى العام الأمريكى ويقرر سحب تأييده للحرب بسبب زيادة أعداد القتلى؟ وبدأ النقاد يسألون عن حقيقة الهدف من الاستيلاء على العراق، وعن سبب تواجدنا هناك!

فى هذا الخصوص، فإن الإدارة الأمريكية انتظرت حتى نوفمبر من عام ٢٠٠٥م لتقوم بنشر إعلان رسمى يشرح حقيقة أهدافها الاستراتيجية فى العراق، تحت اسم: "الاستراتيجية الوطنية للنصر فى العراق The National Strategy for Victory in Iraq". هذه الوثيقة كانت مصممة لشرح الطريقة التى سيتم بها تسليم العراق لأهلها – بأسرع ما يكون – وبدون أن يتسبب هذا فى حدوث فوضى شاملة.

وبالرغم من كل هذا، فإن العام الرابع من أعوام الاحتلال (عام ٢٠٠٦م) بدا أكثر كآبة مع تزايد أعداد القتلى من الأمريكان ووصوله إلى أعلى مستوياته منذ بداية الحرب. وفيما بعد، وصف الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن صيف ٢٠٠٦م بأنه: "أسوأ أوقات فترة رئاستى". خلال هذه الفترة، تم تفجير ما يزيد عن ألف قنبلة مصنعة محلياً كل أسبوع. لذلك، أصبحت مواجهة هذا الكابوس هى الشغل الشاغل للأمريكان. فكان عليهم مواجهة الشيعة الجدد، وفرق الاغتيال السنية التى نشرت الرعب بين المدنيين، خلال الأوقات التى لم تكن مشغولة فيها بنصب كمائن للأمريكان. وازداد الأمر سوءاً حتى أنه داخل المدن أصبحت هناك مناطق بأكملها محرمة على الأمريكان بسبب شدة خطورتها.

وأخيراً، فإن العاصمة الأمريكية واشنطن عانت هى الأخرى من ثورة قام بها بعض مشاهير الجنرالات من أمثال: "Paul Eaton"، و"Gregory Newbold"، و"John Riggs"، و"Charles Swannack"، و"Anthony Zinni"، و"John Batiste"، وغيرهم من الجنرالات الذين لديهم خبرة طويلة ومميزة فى منطقة الشرق الأوسط، سخروا خلالها – جميعاً – من العمليات الجارية الآن فى العراق، وتهكموا على مجرد فكرة الذهاب إلى حرب هناك. كل هذه الآراء العسكرية أعطت مصداقية أكبر للحركات الداعية لوقف الحرب وما ادعته هذه الحركات من أنه لم يتم الإعداد لها بطريقة جيدة؛ وأنه من غير الممكن تحقيق أى انتصارات حقيقية فيها.

مجموعة الجنرالات السابقين، كانوا قد أعلنوا عن آرائهم فى جريدة "New York Times"، و"Time magazine"، وقنوات التلفزيون الأمريكى المختلفة، مبدين استنكارهم اللاذع وشجبهم لما يحدث فى العراق. وتبنت وسائل الإعلام آراءهم، وجعلتها تبدو صحيحة، مع تكرار إذاعتها. وبالرغم من أن انتقاداتهم كانت مختلفة ومتنوعة، إلا أنها بدت وكأنها تركز على نقص أعداد القوات اللازمة لتحقيق النصر، وانتشار جو من نكران الحقيقة بين القيادات فى واشنطن؛ خاصة عند وزير الدفاع "Donald Rumsfeld" الذى وجه إليه اللوم لتدخله فى التفاصيل الإدارية الصغيرة، ولتزايد العنف فى العراق، وطالبوه بتقديم استقالته. ومن الواجب القول، بأن انتقادات هؤلاء الجنرالات لم تكن دائماً متسقة، فإن بعضهم دعوا إلى استخدام تكتيكات جديدة، أو رفع مستوى الالتزام تجاه العراق، أو الادعاء بأن الأمر كله كان خطأً منذ بدايته، وأنه سيترك آثاره السيئة على الجيش الأمريكى والشعب العراقى.

خلال انتخابات الكونجرس النصفية، والتى تعقد فى نوفمبر من عام ٢٠٠٦م، دفع الجمهوريون الثمن السياسى لإصرارهم على مؤازرة الحرب فى العراق، وخسروا الأغلبية التى كانوا يتمتعون بها فى كِلا المجلسين (مجلس النواب ومجلس الشيوخ) فى الكونجرس. أما بالنسبة لوزير الدفاع "Donald Rumsfeld"، فإنه كان قد قرر الاستقالة لو أن الجمهوريين خسروا

الانتخابات النصفية. وفيما يبدو، فإن هذا قد حدث تحت ضغط لإحداث تغييرات جذرية فى القيادات العسكرية التى توجه القوات الموجودة فى العراق. إن استقالة "رمسفيلد" بعد الانتخابات النصفية للكونجرس، وليس قبلها، تعتبر من أكبر الصفات المميزة للفوضى التى سادت إدارة الرئيس الأمريكى بوش خلال هذه الفترة. أما أعضاء الحزب الجمهورى فى الكونجرس فإنهم عبروا عن أسفهم لأنهم لم يستفيدوا من استقالته لأنها حدثت بعد الانتخابات؛ وأنها إذا كانت قد حدثت قبلها، لما كان عليهم تحمل عبء وجوده، مشيرين إلى أنه هو الذى كلفهم هذه الخسارة ... وجعلهم يفقدون الأغلبية التى تمتعوا بها لسنوات طويلة.

أما بالنسبة لقادة القوات المركزية جنرال "John Abizaid"، وجنرال "George Casey" الذى يتولى توجيه القوات فى مسرح العمليات داخل العراق، فإنهما فقدا وظيفتيهما أيضاً. فإن أدميرال "William Fallon" حل محل الأول فى شهر مارس من عام ٢٠٠٧م، وجنرال "David Petraeus" حل محل الثانى فى شهر فبراير من نفس العام. لقد اتفق الجميع فى الرأى على أن معظم القادة الأمريكان المدنيين والعسكريين فى العراق خلال الفترة من ٢٠٠٣–٢٠٠٦م، من "Abizaid"، و"Casey"، و"Franks"، و"Sanchez"، وحتى "Paul Bremer"، و"Jay Garner"، قد فشـــلوا فى تفهم طبيعة المشكلة فى العراق وأبعادها؛ ولماذا تزايدت حركات المقاومة هناك، حتى وصلت إلى هذا الكم والنوع.

قامت الجماعات السنية فى فبراير من عام ٢٠٠٦م، بعملية إرهابية ضخمة نسفت خلالها القبة الذهبية لجامع أثرى عمره ١٠٠٠ عام، يسمى مسجد "العسكرى al-Askari"، وهو مسجد شيعى فى مدينة "سمراء". وقد تسببت هذه العملية الإرهابية فى تزايد العنف الطائفى بين السنّة والشيعة، مع تزايد التمويل الأجنبى القادم إلى كل منهما. كذلك فإن هذه العملية الإرهابية، عطلت الخطة التى وضعها "Abizaid" و"Casey" للانسحاب التدريجى من هذه المنطقة، كما أنها شككت فى جدوى هذه الاستراتيجية التى وضعت جداول معلنة للانسحاب

من كل منطقة. من الحقيقى أنه تم القضاء على صدام حسين، وتنفيذ الحكم بإعدامه فى ٣٠ من ديسمبر ٢٠٠٦م، إلا أن الطريقة المهينة التى تم بها تنفيذ هذا، تسببت فى اشتعال حدة الاحتقان الموجود بين الطوائف المختلفة فى العراق، وحط من قيمة "العدالة الديمقراطية" التى تحاول أمريكا زرعها فى البلاد.

أما بالنسبة للرئيس المتعثر جورج بوش الابن، فإنه كلما استمر فى الحديث عن الحرية كـــ"قيمة عالمية Universal Value" من الواجب نشرها فى كل مكان، كلما تزايد حجم الفوضى والعنف فى الشارع العراقى. وكل النداءات التى قدمها الرئيس الأمريكى من أجل نشر الحرية والديمقراطية فى العراق كان ينظر إليها داخل أمريكا على أنها ساذجة وتعبر عن الأمانى أكثر من الحقائق الموجودة فى الواقع، وكان ينظر إليها فى العالم العربى على أنها استعمارية وميكافيلية، وتعبر عن المؤامرات التى تحيكها أمريكا ضد شعوب المنطقة. أما بالنسبة للديمقراطيين المتحررين داخل أمريكا، فإنهم ما كانوا ليجنوا أى فائدة من نداءات المحافظين المثالية الداعية إلى الديمقراطية فى الشرق الأوسط؛ ولهذا فإنهم لم يؤيدوها. أما بالنسبة للمحافظين من أعضاء الحزب الجمهورى فإنهم شعروا بأن واحد منهم (الرئيس الأمريكى) يتحدث بنفس الطريقة التى تبناها المؤمنون السذج بـــ"الويلسونية"، بدلاً من أن يتصرف كرجل دولة واقعى.

وكان الرئيس الأمريكى قد أكد على ردود الفعل الإيجابية لحرب العراق، عندما قام معمر القذافى –القلق على نظامه فى ليبيا– بتسليم أسلحة الدمار الشامل الموجودة لديه طواعية؛ وما حدث فى باكستان من وضع دكتور "A. Q. Khan" تحت الإقامة الجبرية وتفكيك شبكة تصدير المعلومات النووية لكل أنحاء العالم التى كان يترأسها؛ والانسحاب السورى من لبنان؛ والمطالبة بحقوق الإنسان فى كثير من دول الشرق الأوسط. لكن مع نهاية عام ٢٠٠٦م، رد منتقدى الرئيس بأن الانتخابات فى قطاع غزة قد أتت بحماس، وتزايدت قوة حزب الله

الناشئ فى لبنان، واشتعلت الحرب بين إسرائيل ولبنان فى يوليو ٢٠٠٦م، هى التى تعتبر نموذجاً لردود الفعل السلبية لحرب العراق. وفيما يبدو، فإن كِلا الجانبين (مؤيدى نشر الديمقراطية، والمتشائمين من المعارضين للحرب) لم يتفهما حقيقة أهداف السياسة الأمريكية، وطريقتها فى تحقيق النجاح. وعلى وجه العموم، فإن السياسة الأمريكية كانت فعالة عندما انتصرت أمريكا فى الحروب وبدت وكأنها متسيدة للموقف ومسيطرة على مجريات الأمور؛ ومن المرجح أن تفقد هذه السياسة فاعليتها عندما تبدو أمريكا وكأنها الخاسر فى الصراع، ويعجز جيشها عن تحقيق أهدافه.

صدرت فى ديسمبر ٢٠٠٦م نتائج "مجموعة دراسة العراق Iraq Study Group" المكونة من كلا الحزبين الديمقراطى والجمهورى، وبتكليف من الرئيس الأمريكى ذاته؛ وإن كانت كثير من نتائج هذه الدراسة مزدوجة المعنى، ولا تشير إلى اتجاه بعينه. حثت هذه الدراسة على تأمين أمريكا ذاتها قبل كل شىء؛ ورسم خطة تضع نهاية محددة للاحتلال الأمريكى فى العراق والذى لم يكن مستنداً إلى تهدئة الأوضاع فى البلاد ... عاكساً بهذا الواقع القائل بأنه لا يوجد من يعرف حجم القوات الأمريكية اللازمة لتهدئة الوضع، وكم سيطول بقاءها هناك. واستغل كل فريق العناصر الموجودة فى التقرير لصالحه، ولتأييد وجه النظر الخاصة بسبب نتائج الدراسة المزدوجة المعنى. وفى هذا الخصوص، فإن الحركة المضادة للحرب، لم تعد مكتفية بجذب اليساريين المتطرفين فقط وإنما سعت لتشمل أيضاً الديمقراطيين المعتدلين والأعداد المتزايدة من الجمهوريين الغاضبين لأن الحرب تسببت فى فقدانهم الغالبية فى كلا المجلسين خلال الانتخابات النصفية السابقة وأصبح من المحتمل الآن أن تتسبب فى خسارة الحزب الجمهورى لانتخابات الرئاسة القادمة لعام ٢٠٠٨م.

معظم الكتب والمقالات التى نشرت خلال عامى ٢٠٠٥، و٢٠٠٦م، تنبأت بأن أمريكا ستخسر الحرب فى العراق لأن رحى الحرب الأهلية هناك ستستمر إلى ما لا نهاية، وقد تتسبب

فى امتداد الصراع إلى دول المنطقة، مثل الفوضى التى أصبحت منتشرة فى الصومال، أو ظهور طبقة حاكمة مستبدة فى العراق مناهضة لكل ما هو أمريكى. مع حلول خريف عام ٢٠٠٦م، قدرت تقارير المخابرات أن تنظيم القاعدة يسيطر على كل شيء تقريباً فى محافظة الأنبار.

أصول وتطبيق الطفرة (٢٠٠٦م)

منذ اللحظات الأولى لسقوط صدام، تفاوتت وجهات النظر بشدة حول الطريقة المثلى الواجب اتباعها لأعمار العراق. وفى النهاية، برزت استراتيجية الجنرالين "Abizaid"، و"Casey" كواحدة من أحسن الاستراتيجيات وأكثرها تأثيراً. وكان الأخير قد حل محل "Ricardo Sanchez" فى شهر يونيو بعد فضيحة سجن أبو غريب فى أبريل من عام ٢٠٠٤م، وما تسببت فيه من كوارث للعلاقات العامة والرأى العالمى. وعلى الرغم من أن جنرال "Sanchez" يعتبر أصغر جنرال فى قوات الجيش الأمريكى كله إلا أنه قد تم تعيينه لقيادة كل القوات الموجودة على الأرض منذ منتصف ٢٠٠٣م، وكانت وجهة النظر الكامنة وراء هذا، هى أن جنرالاً جديداً مثله سيكون قادراً على إنجاز المهمات العسكرية على أكمل وجه فى بيئة ما بعد الحرب الهادئة. إلا أنه فى أقل من عام أصبح من الواضح أن جنرال "Sanchez" غير قادر على تحمل مسئوليات هذه المهمة.

كان من وجهة نظر "Abizaid"، و"Casey" أن استمرار وجود أعداد كبيرة من القوات الأمريكية على الأرض، سيؤدى إلى مزيد من الاستفزاز للعراقيين، وسيدفعهم للاعتماد على وجود هذه القوات لتحقيق الانضباط فى الشارع العراقى. الطريقة الأفضل من هذا، هى خفض عدد القوات تدريجياً؛ على أن يُطلب من الشعب العراقى أن يحل محلها -فى إدارة أموره- قبيل تنفيذ كل خطوة من خطوات الخفض. وفى هذا الخصوص، فإن عملية الاحتلال

لن تكون دائماً مرتبطة بحوادث معينة على الأرض؛ وإنما ستكون، فى الواقع، الدافع للتخفيف من حدة الأحداث العنيفة الموجودة على الأرض بالفعل. وعلينا تذكر أن العراق كانت دائماً موطناً للعنف، وأنه من الممكن للشعب العراقي أن يبدأ فى النظر للوجود الأمريكى على أنه هو الذى تسبب فى كل هذه المشاكل. لقد حان الوقت لأن يبدأ الشعب العراقى الاعتماد على نفسه، وفى تأمين شئونه الداخلية بأفراد من الشعب.

مع نهاية عام ٢٠٠٥م، لخص أحد المستشارين العسكريين الأمريكان فى العراق الموقف بأنه لا يمكن أن يزداد كآبة عما هو عليه الآن، عندما قال: "إن من سيظل قادراً على الوقوف على قدميه فى العراق حتى النهاية هم من نجحوا فى النجاة من "إجراءات الداروينية السياسية Process of Political Darwinism"*، وسيتصفون بصفات الناجين: الشراسة، وانعدام الرحمة، كما أنهم لن يترفعوا عن خوض معارك تطهير عرقى للتخلص من الآخر". من الناحية الظاهرية، فإن كلا الجنرالين عكس وجهة النظر الخاصة برئيسه، وزير الدفاع رمسفيلد والرأى الجماعى لإدارة الرئيس الأمريكى. وفى هذا الخصوص، فإن كل القيادات العليا كانت قلقة بشأن التزامات أمريكا نحو باقى بلدان العالم، وما تمثله الحرب فى العراق من استتراف لموارد محدودة بالفعل. أما الأمر الأكثر أهمية، فهو أن نظرية "القدم الخفيفة" بدا وكأنها فعالة

---

* "إجراءات الداروينية" هى مجموعة الإجراءات التى تعمل على تصفية الكائنات الحية؛ فى إشارة إلى نظرية داروين القائلة بأن البقاء للأفضل. وبهذا، فإن من سيتمكن من الاستمرار فى الحياة السياسية فى العراق، يجب أن يتصف بالشراسة وعدم الرحمة، وسيكون استمراره فى الوجود على حساب الآخرين؛ وهو لن يترفع عن استهدافهم عن عمد من أجل القضاء التام عليهم (تطهير عرقى).

(عادل نجيب)

وناجحة فى أفغانستان والأسابيع الأولى من حرب العراق. من المحتمل إذن، أن التأكيد على "بناء العراق" كان السبب فى العنف وليس حلاً له؟ كذلك، فإن استراتيجية الخروج السريع كانت أفضل من وجهة نظر رمسفيلد الذى كان ينظر إلى الأمور من زاوية السماح للقوات الأمريكية بأن تظل خفيفة وسريعة وأكثر قدرة على التنقل، وأن لا يتم استخدامها فى فرض الديمقراطية وإعادة البناء. من وجهة نظر رمسفيلد، فإن عملية فرض الديمقراطية على بلدان الشرق الأوسط، بدت وكأنها غير مجدية. وهذه الشكوك، هى التى جعلته يختلف فى الاستراتيجية كثيراً مع الغالبية العظمى من المحافظين الجدد، وغيرهم من العاملين فى إدارة الرئيس الأمريكى بوش الابن.

وفى الواقع، فإن استراتيجية "Abizaid"، و"Casey" فى التمسك بالأرض والعمل على إعمارها بدت وكأنها تحسن من الأوضاع السائدة، فلقد انخفض عدد القتلى بين الأمريكان نوعاً ما. لكن فى شهر فبراير ٢٠٠٦م، بعد الهجوم على مسجد "العسكرى al-Askari" الشيعى فى "سمراء"، تزايد العنف الطائفى. وبدأت المعارك بين السنة والشيعة، كما أن العنف تزايد ضد القوات الأمريكية، وحلفائها، والذين بدوا عاجزين على فرض الأمن فى الشارع العراقى. ومع هذا استمر تنفيذ الاستراتيجية الأصلية –حتى نهاية عام ٢٠٠٦م– والتى تقضى بخفض عدد القوات من ١٤٠,٠٠٠ جندى إلى ٦٠,٠٠٠ جندى. كما أن قتل أبو مصعب الزرقاوى فى يونيو ٢٠٠٦م، وتعيين سفير أمريكى ناجح مثل "سالامى خليلزاد Zalmay Khalilzad"، وتعيين وزراء عراقيين جدد كلها أمور نفخت فى صورة الاستراتيجية الأصلية ومنحتها حياة جديدة.

لعل أكثر أنصار الاستراتيجية الأصلية من بين الضباط العاملين فى الميدان، هم: جنرال "شوماكر Shoemaker" (رئيس إدارة العاملين فى الجيش)، و"لوت Lute" (رئيس العمليات بين القيادات المختلفة). وفى هذا الخصوص، فإن جنرال "Michael Vickers" (قائد سابق فى

القوات الخاصة، والمستشار ذو النفوذ الضخم) أشار إلى أن الاستراتيجية الأصلية كانت فى الواقع هى المفتاح لمكافحة المتمردين، عندما قال: "كلما انخفض عدد القوات، كلما ازدادت فاعليتها". لأننا عندما نقلل من الظهور فى الشارع العراقى، ستنخفض حدة العداء للأمريكان، وسيجبر العراقيين على تحمل قدر أكبر من مسئوليات الأمن. وعلى العكس من هذا، فإن فكرة إرسال أعداد إضافية من القوات الأمريكية للمستنقع العراقى، لم تكن محل ترحيب بين القيادات العليا؛ باستثناء الجنرال المغامر "دافيد بتراس" وعدد قليل جداً من مستشاريه المقربين.

إذا كان من غير الممكن تحقيق "الخيار الأول" من الناحية السياسية، فإن "الخيار الثاني" يعتبر كارثة من الناحية الاستراتيجية. لكنه لا يمكن السماح للأوضاع الحالية بالاستمرار ("الخيار الثالث"). وبهذا، فإن "الخيار الرابع" والأخير هو إحداث "طفرة" فى عدد القوات عن طريق إرسال قوات إضافية، من ٢٠,٠٠٠- ٣٠,٠٠٠ جندى. خلال نفس الفترة، اقترح مجموعة من الضباط المعارضين إحداث تغيير مصاحب فى التكتيكات المستخدمة حالياً لمكافحة الإرهاب (مطاردة الإرهابيين المعروفين وقتلهم). لقد كان من رأيهم أن نتحول نحو مكافحة الجماعات المتمردة ذاتها (حماية المدنيين حتى لا يصبحوا فى حاجة إلى الجماعات المتمردة لحمايتهم؛ ويقومون -من تلقاء أنفسهم- بطرد هذه الجماعات من وسطهم). وفى هذا الخصوص، من الواجب توضيح أن "الطفرة" لم تكن تصعيداً عسكرياً مثل الذى حدث فى فيتنام؛ لأنه سيكون محدوداً جداً من حيث العدد، والمدة. مجرد قوات إضافية كافية للسماح بخلق نافذة زمنية ينتشر من خلالها الاستقرار والهدوء، وتسمح للعراقيين بالتقاط الأنفاس وتحمل مسئولية تأمين الشارع العراقى. لقد كانت "الطفرة" مجرد دفعة صغيرة حتى تبدأ الأمور فى الحركة ويتم تجاوز المحنة وتصبح العراق قادرة على الحركة الذاتية.

من الذى فكر فى هذه الاستراتيجية، وخطط لتفاصيلها، وأقنع الرئيس بوش بها خلال الشهور الأخيرة من عام ٢٠٠٦م؟ من هذا الذى سبح ضد التيار، وواجه الرأى العام الرافض للحرب فى العراق؟ فإن المجموعة المؤيدة للحرب لم تكن فى جبهة واحدة. لقد خرجت هذه الاستراتيجية من لدن مجموعة من المدنيين، والعاملين فى الإدارة الأمريكية، والضباط العاملين فى القوات المسلحة، والمتقاعدين من العمل فيها. والرابطة الوحيدة المشتركة بينهم، هى تأييدهم، جميعاً، لجنرال بتراس ولشهادته التى أصر فيها على إرسال المزيد من القوات البرية إلى العراق؛ وأكد فيها على ضرورة خفض جاذبية المتمردين، وإجبار أهل العراق من المدنيين على النظر إليهم على حقيقتهم ... وأنهم السبب فى العنف الدموى الذى لا نهاية له؛ وأن زيادة القوات هذه، لن تكون من أجل توفير المزيد من الحماية للقوات الأمريكية أو لمطاردة وقتل الإرهابيين. لقد أصبح "بتراس" رمزاً للشكوك الموجودة فى كُل من الوصول إلى نتائج متشائمة من "مجموعة دراسة العراق"، وأيضاً فى التغيرات المتلاحقة فى الوضع الراهن كما يتخيلها النقاد من أمثال جنرال "Pete Chiarelli".

وفى هذا الخصوص، فإن جنرال بتراس كان قد لاقى نجاحاً محدوداً فى تهدئة العنف، عندما كان قائداً لوحدة المشاة المنقولة جواً رقم ١٠١، والتى كانت مكلفة باحتلال منطقة الموصل خلال الفترة من ٢٠٠٣- ٢٠٠٤م. وفى الحقيقة، فإن بتراس حظى بمكانة جيدة بين العراقيين وفى وسائل الإعلام الغربية، بسبب توزيعه لأموال كثيرة من المخصصة لإعمار العراق متجاوزاً العقلية المتحجرة لصفوف البيروقراطيين الروتينية. ومن كل هذا، حظى بتراس منهم باسم "الملك داود"؛ وهم قد أطلقوا عليه هذا الاسم بسبب سلطاته التقديرية الفريدة فى المنطقة. إلا أن منتقدى الجنرال بتراس -من بين الأمريكان- نظروا إلى هذا اللقب كدليل على غروره الزائد، وطموحاته المتطرفة، وحاجته الدائمة لأن تكون وسائل الإعلام مسلطة عليه. ومما زاد

الأمور سوءاً، أن جنرال بتراس فى حديث له مع مراسل "Washington Post" ذكر أن دوره فى الموصل كان مزيجاً من دور "رئيس الجمهورية" و"البابا".

عاد جنرال بتراس إلى واشنطن فى شهر أبريل من عام ٢٠٠٤م، ناقلاً تقارير متفائلة عن الوضع هناك، وعندما تكلم عن نجاحه فى العراق لـ"Washington Institute" ذكر: "إن العراق تبدو تحت السيطرة لمن هو على الأرض، أكثر مما تبدو لمن يقف بعيداً"؛ مركزاً على جهوده المبكرة فى إعادة الإعمار هناك، ومكافحة الإرهاب، وتدريب الجيش والشرطة الجديدة. وبصرف النظر عما إذا كان يعرف هذا أم لا، فإن وسائل الإعلام داخل العاصمة واشنطن، لم يكن من الممكن لها أن تصدق كل هذا التقدير والتقييم الإيجابى لما يحدث فى العراق. إن التأكيدات التى قدمها بتراس على ضرورة التأقلم وتغيير التكتيكات المتبعة وفقاً لما يحدث على الأرض، أكد لمن يستمعون إليه بأن خطط واستراتيجيات ما بعد الحرب كانت مليئة بالأخطاء منذ بدايتها وفى حاجة إلى إعادة تقييم مستمرة.

بعد أن حصل بتراس على ترقية (حصل على رتبة فريق Lieutenant General) أصبح مسئولاً عن "القيادة الانتقالية متعددة الجنسيات Multi National Transition Command"، وأعطاه وزير الدفاع رمسفيلد، مسئوليات رئيسية فى الاشراف على تدريبات الجيش العراقى الجديد. وعلى الفور، اكتشف بتراس، أن سلطات التحالف تحت رئاسة بول برمير لم تحرز الكثير من التقدم فى جهودها لخلق كوادر عسكرية عراقية جديدة، قادرة على تحمل مسئوليات الجيش العراقى القديم. وهكذا، كان على بتراس أن يبدأ من لا شيء تقريباً، وأن يعثر على أعداد كبيرة من الضباط العراقيين الجدد، الذين يسمو ولاؤهم الحقيقى فوق انتماءاتهم القبلية والطائفية. ولم يتورع بتراس عن وصف الصعوبات التى لاقاها، والتحديات التى واجهته، فى سلسلة من المقالات والمقابلات الشخصية التى ذكرت تفاصيل نجاح جهوده

السابقة فى إعادة بناء "الموصل"، ومكافحة المتمردين فى هذه المدينة، والتى يمكن استخدامها كنموذج لباقى مدن العراقية.

الظهور المتكرر لـــ"بتراس" فى وسائل الإعلام، والتى صورته على أنه "مفكر حر Freelance Thinker" يضع التقنيات طبقاً لما يراه مناسب على الأرض، جذبت إلى صفه عدد كبير من المراسلين الصحفيين فى العراق، بل إنها نجحت فى اكتساب تأييد بعض وسائط الإعلام المعادية للحرب، داخل الولايات المتحدة الأمريكية ذاتها. فلقد بدا أن تأييد هذا المصلح (بتراس) سوف يعدل كل ما هو معوج، ويصحح كل ما هو خطأ فى هذه الحرب، وحتى لا يبدو منتقدو الحرب وكأنهم يعادون قواتنا هناك، أو يحاربون فكرة أنه من الممكن إحلال الاستقرار فى الشارع العراقى محل العنف والفوضى الحالية. فى شهر يوليو من عام ٢٠٠٤م، نشرت مجلة "Newsweek" الأمريكية على غلافها قصة أشادت بـــ"بتراس" عنوانها "هل يستطيع هذا الرجل إنقاذ العراق؟ Can This Man Save Iraq" مملوءة بالمدح والثناء عليه، عندما قالت: "مؤيدى هذا الجنرال، يؤمنون بأنه طراز جديد من القادة ملائم للنمط الجديد الذى كان علينا مواجهته فى حرب العراق. تلك الحرب التى يمكن للجيوش الانتصار فيها باستخدام تكنولوجيا متفوقة؛ لكن النصر الحقيقى لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال التكتيكات المناسبة للواقع، والمهارة السياسية على الأرض". خلال نفس هذه الفترة، أثار كل هذا الاهتمام انتباه رؤساء بتراس من العسكريين، وبدأوا يعتقدون أنه، يقوم – خلسة – بتوجيه الانتقادات لأسلوبهم فى إدارة الأمور فى باقى أجزاء العراق ... سعياً للوصول إلى المراتب الأعلى. وقد عبر جنرال "Sanchez" (القائد الأعلى للقوات الموجودة فى العراق فى وقت تعيين بتراس للإشراف على تدريبات الجيش العراقى الجديد) عن استيائه من هذا بقوله:

"إن الإدارة تعيد ترتيب الأحداث وتنسجها بطريقة مختلفة، لتبدو وكأن بتراس قد أتى إلى العراق لإنقاذ الجهود العسكرية التى فشلت بالفعل. إن كل هذا ليس إلا مناورات سياسية تمهيداً للانتخابات الرئاسية القادمة".

ومن الواضح، أنه لم يخطر على بال جنرال "Sanchez" أن تقييمه الساخر لجهود بتراس المسيسة فى عام ٢٠٠٤م، من الممكن أن يكون حقيقياً وفى نفس الوقت غير ذى أهمية؛ فى ظل نجاح بتراس فى تقييم الأخطاء التى تم ارتكابها فى العراق.

مع حلول عام ٢٠٠٦م، كان مؤيدو جنرال بتراس مصممين على إنقاذ الحرب فى العراق، من خلال تجنب القيادات العليا فى الجيش والإدارة وتجاوزهم. بالنسبة للغالبية العظمى من النقاد، فإن "الطفرة" كانت تعتبر استراتيجية غير مقبولة، كما أنها كانت تعتبر توبيخاً لجورج بوش الابن، وما يحدث فى الوقت الحالى. فمن الممكن للصحفيين المعادين لإدارة بوش أن يركزوا على انتقادات بتراس للحرب؛ حتى لو كانت أهدافهم الحقيقية المعادية للحرب ككل مختلفة عن ما يهدف إليه بتراس.

وفى هذا الصدد، فإن عدد من أكبر وأشهر المؤيدين لاستراتيجية "الطفرة"، من أمثال: دكتور "فريد كاجان Fred Kagan" (المؤرخ، والأستاذ المقيم فى "معهد المؤســـسة الأمريكية American Enterprise Institute")، والمحللة العسكرية دكتورة "Kimberly Kagan"، والجنرال المتقاعد "Jack Keane"، ومستشار الأمن القومى "Steven Hadley"، وكثيرين من فريق العمل التابع له، وغيرهم من الضباط العسكريين ومستشارى البنتاجون، قد نادوا –فيما مضى– بضرورة تنظيم المدنيين فى العراق من أجل مقاومة المتمردين؛ بدلاً من مقاتلتهم باستخدام القوات الأمريكية ذاتها ... وبدون أن نأخذ فى الاعتبار النتائج المترتبة على هذا، عند المدنيين العراقيين، والذين سيشاهدوننا ونحن نطارد من يمكن النظر إليهم على أنهم مواطنون عراقيون مثلهم. إن مثل هذا الحديث قد أتى من ضباط ذوى رتب عالية، وعلى

درجة رفيعة من التعليم والخبرة الميدانية؛ وقد كانوا جميعهم يعرفون بتراس ومرتبطين به من أمثال: "Sean MacFarland"، و"H. R. Me-Master"، و"Michael Meese"، و "Peter Mansoor"، و"Bill Rapp"، وغيرهم من الضباط مثل: "Derek Harvey"، و"Mark Martins". وبصرف النظر عما إذا كانوا ضمن الفريق الرسمى المكلف بتقييم الاستراتيجية أم لا، فإن الكثيرين منهم كانوا يحملون درجة الدكتوراه فى تخصصاهم، وقاموا بالتدريس فى أكاديمية "ويست بوينت" العسكرية؛ وبطريقة غير رسمية خرجوا بفكرة "الطفرة" والتغيير الكامل فى استراتيجية الولايات المتحدة منذ فترة مبكرة تعود إلى ٢٠٠٦م. ولقد لجأ هؤلاء إلى بعض المستشارين من الخارج، مثل: "John Nagl"، و"David Kilcullen" واللذان كانا يكتبان منذ فترة طويلة عن ضرورة قمع حركات التمرد فى العراق؛ ويعود إليهم، جميعاً، الفضل فى رسم تفاصيل استراتيجية "الطفرة" مع بتراس. لكن نصائحهم كانت ستظل مجرد كلام أكاديمى، لا نفع فيه، بدون الجاذبية الموجودة لدى شخصية قائد عظيم مثل بتراس، والذى ضمن أن نظرياهم ستتحول إلى حقيقة ملموسة على الأرض.

أصبح نائب الرئيس "Dick Cheney"، وفريق العمل الخاص به، من الظاهرين بوضوح ضمن فريق الضغط الداعي إلى "الطفرة" (فريق "Fred Kagan"، و"Jack Keane"). وهم قد قاموا بالكثير من أجل المساعدة فى إقناع الرئيس الأمريكى وإدارته – خلال شهر ديسمبر من عام ٢٠٠٦م– بهذه الاستراتيجية الجديدة؛ وسرعان ما أصبح الرئيس الأمريكى ذاته من الأصوات العالية المنادية بـــ"الطفرة"، فى تعارض واضح مع رأى وزارة الخارجية، ووزارة الدفاع، والقيادة العليا فى البنتاجون باستثناء رئيسها الجنرال البحرى "Peter Pace". أما بالنسبة لوزير الخارجية السابق، الجنرال المتقاعد "Colin Powell"، فإنه كان من المعارضين بشدة لاستراتيجية "الطفرة". وفى خلال مقابلة تليفزيونية موسعة فى ديسمبر ٢٠٠٦م، أعلن

"باول" صراحة أن أمريكا فى طريقها لأن تخسر الحرب فى العراق وأنه من غير الممكن الاستمرار فى زيادة أعداد القوات فى العراق. ومضى ليقول:

"من الصعوبة بمكان رؤية الكيفية التى يمكن بها للجيش الأمريكى فرض إرادته على مثل هذا النوع من أنواع الصراعات".

وحتى قبل أن يتم تطبيق استراتيجية "الطفرة" بأكملها، فإن كثيرين من مؤيدى بوش، والصقور السابقين من ساسة الحزب الجمهورى، أعلنوا قلقهم من تزايد مستوى العنف، ورأوا أنه لا أمل من استخدام "الطفرة" –أو أى شىء آخر– فى إنقاذ حرب العراق. وقبيل تطبيق "الطفرة" (شهر نوفمبر ٢٠٠٦م)، فإن بعضاً من أشهر مؤيدى الحرب فى العراق وأكثرهم بروزاً، مثل: "Kenneth Adelman"، و"David Frum"، و"Richard Perle"، أعربوا عن تشاؤمهم، وبدأوا يوجهون اللوم إلى الرئيس الأمريكى ذاته، باعتباره الأصل فى كل هذا "الفشل المركزى Failure at the Center". وبعد مرور ما يزيد عن شهر قليلاً على الإعلان عن "الطفرة"، فإن السفير السابق، ومستشار الحكومة الكردية، "Peter Galbraith" أعلن صراحة أنه لا توجد أى فرصة تسمح بنجاح خطة الرئيس بوش، موضحاً أن طفرة مقدارها ٢١,٥٠٠ جندى إضافى لن تغير كثيراً من الوضع على الأرض، خلال هذه المراحل المتأخرة من العمليات. وأضاف قائلاً: "إن القوات الأمريكية غير مؤهلة للقيام بعمليات بوليسية على الأرض، وأن الشرطة هى التى يجب أن تحكم الشارع العراقى. وفى أحسن الأحوال، فإن استراتيجية بوش الجديدة لن تكون إلا تأجيلاً باهظ الثمن لليوم المحتوم الذى يجب أن نعلن فيه فشلنا". أما وزيرة الخارجية "Condoleeza Rice" ووزير الدفاع "Donald Rumsfeld"، فإنهما لم يظهرا كثير من المعارضة لاستراتيجية الطفرة. وفيما يبدو فإنهما كانا يعتقدان أن سياسة "القدم الخفيفة" مازال من المكن أمامها فرصة للنجاح وأنها أقل الخيارات ضرراً.

إن العناصر الثلاثة لإعادة توجيه استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية فى العراق، تم تلخيصها فى تقرير رسمى لـ"معهد المؤسسة الأمريكية American Enterprise Institute":

العنصر الأول: إرسال قوات إضافية يتراوح عددها بين ٢٠,٠٠٠- ٣٠,٠٠٠ جندى.

العنصر الثانى: ضمان أن تكون القيادة العليا لكل قوات التحالف الموجودة فى العراق تحت يد "جنرال بتراس"، وأن تكون الكلمة الأخيرة له.

العنصر الثالث: يرغب المصلحون فى استبدال كثير من الطرق المتبعة حالياً فى القتال، والمشرفون على السياسات العسكرية لإعادة أعمار العراق، والسياسات المدنية إذا تطلب الأمر هذا.

وقد قام الجنرال المتقاعد "Keane" بلعب دور حلقة الاتصال بين ثلاث جهات: العاملين خارج الحكومة، والعسكريين العاملين فى ميدان، وإدارة الرئيس الأمريكى بوش. إن العامل المساعد الذى أعطى دفعة قوية هو هزيمة الجمهوريين فى الانتخابات النصفية (نوفمبر ٢٠٠٦م) والتى دفعت الرئيس بوش لأن يعيد تقييم استراتيجيته الحالية. بالرغم من أن مؤيدى "الطفرة" كانوا معترفين بأن الرأى العام قد مل وتعب من الحرب فى العراق، إلا أنهم ظلوا مؤمنين أن الغالبية العظمى من الأمريكان ستؤيد تصعيد الحرب (إرسال قوات إضافية) إذا كان هناك أمل فى تحقيق النصر.

بعد مرور سنوات على غزو العراق، والقرار الذى تم اتخاذه فى عام ٢٠٠٦م بإرسال تعزيزات تتراوح مابين ٢٠- ٣٠ ألف جندى، يصبح من المستحيل تقريباً -الآن- إعداد قوائم دقيقة بالمؤيدين والمعارضين لمثل هذا القرار الجذرى. الطرق الحضارية المتبعة فى واشنطن، كانت تقضى بأن يدعى مؤيدى الحرب معارضاتهم لها بمجرد تزايد أعداد القتلى فى الميدان؛ وأولئك الذين لم يؤيدوا "الطفرة" ولم يكن لهم أى شأن بها، ادعوا أنها ميراثهم الأصيل بمجرد أن أثبتت فاعليتها وحققت أهدافها. وأخيراً، فإن مواقف كثيرين قد تغيرت، للمرة الثالثة،

طبقاً لما إذا كانت الحرب فى العراق قد اعتبرت هزيمة أو نصراً أو معركة لا تستحق الثمن الواجب دفعه فيها ... وهى مقولة ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا. وبصرف النظر عن كل هذا، فإن كل أطياف السياسة الأمريكية توافقت على حقيقة واحدة. خلال الفترات الأولى من عام ٢٠٠٧م، أمسك جنرال دافيد بتراس بزمام الأمور فى يديه وأصبح المسئول الأول عن إنقاذ الموقف فى العراق، أو التخلى عنها واعتبارها معركة خاسرة لا أمل فيها. لم يعد جنرال بتراس -الآن- أعلى العسكريين رتبة فى ميدان القتال فقط، بل إنه أصبح فى نظر الإدارة الأمريكية، والشعب الأمريكى كله، الأمل الأخير الذى سيمكنهم من تجنب مواجهة هزيمة كارثية.

الطريق الجديد للتقدم (يناير ٢٠٠٧- نوفمبر ٢٠٠٩م)

بعد مرور ٤ سنوات تقريباً على غزو العراق، وبالتحديد فى يوم العاشر من يناير ٢٠٠٧م، اتخذ الرئيس الأمريكى بوش قراراً رسمياً، بتأييد بتراس ومجموعته. وقدم مشروع استراتيجية جديدة عرفت باسم: "الطريق الجديد للتقدم The New Way Forward". وفى خطاب علنى تم إذاعته تليفزيونياً فى جميع أنحاء الولايات المتحدة، وعد الرئيس الأمريكى بإرسال خمسة ألوية مشاة، وكتيبتين من مشاة البحرية (Marines). يقدر مجموع ما سبق بحوالى ٢٠,٠٠٠ جندى، بالإضافة إلى الأطقم المساعدة من: الشرطة العسكرية، والمهندسين، ووحدات الملاحة الجوية، وهو ما يصل بإجمالى العدد إلى ما يقرب من ٣٠,٠٠٠ جندى. هذا وقد رابطت القوات الإضافية داخل وحول بغداد أو فى محافظة الأنبار. وفى هذا الصدد، قال الرئيس الأمريكى بوش: "ستغير أمريكا من استراتيجيتها فى العراق حتى تستطيع مساعدة أهل هذا البلد فى تحقيق الاستقرار، وطرح الخلافات الطائفية جانباً، وتحقيق الأمن لسكان بغداد

المدنيين. من أجل تحقيق كل هذا، كان من اللزام علينا إرسال قوات إضافية. ولهذا، قررت إرسال ما يزيد عن ٢٠,٠٠٠ جندى عامل إلى العراق". عندما اتخذ الرئيس الأمريكى بوش هذا القرار، كانت شعبيته فى أدنى مستوياتها، حتى أن استفتاءات الرأى ذكرت أن ٢٨٪ فقط من الشعب الأمريكى موافقين على ما يفعله بوش. وسجلات التاريخ تثبت لنا أن "هارى ترومان" و"ريتشارد نيكسون" فقط، خلال أسوأ شعبية لهما، كانا أقل شعبية من بوش خلال هذه الفترة. كذلك، فإن استفتاءات الرأى ذكرت أن ٦٦٪ من الشعب الأمريكى يعارضون إرسال المزيد من القوات إلى العراق.

لقد كان الهدف الأساسى من إرسال القوات الإضافية، هو توفير القوة اللازمة لتأمين السكان المدنيين، والتوسع فى تقديم الخدمات الأساسية اللازمة للحياة هناك. لقد وعد الرئيس الأمريكى بوش الشعب العراقى بالأمن حتى يستطيع المشاركة بفاعلية فى ترسيخ جذور الديمقراطية الوليدة، ويبعث الحياة من جديد فى الاقتصاد. وهى طريقة مخالفة تماماً لما كان يحدث من قبل، عندما كانت القوات الأمريكية تقيم فى مراكز محصنة، ولا تخرج منها إلا للقيام بدوريات فى الشوارع من أجل ضبط المتمردين ومهاجمة الإرهابيين الذين يقومون بأعمال العنف. حتى تلك اللحظة، كان الجزء الأكبر من مهمة الجيش الأمريكى هو الحماية بدون أن يتعرض لخسائر فى الأرواح ("Force Protection")، ومكافحة المتمردين والإرهابيين عن طريق قتل كل من يحاول مهاجمة القوات الأمريكية. أما الآن، فإنه أصبح هناك ٦ نقاط أساسية جديدة تلخص البروتوكولات الموجودة فى استراتيجية بتراس:

١- السماح للعراقيين بقيادة الطريق.

٢- ساعد العراقيين على حماية السكان المدنيين.

٣- عزل المتشددين والمتطرفين.

٤- إفساح المجال لحدوث تقدم سياسى.

٥- تنويع الجهود السياسية والاقتصادية.

٦- تقريب مفاهيم الاستراتيجية المتبعة من المفاهيم السائدة والمتبعة فى المجتمع العراقى.

لقد كانت هذه البروتوكولات تبدو وكأنها ذات طبيعة اجتماعية أكثر منها نقاطاً فى استراتيجية عسكرية؛ وكأنها خارجة من دراسة أكاديمية جامعية للمجتمع العراقى، وليست ناجمة عن الخبرة العملية فى ميدان القتال.

وهكذا، تراوحت الخطوات العملية لتنفيذ هذه الاستراتيجية بين الدخول إلى المناطق التى كان من المحظور -فيما سبق- دخول القوات الأمريكية فيها، وحتى نشر القوات بطريقة أوسع فى كل الأحياء السكنية، خاصة داخل العاصمة بغداد وفى مقاطعة الأنبار. وبالإضافة إلى هذا، أعلن الرئيس الأمريكى رسمياً أن جنرال بتراس سوف يحل محل جنرال "كيزي Casey" كقائد أعلى لقوات التحالف فى العراق. وعلى وجه العموم، فإنه تم النظر إلى قرار الرئيس بوش باستخفاف. وقدم السيناتور "Joe Biden" مشروع قرار للكونجرس يعارض فيه سياسة "الطفرة". وقدم السيناتور أوباما (الرئيس الأمريكى الحالى) مشروعا آخراً، داعياً إلى وضع جدول محدد لسحب القوات الأمريكية من العراق. وبالرغم من كل هذا، كان هناك عدد صغير من المحللين، والضباط العسكريين، والمؤيدين للحرب، الذين سعدوا بأخبار بدء تطبيق "الطفرة"؛ وشعروا بالراحة والأمل لأن بتراس قليل الكلام سيتمكن -أخيراً- من الحصول عل فرصته لتحقيق النصر فى معركة السلام.

خلال شهر يونيو ٢٠٠٧م، وصلت بالفعل كل الألوية الخمسة، من مشاة الجيش، إلى العراق. وأصبح لدى بتراس ما لا يقل مجموعه عن ١٥٠,٠٠٠ جندى؛ لقد أصبح لدى بتراس أخيراً الإمكانيات التى تسمح له بتطبيق الاستراتيجية الموعودة. وبالفعل؛ تم تكليف هذه القوات بتأمين بغداد، والمناطق السنية فى محافظة الأنبار، والمناطق الشيعية السنّية المختلطة فى "محافظة ديالة". وهكذا، أصبحت مكافحة المتمردين هى الرسالة المقدسة للأمريكان فى

العراق؛ وتم دعوة المدنيين لمشاركة الحكومة فى مكافحة العنف وإحلال الاستقرار فى الشارع العراقى، وهو ما دفع كثير من المتمردين لإلقاء السلاح أو الانضمام إلى الجانب الآخر ... كنتيجة مباشرة للحوافز المادية والسياسة الواضحة الأهداف. وأصبح من المعروف للجميع أن القوات الأمريكية لن ترحل طبقاً لجداول محددة، وأنها لن تترك العراق إلا بعد أن يستقر الأمن فيها وتتخلص من أعدائها.

خلال الشهور الأولى من تطبيق "الطفرة"، ارتفع عدد الضحايا بشكل كبير بين كل من العراقيين والأمريكان. لم يكن هذا مفاجأة، فى ظل تزايد عدد الدوريات بشكل ملحوظ، ودخولها إلى مناطق لم تكن تدخلها من قبل (معاقل المتمردين). أما فى العاصمة الأمريكية واشنطن، فبالرغم من أن استراتيجية "الطفرة" لم يكن قد مضى عليها إلاّ أسبوع واحد فقط، إلا أن غالبية أعضاء الإدارة الأمريكية كانوا قلقين من الإنهيار السياسى المحتمل فى حالة فشل هذه الاستراتيجية. أما النواب الجمهوريون فى مجلس النواب ومجلس الشيوخ، والذين لا زالوا يشعرون بألم الهزيمة السياسية فى انتخابات ٢٠٠٦م النصفية، فإنهم كانوا يسعون إلى ترضية سياسية حتى قبل أن يتحقق أى تقدم فى ميدان المعركة. لم يقم أدميرال "William Fallon" بأى شىء يذكر –خلال فترة قيادته التى استمرت حوالى العام– لتطبيق الاستراتيجية، أو للسماح لأعداد أكبر من القوات بالذهاب إلى العراق. ربما يكون هذا، إنعكاساً لمشاعر الاستياء والغضب لدى قادة هيئة الأركان المشتركة، والذين شعروا بأنهم قد تعرضوا للخداع من جانب أنصار استراتيجية "الطفرة".

بالرغم من كل هذا التسييس، فإنه مع حلول منتصف عام ٢٠٠٧، انتشر الشعور بين الجميع بأن "الطفرة" تكتسب قوة مع مرور الوقت، وأنها بدأت بالفعل فى جعل العراق أكثر أماناً. لقد ساعدت هذه القوات الأمريكية الإضافية، لكن التغيير الحقيقى فى التكتيكات المتبعة هو الأمر الحاسم الذى كان له الأهمية الأكبر. وقد طبق جنرال "Raymond Odierno"، قائد

القوات المتعددة الجنسيات، هذا من خلال إعادة توزيع القوات، ونشره لدوريات صغيرة مكلفة بأن تجوب داخل الأحياء السكنية فى بغداد نفسها. كان هذا الظهور الواضح لقوات الاحتلال من الأمور الممنوعة فى السابق، عندما كان ينظر إليه على أنه استفزاز لا داعى له لمشاعر العراقيين؛ أما الآن، فإن التواجد الأمريكى فى كل مكان فى دوريات مشتركة مع العراقيين، يهدف لتأكيد أن العراقيين سيصبحوا فى أمان عند انضمامهم للأمريكان، أو نقلهم لمعلومات بخصوص المتمردون أو الإرهابيون الموجودين بينهم.

وعلينا معرفة أن بغداد لا تعتبر عاصمة العراق وأكبر مدنها فحسب، بل إنها الرمز الذى ينظر إليه الجميع فى مختلف أنحاء البلاد. ومع حصوله على قوات إضافية، فإن جنرال "Odierno" بدأ فى تحويط بغداد من الداخل والخارج؛ فطوال شهور عام ٢٠٠٧م كانت كل مداخل ومخارج بغداد تحت المراقبة بواسطة قوات الألوية الخمسة الجديدة. واستهدفت القوات الإضافية الأماكن التى يتم فيها تصنيع القنابل المحلية، ومخازن الأسلحة التى يستخدمها المتمردين والإرهابيين؛ كما أنها سعت إلى تنظيم مشروعات مدنية صغيرة لإعادة إعمار ما تم تدميره. إن كل هذه المقاييس الوقائية، لم تكن تعنى أن القوات الأمريكية قد توقفت عن السعى لقتل العدو ... بل العكس تماماً. وفى الواقع، فإنه بينما كانت وسائل الإعلام تركز كل جهودها على الاستراتيجية الجديدة لتوفير الأمن فى العراق وإعادة بنائه، فإن "Odierno" و"بتراس" قاما بتنظيم هجوم شامل على كل معاقل الإرهابيين الأساسية المعروفة لديهم. وتم إطلاق أسماء: "Phantom"، و"Thunder"، و"Phantom Strike"، و"Lightning Hammer"، و"Arrowhead Ripper" عليها، كنوع من التذكير بما تم إتباعه –ضد الصينيين– فى حرب كوريا عام ١٩٥١م، من أجل إعادة الاحترام للقوات الأمريكية. فى هذا الخصوص، فإن مقاطعة الأنبار، كانت تعتبر مركز العنف الأساسى الموجود فى العراق. وعلى وجه التقريب تم ضبط حوالى ٧,٠٠٠ مخزن للسلاح، وتم قتل آلاف من الإرهابيين هناك. أحد الحركات

العسكرية التى نظمت من أجل طرد تنظيم القاعدة، هى حركة سنية شعبية تسمى "أبناء العراق The Sons of Iraq". هذه الحركة، تمكنت من ضم ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل بعضهم من الشيعة، فى جهد مشترك مع الأمريكان لمكافحة الإرهاب والقضاء على المتمردين. إن تشكيل مثل هذه الحركة يعتبر نعمة غير متوقعة بالنسبة لبتراس، الذى لم يكن يتوقع انضمام هذا النوع من الحلفاء له؛ وحتى إذا كانت المساعدات التى يقدموها له -فى بعض الأحيان- محل خلاف بين كثيرين فى الجانب الأمريكى، لأن بعضهم كانت قد تلوثت يداه بدماء الأمريكان عندما كانوا يقاتلون فى صفوف المتمردين؛ كما أن الواحد منهم كان يتسلم ٣٠٠ دولار فى الشهر باعتباره أحد أفراد الشرطة العسكرية (كونستابل Constable).

كنتيجة مباشرة لدخولهم الأحياء المدنية فى العراق، للمرة الأولى منذ نشوب الحرب، وصلت أعداد الضحايا الأمريكان إلى ما يزيد عن ١٠٠ جندى كل شهر. واستمر هذا الحال، لمدة ثلاثة أشهر متوالية، من أبريل وحتى يونيو ٢٠٠٧م. أما عدد الضحايا بين العراقيين المدنيين، فإنه بدأ يستقر، ثم هبط بسرعة إلى مستويات غير مسبوقة منذ تشكلت حركات المتمردين، وبدأ الاقتتال الطائفى بين السنّة والشيعة فى عام ٢٠٠٦م. بالنسبة للمراقبين الرسميين، فإن خروج القوات الأمريكية من أماكن تمركزها الآمنة، كانت نتيجته المحتومة هو زيادة عدد القتلى الأمريكان؛ وهو ما تسبب فى تزايد الضغوط داخل أمريكا. ففى شهر يونيو تقدم زعيم الأغلبية "Harry Reid"، والمتحدثة باسم الكونجرس "Nancy Pelosi"، بتحذير إلى الرئيس الأمريكى من أن "الطفرة" قد مضى عليها ستة شهور حتى الآن ولم تحقق أهدافها بعد، هذا نصه:

"كما تنبأ الكثيرون، فإن "الطفرة" قد فشلت فى تحقيق النتائج المستهدفة. والقوات الإضافية التى أرسلت، لم يكن لها تأثير يذكر على العنف، أو التصالح بين الطوائف المتناحرة هناك".

وعلى الفور، تقدم "مجلس النواب" -والذى يتحكم فيه الديمقراطيون بسبب أغلبيتهم- بما يثبت موقفهم الرسمى المعارض لـ"الطفرة" فى ١٦ من فبراير ٢٠٠٧م، فى قرار متزامن مع الأحداث؛ وإن كانت أقلية من النواب قد تمكنت من إعاقة التصديق على هذا القرار غير الملزم. وفى هذا الخصوص، فإن السيناتور أوباما (الرئيس الأمريكى الحالى) كان قد أطلق على عملية "الطفرة" اسم: "التصعيد المتهور Reckless Escalation"، وتمادى فى موقفه، عندما قام بتقديم مشروع قرار يقضى بعودة كل القوات الأمريكية المقاتلة قبل نهاية مارس ٢٠٠٨م. لكنه لم يكن من المقدر لكل هذا أن يستمر، فلقد انخفضت مستويات العنف بحدة وبطريقة مفاجئة؛ وعلى سبيل المثال: فإن وفيات القوات الأمريكية خلال شهر يوليو قد انخفضت عن معيار الـ ١٠٠ قتيل شهرياً، ولم يكن مقدراً لها أن تصل إلى هذا الرقم مرة أخرى خلال ما تبقى من الحرب. ومع حلول خريف ٢٠٠٧م، فإن الخسائر بين العراقيين انخفضت هى الأخرى؛ مع تزايد الدوريات المقاومة للمتمردين، والتى قامت بقتل أو أسر كثيرين منهم، بفضل تعاون المخبرين من بين المدنيين العراقيين الذين كرهوا استمرار هذا العنف الدموى عديم الجدوى. وعلى الرغم من أن أعداد قليلة فقط من النواب الأمريكيين قد صدقت تأكيدات بتراس خلال شهادته فى شهر سبتمبر عام ٢٠٠٧م، إلا أنه أصبح من الواضح أن "الطفرة" قد بدأت فى تحقيق أهدافها من خلال تقديم المزيد من الخدمات الحكومية للمدنيين فى العراق، وتقليل عدد الوفيات بين الجنود الأمريكان ... وهى حقيقة أصبحت واضحة مع نهاية العام. خلال الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر ٢٠٠٧م، عاد "Michael O'Hanlon" خبير السياسة الخارجية فى معهد "Brookings Institut"، وزميله "Jason H. Campbell" من العراق، وقدما تقريرهما الذى يؤكد على أن مستويات العنف قد انخفضت لما كانت عليه فى عام ٢٠٠٤م؛ وأن سياسة بتراس فى نشر السلام حققت بالفعل كثير من أهدافها فى مناطق مختلفة من العراق.

وفى هذا الخصوص، فإن المسئولين الرسميين فى الحكومة العراقية، قد أعلنوا -أيضاً- انخفاض مستويات القتلى لديهم، وامتداد نفوذ الحكومة العراقية فوق مناطق كان يتحكم فيها، فيما سبق، المتمردون. أما بالنسبة لمحافظة الأنبار، فإنه كان من الصعب تحديد ما إذا كانت "صحوة الأنبار Anbar Awakening" -والتى بدأت خلال ربيع ٢٠٠٦م، وانقلب خلالها قادة القبائل السنّية ضد تنظيم القاعدة الإرهابى وضد البعثيين السابقين- قد حدثت بطريقة مستقلة، أم أن شرارتها قد اندلعت بسبب تقنيات "الطفرة" التى اتبعتها القوات الأمريكية، وتصميمها على البقاء فى العراق حتى يسود السلام. وخلال شهر يونيو ٢٠٠٦م حدثت مقابلة بين "Sean MacFarland" ومجموعة من ضباط مشـــاة البحرية الأمريكية من ناحية، وبين قادة القبائل السنية فى منطقة الرمادي من ناحية أخرى، وتم وعدهم بتقديم المساعدات. ومن خلال تقنيات "الطفرة" المتبعة، تم إدماج الأفراد الذين ينتمون لـــ"صحوة الأنبار" تحت قيادة الشيخ "عبد ستّار Sattar"، و"أبناء العراق" فى الجانب الأمريكى؛ عن طريق إمدادهم بالأموال، و"بيانات المقاييس الحيوية Biometric Data"* التى تميزهم عن الإرهابيين الحاليين والمتمردين القتلة فى المناطق التى يعيشون فيها.

---

* المقصود بـــ"بيانات المقاييس الحيوية"، هو تسجيل العلامات الفارقة، التى تمكن قوات الاحتلال من التمييز بين مجموعات العراقيين المختلفة، وتصنيفهم إلى مجموعات موالية أو يمكن التفاهم معها؛ ومجموعات معادية، لا يمكن التفاهم معها ... ويجب القضاء عليها. وتشمل بيانات المقاييس الحيوية، بيانات بسيطة من التى اعتدنا تسجيلها عن كل فرد، مثل: بصمات الأصابع، وصورة الوجه، والطول والوزن، وفصيلة الدم، .. .. وغيرها. كما أنها تشمل -الآن- بيانات أكثر تعقيداً، مثل: تحليلات الدنا (D.N.A.)، و"الرقائق الألكترونية Microchips" التى يتم زرعها فى البشر والمعدات للتعرف على هويتها وتحديد مكانها من خلال G.P.S. (النظام العالمى لتحديد الموقع Global Positioning System) (عادل نجيب)

كذلك، فإنه مع حلول منتصف عام ٢٠٠٦م، أصبح لدى قادة القبائل السنّية هناك، احتراماً جديداً ومتزايداً لفاعلية القوة العسكرية الأمريكية. لقد كانت الغالبية العظمى منهم قد كلت وملت من العنف غير المبرر الذى يلجأ إليه أعضاء تنظيم القاعدة، ومن ابتزازهم المستمر خلال إقامتهم بينهم. وفى الواقع، فإن بعض السنيين كانوا متحمسين لأن يروا أمريكا تؤيد حقوقهم، بعد أن أصبح غالبية الأعضاء فى حكومة "المالكى" فى بغداد الجديدة من الشيعة. أما مساعدى "بتراس" فى تنفيذ استراتيجية "الطفرة"، فإنهم انتشروا فى كل مكان –مثقلين بالأموال والمساعدات– فى محاولة لاستغلال كل هذه التصدعات فى الجانب الآخر من أجل عزل المتمردين والإرهابيين، قبل أن يأمر الرئيس الأمريكى بإرسال قوات إضافية بفترة طويلة. وفيما بعد، فإن الفصائل العراقية المعادية للمتمردين، تزامنت مع وصول القوات الأمريكية الإضافية. وخلال العام الثانى للطفرة (٢٠٠٨م) تحققت نجاحات أكبر، وعلى سبيل المثال: فإن شهر يوليو من ذلك العام لم يشهد إلا مقتل ١٣ جندياً أمريكياً فقط، وساد الهدوء فى معظم أنحاء بغداد بعد ١٣ شهر فقط من نشر قوات إضافية. أما وسائل الإعلام، فإنها اعترفت بأن الغالبية العظمى من الأهداف السياسية والاقتصادية فى استراتيجية "الطفرة" قد تم تحقيقها مع نهاية عام ٢٠٠٨م. كذلك فإن إنتاج البترول تخطى علامة ٢ مليون برميل يومياً، وبالنسبة لمعدل تزايد "إجمالى الإنتاج المحلى Gross Domestic Product" فإنه وصل إلى ٧٪ فى العام. وكان أكبر هذه التغيرات أثراً، هو عودة السنيين للمشاركة فى البرلمان؛ وعزم البعثيين السابقين على الدخول مرة أخرى فى مجال السياسة. وتلاشت الغالبية العظمى من الانتقادات التى كانت موجهة لسياسات بتراس واستراتيجيته الجديدة. وفى واقع الأمر، فإن الاحتجاجات المعارضة لحرب العراق – فى أمريكا – تلاشت تقريباً؛ وهو ما قد يكون المؤشر الذى فهم منه العدو، أنه لم تعد هناك أى فرصة فى أن تتسبب المعارضة المحلية داخل أمريكا فى إجبار إدارة الرئيس الأمريكى بوش على سحب القوات الأمريكية بطريقة مفاجئة.

وبطريقة مفاجئة للجميع، لم تعد الحرب فى العراق –مع حلول منتصف صيف ٢٠٠٨م– أمر ذا أهمية بالغة خلال سباق الانتخابات الرئاسية، واختفت من العناوين الرئيسية والصفحات الأولى فى غالبية الجرائد والمجلات والقنوات التليفزيونية. كذلك، تلاشت النداءات التى اعتاد الجانب الديمقراطى إصدارها مطالباً بوضع جداول للانسحاب الفورى من العراق؛ وعلى الإنترنت اختفت الصفحات المعادية للحرب من معظم المواقع الإلكترونية ... وتم تناسى الاتهامات الحادة الموجهة لبتراس بعد شهادته أمام الكونجرس فى سبتمبر ٢٠٠٧م. لقد انتشر إحساس عارم بين الجميع بأننا لم نخسر الحرب فى العراق، وأننا استطعنا أخيراً فرض الهدوء والاستقرار على الشارع العراقى. وبالرغم من كل هذا، فإن تقييم استراتيجية "الطفرة"، تفاوت بشدة بين كلا الجانبين فى واشنطن؛ فلقد استمر المناهضون للحرب فى العراق فى إصرارهم على أن "الطفرة" لم تحقق أهدافها بالسرعة الكافية؛ أما المؤيدون، فإنهم رأوا أن مقامرة بوش بالموافقة على هذه الاستراتيجية قد أنقذ كل الجهود التى بذلت منذ احتلال العراق، ومنعها من الضياع. واستمر هذا الجدل حتى منتصف ٢٠٠٨م، عندما انخفضت مستويات العنف فى العراق إلى درجة لا تسمح بالإنكار والمعاندة.

ومع هذا، استمر جدل سياسى من نوع غريب. لم يكن الجدل هذه المرة، بخصوص انخفاض مستويات العنف فى العراق – لأن هذا أصبح حقيقة لا يمكن الجدل فيها – وإنما بخصوص ما إذا كان التحسن فى الأوضاع نتيجة لقيادة جنرال بتراس، واستراتيجية "الطفرة"، أم لا. وفى هذا الصدد، فإن الجانب المعادى لبتراس قدم تفاسير عديدة كان بعضها حقيقياً، وكان بعضها الآخر يعبر عن التحيز الذى يسعى إلى تحريف الأمور وإبعادها عن مسبباتها الحقيقية. وعلى سبيل المثال، فلقد رأوا أن إعلان الحكومة الأمريكية بأنها لن تستسلم فى العراق هو الذى أعطى الثقة لحلفائنا، وثبط من همم المتمردين والإرهابيين ... والذين أدركوا أنه لا أمل لهم فى النصر. وأن صحوة الأنبار، ربيع عام ٢٠٠٦م، شهدت انضمام آلاف من المتمردين السابقين

إلى الجانب الأمريكي فى هذه المحافظة؛ وأن هذا وحده كان قادراً على تغيير موازين القوة وخفض حجم العنف، وبدون الحاجة إلى قوات أمريكية إضافية. ووصل الأمر إلى أن كراهية العراقيين لأفراد تنظيم القاعدة وصل إلى حد الحرب غير المعلنة بينهما خلال ٢٠٠٧م؛ وأن القيادة الأمريكية نسبت الإنجاز لنفسها زوراً.



صورة لـ"الجنرال بتراس" فى يوليو من عام ٢٠٠٧م، خلال ذروة تطبيقه لاستراتيجية الطفرة. وفى هذه الصورة، يقوم بتراس بجولة فى شوارع بغداد مرتدياً زى الصاعقة المموه وقميص مضاد للرصاص من فوقها. ولا يميزه عن من حوله إلا غطاء الرأس الذى يحمل رتبته، جنرال بأربع نجوم.

مجموعة أخرى من المنتقدين للحرب فى العراق، رأت أنه قد تم استنزاف موارد المقاومة العراقية من الرجال والعتاد مع حلول ٢٠٠٧م، حتى أصبح "الانقلاب فى الموازين" من الأمور المحتمة، مع تراكم هذه الخسائر التى لا يمكن تعويضها؛ وأنه قد تصادف وحدث كل هذا مع تولى الجنرال بتراس للقيادة وتطبيقه لاستراتيجيته المزعومة. وعلى نفس الدرجة من الأهمية، يمكن القول بأنه قد مضى ما يكفى من الوقت –مع حلول ٢٠٠٧م– لأن تصبح قوات الأمن العراقية على درجة كافية من الكفاءة تمكنها من فرض الاستقرار فى الشارع العراقى ... خاصة بعد اكتسابها خبرات هامة من احتكاكها بالقوات الأمريكية. كذلك، فإن الارتفاع الحاد فى أسعار البترول، ضخ عدة بلايين من الدولارات فى الاقتصاد العراقى، وهو ما حسن من مستوى المعيشة اليومى للمواطن العادى. وبالمثل، فإن المفاوضات القاسية أقنعت كلاً من إيران وسوريا وإمارات الخليج بأن توقف تمويلها لجماعات المتمردين التابعة لها، وهو ما قلل من السيولة النقدية المتاحة أمام أولئك الذيول الإرهابية للاستمرار فى القتال. وباختصار، كان هناك أسباب كثيرة لهذا التحول الهائل، بدون أن نرجع الفضل لبتراس واستراتيجيته فى تحقيق هذا.

وبالرغم من أن المحللين العسكريين التقليديين، كانوا فى –بعض الأحيان– يدّعون أن بتراس لم يضغط بما فيه الكفاية على العدو، إلا أن الحقيقة هى أن بتراس ومساعديه قد تسببوا فى قتل وأسر أعداد من المتمردين والإرهابيين أكبر بكثير من الذين تم قتلهم وأسرهم خلال أى فترة أخرى من فترات الحرب فى العراق. وكل ما فى الأمر، هو أنه خلال فترة تولى بتراس القيادة، كانت مسألة التباهى بأعداد القتلى والأسرى، تعتبر نوعاً من أنواع الانتحار السياسى، لأنه كان يُذَكِر الرأى العام بأعداد القتلى فى فيتنام، كما أنه أمر ذو حساسية شديدة بالنسبة للحلفاء العراقيين الجدد الذين انضموا للأمريكان من السنّة، والبعثيين

السابقين. لكنه لم يتم التأكيد، أو توضيح أحد النقاط التى ركز عليها بتراس فى تعامله مع العراقيين، فهو قد قام بـــ"عمليات لا حركية Nonkinetic Operations"*[٤]، وتواصل مع تجمعات المدنيين العراقيين؛ وهو ما سمح له، وللقوات الأمريكية، بقدر أكبر من الحرية فى العمل على اصطياد –وقتل– الإرهابيين من تنظيم القاعدة. مع نهاية عام ٢٠٠٨م، كانت قتل أو أسر عشرات الآلاف من هؤلاء الإرهابيين؛ وسرعان ما امتلأ معسكر "بوكا Bucca" بما يزيد عن ٢٤,٠٠٠ سجين منهم، بالإضافة إلى ما يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ قتيل منذ بداية الحرب، أو كما ذكر أحد قادة مكافحة المتمردين بتراس: "لقد كان هناك كثير من القتلى فى صفوف العدو خلال الشهور الستة الأولى من عملية "الطفرة"، حتى أنه يمكنك إطلاق اسم: "نظرية الامتثال Compliance Theory" على ما حدث".

فهل كان هذا متوافقاً مع استراتيجية "COIN"، أم أنه كان مكملاً لها؛ تلك الاستراتيجية القائلة بأن اهتمام الرأى العام المركز على إعادة البناء الاقتصادى والاجتماعى صرف نظرهم بعيداً عن تزايد عدد القتلى من العراقيين الذين لا أمل فى تغيير وجهة نظرهم تجاه القوات الأمريكية، والذين كان التخلص منهم خطوة ضرورية تسمح للمدنيين العراقيين بالتجرؤ على المشاركة فى العملية الديمقراطية الجديدة التى تشهدها العراق. أما بخصوص التساؤل عن أى التكتيكات كان الأكثر نجاحاً فى تحقيق الاستقرار فى الشارع العراقى، وخفض مستوى العنف؛ فإنه سؤال لم يتم الإجابة عليه أبداً. وإن كان لا يمكن إنكار أن القوات الأمريكية قد قتلت أعداداً أكبر من المتمردين عندما كان اهتمام الرأى العام مركزاً على الجوانب الأقل أهمية الخاصة بإعادة الإعمار واكتساب عقول وقلوب المدنيين.

---

*هناك شرح مفصل لمعنى "العمليات اللا حركية" فى نهاية الكتاب؛ فى الجزء المسمى: المصطلحات العسكرية المستخدمة، المصطلح رقم [٤]. (عادل نجيب)

الملك داود*

إن المتأمل فى حقائق الأمر، يمكنه أن يرى أن دافيد بتراس لا يمثل الصورة المتوقعة للمحارب الأمريكى، وهو أقل صلاحية لأن يلعب دور "مانعة الصواعق Lightning Rod" بين الأحزاب. وفى هذا الخصوص، فإن كثيرين قد وصفوا بتراس بأنه منطو يحب قراءة الكتب وممارسة الرياضة، لكنه ذو حجم متواضع وكثيراً ما يبدو وكأنه متعب بسبب قامته المحدودبة. لقد تخرج بتراس من وست بوينت، عام ١٩٧٤م، وكان ضمن الـ ٢٠٪ الأوائل فى دفعته (كان ترتيبه الـ٤٣). وبعدها بشهرين تزوج من صديقته "Holly Knowlton"، وهى ابنة المراقب العام، جنرال "وليم نولتون William Knowlton". زوجته الجديدة مثقفة، لأنها تخرجت بتفوق من "Dickinson College". أما والدها، جنرال نولتون فهو محارب قديم حصل على الكثير من الميداليات وله معارف واسعة بمختلف المجالات. وعلى سبيل المثال، فإنه كان يتكلم عدة لغات، ويقرأ فى كل المجالات وعلى نطاق واسع؛ وهى عادة انتقلت إلى زوج ابنته، الذى أدرك أهمية الجمع بين "التدريب الأكاديمى Academic Training" إلى جانب الخبرة العسكرية التى يكتسبها من خلال خدمته فى الجيش. وبصرف النظر عما إذا كان بتراس قد أدرك هذا أم لا، فإنه كان قد دخل بالفعل فى مسار تعليم عسكرى غير تقليدى؛ ذلك المسار الذى يؤكد على أهمية "التدريب الأكاديمى"، ولا يكتفى باكتساب الخبرة من التدريب على السلاح فقط. وفى هذا الخصوص، يمكنا الحديث عن ثلاثة مميزات أساسية سادت خلال الـ٢٥ سنة التالية من حياة بتراس:

---

* هكذا وصلت الصفاقة بهانسن –خلال محاولاته لتعظيم القادة العسكريين من الأمريكان– لأن يشبه بتراس بالنبى داود، مطلقاً عليه اللقب الذى عرف عن داود النبى ("الملك داود"). (عادل نجيب)

الميزة الأولى: التفوق والامتياز فى كل مهمة كلف بها، وعلى الرغم من أنه لم يكلف بأى مركز قيادى فعلى فى حرب حقيقية.

الميزة الثانية: استعداد فكرى لا مثيل له، وتدريب أكاديمى بدا وكأنه يكمل حالة اللياقة البدنية الفائقة التى يتمتع بها.

الميزة الثالثة: الطموح الواضح لأن يتم تكليفه بأصعب المهام وأكثرها تنوعاً واختلافاً؛ مهام مرموقة تمكنه من إظهار مواهبه المتنوعة. وقد كان هذا الطموح -فى بعض الأحيان- هو الذى جعله محل شك رؤسائه، وضايق منافسيه من الضباط الذين يحملون نفس الرتبة.

فى هذا الخصوص، عادة ما كان بتراس الشاب أذكى الموجودين وأكثرهم لياقة بدنية، فى أى تجمع يكون فيه. وفى كثير من الأحيان، كان يتصرف وكأنه على علم بهذا. وغالباً ما كان هذا يتسبب فى مضايقة رفاقه، أكثر مما يلفت النظر لمواهبه لدى رؤسائه. وبعد مرور ٩ سنوات على تخرجه من أكاديمية وست بوينت العسكرية، تخرج النقيب بتراس فى عام ١٩٨٣م من كلية أركان الحرب الأمريكية فى "Fort Leavenworth" بولاية كانسس، وكان الأول على دفعته. حتى الآن، كانت إنجازاته الأكاديمية تدل على أنه سيتمكن من إثبات وجوده كأحد أكثر الموهوبين من بين أبناء جيله فى مجال التكتيك العسكرى. وبعد هذا بأربع سنوات، فى عام ١٩٨٧م، حصل على شهادة الدكتوراه فى مجال العلاقات الدولية من مدرسة وودرو ويلسون التابعة لجامعة "Princeton". كان موضوع رسالته هو التأثيرات السيئة لحرب فيتنام على العمليات العسكرية التالية؛ خاصة حالة عدم الثقة بالنفس التى سادت الجيش الأمريكى منذ انتهاء هذه الحرب. عندما كان بتراس لا يزال فى بداية الثلاثينات من عمره، خلال الفترة من ١٩٨٥- ١٩٨٧م، كانت مهنته العسكرية فى رقى دائم وتصاعد مستمر، كضابط جيش، وكباحث مثقف، وكمدرس فى أكاديمية وست بوينت العسكرية. وكل المهام التى كلف بها خلال السنوات التالية، تمكن من خلالها أن يوطد أواصر الصداقة مع أعلى الضباط رتبة؛ فى

نفس الوقت الذى تمكن فيه من عرض مهاراته التنظيمية والذهنية على مستوى "السَرية"، و"الكتيبة" و"اللواء".

بعد أن تخرج بتراس فى "مدرسة حارس الأحراش Ranger School" بمرتبة الشرف بدأ خدمته فى لواء مشاة خفيف، وهناك شغل وظيفة ضابط العمليات المساعد فى الوحدة ميكانيكية المتمركزة فى "Fort Stewart" بولاية چورچيا الأمريكية. وخلال الفترة من عام ١٩٨٨– ١٩٨٩م عمل الرائد دكتور بتراس فى ألمانيا، تحت إشراف معلمه القديم جنرال "John Galvin" فى وظيفة قتالية كضابط عمليات فى الفرقة الثالثة مشاة، فى اللواء الأول. لقد ارتبط اسم بتراس –خلال حياته المهنية– بأسماء أقوى الجنرالات فى الجيش الأمريكى، ولهذا كان من المنطقى أن يشغل وظيفة ضابط تنفيذى مساعد للجنرال "Carl Vuono" رئيس أركان حرب الجيش الأمريكى فى العاصمة الأمريكية واشنطن. هناك، كان رؤساؤه سعداء بنشاطه وتفوقه الأكاديمى؛ إما منافسوه، فإنهم رأوا تقدمه السريع على أنه نتيجة لعلاقات الصداقة التى تربطه بالجنرالات فى القيادة العليا، وتخرجه من أحسن الكليات العسكرية، وتوليه لمهام ووظائف ذات أبعاد سياسية.

عندما وصل إلى رتبة مقدم، تولى بتراس قيادة أول كتيبة فى حياته، والتى كادت تنتهى بطريقة مفاجئة فى عام ١٩٩١م. فإن أحد الجنود الموجودين تحت قيادته، أطلق النار عليه –عن طريق الخطأ– وأصابه فى صدره. هذه الإصابة، تطلبت إجراء جراحة عاجلة فى الصدر، أجراها دكتور "William Frist"، والذى سيتولى، فيما بعد، منصب سيناتور عن ولاية تِنسي؛ من أجل إصلاح نزيف فى الوريد والشريان الرئوى، ومن أجل إعادة تقسيم جزء من الرئة. بعد أن تعافى بتراس، أمضى السنوات الأخيرة من عقد التسعينيات، برتبة عقيد فى عديد من الوظائف المختلفة فى الفرقة ١٠١، وفى الفرقة ٨٢ المحمولة جواً.

وقد تعرض بتراس للموت مرة أخرى فى عام ٢٠٠٠م، فى حادثة بعيدة عن ميدان القتال، عندما فشلت مظلته فى أن تنفتح انفتاحاً كاملاً، وتسبب هبوطه الخشن فى حدوث شرخ فى منطقة الحوض. بعد أن تم ترقية بتراس لرتبة "عميد Brigadier General"، تعرض للقتل مرتين فى الميدان، بالرغم من أنه لم يدخل – حتى الآن – فى قتال متلاحم مع الخصم.

وبصرف النظر عما إذا كان بتراس يدرك هذا أم لا، فإنه لم يمض العقدين الأخيرين من حياته فى الاستعداد للاشتباك فى حرب تقليدية، ولا من أجل أن يشتبك فى عمليات خاصة بمكافحة الإرهاب، ولا حتى من أجل القتال التقليدى ضد المتمردين فى الغابات أو داخل المدن. بدلاً من كل هذا، فإن استعداداته الحقيقية كانت لقيادة قوات احتلال ضخمة مستعدة لإدارة بلاد ذات كثافة سكانية عالية، بعد الانتهاء من "حرب عادلة Post Bellum"* مثل ما حدث فى العراق عام ٢٠٠٣م.

بعد هذا، خدم بتراس كـ"جنرال بنجمتين Two-star General"** فى عمليات حفظ السلام التى حدثت فى منطقة البلقان خلال الفترة من ٢٠٠١– ٢٠٠٢م. هناك، صقلت أفكاره المتعلقة بمكافحة الإرهاب، قبل أن يقود القوات التى هاجمت بغداد، باعتباره قائد **

---

* هذه هى الطريقة الأمريكية فى إقناع الذات، وتبرير أى جريمة يتم ارتكابها ضد الشعوب. وكما هو ملاحظ، فإن المؤلف يحاول تعظيم الشخصية التى يكتب عنها، وإضافة هالة كاذبة من خلال الفذلكة اللغوية عديمة المعنى، والتأملات الفلسفية غير المنطقية. (عادل نجيب)

** فى الجيش المصرى الرتبة التالية لرتبة "عميد"، هى رتبة "لواء Major General"، وكما سيرى القارئ فى الملحق الخاص بالمصطلحات العسكرية فإنها رتبة يتم تمثيلها بنسر وسيفين متقاطعين فقط ... ولا يوجد فيها نجمتان. أما الرتبة التى تحمل نجمتين فهى رتبة "الفريق الأول". وعادة ما يكون قائد الفرقة هناك برتبة "لواء Major General" ("جنرال بنجمتين"). (عادل نجيب)

الفرقة ١٠١ المحمولة جواً. فى العراق، أصبحت أولى مهامه القتالية مشهورة جداً، بفضل المقالات التى كتبها الصحفى الشهير المصاحب لقواته، "Rick Atkinson". وبعد أن انتهت العمليات الأساسية باحتلال العراق، جذب بتراس إعجاب المراسلين الصحفيين فى الموصل والذين كانوا سعداء بمقارنة الطرق التى استخدمها بتراس فى جنوب العراق بالطرق العتيقة والتقنيات البالية الخالية من الخيال التى استخدمها القادة التقليديون فى باقى أجزاء العراق. وفى هذا الخصوص، فإن بتراس كان دائماً ما يخبر المراسلين الصحفيين بأنه يستخدم تقنيات مكافحة التمرد التى تعلمها خلال مهام حفظ السلام التى كلف بها فى كل من "هاتى Haiti" والـ"بلقان Balkans"، بدلاً من أن يعتمدوا اعتماداً كلياً على مطاردة الإرهابيين وقتلهم.

ومن الواجب ذكر، أن قلة ضئيلة من القادة الآخرين فى باقى أجزاء العراق، هم الذين استطاعوا تحقيق نفس مستوى النجاح الذى حققه بتراس فى الموصل، خلال الأيام المظلمة التى ارتفع خلالها مستوى العنف طوال الفترة من ٢٠٠٣- ٢٠٠٥م، والتى أعقبت التخلص من صدام حسين مباشرة.

لقد اعترف عدد متزايد من المراسلين الصحفيين، بأنه بينما كانت البيروقراطية العسكرية لا تزال غير مدركة لأى شىء عن نشأة حركات التمرد العراقية التى ظهرت فى كل مكان حولها؛ فإن "اللواء Major General" بتراس، تمكن بالفعل من أن يجعل الأمور تستقر من حوله فى الموصل؛ وبدأ يحكم هذه المنطقة كوالى رومانى ناجح. وفى هذا الخصوص، فإن بتراس قام بالإشراف على إعمار وإعادة بناء كل شىء، من الجامعات الحضرية وحتى مجلس مدينة الموصل. هذا وقد انفق بتراس ملايين الدولارات، على أكثر من ٤,٠٠٠ مشروع، وبدون أن يستأذن رئيس سلطة التحالف المؤقتة ("Paul Bremer")، والذى كانت مهامه تتضمن الإشراف على كل الشئون المدنية، منذ مايو ٢٠٠٣م وحتى الآن.

لقد كان بتراس ينظر إلى العراق على أنها مجرد تحد جديد يواجهه بعد حصوله على خبرة وتدريبات امتدت لما يقرب من ثلاثين عاماً حتى الآن؛ أما الآخرون، فإنهم رأوا ادعاءاته بالنجاح على أنها تأييد ضمنى لسياسات إدارة الرئيس بوش المرفوضة فى العراق. فى يوم ٢٦ من سبتمبر ٢٠٠٤م كتب بتراس فى جريدة الـ"Washington Post" تقريراً عن تقدم العمليات فى العراق، ولخص فيه أدائه الشخصى هناك قائلاً:

"الآن، وبعد مرور ١٨ شهراً على دخول القوات الأمريكية للعراق، يمكن رؤية تقدم ملموس على الأرض، حيث يتم بناء قوات الأمن العراقية من الصفر مرة أخرى".

وقد حدث هذا قبل انتخابات نوفمبر الرئاسية بستة أسابيع. وهو ما جعل كثير من الديمقراطيين يشعرون بأن جنرال مثل بتراس سوف يتسبب فى خسارة "John Kerry" للانتخابات. والذى كان ينتقد سياسات بوش بشدة فيما يتعلق بالحرب العراقية. ومع هذا، فإنك لن تجد من يستطيع الإنكار أن جهود بتراس فى تدريب وتسليح ما يزيد عن ١٦٠,٠٠٠ عراقى من قوات الجيش والشرطة الجدد، هو عمل فذ وهائل؛ على الرغم من الارتفاع المفاجئ فى مستويات العنف، والذى كان سيحدث خلال عام ٢٠٠٦م.

بدون أى تفسيرات، تم سحب بتراس من العراق، وتكليفه بمهمة مثيرة للجدل خلال الجزء الأخير من عام ٢٠٠٥ وحتى فبراير ٢٠٠٧م، كقائد عام لمركز الأفرع المشتركة فى الجيش الأمريكى، والواقعة فى "Fort Leavenworth" بولاية كانساس الأمريكية. تتوقع البعض أن منافسيه هم الذين تسببوا فى هذا حتى يعوقوا تقدمه المضطرد نحو رتبة "جنرال بأربعة نجوم Four-star General". وبالرغم من هذا، فإن سحر وغموض بتراس سيتزايد من على مبعدة آلاف الأميال من العراق. لقد نظر المراسلون الصحفيون إلى الوظيفة الجديدة التى عين فيها بتراس على أنها أحد الأعراض المرضية التى تعانى منها الإدارة غير الحكيمة للرئيس الأمريكى

بوش فى العراق، عندما قال أحدهم: "إن الرجل الوحيد القادر على التفكير والذى حقق بعض النجاح بين القادة الموجودين فى العراق، تم التخلص منه، عن طريق إرساله بعيداً عن مسرح الأحداث الحقيقى، والتخلص منه فى ولايات الغرب الأوسط".

لكنه من الممكن أن تكون وظيفة بتراس الجديدة بعيدة عن مؤامرات السياسة وألاعيبها، خاصة إذا نظرنا إلى أهمية منصبه هناك، وعلى أية حالة، فإن وظيفته الجديدة منحته فرصة نادرة لمراجعة أفعاله خلال الفترة الماضية، وتكوين أفكار جديدة تمكنه من كبح جناح حركات التمرد فى العراق.

فى معسكرات "Fort Leavenworth" قام بتراس بالإشراف على تقنيات التفكير والتدريب التى تستخدمها كل أفرع الجيش، خاصة تلك الدروس التى يمكن استخلاصها من حرب العراق، فيما يتعلق بالتقنيات الرسمية المستخدمة لمكافحة التمرد، والتى يمكن تطبيقها فى بلاد الشرق الأوسط أو فى بلاد جنوب آسيا الأخرى. وهناك عمل مع جنرال "James Mattis"، من مشاة البحرية، على إخراج كتيب "التعامل مع المتمردين فى الميدان"، والذى سيصبح -فيما بعد- الكتاب المقدس للتعامل مع ما يحدث فى أفغانستان والعراق. وبالنسبة لجنرال "Mattis"، فإنه تولى قيادة "فرقة مشاة البحرية الأولى" خلال الهجوم على بغداد، ورأى بنفسه أن الاستراتيجيات المخصصة لمواجهة المتمردين، ذات أهمية قصوى فى اكتساب جموع الشعب من المدنيين إلى جانب قوات الاحتلال. ولعل جزءاً من تأييده الأوّلي لهذا الكُتيّب، يعكس السبب فى أن قوات مشاة البحرية، خلال فترة إعادة الإعمار، قد أثبتت فاعليتها فى الحفاظ على استقرار المناطق المحتلة التى وضعت تحت سيطرتها.

وقد قام بتراس بنشر الدروس المستفادة فى سياق محاولاته لتأمين الاستقرار فى العراق، فى مقالين واسعي الانتشار، وسيتم طبعهما -فيما بعد- خلال شتاء ٢٠٠٦ وخريف ٢٠٠٨م فى أعداد مجلة "Military Review"، وعنوان المقالين هما: "تعلم مكافحة التمرد: ملاحظات من

الخبرة العراقية "Learning Counterinsurgency: Observations from Soldiering in Iraq"، و"دليل القائد لمكافحة التمرد Commander's Counter-insurgency Guidance". وفى مقاله الأخير ركز على ٢٦ نقطة، كان من الواضح أنه يهدف لأن يجعلها دليلاً عملياً لنشر الاستقرار والأمن فى العراق. والمراقبون لمجريات الأمور من المتعاطفين مع بتراس، أدركوا أن عودته إلى العراق هى أمر محتوم، وأنها ستكون مسألة وقت لا أكثر.

فترة العشـرين شـهر

عند عودته للعراق فى شهر فبراير ٢٠٠٧م، كقائد أعلى لقوات التحالف، وجد بتراس نفسه فى بلد تغلي من العنف. وعندما تركها فى منتصف شهر سبتمبر ٢٠٠٨م، كان الاستقرار هو السمة السائدة فى كثير من مناطق العراق. فكيف تمكن بتراس، من تحقيق هذا التحول المذهل فى الأوضاع، والذى يكاد يصل إلى حد الانقلاب الكامل؟ إن أولى التحديات التى واجهت بتراس، كان تحدياً سياسياً، من العراق، ومن أمريكا أيضاً. فبالنسبة للتحدى الأمريكى، فإنه كان عليه أن يعمل على ضمان أن الكونجرس –والذى أصبح الديمقراطيون يتحكمون فيه– لن يقطع عنه التمويل، خلال اللحظات الأخيرة من جهوده لإنقاذ الحرب فى العراق. لقد كان عليه أن يمارس لعبة توازن خطيرة، تطلبت منه أن يظهر عرفانه بالجميل للثقة التى أعطاها له الرئيس الأمريكى بوش الابن، ولارتفاعه الصاروخى فى المجال الوظيفى. وفى نفس الوقت، أن لا ينظر الكونجرس، ذا الأغلبية الديمقراطية، إليه على أنه عميل للإدارة الموجودة فى البيت الأبيض؛ وإنما خادم لكل منهما. قد كان يأمل أن يتمكن بهذا، من اكتساب تأييدهما –المادى والمعنوى– وجعلهما شريكاً له فى النجاح المتوقع ... فى نفس الوقت الذى يمنعهما من التشكك فى ولائه.

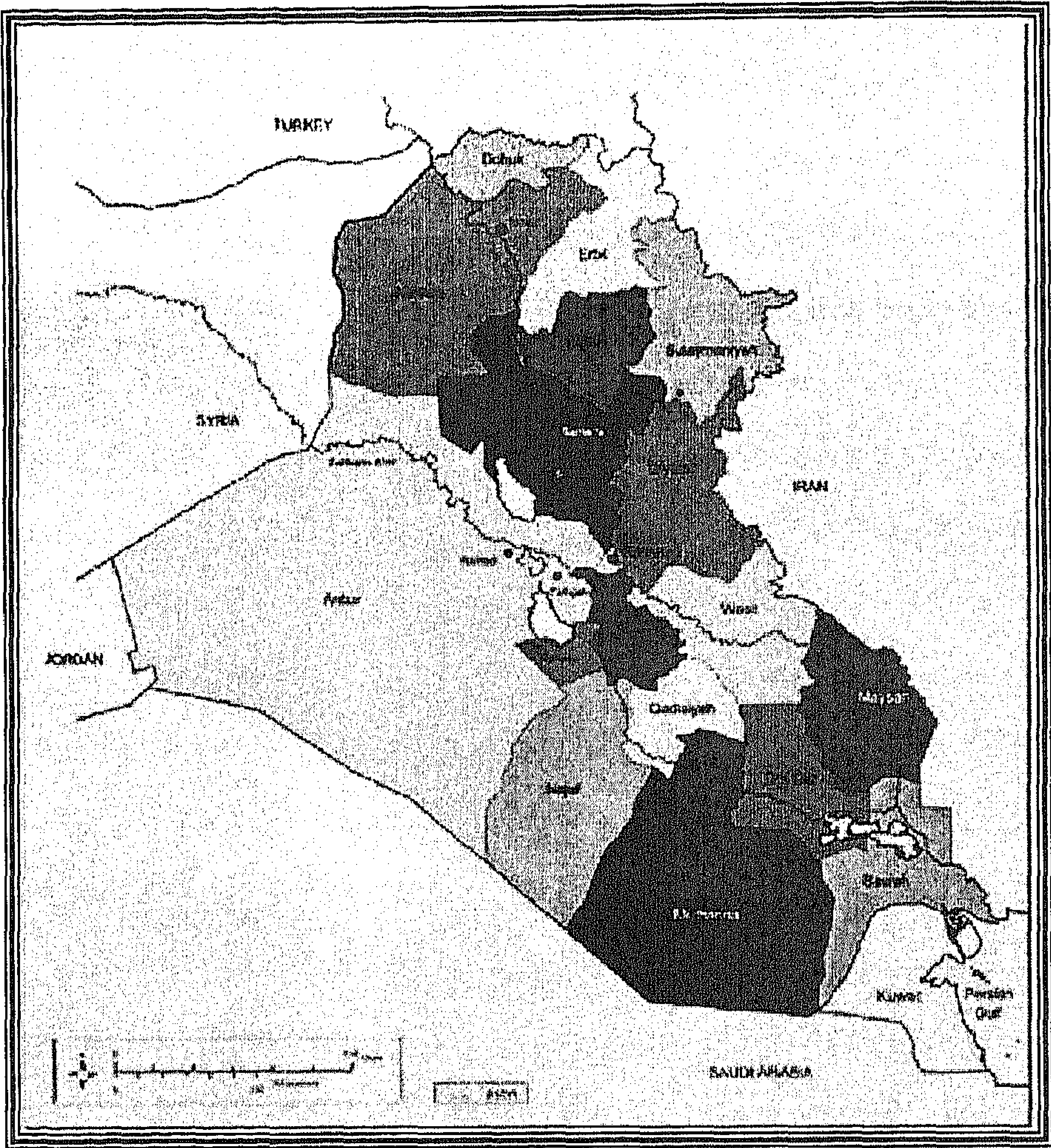
لكل هذا، كان من الحكمة لبتراس تجنب الاشتباك فى متاهات السياسة المحلية الأمريكية، كما أنه حرص على توجيه القيادات الأصغر منه، كي لا تشتبك فى انتقاد الكونجرس، أو مدح إدارة الرئيس الأمريكى. وكنتيجة مباشرة لهذه السياسة، توقف الحديث فى الكونجرس عن قطع التمويل عن الحرب فى العراق. وهكذا، ابتهج الرئيس الأمريكى، لأنه تمكن من إنقاذ الحرب؛ فى نفس الوقت الذى شعر فيه كثير من الديمقراطيين بأن انتقاداهم اللاذعة لما يجرى كانت ضرورية للوصول إلى هذا التحول المذهل فى الأوضاع. أما أكثر ما يلفت النظر، فهو تغير موقف الرأى العام الأمريكى ببطء نحو حرب؛ وتقبله لها مرة أخرى. فى فبراير ٢٠٠٧م، شعر ٦٧٪ من الشعب الأمريكى أن الحرب تسير من سيئ إلى أسوأ. لكن بعد مرور عام واحد فقط على وصول بتراس، انقسم الرأى العام إلى نصفين، فإن ٤٨٪ منهم رأوا أنها ما زالت تسير إلى الأسوأ، وعدد مماثل (٤٨٪) رأوا أن الوضع يتحسن؛ وهو تغير غير متوقع، من الممكن أن يوفر غطاءً سياسياً جيداً لكل المترددين فى تأييدهم للحرب.

أما التحدى السياسى فى العراق، فإنه كان أكثر تعقيداً. غالبية الشعب هناك من الشيعة، لكنهم تعرضوا لكبت شديد وقمع، تحت قبضة صدام حسين الحديدية. أما الآن، فإنهم احتلوا مراكز السلطة من خلال انتخابات أيدها الجانب الأمريكى؛ ووسط مشاعر الفزع والاستياء من جانب البعثيين السابقين والأقلية السنّية. تلك الأقلية ذات العلاقات القوية بإمارات وممالك الخليج الغنية، والتى تنتمى -هى الأخرى- إلى نفس المذهب السنّي. إن التحدي فى هذه المرة، لم يكن مقتصراً على إقناع حكومة "نور المالكى" الشيعية، والذى أصبح رئيساً لوزراء العراق فى مايو ٢٠٠٦م، بأن يتجاوز عن القصاص من البعثيين؛ وإنما معاملة مواطنيه من السنّة بطريقة منصفة. من سوء الحظ، فإن تنفيذ هذا على أرض الواقع، سيكون أكثر تعقيداً من كل المهام التى تولى بتراس مسئوليتها من قبل.

كذلك، فإنه كان على بتراس ضمان أن لا تؤدى مراوغات "نور المالكى" ومكره، إلى احتفاظه بمؤيديه؛ خاصة تلك الآلاف المؤلفة من الشيعة العراقيين الإرهابيين، والممولين من الجانب الإيراني ... تحت قيادة الغوغائى المتحمس الشيخ "مقتضى الصدر"، والذى كان يرغب فى تحويل العراق إلى دولة ثيوقراطية (حكم رجال الدين) على الطراز الإيرانى. وفى حقيقة الأمر، فإنه بفضل إذعان المالكى لرغبات بتراس، فإن "مقتضى الصدر" ظل صامتاً، أو فى المنفى؛ خاصة بعد اشتباكه –وخسارته– فى خلاف مع شيخ شيعي أكبر منه مكانة، الشيخ "آية الله علي السيستاني Ayatollah Ali al-Sistani". وأخيراً، وبعد أن أصبح يخشى من أن يتعرض لقمع الحكومة العراقية، أو اغتيال القوات الأمريكية له، أمر "مقتضى الصدر" المليشيات التابعة له، فى أغسطس من عام ٢٠٠٧م، بالتنحى والانسحاب. وخلف كل هذه التصدعات الدينية، والخلافات الطائفية، كان هناك تحد أكبر داخل العراق؛ فإنه لا فائدة – بالنسبة للدول السنّية المنتجة للبترول– من التخلص من تهديدات صدام حسين، ليحل محله دكتاتورية حكومة شيعية منتخبة باسم الديموقراطية، بينما تكون فى الحقيقة دولة عميلة لدولة إيران الثيوقراطية وشبيهة بها.

كذلك، فإنه كان على بتراس أن يغير رأى طائفة السنّة فى مقاطعة الأنبار، ويجعلهم ينقلبون على السنّة المنتمين لتنظيم القاعدة، والسنّة المؤيدين لصدام. كانت كل هذه المناورات تعنى فى الواقع حدوث "تحالف سنّي" مع حكومة أغلبيتها من الشيعة الذين يتجنبون البرلمانيين السنّيين. وفى أغلب الأوقات، تمكن بتراس –بمساعدة القوات الإضافية المتحمسة لتنفيذ هذه التفاهمات– من أن يَدفع كل طائفة لكبت المتطرفين فيها، خلال عملية التحول لحكومة ذات غالبية شيعية فى المحليات التى يعيش فيها السنّة.

العراق



إن انخفاض مستويات العنف بين مليشيات الشيعة والسنّة فى العراق، يعتبر الدليل الحقيقى على مدى المهارة السياسية التى يتمتع بها بتراس. وقد ساعده فى هذا، الدبلوماسية المحترفة الملهمة للسفير الأمريكى "Ryan Crocker". ومنذ البداية، تمكن "كروكر Crocker" من إدراك

أن الأمن فى العراق يعتمد على النفوذ الضخم الذى تتمتع به الأقلية السنّية؛ وأن هذا هو السبب فى أنهم لن يخضعوا لكبت الحكومة الشيعية الجديدة. وكان عليه إقناع الشيعة، بأن الديمقراطية قد أعطتهم حق السيطرة، لكنها لا تعطيهم الحق فى أن يعاملوا السُنّة بنفس الطريقة التى عامل بها صدام الشيعة. كذلك، كان عليه إقناع الأكراد، بالاكتفاء بحكم ذاتى منقوص؛ لأن هذا الوضع هو الذى سيوفر لهم الرخاء والازدهار ... محذراً إياهم من أن الاستقلال التام ليس إلا انتحاراً. نشأت بين "بتراس" و"كروكر" شراكة مثمرة، وسرعان ما اكتسب الأخير سمعة طيبة كواحد من أحسن السفراء الأمريكان فى وزارة الخارجية الأمريكية. وتحت قيادة هذا الفريق، ذهبت أيام الخلافات المشئومة بين "بول برمير" ونظرائه العسكريين إلى غير رجعة. وظهرت أهمية كروكر، وأصبحت أكثر وضوحاً، من خلال افتقاد الوسط السياسى لأى شخصية دبلوماسية مماثلة فى أفغانستان. خاصة أن الدبلوماسية الأمريكية كانت تفتقر، خلال السنوات التالية، من عام ٢٠٠٩ – ٢٠١١م، للقدرة على التعاون المثمر مع الشخصيات العسكرية فى الجيش الأمريكى؛ كما أنها كانت فى حالة غربة وانفصال عن حكومة "كارزاى Karzai"، وعاجزة عن الحصول على التعاون الكامل من جارتها فى باكستان.

أحاط بتراس نفسه، بمجموعة موهوبة من المرؤوسين والزملاء الذين كان من صالحهم أن تنجح تقنيات بتراس فى العراق، ومن أمثلة هؤلاء جنرال "Raymond Odierno"، والذى لوثت الصحف سمعته بطريقة ظالمة خلال الفترات المبكرة من الحرب، عندما كان قائداً للفرقة الرابعة مشاة، ووصمته بأنه عديم الخيال، ومن المدرسة القديمة التى تندفع فى التنفيذ بمجرد صدور الأوامر ودون أى تفكير خلاق من جانبه. أما بتراس، فإن رأيه كان مختلفاً تماماً. لقد شعر بتراس منذ البداية، بأن هذا الحكم ظالم؛ لكنه قد يكون ذا قيمة فى إثبات حسن نوايا "أُديرنو Odierno" وصدق حسه العسكرى فى مكافحة المتمردين، واستخدام جديته وحماسة

فى محاربة العدو. وفى هذا الخصوص، فإن "أُديرنو" ظل يشغل وظيفة أعلى قائد ميدانى فى بغداد. وأثبت هناك قدراته الفائقة على مكافحة المتمردين؛ مشكلاً استمرارية لسياسات بتراس بعد رحيله. وقد رأى بعض المراقبين أن "أُديرنو" كان أحد المفاتيح التى مكنت "الطفرة" من تحقيق أهدافها. وعلى أية حال، فإنه قد تمكن من نقل المعركة إلى العدو؛ متسبباً فى خسائر فادحة لهم ... ساعدت على تحجيم نشاطاتهم.

مما لا شك فيه، أن انخفاض أعداد الضحايا من الجنود الأمريكان وارتفاع الروح المعنوية بينهم، كان أحد المفاتيح التى مكنته من استعادة الرأى العام مرة أخرى إلى صفه؛ ودفعت الأمريكيين لتأييد الحرب فى العراق؛ خاصة أولئك الضحايا الذين يقعون نتيجة الألغام والمتفجرات المصنعة محلياً. فهؤلاء القتلى على وجه الخصوص، كانوا يتسببون فى خفض الروح المعنوية لدى القوات الأمريكية، بسبب الطبيعة العشوائية لهذه الخسائر، وإن المتمردين كانوا غالباً ما يتم هزيمتهم بسهولة خلال أى معارك مباشرة معهم. وبالرغم من أنه قد تم إنفاق حوالى عشرة بلايين دولار لحماية الجنود من هذه الألغام، إلا أن الخبراء الفنيين فى البنتاجون عجزوا عن ملاحقة قدرات المتمردين على إنتاج ألغام ومتفجرات أكبر وأكثر تعقيداً. من وجهة نظر بتراس، فإن الحل الحقيقى كان يكمن فى العراقيين أنفسهم. من الناحية العملية، كان على بتراس أن يخرج بجنوده من مواقعهم الآمنة ويختلط بالمجتمعات العراقية، لينشأ بينهم تواصل، يمكنه من جمع قدر كاف من المعلومات، يحارب به الفرق المنتجة لهذه الألغام والمتفجرات. لقد كان عليه إقناع المجتمعات العراقية، بالنظر إلى هذه التفجيرات العشوائية على أنها ستأتى بنتائج عكسية. إذا تمكنا من وقف العبوات الناسفة العشوائية، فإنه من الممكن التعامل بنجاح مع باقى أنواع الخسائر التى تتعرض لها القوات الأمريكية أو تحملها، خاصة أن المتمردين قد بدأوا بالفعل فى تجنب المواجهات المباشرة مع القوات الأمريكية. وكبديل مؤقت للحل النهائى، أصر بتراس على استخدام آلاف من العربات

الثقيلة المدرعة (MRAP) فى الدوريات التى يقوم بها جنوده، لأن هذا النوع يحد من الخسائر فى الأرواح. وعلى رغم أن هذا النوع من العربات لا يتميز بالرشاقة، ويحد من قدرة السائق على المناورة، إلا أن تدريعه وتصميمه المتفوق أنقذ عشرات من الأرواح.

من الجوانب المهمة لنجاح هذا العمل الجماعى، قدرة بتراس على أن يبدو وكأنه مع الجميع. كذلك، فإنه كان يعطى كل ذى حق حقه، وينسب الجهود الناجحة إلى صاحبها. وخلال تعامله مع وسائل الإعلام، أظهر بوضوح أنه ليس من مؤيدى بوش الابن، كما أنه ليس بمصلح تم إرساله لتصحيح الأخطاء التى تم ارتكابها فى الماضى. وهو الذى قال:

"أنا لست متشائماً أو متفائلاً، وإنما أنا واقعى".

والزى الرسمى الذى كان يرتديه فى الميدان، لم يكن به ما يميزه عن باقى جنوده؛ كما أنه قد اعتاد على زيارة كل المواقع الأمامية فى أراضى العراق مترامية الأطراف. وخلال شهور قليلة، فى بداية عام ٢٠٠٧م، أصبحت "شخصية بتراس" لها نفس أهمية التقنيات المستخدمة فى الاستراتيجية التى أدت إلى استقرار الأوضاع فى العراق. لقد تجمع له رصيد أخلاقى مرتفع، وسمعة ذائعة، بأنه قادر على تحقيق ما لا يستطيعه الآخرون.

النزول من على قمة الجبل

ترك بتراس منصبه كقائد أعلى لقوات التحالف فى العراق فى ١٦ من سبتمبر ٢٠٠٨م، بعد أن أصبحت العراق أكثر هدوءاً واستقراراً، بالنسبة لما كانت عليه من قبل. وشغل منصبه الجنرال الموهوب "أُديرنو Odierno". أما بتراس، فإنه عاد إلى أمريكا ليلقى إعجاب الجميع وتقديرهم. وبعدها بحوالى أسبوعين، فى اليوم الأخير من أكتوبر ٢٠٠٨م، تولى بتراس رئاسة "القيادة المركزية الأمريكية CENTCOM" فى تامبا بولاية فلوريدا الأمريكية، وهو أكثر

المناصب العسكرية هيبة وأهمية على مسرح العمليات الإقليمى، بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر الإرهابية، لأنه يوجه عمليات مكافحة الإرهاب فيما يزيد عن عشرين دولة مختلفة، بالإضافة إلى إشرافه على مسارح الصراع فى أفغانستان والعراق. والوضع الآن، هو أنه لم ترتكب أى أعمال إرهابية كبيرة منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وأصبحت العراق أكثر هدوءاً واستقراراً. أما القتال فى أفغانستان، فإنه لم يعد المادة الأساسية للصفحات الأولى فى الجرائد الأمريكية. من الناحية النظرية، يمكن لبتراس أن يستمتع بمنصبه الجديد الهادئ، بعد الجهود الضخمة التى بذلها من أجل تحقيق كل هذا. ومن موقعه فى فلوريدا، أمكنه الإشراف على عمليات ناجحة، بسبب التعاليم والكتيبات التى وضعها هو، وتم استخدامها – وتطبيق محتوياتها – بنجاح فى العراق. وحيث أن جنرال بتراس يعتبر أكثر القادة العسكريين شعبية فى أمريكا، فإنه من المتوقع أن يتم منحه منصب رئيس "هيئة الأركان المشتركة Joint Chiefs"، أو القيادة العليا لحلف الناتو؛ وهى المناصب التى عادة ما تعرض على من تمكن من إحراز نجاحات فذة مثل بتراس.

ومما لا شك فيه، أن الرأى العام قد شعر بالامتنان لبتراس، لأنه قد تمكن من قلب الأوضاع فى العراق ... منقذاً أمريكا من أن تخرج بمذلة من هناك. وعلى الفور، أصبح لبتراس مكانة محترمة مشابهة لمكانة "Dwight Eisenhower" بعد الحرب العالمية الثانية، أو حتى أكثر من مكانة "Colin Powell" خلال السنوات الأولى من عقد التسعينيات. واختارته مجلة "Time" بتراس ليكون ضمن قائمة أكثر مائة شخص تأثيراً على العالم فى عام ٢٠٠٧م. وتكرر هذا مع عدد من الجرائد والمجلات التى صدرت خلال عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٨م؛ كما تم منحه عدداً من الجوائز وألقاب الشرف. عندما ترك بتراس بغداد فى نهاية صيف عام ٢٠٠٨م، قام وزير الدفاع "Robert Gates" بالثناء عليه وأشاد بما قام به، قائلاً:

"إن التاريخ سينظر إلى بتراس على أنه واحد من أعظم القيادات العسكرية فى ميادين المعارك".

ومع حلول شهر يناير من عام ٢٠١٠م، بدأ اسم بتراس يظهر باستمرار فى استطلاعات الرأى الأمريكية كأحد الشخصيات المحترمة فى جيله. وخلال الشهور الأولى من عام ٢٠١١م، دعت مقالات فى جريدة "Wall Street joarnal" لأن يتم ترقية جنرال بتراس إلى رتبة "جنرال بخمس نجوم Five-star General"*، وهو شرف لم يحصل عليه أحد منذ الحرب العالمية الثانية، عندما تم منح جنرال "Omar Bradley" هذه الرتبة فى عام ١٩٥٠م. هذا وقد فتحت سيناتور "Lindsey Graham" هذا الموضوع مرة أخرى، وأعلنت أنه من الممكن أن يكون هناك تأييد من كِلا الحزبين لمنح بتراس هذه الرتبة الشرفية.

وفى أحد استطلاعات الرأى التى أجريت خلال شهر أبريل من عام ٢٠١١م، ظهر بتراس على رأس قائمة المرشحين الجمهوريين ذوى الشعبية العالية لمنصب الرئاسة فى الانتخابات الرئاسية التى ستجرى عام ٢٠١٢م؛ وعلى الرغم من أن بتراس قد أكد -مراراً وتكراراً- على أنه لن يرشح نفسه لمنصب الرئاسة، وأعلن هذا، فى الصحف، من خلال مراسل واشنطن "David Gregory". ووصلت شعبيته إلى مستويات غير مسبوقة فى استطلاعات الرأى التى أجراها معهد "جالوب Gallup". ومع نهاية العامين الأولين فى الفترة الرئاسية الأولى للرئيس أوباما، كان كثير من الجمهوريين متحمسين لدخول بتراس سباق الرئاسة، بالرغم من عدم تيقنهم من حقيقة سياسات وآراء هذا القائد العسكرى، والذى لم يعمل بالسياسة من قبل.

---

* هى رتبة شرفية، ومن الممكن أن تمضى أجيال وأجيال دون أن يحصل عليها أى جنرال. وفى الواقع، فإن هذه الرتبة تسمى "جنرال الجيش General of the Army". وحيث أنه لا يوجد ما يقابلها فى رتب الجيش المصرى ... يمكننا تسميتها: "جنرال الجنرالات". (عادل نجيب)

وعلى أية حال، فإنه عند مقارنته بالجنرالات الأمريكان العظام فى القرن العشرين، فإننا لن نجد إلا جنرال "Dwight Eisenhower" هو الوحيد الذى يمكن له الوقوف -نداً لند- مع بتراس، وسياساته الذكية، وقدراته على إدراك كيفية التعامل مع وسائل الإعلام، ودهائه فى التعامل مع الديمقراطيين وكأنه "تقدمى متحرر Liberal"، ومع الجمهوريين وكأنه "متحفظ ومقاوم للتغيير Conservative".

ومع هذا، فإنه خلال فترة لا تزيد عن شهور قليلة، تبخر كل هذا الإجلال والتقدير والإعجاب، وتوقفت وسائل الإعلام واستطلاعات الرأى عن ذكر بتراس. وفى الواقع، فإن شيرمان عومل بنفس الطريقة بعد انتهاء الحرب الأهلية الأمريكية، بعد رفضه المتصلب لأن يحتل أى منصب سياسى ... أو حتى النزول إلى معترك السياسة من أساسه. أما الحزب الجمهورى، فإنه عاد لطبيعته الأولى، مستعداً لخوض المعارك التمهيدية لانتخابات الحزب الداخلية، وبدأت المنافسات تحتدم بين أعضائه. أما بتراس، فإنه أعلن -مرة أخرى- عزمه على عدم المشاركة، وخلال شهور عام ٢٠١٢م، أوضح بتراس بصراحة رفضه للترشح لمنصب نائب الرئيس عن الحزب الجمهورى خلال الانتخابات الرئاسية القادمة. هذا، وقد أثارت بعض آراء بتراس كثيراً من الجدل، ووجد نفسه -فى بعض الأحيان- وسط الجدل السياسى رغماً عنه. فكرئيس لـ"هيئة الأركان المشتركة"، أخبر لجنة خدمات التسليح فى مجلس الشيوخ ما نصه: "إن إدراك العرب لمدى تحيز السياسة الأمريكية للجانب الإسرائيلى". هو الذى يعوق جهود أمريكا فى كل دول المنطقة؛ والعبارة السابقة، تمثل الشعور العام السائد لدى الجنرالات الأمريكان الذين تعاملوا بكثرة مع قادة الجيوش العربية، وسمعوا منهم، تلك النوعية من النقد لسياسات أمريكا فى الشرق الأوسط الموالية لإسرائيل.

بصفته رئيساً لـ"هيئة الأركان المشتركة"، كانت مسئوليات بتراس المباشرة تقتضى منه محاولة تغيير الوضع فى أفغانستان أيضاً. وفى هذا الخصوص، فإن تزايد العنف فى مسرح

العمليات الأفغانستانى، وصل إلى أسوأ درجاته خلال عام ٢٠٠٩م؛ وبالرغم من استمرار الهدوء فى الجبهة العراقية. وإذا كانت أمريكا قد أهملت الوضع فى أفغانستان، بسبب انشغالها بحرب العراق، وضرورة فرض الاستقرار والأمن داخل المدن العراقية؛ فإن الاستقرار الحالى للوضع فى العراق، يجب أن يوجه كل الاهتمامات نحو أفغانستان، حتى يمكن تحقيق استقرار مماثل. وبمعنى آخر، فإن بتراس وجد نفسه، مرة أخرى، فى وضع يستوجب منه العمل على إصلاح أخطاء غيره. لقد كان الرأى العام الأمريكى يتوقع "طفرة" أخرى فى أفغانستان. ولا يوجد أى شك أن بتراس سيصبح "الجنرال المنقِذ" لأفغانستان؛ ويحقق ما عجز الآخرون عن تحقيقه.

فى الأساس، كان الرئيس الأمريكى باراك أوباما، يطلق على الحرب الهادئة فى أفغانستان اسم: "الحرب الحسنة The Good War". وقد كان هذا منطقياً، لأنها مرتبطة – بطريقة مباشرة– مع أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م الإرهابية، ولأنها حظيت بتأييد أكبر من قِبل كُل من "الأمم المتحدة" و"حلف الناتو". لكن الوضع –الآن– تغير؛ وأصبح الموقف هناك أكثر سوءاً مما كان عليه فى العراق قبل "الطفرة". وفى هذا الخصوص، فإن نائب الرئيس الأمريكى "Joe Biden" ذكر ما نصه:

> "إن الهدوء الذى ساد فى العراق، من الممكن أن يعتبر أحد أعظم إنجازات الرئيس أوباما".

وبالفعل، فإنه خلال فترة الشهور الثمانية الأولى من إدارة الرئيس أوباما، مات عدد أكبر من الجنود الأمريكان، بسبب تزايد العنف فى أفغانستان، من العدد الذى مات طوال الثمانية سنوات الأولى من الحرب هناك. لقد كان على بتراس أن يعيد الكرة مرة أخرى فى أفغانستان. وبالإضافة إلى هذا، فإن السعى لإصلاح الوضع فى أفغانستان لا يعنى بالضرورة أن الرئيس أوباما يرغب فى المخاطرة بالالتزام بإنقاذ الحرب فى أفغانستان بنفس الطريقة التى حدثت فى

العراق (عن طريق استخدام أسلوب "الطفرة")، خاصة مع وجود اختلافات معروفة بين ظروف وطبيعة الحالتين.

خلال شهر يونيو ٢٠١٠م، تم تغيير القائد الأعلى للقوات فى أفغانستان بطريقة مفاجئة، وقام أوباما باستبدال الجنرال "Stanley McChrystal" بسبب الملاحظات الطائشة التى صدرت منه لصحفى فى مجلة "Rolling Stone" بخصوص عدم كفاءة إدارة أوباما فى إدارة الحرب. وفى هذا الخصوص، فإن التغيير السابق، يعتبر ثانى تغيير فى القيادة العليا خلال فترة لا تزيد عن عام ونصف، وهو ما يُظهر الحاجة الشديدة نحو وجود نوع من الاستقرار والاستمرارية هناك. لكل هذا، طلب الرئيس أوباما من البطل القومى بتراس، أن يتنازل عن منصبه الجديد، ويتولى قيادة مسرح العمليات فى أفغانستان. ومع هذا، كان تولى بتراس القيادة العليا للقوات الأمريكية وقوات حلف ناتو فى ٢٣ من يوليو ٢٠١٠م، هو أمر غير متوقع من كثيرين. وبحلول يوم ٤ من يوليو، بدأ بتراس بالفعل فى توجيه العمليات هناك بنفس الثقة المميزة لتقنياته، والتى انعكست فى مقارنته لنفسه بـــ"جنرالات منقذين"، مثل شيرمان، و"سليم Slim"، الذى أنقذ جهود قوات الحلفاء فى "بورما Burma" خلال الحرب العالمية الثانية، عندما قال:

"إن هناك تقارباً، وشَبة محدد، بينى وبين القادة الذين تولوا إدارة حروب خاسرة، أو على أقل تقدير حروب يمكن وصفها بأنها صعبة جداً".

لكن وظيفة بتراس الجديدة فى أفغانستان كانت مليئة بالتحديات المتباينة. وفى الواقع، فإن فرض الاستقرار والأمن هناك سيحتاج إلى جهود أكبر بكثير من الجهود التى بذلها بتراس فى العراق، بسبب عدم القدرة على فرض الاستقرار –على المدى الطويل– فى مجتمع مثل المجتمع الأفغانستانى. وعلى سبيل المثال، فإن طبيعة الأرض هناك كانت أكثر صعوبة، بسبب المرتفعات الجبلية، والجليد. كذلك فإن البلد بأكملها لا تطل على أى شواطئ مما يعنى أنه لا

يوجد بها أى موانئ. والدولة المجاورة، باكستان، لا تتمتع هى الأخرى بكثير من الاستقرار، بالإضافة إلى امتلاكها للسلاح النووى. وكل دول الجوار من الناحية الأخرى، هى جمهوريات سوفيتية سابقة، سمحت بإيواء المتمردين –من مختلف الفصائل والطوائف– وأعطت لهم ممرا آمناً للعبور من وإلى أفغانستان.

تعتبر أفغانستان دولة فقيرة جداً، كما أنه لا يوجد بها أى بترول ... مما يجعلها تفتقر لكثير من مصادر الدخل القادرة على إنعاش الاقتصاد. كذلك، فإن شيوع الجهل والقبلية، إلى جانب تجارة المخدرات المنتشرة هناك، يجعل التعامل مع المتمردين مختلفاً تماماً عن العراق، والتى كان بها، رغم كل شىء، نسبة لا بأس بها من المتعلمين. ومن الناحية الأخرى، فإنه لدينا فى أفغانستان مساعدات تأتينا من جانب أصدقائنا فى حلف الناتو الذى لديه قوات تمارس عملها هناك بطريقة رسمية، وإن كانوا تحت قيود أكثر تزمتاً؛ طبقاً للدولة التى أتى منها هؤلاء الجنود. أنا أتكلم هنا عن القيود التى تمثلها "قواعد الاشتباك Rules of Engagement"[٦] لدى كل دولة. وحتى نعطى القارئ فكرة عامة عن مستوى العنف هناك، فإن عدد القتلى من قوات التحالف خلال الشهر الأول لتولى بتراس القيادة فى أفغانستان (شهر يوليو ٢٠١٠م) وصل إلى ٨٨ قتيلاً، مقارنة بـــ٤ قتلى فقط خلال نفس الشهر فى العراق.

فى البداية، فكر بتراس فى تطبيق نفس التقنيات التى أنقذت الوضع فى العراق؛ فطالب بإحداث "طفرة" فى عدد القوات الموجودة على الأرض، وبدأ يشكل فرقاً مدنية لإعادة الإعمار. كذلك، حث شريكه السابق فى مكافحة المتمردين، جنرال "Mattis"، على تولى منصب بتراس السابق كقائد أعلى فى القيادة المركزية (CENTCOM). سرعان ما أصبح من الواضح أن الرئيس أوباما ذو الشعبية الكبيرة قد ورث موقفاً متدهوراً فى أفغانستان من إدارة الرئيس السابق بوش؛ وأنه لم يشعر بوجود حاجة ملحة تدفعه لتحمل مخاطرات كبيرة من أجل إنقاذ الحرب فى أفغانستان ... والتى مضى عليها حتى الآن ما يزيد عن عشر سنوات. هذا

على العكس من موقف بوش فى العراق، عام ٢٠٠٦م، عندما انخفضت شعبيته وأصبح يائساً وفى أشد الحاجة إلى تحسين صورته أمام الرأى العام الأمريكى. وإذا كانت الغالبية العظمى من المحافظين فى عهد بوش قد أيدت زيادة القوات فى العراق، فإن الديمقراطيين فى عهد أوباما لن يكون لهم نفس الرأى، إذا طُلب منهم زيادة القوات فى أفغانستان. ومع هذا، وصلت قوات إضافية إلى أفغانستان، وإن كانت قد فشلت أن يكون لها نفس التأثير النفسى الذى أحدثته فى العراق، لأن الرئيس الأمريكى أوباما أعلن مسبقاً تواريخ انسحاب هذه الدفعات من القوات الأمريكية ... من هناك.

لم تحقق "الطفرة" فى أفغانستان نجاحاً واضحاً خلال الفترة من ٢٠١٠- ٢٠١٢م، وهو ما أثار كثيراً من التساؤلات بخصوص الظروف التى حدثت فيها "الطفرة" فى العراق. وبتعبير آخر، إذا كانت زيادة عدد القوات قد فشلت فى فرض الأمن والاستقرار -بالرغم من أنها حققت نجاحاً لا يمكن إنكاره فى محافظات "Helmand"، و"Kandahar"- فإن هذا يقوى من وجهة نظر الناقدين المعارضين لنظرية الطفرة والذين ينكرون فضلها، ويقولون بأن "صحوة الأنبار"، وكراهية السكان لمقاتلى تنظيم القاعدة، هو الذى أعاد الاستقرار والأمن للشارع العراقى. وهكذا، فإنه بدون حدوث "صحوة أفغانستانية" مماثلة، فإن إرسال مزيد من القوات لحماية السكان المدنيين لن يحدث التأثير المطلوب.

وعلى أية حالة، فإن الرأى العام الأمريكى، خلال عام ٢٠١١م، وبعد مرور حوالى عشر سنوات على تأييده المستمر للحرب فى أفغانستان، قد بدأ يمل ويفقد حماسه نحوها. وفى هذا الخصوص، فإن الرئيس الأمريكى باراك أوباما، لم يكن قد تقابل مع قيادات الجيش فى أفغانستان إلا بعد شهور طويلة من توليه منصب الرئاسة. لقد بدت الإدارة الجديدة وكأنها مهتمة بكيفية مغادرة أفغانستان، أكثر من اهتمامها بتحقيق نصر ساحق على طالبان، وترك حكومة ديمقراطية هناك.

كذلك، فإن قوات حركة طالبان، كانت قد تعلمت الكثير خلال السنوات الماضية؛ خاصة فيما يتعلق بالتكتيكات الأمريكية التى تم استخدامها بالفعل فى العراق. لقد أصبح من الواضح، أن على بتراس التعامل مع عدو ماكر وحكيم وحذر، وأهم قد عرفوا بأن "أجهزة التفجير المصنعة محلياً Improvised Explosive Devises" ("IEDs") هى أفضل طريقة لإلحاق خسائر فى الأرواح بقوات التحالف، وإضعاف الروح المعنوية فى أراض واسعة ليس بها كثير من السكان، مثلما هو الحال فى أفغانستان. وفى هذا الخصوص، فإنه كان هناك اعتماد أكبر على الطلعات الجوية لطائرات الهليكوبتر والمقاتلات الأمريكية، أكثر مما حدث فى العراق؛ كما أن مستوى الأخطاء –أيضاً– كان أكبر بكثير؛ حيث تم إصابة أعداد أكبر من المدنيين عن طريق الخطأ.

إن تكرار الأخطاء فى أفغانستان، أجبر بتراس على إصدار اعتذارات رسمية بسبب هذه الـــ"الأضرار الجانبية Collateral Damage" غير المقصودة. أما عمليات الاغتيال للأفراد المشكوك فى قيامهم بعمليات إرهابية فى باكستان، فإنها كانت تتم من خلال "طائرة بدون طيار Drone"، وهو تكتيك مفضل لدى الإدارة الجديدة. لكن، الطلعات التى أصابت مدنيين عن طريق الخطأ، جعلت جهود مكافحة التمرد هناك أكثر صعوبة؛ خاصة ضد عدو ماكر يجيد استخدام وسائل الإعلام لصالحه عندما تحدث هذه النوعية من الأخطاء ("الأضرار الجانبية").

كذلك، من الواجب الإشارة إلى أن باكستان تعتبر أكثر فاعلية –بكثير– فى إخفاء الإرهابيين والمتمردين الأفغان، من دول مثل إيران وسوريا فى حالة العراق. وفى هذا الخصوص، فإنهم (رجال قبائل الـــ"بشتون Pashtun") يَعتبرون كِلا جانبى الحدود أرضاً مباحة لهم، وهم قد اعتادوا على التنقل بينهما باعتبارها أرض جدودهم التاريخية. كذلك، فإن الوضع فى العراق سمح للولايات المتحدة الأمريكية بإزالة نظام حكومة صدام حسين (والذى لا يزيد عن كونه دكتاتورية مدنية). أما فى أفغانستان، فإنه تم إسقاط "حكومة إسلامية"

ثيوقراطية. وهذه الحقيقة الأخيرة، تجعل الموقف أكثر صعوبة وتأزماً؛ لأنهم يكونون مرتبطين بصلات أكبر وأقوى مع عامة الشعب من المدنيين.

بعد مرور عام واحد فقط، ودون أن يتحقق الأمن والاستقرار فى أفغانستان؛ ترك بتراس منصبه فى ١٨ من يوليو ٢٠١١م. وتولى منصب مدنى، كرئيس لـ"وكالة المخابرات المركزية" (C.I.A). وتناثرت الشائعات هنا وهناك، بأن بتراس -هو الآخر- غير راض عن أداء إدارة أوباما السياسى فيما يتعلق بمستوى وحجم القوات فى أفغانستان؛ وأنه بعد مناقشة الأمر قرر أن لا يستقيل، وأن لا يخرج على الملأ بأسباب عدم رضاه. ومن المفترض أن بتراس -فى لحظة ما- قد حذر إدارة أوباما -بشدة- من الجهود التى تبذلها لتكميم تقييماته العسكرية للوضع فى أفغانستان، والعلاقات مع دولة باكستان. ومن المحتمل أن إدارة الرئيس الأمريكى قد أصبحت تظن أن سمعة بتراس الآن لم تعد بنفس القوة التى كانت عليها فى نهاية عام ٢٠٠٨م. فعادة ما كانت وسائل الإعلام تنظر إلى تعيين بتراس كرئيس للمخابرات الأمريكية، كوسيلة لتحويل جنرال له شعبية كبيرة، مثل بتراس، نحو وظيفة مرموقة تتناسب مع سمعته، لكن بدون أن تمكنه من الحصول على الأدوات التى تسمح له بإحراج إدارة الرئيس الأمريكى فيما يتعلق بالموقف المتدهور فى أفغانستان، أو العمل بالسياسة؛* خاصة أنه يعمل داخل إدارة أوباما وليس بالتوازى معها.

إن السنوات ما قبل الأخيرة فى التاريخ المهنى لبتراس بها تشابهات غريبة مع ما حدث فى الماضى لكثير من "الجنرالات المنقِذين"؛ لأن بتراس عارض بقوة -لكن دون جدوى- الانسحاب الكامل للقوات الأمريكية من العراق فى ديسمبر ٢٠١١م، والإعلان المستمر عن

* بمعنى أنه "جمهوري" رغم كل شيء، وأنه من الواجب السيطرة عليه من هذه الناحية. وعدم السماح له بالترقى، والتقدم فى الوظائف السياسية. (عادل نجيب)

خطة للانسحاب الكامل من أفغانستان. ومما لا شك فيه، أن الغالبية العظمى كانت لا تزال ترى بتراس على أنه: أحد جنرالات بوش الذين يعملون فى إدارة أوباما؛ وبالرغم من أن بعض المحافظين كانوا قد بدأوا فى النظر إليه على أنه موظف جديد فى إدارة أوباما. ولقد عبر الصحفى الشهير "Bob Woodward" عن التهمة القديمة التى وجهت لبتراس، من أنه: "فى حملة مستمرة لا نهاية لها من أجل تعظيم نفسه".

من الناحية النظرية، كان من الممكن لبتراس أن يترأس المخابرات الأمريكية بدون أن يتخلى عن زيه العسكرى. لكنه فيما يبدو تم نصحه بترك الجيش أو التقاعد فى ٣١ من أغسطس ٢٠١١م. خلال هذه الفترة، لم يكن بتراس قد تجاوز الثامنة والخمسين من عمره بعد. وانتشرت الشائعات، بعد تركه للعراق، أن بتراس يفضل الحصول على منصب فى "هيئة الأركان المشتركة"؛ بنفس الطريقة التى تم بها تكريم كبار الجنرالات السابقين، مثل جنرال "Colin Powell". لكنه عندما تم تعيين جنرال "Martin Dempsey" كرئيس لـــ"هيئة الأركان المشتركة"، أصبح من الواضح أن بتراس لن يحصل على المنصب الذى يريده؛ وأن الإدارة الأمريكية تعتبر منصبه الحالى، هو "الطريق المسدود المناسب" لمنع الجنرالات الذين يطمحون فى امتهان السياسة من تحقيق أهدافهم. وعلى أية حالة، فإن إدارة أوباما قد أعطت بتراس منصباً هاماً، فى نفس الوقت الذى أنكرت عليه المزيد من المشاركة فى أى مهام عسكرية مرموقة أخرى. أما بالنسبة لرغبته فى العودة لقيادة "هيئة الأركان المشتركة"، فإن وزير الدفاع المتقاعد "Robert Gates" قد حذر بتراس قائلاً: "عليك نسيان هذا". أما بالنسبة للرأى العام الأمريكى، فإنه لم يكتب له -أبداً- معرفة السبب فى أن أكثر الجنرالات نجاحاً لم يتم منحه أعلى الرتب العسكرية.

مما لا شك فيه، أن فترة العشرين شهر التى استغرقها فرض الاستقرار فى العراق، كانت مليئة بالنشاطات المحمومة والجهود الضخمة، التى استنزفت البلاد مادياً ومعنوياً، وأثرت على صحة بتراس نفسه. ففى فبراير ٢٠٠٩م، بعد مرور أربعة شهور فقط على عودته من العراق، تم تشخيص بتراس بسرطان البروستاتا، وتم علاجه بالإشعاع لمدة شهرين. وظهر القلق على صحته مرة أخرى خلال شهر يونيو التالى، عندما انهار بتراس فجأة خلال جلسة اجتماع عقدتها لجنة خدمات الجيش فى مجلس الشيوخ. وقد عزى بتراس نوبة الإغماء إلى حالة من الجفاف كان يعانى منها. خلال هذه الفترة، كان بتراس قد كان يظهر فى الصور بدون زيه العسكرى المعتاد (الزى المموه)، وبدأ يظهر بالزى العسكرى الرسمى المثقل بالميداليات والنياشين. وهى كلها أشياء جعلته يبدو فى غير مكانه، خاصة عندما تم تصويره ببذلة ورابطة عنق مدنية. وعلق كثيرون على مظهره العام بأنه بدا وكأنه مُنهك.

خلال فترة قصيرة، لم تتعد الثلاث سنوات، أنهى الجنرال المفعم بالنشاط سيرته المهنية اللامعة فى طريق مسدود يسمى الحرب فى أفغانستان، وتنقل من وظيفة إلى أخرى دون أن يترك انطباعاً بأنه حقق أى نجاح حقيقى فى أي منها. وها هو الآن يتولى قيادة "وكالة المخابرات المركزية" (C.I.A) ذات السمعة السيئة، بسبب قدرتها على تلطيخ سمعة كثير من رؤسائها الذين حاولوا التحكم فيها ووضعها تحت قيود الضبط والربط؛ تلك الوكالة التى تظهر وسائل الإعلام اسمها بوضوح فى حالات الفشل، أما فى حالات النجاح فإنها غالباً سرية ومحظور الحديث عنها. وخلال الفضائح والكوارث، يتم لوم قيادتها أياً كانت الظروف. ومن حيث لا يدرى أحد، وقعت المفاجأة التى تسببت فى شعور الشعب الأمريكى كله بالصدمة. عندما قام بتراس بتقديم استقالته من وكالة المخابرات المركزية، يوم ٩ من نوفمبر ٢٠١٢م، بعد اعترافه بخيانته لزوجته. وقد حدث هذا، بعد انتهاء الانتخابات الرئاسية الأمريكية مباشرة.

من الناحية الظاهرية، تمكن بتراس من إنقاذ العراق، تحت رعاية إدارة بوش ذات الشعبية المنخفضة، ثم تم نقله إلى نفس الموقف فى أفغانستان، فى ظل إدارة أوباما التى تهاوت شعبيتها أيضاً. وفى هذا الصدد، علينا توضيح أن الموقف الصعب فى أفغانستان كان أكثر من قدرة أى جنرال أمريكى تم إرساله إلى هناك من أجل فرض الاستقرار والأمن؛ والطفرة فى العنف التى بدأت خلال ٢٠٠٨م، أرهقت وأربكت كل العسكريين الذين تولوا القيادة بعد هذا التاريخ. وفى الحقيقة، فإن الحروب الخارجية، وما يسمى بالحرب على الإرهاب داخل أمريكا، كلها أصبحت من الأمور التى لا تشغل كثيراً من اهتمامات الرأى العام الأمريكى.

إذا كان المصير الذى لقيه كثير من "الجنرالات المنقِذين"، خاصة تلك الفضيحة التى أجبرت بتراس على الاستقالة من وكالة المخابرات المركزية، يعتبر مقياساً لهذه الفئة من الأفراد، فإنه من المرجح أن وصوله إلى قمة مجده قد حدث خلال أحلك الأوقات (الفترة من ٢٠٠٧- ٢٠٠٨م)، عندما تمكن بتراس -ذلك القائد الأمريكى النادر- هو وفريقه الرائع من المدنيين والعسكريين المتألقين، من إنقاذ حرب العراق التى اعتقد الجميع من حوله أننا قد خسرناها بالفعل.

إن الزمن وحده، هو الذى سيستطيع الإجابة على التساؤل الخاص بما إذا كانت العراق ستظل معتبرة كحرب انتصرت فيها أمريكا أم لا! خاصة بعد القرار المفاجئ الذى اتخذته أمريكا - بعد فشلها فى الوصول إلى اتفاق مع الحكومة العراقية بخصوص وجود أمريكى دائم لقاعدة عسكرية هناك- بسحب كل قواتها فى نهاية عام ٢٠١١م. ومن الواجب ذكر أنه خلال الشهر الأخير من الاحتلال الأمريكى للعراق (شهر ديسمبر ٢٠١١م) لم يسقط أى قتلى أمريكان هناك، والديمقراطية الوليدة فى العراق تحررت من العنف نسبياً، كما أن إنتاج البترول وصل إلى مستويات مرتفعة جداً. وهكذا، من الممكن لنا اعتبار أن الاستقرار

والأمن فى العراق هو الميراث الذى تركه بتراس*؛ وهو ميراث شديد الوضوح مقارنة بالديكتاتوريات العربية التى تهالكت وسقطت خلال ما سمى بـ"الربيع العربى Arab Spring" فى عام ٢٠١١م، والذى تلاه فوضى عامة وعنف، بينما ظلت الآمال فى أن حكومة دستورية فى العراق ستتمكن من فرض الاستقرار والأمن.

إن كل ما نعلمه الآن، هو أن الجهود الأمريكية فى العراق كانت ستفشل لولا استراتيجية "الطفرة" التى اتبعها بتراس؛ وأنه لولا وجود هذا القائد العظيم لضاعت السمعة العسكرية لأمريكا فى الشرق الأوسط، مع ما يتبع هذا، من فقداننا لمكانتنا فى العالم.

فيكتور دافيز هانسون

---

* كلنا يعلم حجم الحقيقة فى العبارات السابقة، وأن العنف فى العراق لم يتوقف أبداً، ولا حتى بالمعيار النسبى. كذلك، فإن المؤامرة الأمريكية فى مصر، والخاصة بتمكين الإخوان المسلمين من السلطة قد فشلت، واستعاد الشعب حرية إرادته بعد ثورة ٣٠ من يونيو ٢٠١١م، التى أيدها الجيش.

(عادل نجيب)

الفصل الخامس

"مصر" وعبد الفتاح السيسي

اختار ڤيكتور داڤيز هانسون أن يضع أسماء "أبطاله" المزعومين قبل المدن التى استولوا عليها واحتلوها. فكانت عناوين الفصل الثالث والرابع على التوالى هى:

الفصل الثالث: شـــيرمان والاســـتيلاء على أتلانتا.

الفصل الرابع: بتراس وحرب العراق.

أما أنا فإننى على ثقة من أن "بطل مصر" لن يمانع فى أننى وضعت اسم "مصر" قبل اسمه.

ولد البطل المصرى عبد الفتاح سعيد حسين خليل السيسي، والمعروف باسم: "عبد الفتاح السيسي"، فى ١٩ من نوفمبر من عام ١٩٥٤م، بالقاهرة. وتخرج من الكلية الحربية بعد حصوله على البكالوريوس عام ١٩٧٧م. وفى عام ١٩٨٧م، حصل على الماجستير من كلية القادة والأركان، ومن المملكة المتحدة (إنجلترا) حصل على دراسات عليا من "كلية القادة والأركان Joint Command and Staff College" عام ١٩٩٢م؛ وفى نفس التخصص. وفى عام ٢٠٠٣م حصل على زمالة كلية الحرب العليا من أكاديمية ناصر العسكرية. وسافر بعدها إلى أمريكا، حيث حصل هناك –عام ٢٠٠٦م– على الزمالة من "كلية الحرب الأمريكية US Army War College".

وفى البداية، شغل عبد الفتاح السيسي وظيفة قائد كتيبة مشاة ميكانيكية. وبعدها، أصبح قائداً للواء مشاة ميكانيكى، وعندما وصل إلى رتبة "عميد" تولى قيادة الفرقة الثانية من فرق المشاة الميكانيكية فى الجيش المصرى. وأصبح بعدها، رئيساً لأركان حرب المنطقة الشمالية العسكرية، ثم قائداً للمنطقة الشمالية العسكرية ككل. وخلال حياته العملية، شغل عبد الفتاح السيسي عدة وظائف ذات أهمية استراتيجية، فقد تولى رئاسة فرع المعلومات والأمن بالأمانة العامة لوزارة الدفاع، كما أنه كان ملحقاً عسكرياً بالمملكة العربية السعودية، وعند عودته لمصر أصبح مديراً لإدارة المخابرات الحربية، قبل أن يتولى منصبه الأخير كقائد عام للقوات المسلحة ووزيراً للدفاع. ومن الجدير بالذكر، أنه عند دخول "السيسي" للمجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية، كان أصغر أعضائه سناً على الإطلاق.

خلال فترة حكم الرئيس المخلوع محمد مرسي، صدر قرار يوم ١٢ من أغسطس ٢٠١٢م، بترقية اللواء عبد الفتاح السيسي إلى رتبة فريق أول –وكان وقتها يشغل منصب رئيس المخابرات الحربية– وتعيينه وزيراً للدفاع والإنتاج الحربى، وقائداً عاماً للقوات المسلحة، خلفاً للمشير محمد طنطاوى؛ الذى أحيل إلى التقاعد.

خلال أحداث ثورة ٣٠ من يونيو ٢٠١٣م، لعب الفريق الأول عبد الفتاح السيسي الدور الرئيسى فى التخلص من القيادة الفاسدة لجماعة الإخوان المسلمين، وفى الإطاحة بالرئيس المخلوع "محمد مرسي". وفى هذا الخصوص، فإن الدور الذى لعبته المؤسسة العسكرية المصرية ككل – بالتعاون مع القوات التابعة لوزارة الداخلية – هو الذى سمح لها بأن تعود مرة أخرى إلى صدارة الأحداث؛ متمكنة بهذا من تصحيح مسار ثورة ٢٥ من يناير ٢٠١١م. وقد يعتبر البعض هذه الجهود "انقلاباً عسكرياً Coup d'etat"، لكن الملايين التى خرجت لتأييد خلع الرئيس السابق، لا تجعل من هذا الاحتمال رأياً مقبولاً لدى الغالبية العظمى من الشعب المصرى. وطبقاً لآراء البسطاء من الشعب:

فإنه إذا كان "انقلاباً"، فقد أيده الشعب. وإذا كانت "ثورة" فقد أيدها الجيش. فهم الذين رفعوا شعار: "**الشعب والجيش يد واحدة**".

وهذا الدور الرئيسى الذى لعبه "الفريق السيسي"، جعل الكثيرين يأملون فى أن يكون إنقاذ مصر ونجاتها من المؤامرات التى دُبرت ضدها، سيكون على يديه. ومما لا شك فيه أن العبء الملقى على عاتق "الجنرال المنقِذ" فى حالة مصر، سيكون عبئاً ثقيلاً ... بكل المقاييس. فلن يكون من واجبه تأسيس دولة ديمقراطية مستقلة وحرة الإرادة فحسب، بل سيكون عليه أيضاً الدخول فى صراعات متعددة على جبهات مختلفة جداً، بل وشديدة التباين.

وخلال كل هذا، سيكون عليه السماح لـ"معارضة مدنية" بَنَّاءة بالبزوغ، ورعايتها حتى تصل إلى درجة كافية من النمو تسمح لها بالاستقلال بذاتها. وفى هذا الخصوص، فإن "المعارضة المدنية" القوية هى الطريق الوحيد لبناء ديمقراطية سليمة يُكتب لها الاستمرار على أرض مصر.

القتال على كل الجبهات

خلال قتاله على مختلف الجبهات، سيكون على "الجنرال المنقِذ" – دائماً – النظر إلى "المدنيين من أفراد الشعب" على أنهم القوة الحقيقية والمفتاح الذى سيمكنه من تحقيق النصر، وتنفيذ الأهداف السامية لاستراتيجيته العظمى. وعلى سبيل المثال، فإن ثميستوكليز اعتمد عليهم فى تكوين جيشه عندما لحقت الهزيمة بالمحترفين من جنود اليونان المتحالفين فى "ثرموبيلا Thermopylae"، وهو قد استخدمهم أيضاً فى إضعاف الروح المعنوية لدى خصمه المتفوق عليه عسكرياً من حيث العدد والعُدة. ففى كل مرة ذهب فيها زيركسز لاحتلال إحدى المدن اليونانية الكبرى، وجدها خاوية أمامه. وقد استخدم صلاح الدين الأيوبى هذه التقنية ذاتها،

مع الملك ريتشارد قلب الأسد والذى ذهب لاحتلال عسقلان، ليفاجأ بأنها خاوية على عروشها وأنه قد تم تدمير أبراجها.

وفى هذا الخصوص، فإننى أريد أن يمتد المعنى المقصود من كلماتى فى الفقرة السابقة عن مصطلح "المدنيين من أفراد الشعب" ليشمل المدنيين من أفراد شعوب الخصم أيضاً؛ فإن القوى المدنية لأفراد أى شعب ... أيا كان، هى قوة هائلة لا يجب الاستهانة بها أبداً، ويكون من واجب "الجنرال المنقِذ" العمل على استغلالها لصالحه؛ ولصالح بلوغ الهدف السامى المتضمن فى الاستراتيجية العظمى التى يتبعها. وعلى سبيل المثال، فإن صلاح الدين تمكن بشهامته الأسطورية من إقناع المدنيين فى شعوب أوربا من أنه أكثر صلاحاً للحفاظ على مسقط رأس المسيح، من غالبية ملوكهم الفاسدين ذوى الأطماع المادية والشهوات الدنيوية. ويمكن لنا رؤية مثال سيئ لاستغلال أفراد شعوب الخصم، فيما فعله بتراس فى العراق، عندما استخدم سياسة "فرق تسد"، وزرع الشقاق بين السنة والشيعة فى العراق، مشعلاً بهذا شرارة الفتنة الطائفية بينهما. وهو قد فعل هذا، فى نفس الوقت الذى استغل فيه المدنيين من أفراد الشعب الأمريكى، واكتسب تأييدهم لما يدور فى العراق، من خلال ادعاءاته الكاذبة بأن استراتيجية الطفرة قد تمكنت من فرض الهدوء والأمن على الشارع العراقى، وتقليل عدد القتلى فى الجانب الأمريكى. وعندما تم فضح هذه الأكاذيب، عند فشله فى تطبيق استراتيجيته المزعومة فى أفغانستان، انسحب من هناك وهو يجر أذيال الخيبة؛ خاصة أن المقاومة هناك كانت قد بدأت، هى الأخرى، فى استخدام أساليب المقاومة العراقية فى اصطياد جنود الاحتلال باستخدام المتفجرات المصنعة محلياً ("IEDs").

وفى هذا الشأن، كان شيرمان، غالباً، ما يعمل فى بيئة معادية له تماماً (الجنوب الأمريكى)، ولهذا قرر أن يكون خبيثاً بدرجة كافية، لإيقاع أكبر ضرر ممكن بخصومة الجنوبيين. وعلى سبيل المثال، فإنه كان يستهدف – عن عمد – بيوت الأثرياء خاصة ملاك الإقطاعيات

الزراعية الكبيرة من ملاك العبيد. كذلك، فإنه كان يعمد إلى تدمير كل ما له علاقة بحسن سير "البنية التحتية" للجنوب (من طرق، ومبانى تاريخية، ومخازن، ومجارى مياه، ووقود، .. .. وغيرها من الموارد الاستراتيجية)، حتى يمنع الجنوبيين من الاستفادة بها فى قتاله.

أما التصرفات النبيلة، فيمكن رؤية صداها فيما قام به صلاح الدين الأيوبي من أفعال خلال صراعه الطويل مع جيوش الفرنجة، فإنه اكتفى –فى كل مرة– بعقاب من أوقع الأضرار بمصالحه، وتسبب فى أذية المدنيين والمسالمين من قوافل التجار والحجاج؛ بل إنه فى الواقع تناسى ما ارتكبته جيوش الفرنجة من فظائع وأعمال وحشية قبل عهده، ولم يحاسبهم إلا على المخالفات التى ارتكبوها بنقض "اتفاقيات الهدنة" التى عقدوها معه شخصياً فقط.

وعلى هذا، فإن أحد المهام الأساسية لـ"الجنرال المنقِذ"، هى إقناع الخصم –خاصة غير المقاتلين (المدنيين)– بأنه لم يكن المتسبب الحقيقى فى الأضرار التى لحقت بهم؛ وأن المخططين الأشرار من قادهم هم الذين جروا عليهم هذا البلاء. وبالتالى، فأن التخلص من مثل هذه القيادات الفاسدة فى جانب الخصم سيكون فى صالح كلا الجانبين؛ ومن الممكن أن يكون البداية السليمة لطريق يؤدى بنا إلى التعايش فى سلام.

ومن كل ما سبق، يمكن لنا رؤية نمطين أساسيين:

النمط الأول، هو أن "الجنرال المنقِذ" قد استطاع اكتساب المدنيين فى جانب الخصم إلى جانبه الشخصى؛ وأن هذا قد تم من خلال الأفعال الإيجابية التى حققت مصالحهم وجعلت حياقم اليومية أكثر سهولة، وليس من خلال البلاغة والخطب الرنانة. فهو قد أثبت لهم –مثلما فعل ثيستوكليز وصلاح الدين– أنهم سيخسرون الكثير بمعاداته، وسيربحون الكثير من خلال توقفهم عن مقاومته.

أما النمط الثانى، فهو النظرة الجديدة إلى الجيوش العسكرية على أنها كائن حى يمكن أن يتأقلم مع الحياة وسط المدنيين حتى ولو كانوا من جانب الخصم. وفى هذا الخصوص، فإن هذه النظرة الجديدة بدأت فى الظهور منذ فترة ليست ببعيدة؛ عندما غيرت كثير من الدول نظرتها إلى "وزارة الحربية"، وأصبح اسمها "وزارة الدفاع" بدلا من الاسم القديم. فلقد بدأنا ننظر إلى الجيش على أنه وسيلة للدفاع وليس الهجوم، وأنه من الممكن استخدامه فى البناء، بدلا من الاستخدام الوحيد المعروف له خلال حقبات التاريخ المختلفة ... التدمير.

الجنرال المنقِذ .. فئة نادرة من البشـر

ما هى الخصائص المشتركة التى ساعدت هذه المجموعة المتنوعة من الجنرالات فى إنقاذ صراعات فقد الجميع الأمل فيها؟ هل كان لهم بالفعل مميزات مختلفة عن باقى البشر، وعن غيرهم من القادة العسكريين؟ هل كانوا أفضل –فى نواحى معينة– من القادة العظام فى التاريخ مثل الأسكندر الأكبر، جوليوس سيزر، وهانيبال، ونابليون، وروميل؟ مما لا شك فيه، أنه لا يوجد مجموعة معينة من الصفات المشتركة بينهم جميعاً. فهم لا ينتمون لنفس الفئة العمرية، أو لنفس الطبقة، أو لنفس الاتجاهات السياسية، وكل واحد من الجنرالات المنقِذين الذين تكلمنا عنهم كانت له خلفية مغايرة كثيراً لغيره ممن أرّخنا لهم. وفى هذا الصدد، فإن بتراس لم يشتبك فى قيادة أى قتال فعلى إلا عندما شارف على الخمسين من عمره، أما صلاح الدين فإنه كان قائداً بالسليقة واشترك فى التخطيط للمعارك منذ شبابه.

وفى البداية، يمكن القول بأن الصفة المشتركة بينهم جميعاً، هى قدرة هذه النوعية من القواد على وضع استراتيجية متكاملة –سواء كانت هذه الاستراتيجية للهجوم أو للدفاع– أو للتخطيط لغزوة جديدة من خلال أحد الأفعال الدرامية غير المعهودة، فهذه الصفة المشتركة

من الأمور التى تتطلب موهبة مختلفة عن المواهب التى يتطلبها إنقاذ حرب خاسرة وصلت إلى طريق مسدود لا يعرف أحد كيفية الخروج منه.

وفى هذا الخصوص، فإن القادة العظام يبدو الواحد منهم وكأنه يشبه المهندس المعمارى العظيم، فى القرون الوسطى. ذلك المعمارى الذى كان قادراً على أن يخطط لبناء تحفة معمارية ضخمة من لا شيء. تحفة فنية يعجز عن تخيلها المهندس المعمارى الحديث رغم كل ما يملكه من أدوات وتكنولوجيا ودراسة منتظمة استمرت لسنوات طويلة متتابعة. ولهذا، فإن "الجنرال المنقِذ" يبدو وكأنه أقرب شبهاً بالمهندسين المعماريين الذين لا يعلم عنهم أحد، لكن الجميع يلجئون إليهم عندما تقع الكوارث أو تحدث الأخطاء. فعندما يتم إقامة بناء بطريقة خاطئة، أو عندما تظهر الشروخ فى أحد القباب العالية التكلفة، أو عندما تفشل إحدى الدعامات الأساسية فى القيام بما هو مفترض منها؛ وتكاد هذه التحفة الفنية المتألقة أن تترنح وتتهاوى بسبب كثرة ما بها من أخطاء، عندها –فقط– يتم استدعاء من يستطيع منع هذه الكارثة من الوقوع.

المستقل والمتوحد

لكل هذا، فإن شخصية "الجنرال المنقِذ" تكون بها من المميزات ما يجعلها تستطيع التعامل مع، والسيطرة على، "المحترفين Professionals" الذين يمتهنون مختلف المجالات، سياسة أو اقتصادية أو اجتماعية أو عسكرية، ومن مختلف الطبقات سواء كانوا من النبلاء أو العامة. كذلك، فإنها تستطيع رؤية الحلول التى يعجز عنها الآخرون. فلعلنا جميعاً قد لاحظنا تلك الشخصيات الفريدة التى تبزغ بيننا بين الحين والآخر فى المجالات المالية، ولعل من بيننا من يعرف "اقتصادى فريد" ذا موهبة عجيبة، قرر أن يشترى عندما كان الجميع يبيعون، أو أن

يبيع عندما كان الجميع يشترون؛ وكان قراره فى الحالتين أكثر صواباً من قرارات الآخرين مجتمعين. وهو ما يمكننا من إضافة صفة جديدة مشتركة لدى "الجنرال المنقِذ".

أنا اقترح هنا أن "الجنرال المنقِذ" يتصف بـــ"القدرة على المضى فى طريق مخالف لآراء الجميع Contrarianism". وهو بهذا يبز موهبة "الاقتصادى الفريد" ويزيد عنه فى أنه يمتلك موهبة إقناع الآخرين بوجوب اتخاذ "الطريق المخالف" الذى يجب المضى فيه. فإن "الاقتصادى الفريد"، عندما خالف الجميع واشترى بدلا من أن يبيع، أو العكس، فإنما كان حر الإرادة، لأنه يتصرف فى أمواله. أما "الجنرال المنقِذ"، فيجب أن تكون لديه موهبة إضافية أخرى. أنا هنا أتكلم عن موهبة إقناع الآخرين بـــ"الطريق المخالف" الذى يكون من الواجب عليهم –جميعاً– المضى فيه، من أجل الخروج من محنتهم المشتركة. فلا يكفى فى هذا الصدد، أن يكون "الجنرال المنقِذ" على علم بـــ"الطريقة السليمة" ("الطريق المخالف" لآراء الغالبية العظمى من القادة) التى تسمح لشعبه بالخروج من محنتهم؛ وإنما يجب عليه –أيضاً– أن تكون لديه المواهب التى تمكنه من التعامل مع المحترفين فى مختلف المجالات ومن مختلف الطبقات.

ولعله من المناسب، فى هذا الخصوص، ذكر ما قاله معاوية بن أبي سفيان:

"لو كان بينى وبين الناس شـــعرة ما انقطعت، فلو جذبوا أرخيت، ولو أرخوا شددت".

وكيف أن ثميستوكليز، عندما هدده القائد الإسبرطي "يوري بيداس" بالضرب، كان رده هو:

"اضربني .. لكن أصغ لما أقول".

إن شخصية "الجنرال المنقِذ" داخل نفسية ثميستوكليز هى التى سمحت له بأن يدرك مدى تأصل الرغبة فى الهيمنة والسيطرة داخل نفسية هذه النوعية من القواد ("يوري بيداس" وأمثاله)؛ ومعرفة الطريقة المثلى للتعامل معهم. لم يكن ثميستوكليز ضعيف الشخصية، أو عاجزاً عن أن يرد له الصاع صاعين، بالقول والفعل؛ لكنه تمالك أعصابه، وكان على استعداد

للتضحية بكل شيء فى مقابل إنقاذ الوطن الذى يحبه والأرض التى يعشقها ... وحتى لو تطلب هذا التضحية بكرامته أمام هذا المغرور الذى يهدده بالضرب.

وهذا يقودنا إلى صفة ثالثة، تميز "الجنرال المنقِذ"، ألا وهى الإصرار والعزيمة وقوة الإرادة. ومرة أخرى، فإن ثميستوكليز كان على استعداد لأن يتحمل الإهانة من أجل أن يضم الجميع إلى صَفِّه، ويوحدهم من أجل اتخاذ "الطريق المخالف" لآراء الغالبية العظمى ... ذلك الطريق الذى سيخلصهم جميعاً من محنتهم.

يلزم للصفات الثلاث السابقة، صفة رابعة، تكملها وتجعلها أكثر فاعلية. أنا هنا أتكلم عن "الثقة بالنفس". فعندما يتبع "الجنرال المنقِذ" استراتيجيات غير واضحة، أو يضطر لاستخدام تقنيات غير مؤكدة المفعول، فإن الإصرار والعزيمة وقوة الإرادة -عندما يكون الهدف واضحاً- هى التى تبقيه على المسار السليم الذى يؤدى إلى نجاة الأمة من محنتها. لكن "الثقة بالنفس"، هى التى تؤكد له مدى صواب قراراته رغم مخالفتها لآراء الغالبية العظمى.

ولعلنا جميعاً نذكر أن أقل من ثلث الرأى العام الأمريكى فى عام ٢٠٠٦م، كان يرى أن الاستمرار فى زيادة أعداد القوات قادراً على إنقاذ الحرب فى العراق (استراتيجية "الطفرة" المزعومة)، وكيف أن مؤيدى بتراس كان عليهم المناورة من أجل تفادى البيروقراطية الحكومية، والقيادات الأعلى من بتراس، حتى يحصلوا على تأييد كاف للقرار بإرسال قوات إضافية إلى العراق. خلال هذه الفترة، كان بتراس -والمجموعة المؤيدة له- هم، فقط، الذين استطاعوا رؤية "طريق النجاة" الذى سيمكّن أمريكا من إنقاذ ما تبقى لها من كرامة فى حرب العراق. هذه المجموعة هى -فقط- التى رأت بوادر الانهيار. وهى فقط التى تمكنت من إدراك أنه بعد أربع سنوات من الحرب المستمرة، فإن جماعات الإرهاب والبعثيين السابقين قد أصبحوا مهيأين للتفكك والسقوط؛ وأن استراتيجيات مكافحة الإرهاب ستكون فعالة ضدهم

هذه المرة. فلقد عانى العراقيون من خسائر كبيرة فى الأرواح تفوق بكثير خسائر الأمريكان. وحتى عندما اقترحت وسائل الإعلام أن القوات الأمريكية قد فقدت تأييد الشعب العراقى؛ فإن بتراس شعر، بغريزة الذئب المتعطش للدماء، والتى تخبره بأن فريسته الجريحة على وشك أن تنهار مستسلمة، وأن المتمردين هم الذين فقدوا تأييد الشعب العراقى أكثر مما فقدته أمريكا، وأن غالبية السكان "السنّة" أصبحوا الآن مستعدين للتعاون مع القوات الأمريكية. وبالطبع، فإننا جميعاً –الآن– نتفهم حقيقة ما حدث هناك.

فإن المشكلة فى التعاملات التى تحدث داخل هذه المنظمات والجماعات الدينية المتشددة –مثل تنظيم القاعدة– هى أنهم يتنافسون فى إظهار قوتهم من خلال العنف والحرق والقتل والتدمير ... **والتكفير**. والجماعة التى تتمكن من تكفير أكبر عدد والتخلص منهم (بالقتل طبعاً، أو ما هو أسوأ من هذا) تصبح هى الجماعة القوية التى تدين لها باقى الجماعات بالسمع والطاعة. لكن فى بعض الأحيان، يزداد القتل والتكفير عن الحد الذى يحتمله المجتمع رغم تدينه الشديد؛ وهذا هو ما حدث فى عام ٢٠٠٦م، فى ولاية الأنبار بالعراق. هناك، انقلب عامة الشعب العراقى على تنظيم القاعدة بقيادة "أبو مصعب الزرقاوى"، بسبب مبالغتهم فى جرائم التكفير والقتل التى ارتكبوها فى حق مجتمعهم العراقى المدنى المسالم. ولعل هذه المبالغة هى التى دعت "أيمن الظواهرى" (الرجل الثانى فى تنظيم القاعدة وقتها؛ والزعيم الحالى لتنظيم القاعدة) إلى توجيه اللوم إلى قيادة فرع المنظمة هناك. والآن، وبعد مرور سبع سنوات تتكرر نفس أخطاء تنظيم القاعدة مرة أخرى؛ فى حين يحاول فصيل آخر ("تنظيم النصرة") أن يظهر بمظهر أكثر تحضراً. وغريزة الذئب المفترس، وحسه المرهف؛ هى التى مكنت بتراس من أن يشتم بوادر النهاية على هذه الجيفة المحتضرة. وهو أيضاً ما حدث فى مصر، وقامت بسببه ثورة ٣٠ من يونيو ٢٠١٣م، حتى أنه قيل أن أكثر من نصف شباب مصر قد ألحد وفقد

إيمانه بالله –خلال فترة حكم جماعة الإخوان المسلمين– بسبب كثرة التجاوزات التى حدثت منهم، ومن رجال الدين، وما طالبوا به شعب مصر من أوامر ونواهى غير مقبولة أو معقولة.

كما ذكرت فى السابق، فإنه كان على بتراس ومجموعته أن يلجأوا إلى كثير من المناورة والتخطيط حتى يصدر قرار بتأييد "استراتيجيته المزعومة". إن هذه القدرة الطبيعية على التفكير بطريقة مستقلة، ورفض الطرق التقليدية المتبعة فى التفكير، هى أمر حيوى بالنسبة لــ"الجنرال المنقِذ". وفى الأغلب الأعم، فإنها تكون أحد صفاته الفطرية والتى ترسخت داخله خلال السنوات الأولى من نشأته، وليست مجرد صفة مكتسبة. أما فى حالة ثميستوكليز، فلا بد وأنه كان هناك نوع من "التقدير الذاتى" لقدراته على التفكير بطريقة مستقلة. فلعلنا نذكر أنه كان من طبقة اجتماعية أقل، بالإضافة إلى كونه مختلط النسب من الناحية القومية (نصف أثينى فقط) ... مما يعنى أنه لم يكن أبداً ضمن "الجماعة المفضلة **in-group**". لكن عندما كان له رأى معارض لأراء الغالبية العظمى من القواد الآخرين؛ استطاع هذا "الغريب" الذى لا ينتمى إلى الجماعة المفضلة فرض رأيه، والمناورة بثقة من أجل توحيد الجميع لاِتّباع الاستراتيجية الوحيدة القادرة على إنقاذ شعوب اليونان.

خلقت صناعة السينما فى هوليود نوعية محددة لشخصية "البطل"، فيما عرف باسم: "أفلام الغرب **Western Movies**". "البطل" فى هذه الأفلام السينمائية من النوع الدرامى المستقل والمتوحد والذى يشعر دائماً بأنه "غريب **Outsider**" عن من حوله فى وقت السلم، أما فى أوقات الأزمات فإن قدراته العقلية والجسمانية تمكنه، وحده، من إنقاذ الآخرين والانتصار على الشر فى معركة يكون فيها هو اللاعب الأساسى أو الوحيد. هذا، وقد كان الأساس الذى بنيت عليه النوعية السابقة من الأفلام، هو استعداد هذا "**الغريب**" لأن يبذل كل جهده من أجل إنقاذ مجتمعات الرواد المعرضة للخطر بسبب غياب من يستطيع فرض القانون وتنفيذ أحكامه فى الغرب الأمريكى الذى تم استيطانه حديثاً. وهو على أتم الاستعداد للتضحية بذاته

مدركاً أن جهوده لن تلقى التقدير الذى تستحقه. وفى الواقع، فإن "البطل الغريب" غالباً ما يعامل معاملة المنبوذ بعد أن تنتهى الحاجة إلى وجوده ويزول الخطر الذى كان يهدد مجتمعات الرواد. ولعل مشهد النهاية الذى تكرر مراراً وتكراراً فى كثير من أفلام الغرب: عندما يرحل البطل خارج البلدة بمجرد إنقاذه لها، هو أصدق تعبير عن عدم حاجة المجتمع إليه ورغبتهم فى نبذه، بالرغم من أنه هو الذى مكنهم من الاستمرار فى البقاء على قيد الحياة. كذلك، فإن "البطل الغريب" يعترف بهذا بأن قدرته على العطاء –خلال أوقات السلم– تكون أقل بكثير من قدراته على العطاء فى أوقات المحن والشدائد. وعلينا هنا ملاحظة أننى لا أقترح وجود عامل "غريزة الموت Thanatos" لدى الجنرال المنقِذ؛ فمما لا شك فيه أن كل من تم ذكرهم فى هذا الكتاب من القواد العسكريين، قد استطاعوا تأدية وظائفهم بطريقة طبيعية داخل النظم العسكرية التى خدموا فيها.

هناك جانب آخر يجب أن يتوافر فى الجنرال المنقِذ، لأنه كرجل مطافئ يتحمل مسئولية أخطاء ارتكبها غيره، عندما يقود الصراع من أجل إنقاذ وطن بأكمله، أو يتولى القيادة فى حرب خاسرة أو وصلت بالفعل إلى طريق مسدود. أنا هنا أتكلم على ضرورة توافر القدرة على "الاحتمال" و"المقاومة". وبالرغم من أن هذه القدرة الفريدة هى قدرة جسمانية بالأساس، إلا أنها تتطلب كثيراً من الجلَد العقلى أيضاً؛ وهو ما يجعل الاستمرار فى أدائها لفترات طويلة من الأمور المستحيلة ... نظراً للضغوط النفسية الرهيبة التى يعانى منها من يتولى مهمة الإنقاذ. وفى هذا الصدد، فإن شيرمان لم يحقق أى شىء فى الحياة السياسية بعد الحرب، لأن الزحف الطويل الذى خاضه أنهكه واستنزف ما لديه من طاقة، خلال الفترة الزمنية القصيرة التى استغرقها (أقل من عامين). ويمكن لنا جميعاً تخيل مدى الجهد الذى بذله ثميستوكليز حتى يوحد سكان المدن اليونانية ويقنعهم بمواجهة الفُرس فى سالاميز. ولعل هذا الجهد العظيم هو الذى أنهكه إلى درجة أنه لم يشارك –بأى دور– فى الانتصارات التى تم

تحقيقها خلال العام التالى فى "Plataea". ومن المحتمل أنه لم يمانع فى القيام بدور أقل خلال المراحل التالية حتى يستعيد طاقته مرة أخرى. كذلك، فإن بتراس أدرك هو الآخر، أنه من غير الممكن له الاستمرار فى العمل بصورة متواصلة لا تسمح له بالحصول على كفايته من النوم؛ وأن هذا الوضع لا يمكن له أن يستمر طويلاً ... وهو ما يبرر اختفاءه لفترة بعد عودته من العراق.

الهدف الأسمى

مما لا شك فيه أن الخبرة العسكرية من الممكن أن تؤدى إلى إنقاذ جيش أو أمة بأكملها من موقف صعب، كان من الممكن أن يؤدى إلى محنة لا شفاء منها. وعلى سبيل المثال، فإن القائد العسكرى قادر على إقناع أفراد جيشه بأن قدراقم لا تقتصر على إلحاق الهزيمة بالعدو فقط؛ وإنما سيكون لانتصارهم تأثيرات بعيدة المدى على الدول المحيطة بهم، بل وعلى العالم ككل. وفى هذا الخصوص، فإن بحارة ثميستوكليز لم يحاربوا جنود زيركسز فقط، وإنما كانوا الرواد الأوائل المبعوثين ليمثلوا القوة البحرية الجديدة التى سيكون فى يدها تقرير مصير كل الدول الموجودة فى هذه المنطقة. وجنود صلاح الدين، لم يكونوا فى حرب مع جيش مملكة أورشليم، ولا مع الحلفاء الذين شكلوا الحملة الصليبية الثالثة فقط؛ وإنما كانوا الرواد الأوائل المبعوثين ليمثلوا قوة العرب الجديدة فى صدامه مع الغرب ... تلك القوة التى أدت إلى فشل كل الحملات الصليبية التالية، حتى التى حدثت بعد وفاة صلاح الدين. لقد كان هؤلاء الرواد يشعرون بأنهم الأدوات المستخدمة لتنفيذ "استراتيجية عظمى" ترغب فى الوصول بهم إلى تحقيق "الهدف الأسمى". وهو هدف بطبيعته، أكثر سمواً من مجرد النصر العسكرى وفرض النفوذ. وعلى سبيل المثال، فإن الأسلوب الذى عامل به صلاح الدين أعداءه - خاصة الملك

الإنجليزى ريتشارد قلب الأسد– جعلهم يفقدون حججهم الواهية التى مكنتهم من حشد جيوش من المتطوعين لحماية الأرض التى ولد فيها المسيح. فإن هذه الأرض لم تكن فى حاجة إلى حماية من الأساس؛ وكان العرب أكثر قدرة منهم على توفير الأمن على أراضيهم. فعندما أصبحت تكلفة الحرب أكثر بكثير مما يمكن تحمله؛ زادت رغبة جيوش الفرنجة فى توقيع الهدنة والحفاظ على السلام. وفى النهاية، فإن حرب أكتوبر هى التى أجبرت إسرائيل على توقيع معاهدة السلام.

من كل ما سبق، يمكننا رؤية أن "الجنرال المنقِذ" يرى أن من واجبه التسامى والترفع عن الدخول فى قتال مباشر مع خصومه. وهو لا يفعل هذا عن عجز، وإنما ممارسة منه لـ"آخر الحريات الإنسانية"، حرية الإنسان فى اختيار قراره بصرف النظر عن الظروف. وهو يفعل كل هذا، فى نفس الوقت الذى يخطط فيه لهزيمة الخصم، إلى درجة تجعله راغباً فى السلام والتعاون. فنحن لا نريد سحق الخصم وفناءه؛ وإنما نريد العيش معه فى سلام، وفى ظل ظروف عادلة. وهو عندما يفعل هذا، يعطى القدوة للآخرين –فى الداخل والخارج– كى يتبعوا نفس الأسلوب فى التعامل مع "خصومهم". ولأنه قد يأتى الوقت، خلال فترة من الفترات المستقبلية، الذى نصبح نحن فيه هذا "الخصم".

أما جنرال مثل الجنرال الأمريكى شيرمان فى الحرب الأهلية الأمريكية، فإنه قدم إلينا استراتيجية "الأرض المحروقة"؛ فماذا لو اتبع كل طرف مثل هذا التفكير فى التخطيط لإضعاف الروح المعنوية لدى الخصم؟ ماذا يحدث لو أن كل الأطراف لم تَقصُر صراعها على الخطوط الأمامية، وإنما جعلت كل ما لدى الخصم مباحاً، ومشروعاً!؟ ماذا لو طبق الجميع المثل الغربي القائل بأن: "كل شيء مباح فى الحب والحرب All is Fair in love and War"، ألا يعتبر هذا أحد التعريفات التى تحدد ماهية الإرهاب؟ ذلك الإرهاب الذى يدعي الغرب أنهم فى حالة حرب معلنه ضده منذ سنوات؟

التواصل مع الآخرين، هو أحد الصفات الأخرى التى تميز "الجنرال المنقِذ". وهو –فى هذا الخصوص– صاحب قدرات فذة على التواصل بمهارة وحرفية تمكنه من الوصول إلى هدفه. فكلنا يعلم أن "الجنرال المنقِذ" يهدف إلى أكثر من مجرد تحقيق النصر فى معركة أو حرب، وبصرف النظر عما إذا كان قتاله هذا خارجياً (ضد "أمة أخرى" فى حرب معلنة)، أو داخلياً (ضد "جماعة" داخلية فى حرب غير معلنة)، فهو يسعى إلى تنفيذ استراتيجية متكاملة تخرج ببلاده من محنتها. وخلال عمليات الشد والجذب هذه، يكون من المناسب لنا تذكر شعرة معاوية بن أبى سفيان، والحفاظ عليها حتى لا تنقطع. وفى هذا الخصوص، نرى صلاح الدين الأيوبى ينسحب أكثر من مرة قبل أن يحقق هدفه حتى لا يغضب حلفاؤه؛ أو حتى لا تظن به الجموع من عامة الشعب أنه قد فقد تقواه وإيمانه بمبادئ الإسلام. وهو قد فعل هذا، رغم قدرته الواضحة على الاستحواذ على ما يريده بالقوة. أما شيرمان، القائد الأمريكى خلال الحرب الأهلية، فإنه رفض مصافحة يد وزير الدفاع (رئيسه الأعلى) فى حفل رسمى، لأنه انتقد –فيما سبق– طريقته فى التعامل بقسوة مع الزنوج. أولئك الزنوج الذين من المفترض أن الحرب قد نشبت، فى الأساس، لتحريرهم من العبودية!؟

الاستعداد

يختلف "الجنرال المنقِذ" كثيراً عن "رعاة البقر"، فى أفلام هوليود، والذين يندفع الواحد منهم فى تصرفاته وأفعاله دون روية أو تفكير. أما "الجنرال المنقِذ" فإنه غالباً ما يكون تلميذاً نابهاً وذكياً؛ بل إن كثيرين منهم قاموا بالفعل بتدريس العلوم العسكرية، والطرق السلوكية المثلى الواجب اِتباعها فى الميدان (مثل الجنرال "عبد الفتاح السيسي"). وحتى إذا اختفى الواحد منهم عن الأنظار بين الحين والآخر، إلا إنه دائماً ما يستغل هذه الفترات الزمنية

– بانتظام – فى دراسة التقنيات المعاصرة، والاستراتيجيات التى يتم إتباعها فى الحروب والصراعات التى تدور من حوله. وخلال الفترات التى تولى فيها القيادة العليا عملياً، تكون عقلية "الجنرال المنقِذ" دائماً منفتحة ومستعدة لتجربة كل ما يبشر بتحقيق نتائج أفضل؛ حتى إذا كان مخالفاً للتقاليد المتبعة والاستراتيجيات المتعارف عليها. ولعل هذا هو السبب، فى أن أفكار "الجنرال المنقِذ" غالباً ما تظل مهملة ومركونة طالما أن مسار الحرب يسير فى صالحنا، ولا يتم الالتفات إليه إلا عندما تسوء الأمور، وتصبح الهزيمة قاب قوسين أو أدنى.

ولعلنا نذكر أن ثميستوكليز –قبل توليه قيادة الأساطيل اليونانية فى عام ٤٨٠ ق.م. – هو الذى خطط ونفذ لعملية زيادة حجم الأسطول الأثينى. وإن بتراس شارك بالفعل فى كتابة الكتيبات الرسمية التى تضع القواعد الواجب إتباعها للتعامل مع المقاومة فى الأراضى المحتلة، وتحدد ما يجب القيام به لمكافحة المتمردين الذين يعارضون إرادة أمريكا؛ وهى نفس الكتيبات التى تم تطبيق المبادئ المكتوبة فيها خلال تنفيذه لاستراتيجية الطفرة المزعومة بعد توليه القيادة العليا للقوات فى العراق. والأمر ذاته، ينطبق على الغالبية العظمى من الإنجازات التى تمكن شيرمان من تحقيقها فى ولايات جورجيا وكارولينا الشمالية والجنوبية، فهو قد استمدها من الدروس التى قد تعلمها خلال الغارات الناجحة التى شنها على "Meridian" فى ولاية ميسيسيبي عام ١٨٦٣م. وعلى سبيل المثال، فهو قد تعلم –أكثر من "جرانت"– دروساً مختلفة تماماً من المحنة التى مر بها فى "Shiloh" عام ١٨٦٢م. وإذا كانت آراء شيرمان الغريبة فيما يتعلق بـــ"الحرب الشاملة Total War" (نظرية الأرض المحروقة ضد المدنيين من مواطنيه) خلال الحقب الزمنية الحديثة، لم تكن معروفة أو ذات أهمية خلال فترة ترقى جرانت وصعوده إلى مراتب القيادة العليا فى عام ١٨٦٣م، فإنها أصبحت مسألة حياة أو موت بالنسبة لجيوش الشمال فى أواخر عام ١٨٦٤م ... عندما كان البديل المفضل لدى جرانت هو "معارك الصدمة Shock Battles" والتى كادت أن تتسبب فى فناء جيوش الـــ"بوتومك Potomac".

وعندما كان معظم المخططين وراسمي الاستراتيجيات العسكرية (مثل ماك آرثر) يحطون من قيمة استخدام الجيوش التقليدية فى عهد القنابل الذرية، فإن القائد الأمريكى "Ridgway"، خلال حرب كوريا، رأى أن الاستخدام التقليدى يستطيع تحقيق أكثر وأسرع مما تستطيعه القنابل الذرية. وإذا كان قد تم تجاهل أفكاره –والتى قدمها من خلال المذكرات التى كتبها لوزارة الدفاع الأمريكى (البنتاجون)– إلا أنه قد تم استدعاؤه فجأة، فى ديسمبر من عام ١٩٥٠م، لكى يضع هذه الأفكار موضع التنفيذ ... ويصبح القائد الأعلى للقوات بدلاً من "ماك آرثر"؛ والذى تم عزله بقرار من الكونجرس.

معظم الجنرالات يفترضون أن أى نصر عظيم، عادة ما يتبعه نصر أكثر عظمة؛ أما "الجنرال المنقِذ" فإنه فيلسوف أكثر منه رجل عسكرية. وهذا، هو ما يدفعه لكثرة التفكير والقلق من فكرة: "إن لكل شيء وجهين"، وأن دوام الحال من المحال، وأنه من الممكن للنصر العظيم أن يتحول، بين ليلة وضحاها، إلى هزيمة نكراء. ولعل هذا هو السبب، فى أن "الجنرال المنقِذ" يفكر فى معارك ناجحة مثل: "مارثون Marathon"، أو "جيتزبرج Gettsyburg"، أو معركة "٦ أكتوبر ١٩٧٣م"، أو معركة "التخلص من صدّام" على أنها من الممكن أن لا تكون "نهاية القصة"؛ وأن النصر العظيم من الممكن أن يكون بداية المتاعب وليس نهايتها. إن "الجنرال المنقِذ" يدرك أن تحقيق نصراً عظيماً قد يقود القوات –وقياداتها– إلى الغرور والثقة الزائدة بالنفس والغطرسة، وهى كلها أمور تبتعد بنا عن القدرة على تقييم الأشياء بطريقة سليمة، وتدفع بنا نحو التهاون والتراخى والرضا عن النفس ... وعندها تقع الكارثة.

وفى هذا الخصوص، علينا تذكر أن "الحرب" هى "كائن حى" يتأثر بعوامل عديدة ولا حصر لها؛ وأن التفاعلات التى تجرى داخل هذا الكائن الحى تؤثر على حياته ومسارها، وأن حياة الحرب من الممكن أن تنقلب –بين يوم وليلة– من حال إلى حال. ومع هذا، فإن القائد، فى

نشوة النصر، غالباً ما ينسى كل هذا؛ ويغيب عنه أن الجوهر الأساسى لأى صراع هو التقلب الدائم وعدم الثبات.

إن الحقيقة الوحيدة التى يجب تذكرها على الدوام، هى أن الثقة الزائدة بالنفس تحجب عن المنتصر حقائق الأمور، وتجعله يتراخى عن أهم مهامه: **التقييم وإعادة التقييم، مراراً** وتكراراً، **حتى تتلاءم ردود أفعاله مع التغيرات والأوضاع الحقيقية فى ميدان الصراع.**

غنائم الحرب

"الجنرال المنقِذ"، لا يعتبر "النصر العسكرى" هدفاً فى حد ذاته، وإنما مجرد وسيلة يتمكن بواسطتها من تحقيق مصالح شعبه من خلال التعايش مع من حوله فى سلام. وهو لا يسعى لزراعة بذور السلام فى العلاقات مع الدول الأخرى فقط، وإنما يحاول زراعتها -أيضاً- داخل حدود وطنه. فإنه من غير الممكن الوصول إلى الرخاء أو تحقيق أى تقدم اقتصادى حقيقى، فى ظل الخلافات والانقسامات الداخلية.

والملاحظ، أن "الجنرال المنقِذ" غالباً ما يكون قد اختفى من على مسرح الأحداث، حين تظهر النتائج، وعندما يحين وقت حصد "غنائم الحرب Spoils of War". وعلى سبيل المثال، فإنه على الرغم من أن انتصار "ثميستوكليز" فى معركة "سالاميز" كان بداية النهاية لغزوات الفُرس المتواصلة لأراضى اليونان؛ إلا أن التوقف الحقيقى لهذه الغزوات لم يحدث إلا بعد معركة "Plataea"، بعدها بعام كامل، ولم يشارك ثميستوكليز بأى جهود فى تحقيق النصر خلال هذه المعركة. والشيء ذاته ينطبق على صلاح الدين الأيوبي، فعلى الرغم من أن انتصاره فى معركة حطين، كان نقلة محورية غيرت من مسار الحروب الصليبية إلى الأبد؛ إلا أن التوقف

الحقيقى لهذه الحملات لم يحدث إلا بعد وفاته بسنوات طويلة – فى عهد الظاهر بيبرس – وبعد زوال الأسرة الأيوبية ذاتها.

من هذا نرى، أن النتائج الإيجابية الحقيقية، غالباً ما لا تظهر إلا فى عهود تالية لعهد "الجنرال المنقِذ"، والذى استطاع بخبرته وحكمته تحقيق "نقلة فى المنظور **Paradigm Shift**". هذه النقلة النوعية، هى نقلة شاملة، غيرت كثيراً من المفاهيم، وجعلت من فروسية الرجال وشهامتهم، والحفاظ على العهد، أساساً للتعامل بين الخصوم. كذلك فإن هذه النقلة النوعية لم تكن تقتصر على أخلاقيات التعامل فقط، وإنما امتدت – أيضاً – لتشمل تقنيات الصراع فى ميدان المعركة السياسية؛ والاستراتيجية المتبعة ككل ... بما فيها من أهداف سامية.

ولعلنا قد لاحظنا، أنه فى كل حالة من الحالات السابقة، كان هدف "الجنرال المنقِذ" محدوداً للغاية. إن هذا لم يحدث بسبب قصور طموحاته أو محدودية فكره. وإنما حدث، لأن الأمة – ككل – انزلقت نحو هوة أزمة خطيرة تهدد مستقبلها، بل ومجرد قدراتها على الاستمرار فى الوجود؛ وأن الخروج من "عنق الزجاجة" كان من الصعوبة بمكان، جعل من المستحيل عليه التفكير فيما هو أبعد من هذا. ولعلنا قد لاحظنا أن "الجنرال المنقِذ"، فى كل مرة، قد اكتفى باستعادة منطقة معينة أو الانتصار فى معركة وحيدة حاسمة. وهو قد فعل هذا، حتى يمنح غيره من القادة والسياسيين الفرصة لبناء المستقبل على أسس سليمة، وفى ظل ظروف أفضل بكثير من الظروف المحورية التى حققت "النقلة فى المنظور".

أصالة "الجنرال المنقِذ" ونُبْل خصاله

إن حديثنا عن الصفات الشخصية لــ"الجنرال المنقِذ" هام ومحورى؛ فهذه الصفات الخاصة هى التى تفصل بينه وبين غيره من القادة العسكريين المنتصرين والسياسيين الناجحين. وعلى سبيل المثال، فإنه كانت هناك عادة سيئة، فى مصر الفرعونية، اتبعها كثيرون من ملوك مختلف الأسرات التى حكمت مصر. وكلنا يعلم أن حاكم مصر، "الفرعون"، كان يعتبر فى مصاف الآلهة ولا يقل عنها كثيراً. وفى الواقع، فإن كثيراً من الآلهة المصرية لم تكن، فى حقيقتها، إلا بعض قدامى الملوك الذين ارتفعت بهم القصص المختلقة والأساطير إلى مستوى الآلهة. وتلخصت هذه العادة السيئة، فى أن يقوم الملك الجديد بمحو صورة سلفه (الملك أو الملوك السابقين له)، وكل ما يتعلق بإنجازاته وإيجابياته؛ ويقوم بعدها بوضع رسمه واسمه فوق رسم واسم سابقيه. أما "الجنرال المنقِذ"، فإنه يملك قدراً كافياً من الثقة بالنفس يجعله فى غير حاجة لفعل هذا. وإذا تذكرنا أن "الجنرال المنقِذ" لا يسعى فى الأساس إلى مجد أو غنائم حرب؛ فإننا سنجد توافقاً وانسجاماً فى سلوكياته، يجعله يسعى نحو الهدف السامى الموجود فى استراتيجيته، ويصرف نظره عن الصغائر.

وفى واقع الأمر، فإنه من الممكن النظر إلى "الجنرال المنقِذ" على أنه باحث اجتماعى، يحاول إصلاح ما فى مجتمعه من أخطاء فى السلوك والتشبث بالمفاهيم البالية. فإن الواحد منهم، يتفهم حقيقة المقصود بمصطلح "الشخصية الوطنية المصرية **Egyptian National Character**". ويعمل من خلال هذا الفهم، على توجيه المواطن العادى نحو الصواب وما فيه صالح الوطن ككل.

وباعتباره أحد القواد الذين يشاركون فى رسم مستقبل الوطن، بطريقة تحترم القانون والميثاق الذى شارك فى وضعه غالبية الشعب؛ فإن "الجنرال المنقِذ" يدرك تماماً مدى قدرة عامة الشعب على الصبر وتحمل ضغوط الحياة. ومن خلال هذا، يرسم الخطط الملائمة؛ والتى

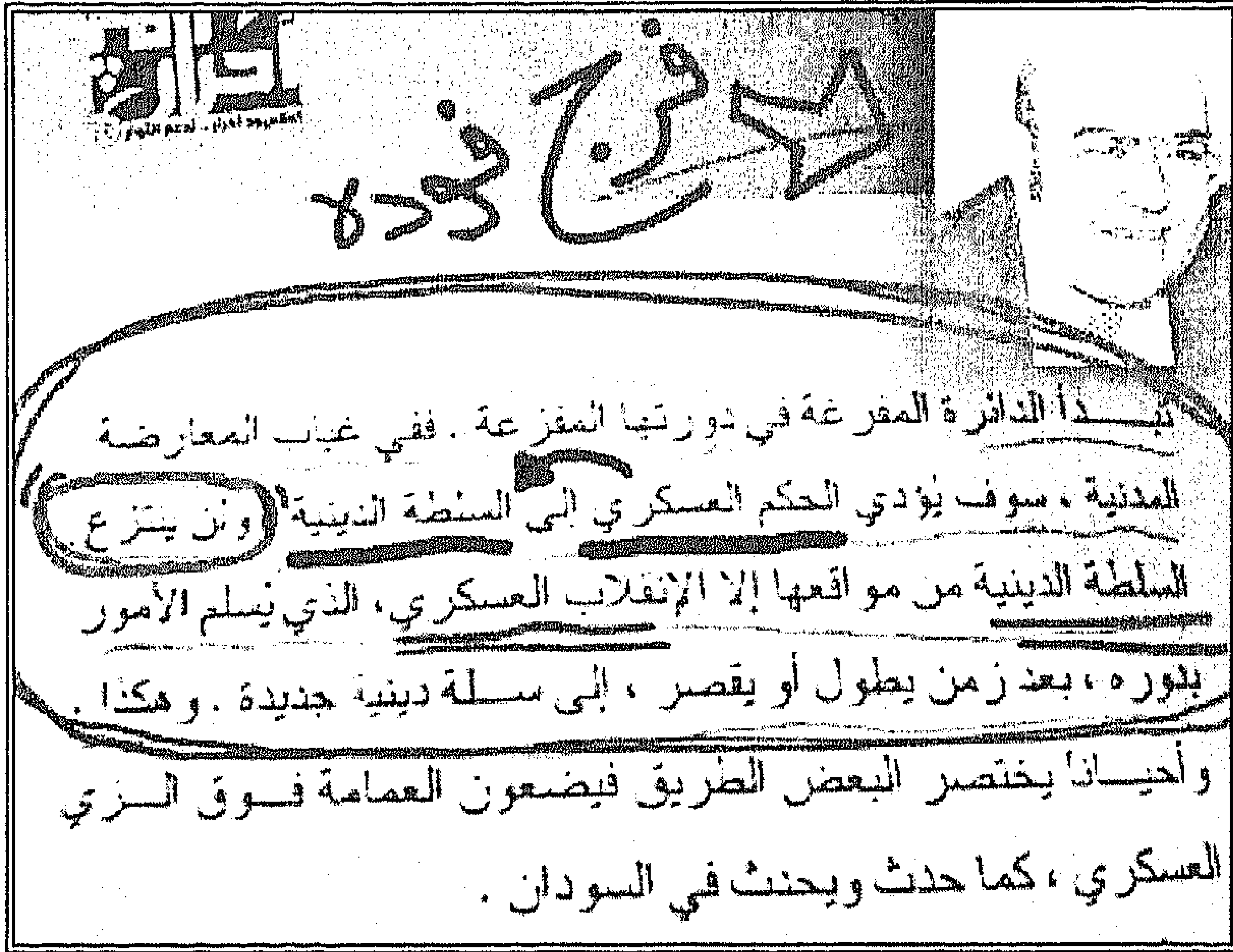
تتناسب مع قدرات شعبه على التحمل. وخلال كل هذا، يؤكد على العدو المشترك الذى أضر بالبلاد وسعى إلى تفتيتها. فإن تحديد "العدو" ليس فى الواقع إلا تحديداً للهدف الذى يجب على الجميع أن يسعى لقتاله ومقاومته والصراع ضده حتى النهاية. وفى هذا الصدد، فإن التخلص من العدو ومن شروره لا يجب أن يكون "هدفاً سامياً" فى حد ذاته. لأن العدو أو الخصم قد يكون أحد فئات الشعب التى يجب إصلاحها وتهذيبها والصبر عليها حتى تتبنى رأى الأغلبية وتعود إلى صوابها ... حتى يمكن إعادة إدخالها إلى المجتمع بنجاح. وهذا هو حالنا فى مصر مع جماعة الإخوان، فلا يجب على "الجنرال المنقِذ" السعى للقضاء على أفرادها؛ بل تثقيفهم حتى يصبحوا –مرة أخرى– أعضاء نافعين فى مجتمعهم.

أما "الهدف السامى"، فهو هدف يتم التخطيط له من خلال استراتيجية متكاملة تنهض بالشعب ككل، وتنشر الرفاهية والرخاء فى جنبات المجتمع. استراتيجية ذات أسس سليمة، تسمح للمعارضة المدنية الناضجة بالمشاركة فى البناء.

وفيما يختص بالمعارضة المدنية:

فكما ذكر كاتبنا الكبير: الشهيد "فرج فودة"، فإن:

> الدائرة المفرغة، تبدأ دائرتها المفزعة من خلال غياب المعارضة المدنية؛ وفى غيابها سيؤدى وجود الحكم العسكرى إلى قوة السلطة الدينية وتوليها زمام الأمور. ولن ينتزع السلطة الدينية من مواقعها، إلا انقلاب عسكرى. والذى يسلم الأمور بدوره –بعد زمن يطول أو يقصر– إلى سلة دينية جديدة. وهكذا، دواليك. وأحياناً يختصر البعض الطريق، فيضعون العمامة فوق الزى العسكرى، كما حدث ويحدث فى السودان.



تبــدأ الدائرة المفرغة في دورتها المفزعة . ففي غياب المعارضة المدنية ، سوف يؤدي الحكم العسكري إلى السلطة الدينية ، ولن ينتزع السلطة الدينية من مواقعها إلا الإنقلاب العسكري، الذي يسلم الأمور بدوره ، بعد زمن يطول أو يقصر ، إلى سلطة دينية جديدة . وهكذا .
وأحيانا يختصر البعض الطريق فيضعون العمامة فوق الزي العسكري ، كما حدث ويحدث في السودان .

الخطر الأمريكى

خلال تصفحى لبعض المقالات المكتوبة على "النت"، لفت نظرى مقال غريب يتحدث عن الأعمال الوحشية والفظائع التى لا تزال تجد من يدافع عنها ويحاول تبريرها. هذا المقال بعنوان: "أعمال وحشية ما زال الناس يدافعون عنها **Atrocities Still Defended by People**". والغريب فى الأمر، هو أن عدداً من هذه الفظائع والأعمال الوحشية المذكورة فى هذا المقال المصور –والذى غالباً ما كان كاتبه أمريكى الجنسية– هى جرائم حرب أمريكية تم ارتكابها فى العراق؛ ويتم الآن محاكمة "الجندى الأمريكى"* الذى كشف عنها باعتبارها أسراراً عسكرية ما كان له البوح بها.

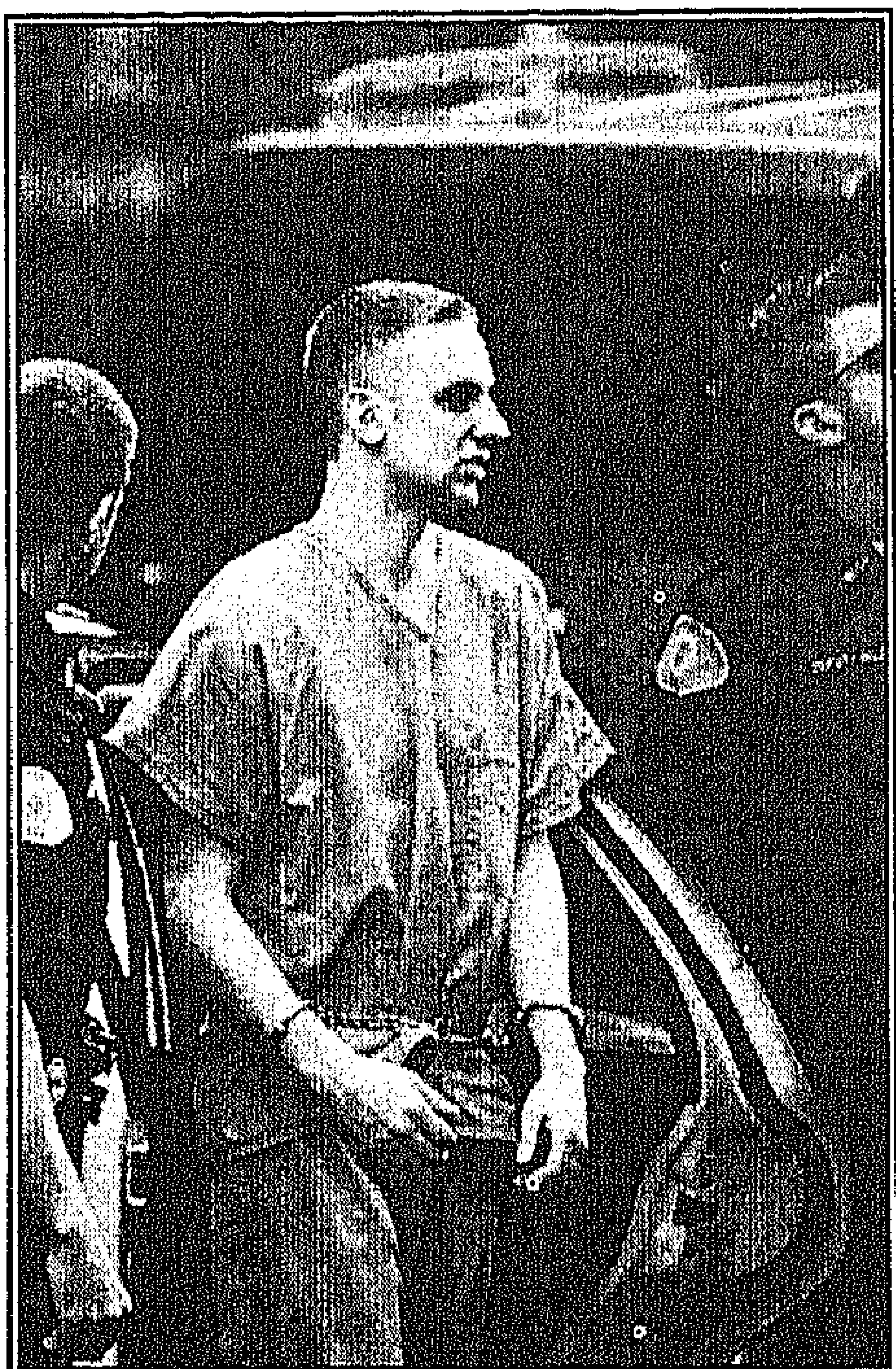
هذا المقال اعتبر الجريمة الأولى، أو على حد قوله: "فظائع أو أعمال وحشية **Atrocities**"، هى "حرب العراق" ذاتها. معلناً بصراحة ما حاول "ڤيكتور هانسون" إخفاءه –دون طائل– خلال صفحات كتابه التى حاول أن يمجد فيه جنرالات أمريكا، من صغار النفوس أمثال بتراس وريدجواى وشيرمان. والجميع يعرفون السبب فى أن "حرب العراق" الأخيرة تعتبر جريمة لن ينساها التاريخ أبداً، فيذكرنا المقال بأن أمريكا قد دخلت الحرب هناك بحثاً عن أسلحة الدمار الشامل، وأن هذا هو السبب الأساسى والوحيد لغزوها العراق. وإن كان

---

* هو الجندى النزيه "برادلي مانيج **Bradley Manning**" والذى يحاكم الآن فى الولايات المتحدة بتهمة "مساعدة العدو **Aided the Enemy**"، والحصول على وثائق سرية وتسريبها لجهات غير مخول لها الإطلاع عليها. وكما سنكشف –خلال هذا الفصل– فإن هذه الوثائق متعلقة بــ"فرق الاغتصاب" التى شكلها بعض الجنود الأمريكان فى العراق، وبعض حوادث القتل للمدنيين العزل عند نقاط التفتيش العشوائية المقامة فى الشوارع العراقية، وداخل البيوت الآمنة. (عادل نجيب)

المقال قد أغفل ذكر أن الأمم المتحدة قد رفضت إضفاء أى شرعية على الجرائم التى ارتكبتها أمريكا وحلفاؤها بهجومهم على العراق واحتلالها. وبالرغم من أن الأمريكان قد أطلقوا على وجودهم فى العراق اسم: "المهمة الإنسانية Humanitarian Mission"، إلا أننا سرعان ما نكتشف –من خلال مقاله– وجود "فرق اغتصاب Rape Squads" لم ترحم حتى البنات الصغيرات فى عمر الزهور (١٤ سنة)؛ وأن هذه الفرق لم تكتفِ بالاغتصاب، بل إنها قتلت أسرا بأكملها، حتى تتمكن من إخفاء الآثار التى تدل على جرائمها.

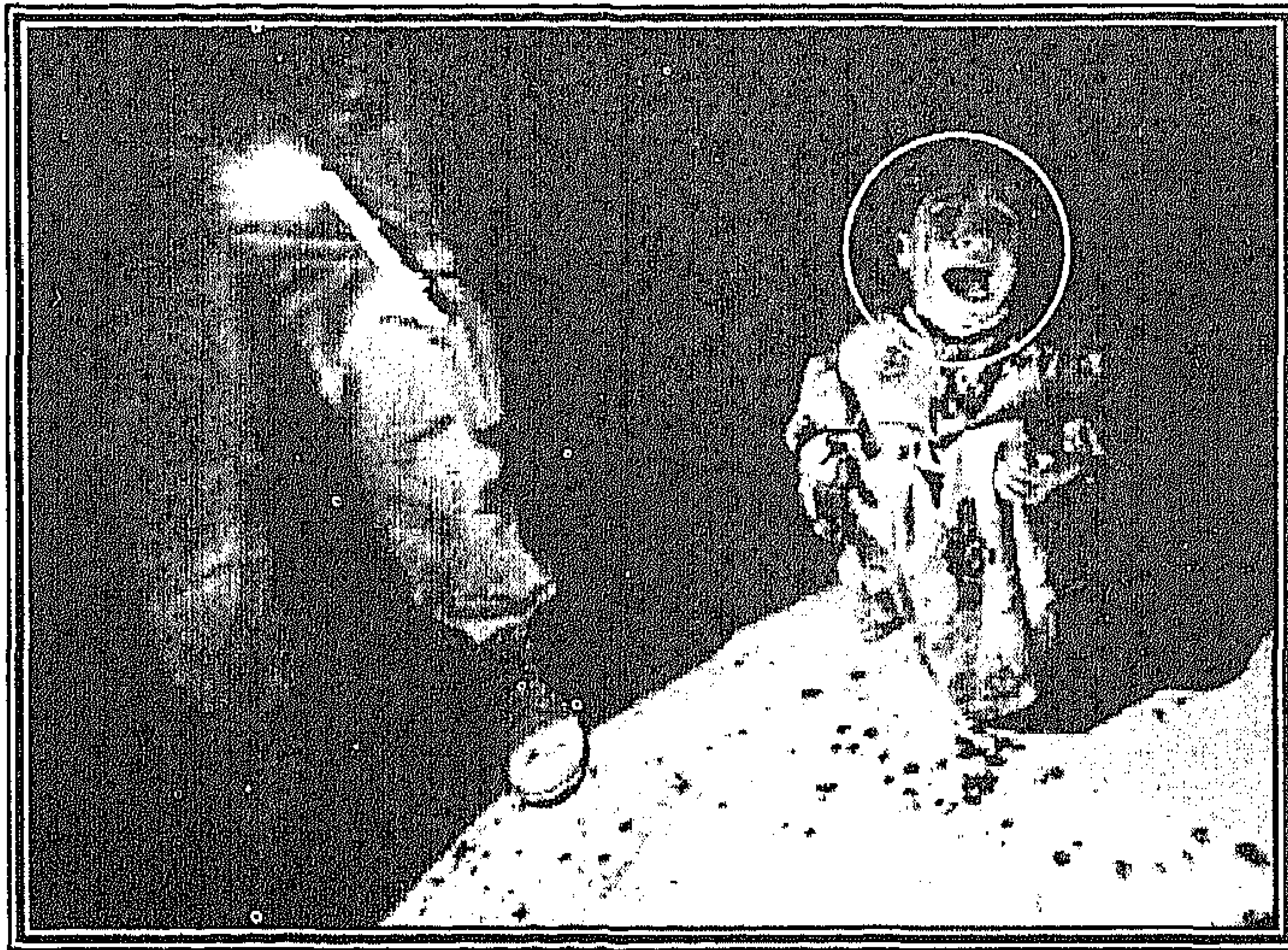
وضرب المقال مثالاً بحالة الجندى الأمريكي "ستيفن دال جرين Steven Dale Green"، ٢٤ عاماً، من تكساس؛ والذى ذكر المقال أنه يواجه عقوبة الإعدام لارتكابه عدة جرائم اغتصاب فى العراق. هذا وقد وصفت النيابة ذاتها، خلال المحاكمة، جرائمه بأنها كانت "عمدية" وتم التخطيط لها "بدم بارد".



"ستيفن دال جرين"، المجرم والقاتل والمغتصب، داخل أحد المحاكم المدنية الأمريكية، بعد أن كشف "برادلي مانيج" عن بعض ما كان يرتكب فى العراق من جرائم ضد الإنسانية.

هذا الشيطان الأسود القلب كان دائم الحديث عن رغبته فى قتل العراقيين –أياً كانوا (مدنيين أو عسكريين) وفى أى مكان– وقد ذكرت مساعدة وكيل النيابة "Marisa Ford" فى كلمتها الختامية أثناء محاكمته أنه قد ارتكب هذه الجرائم بعد تخطيط طويل وعن سبق إصرار وترصد، وأنه قتل مدنيين بدم بارد. ومن خلال تفاصيل المحاكمة، نعلم أن "جرين" قد خطط هو وزملاؤه من الجنود المشتركين فى هذه الجريمة لتنفيذها خلال احتسائهم للخمر فى أحد نقاط التفتيش الموجودة بالقرب من منزل الضحايا. وعندما انتقل حديثهم نحو الجنس والاغتصاب، ذكر أحد الجنود عائلة "الجنابي"، التى تعيش بالقرب منهم، وأن بها فتاة جميلة صغيرة السن (الضحية "عبير قاسم الجنابي" البالغة من العمر ١٤ سنة). فى يوم الجريمة، توجه أربعة جنود –من بينهم "جرين"– إلى منزل عائلة "الجنابى"، حيث قاموا بدم بارد بقتل الأب والأم والأخت الصغرى لعبير. وبعدها، قام جرين باغتصاب عبير، ثم أطلق النار عليها وقتلها. وقد اعترف القاتل بجريمته، طواعية، مما يعنى أن عقوبة الإعدام تنطبق عليه. لكن من يعلم، فرغم القسوة المعروفة عن العدالة والقضاء فى ولاية تكساس؛ إلا أنهم مشهورون هناك –أيضاً– بالشللية والقبلية فى أحكامهم ... وربما يغفرون له هذه الهفوة البسيطة!؟ فرغم كل شيء، فهو فتى أصيل من الجنوب "Good Old Boy From the South" كما يقال هناك. وهناك ثلاثة جنود أمريكان آخرون، يقضون مدد سجن مختلفة فى السجون العسكرية الأمريكية بسبب الدور الذى لعبوه فى ارتكاب هذه الجريمة. وإن كانت السلطات الأمريكية –بالطبع– لم تكشف عن أسمائهم، ولا مدد السجن المحكوم عليهم بها. وبالطبع، فإنها لم تكشف عن طبيعة الدور الذى لعبوه فى ارتكاب هذه الجريمة، ولا مدى تورطهم فى قتل هذه الأسرة العراقية.

كذلك، فإن المقال ذكر أن المدنيين المسالمين -والعزل من السلاح- تعرضوا للقتل الجماعى بواسطة المدافع الآلية لطائرات الهليكوبتر. وبالمثل، ذكر هذا المقال تعرض عدة أسر عراقية للقتل عند نقاط التفتيش بسبب عصبية الجنود الأمريكان، الذين يخشون على حياتهم من الألغام والانتحاريين. وضرب المثل بأسرة الطفلة الصغيرة "سمر حسان"؛ والتى تعرض كُلاً



الوجه الباكى للطفلة الصغيرة "سمر حسان" مغطى بالدماء، بعد أن تعرض والداها للقتل فى أحد نقاط التفتيش الأمريكية فى "تل عفار" - جنوب بغداد- خلال عام ٢٠٠٥م.

من والديها للقتل فى أحد نقاط التفتيش الأمريكية فى "تل عفار" (منطقة واقعة جنوب بغداد) خلال عام ٢٠٠٥م، بينما نجت هى وأخواها الأربعة الآخرين، وإن كان بعض هؤلاء الأطفال قد أصيب بطلقات نارية فى أجزاء متفرقة من الجسد.

وفى حادثة أخرى -وقعت بعدها بشهر- تم إطلاق النار على سيارة بها امرأة وثلاثة أطفال عزل؛ وأسفرت عن مقتل طفلين، وجرح المرأة وأحد الأطفال، والذين ثبت أنهم، جميعاً، لم يكن لديهم أى سلاح أو متفجرات. ثم ينطلق كاتب المقال ليصف حادثة ثالثة كبيرة، وقعت أحداثها يوم ١٤ من يونيو ٢٠٠٥م، عندما تم إطلاق النار على سيارة بها ١١ مدنياً تم قتل ٧ منهم (طفلان وخمسة بالغون). وادعت التقارير التى قدمها العسكريون، أن زيادة عدد

الأطفال القتلى فى أمثال هذه النوعية من الحوادث، نجمت عن أن الوالدين يضعون أطفالهم على أرضية السيارة، حتى يصبحوا غير ظاهرين للعيان؛ وهو ما يؤدى إلى أن الطلقات التحذيرية التى يتم توجيهها إلى الجزء الأسفل من السيارة، تخترق أرضيتها وتصيب الأطفال.

وفى حادثة أخرى فظيعة، وقعت ليلة ١٦ من سبتمبر ٢٠٠٤م، كان هناك مجموعة من مشاة البحرية الأمريكان تتحرك فى قافلة على طريق بالقرب من "الصقلاوية" (فى الجزء الغربى من بغداد)، عندما اقتربت عربة بسرعة من مؤخرة القافلة العسكرية. وعندما تم إطلاق النار عليها لإبعادها؛ انحرفت وسقطت فى إحدى القنوات المائية الموازية للطريق. تابعت قافلة مشاة البحرية طريقها، وتركت مهمة إنقاذ السيارة وتفتيشها للشرطة العراقية. عند وصول الشرطة العراقية، وإخراج السيارة من المياه، وجد بها جثث إمرأتين وثلاثة أطفال (خمس سنوات، وثلاث سنوات، وطفل رضيع) ... وكانوا جميعاً قد تعرضوا للموت غرقاً طبقاً لما ذكرته تقارير الشرطة. وتابع المقال ذكر أمثلة لحوادث أخرى لم تقتصر الوفيات فيها على راكبى السيارات. ففى الحادثة التالية، تعرض أحد العراقيين للموت وهو يركب دراجته الهوائية (عجلة)، فى محافظة الفالوجا. ففى يوم ٢٦ من مارس من عام ٢٠٠٤م، اقترب هذا الرجل على دراجته من مجموعة جنود تقوم بتفكيك أحد الألغام التى عثر عليها فى هذا الطريق. وادعى التقرير الذى كتبه هؤلاء الجنود، أن راكب الدراجة كان يقترب منهم بسرعة كبيرة؟ وأنهم اضطروا لإطلاق النيران عليه وقتله حماية لأنفسهم!؟ وبالطبع، لم يتم العثور على أى سلاح أو متفجرات مع هذا القتيل.

أخيراً، يذكر كاتب المقال أن القتلى من العراقيين لم يقتصروا على المدنيين الذين استخدموا الشوارع العراقية فى بلادهم، بل إنه امتد إلى الأبرياء الموجودين فى منازلهم ... والتى يفترض فيها أن تكون آمنة. ففى فجر يوم ١١ من سبتمبر ٢٠٠٥م (الساعة الخامسة صباحاً)، وفى مدينة "الرطبة" هاجم مجموعة من مشاة البحرية الأمريكان أحد المنازل خلال عمليات التفتيش

المنظم التى اعتادوا على إجرائها، ويطلق عليها: "الحصار والتفتيش Cordon and Search". وعندما اكتشفوا عدم وجود أى أشخاص بالغين فى هذا المترل (كان أكبر الأطفال الموجودين فى العاشرة من عمره)، قاموا بقتل طفل رضيع، وطفلة فى العاشرة من عمرها!!؟ وعانى الأطفال الآخرون من إصابات مختلفة. حدث هذا لأطفال أبرياء داخل مترلهم.

ويختم الكاتب مقاله، بذكر أن أمريكا لم تعتذر عن أي من هذه الجرائم، ولم تقم بدفع أى تعويضات للضحايا، وأن أكثر ما أزعج كاتب المقال هو أن الشخص الذى كشف عن هذه الجرائم (الجندى "برادلي مانيج") تتم محاكمته حالياً فى أمريكا بتهمة الخيانة العظمى.

أما بالنسبة لهذا الجندى الأمين ("برادلي مانيج") الذى قرر فضح جرائم زملائه، فإنه حتى وكيل النيابة وشهود الإثبات التابعين له، أعلنوا مراراً وتكراراً –خلال محاكمته– أنه لا توجد أى أدلة على أن "برادلي مانيج" له أى ميول سياسية أو دينية؛ أو أنه متعاطف مع تنظيم القاعدة، أو أى منظمة إرهابية أخرى، وأنه لم يعبر –أبداً– عن أى مشاعر تظهر عدم ولائه لأمريكا، أو أن له صلات بأى حكومة أجنبية أياً كانت، وأنه لم يحصل على أى أموال – أو منافع مادية أو معنوية– فى مقابل المعلومات والوثائق التى قام بإفشائها من خلال نشرها على "Wikileaks". وهى الشروط التى يجب أن يتوافر أحدها أو بعضها حتى تثبت عليه تهمة الخيانة العظمى. وقد بلغ من افترائهم عليه، أن "منظمة العفو الدولية Amnesty International" قد تدخلت لدى الحكومة الأمريكية من أجل إسقاط بعض التهم عنه.

وفى هذا الخصوص، ذكر ممثل منظمة العفو الدولية ("Widney Brown")، بعد انتهاء كل الشهود –فى المحاكمة– من الإدلاء بما لديهم من معلومات، ما نصه:

"لقد رأينا –الآن– كل الأدلة التى قدمها كِلا الجانبين. وأصبحت الأمور واضحة بما فيه الكفاية، لكى نرى أنه لا يوجد أى أساس قانونى يسمح باستمرار توجيه تهمة "مساعدة العدو Aiding the Enemy" إليه. وعلى الحكومة أن تقوم بسحب هذه التهمة".



الجندى الشجاع "برادلي مانيج"، والذى يدفع الآن ثمن شجاعته؛ مدافعاً عن حياته – فى محاكمة عسكرية– ضد اتهامات ملفقة، تصل عقوبتها إلى الإعدام. بينما يحاكم القاتل "المعترف" بارتكابه لجرائم قتل واغتصاب أمام محاكم مدنية.

وقد وصل الأمر بهم إلى حد الادعاء –من خلال شهود الإثبات الذين أتت بهم الحكومة الأمريكية– بأن "برادلى مانيج" ينتمى إلى "مجتمع الشاذين جنسياً"، وأنه ضمن المتطرفين الديمقراطيين من ناحية ميوله السياسية.

العدو دائماً ما يغير وجهه

من الممكن أن لا يكون العدو هائلاً فقط، وإنما مرعباً ومخيفاً إلى أقصى الحدود. وفى هذا الخصوص، علينا تذكر أن أهل اليونان -طبقاً لما رواه هيرودوت- كانوا فى حالة رعب شامل من الفُرس جعلتهم يرتعدون من مجرد ذكر اسم الملك "زيركسز"، بسبب كثرة ما سمعوه من شائعات عن الأهوال التى يواجهها كل من يقف فى طريقه، وطريق جيوشه الجرارة الهائلة العدد. وبالمثل، فإن أى أمة يواجه جيشها قوات الأعداء المتفوقة عليه بكثير من حيث العدد أو العدة أو كليهما، سيشعر هو الآخر بالقلق، والخوف مما سيأتى به المستقبل خلال مواجهته لهذا الشر المستطير. وعلينا أن نتذكر فى هذا الصدد، المشاعر التى كان يكنها أهل الشمال، نحو الأساطير التى نشرها الجنوبيون من سكان الولايات المتحدة الأمريكية قبل الحرب الأهلية هناك؛ تلك السمعة غير الحقيقية التى تقول بأن الجنوب قد أخرج طبقة من المحاربين متفوقة عن أحسن ما يمكن أن ينتجه الشمال ... رغم تفوقه من حيث "الموارد" و"العدد" و"التكنولوچية". هذه السمعة جعلت كثيرين من قادة الشمال يترددون فى إرسال مواطنيهم لقتال أهل الجنوب، ويظنون أن الفارس الجنوبى لا يقل كثيراً عن السوبرمان؛ وأنه قادر على هزيمة عشرة من محاربيهم. كذلك، لعلكم تذكرون الشائعات والأساطير التى انتشرت بيننا -هنا فى مصر- بعد نكسة يونيو ١٩٦٧م، عن الجيش الإسرائيلى، مثل: اكتشافنا لأن الطيار الذى قفز بالمظلة من طائرته المصابة، لم يكن إلا "امرأة"! وأنها حامل فى شهورها الأخيرة!؟

وبالطبع، هناك سياسة متبعة لتجنيد النساء فى جيش الدولة الصهيونية؛ لكن أن يكون الطيار "امرأة حامل" هو بالتأكيد قصة من نسج الخيال، لم نقصد بها إلا جلد الذات، ومعاقبة أنفسنا على الهزيمة التى عانينا منها. وقد تكرر الشىء ذاته فى أمريكا خلال الحرب الكورية،

وفى السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين؛ عندما ترددت الأحاديث –فى الدوائر العسكرية– عن القدرات الخرافية لجنود الصين وأعدادهم الهائلة. فخلال الحرب الكورية، انتشرت شائعات بين القوات الأمريكية المنسحبة، بأن جحافل مسلحة كثيرة العدد من الصينيين المتعصبين ذوى القدرات غير العادية، قادرون على النفخ فى البوق واصطياد أعدائهم (الأمريكان) بطرق غريبة وسحرية. وتكرر هذا بعد احتلال العراق، عندما شعرت القوات الأمريكية، بأنه لا يوجد لديها ما تواجه به المتفجرات المصنعة محلياً ("IEDs")، والألغام الانتحاريين، والتى استخدمها أفراد المقاومة العراقية فى اصطياد جنود الاحتلال؛ معلنين بفخر أنهم لا يحبون الحياة مثل حب الأمريكان لها. أما فى القرن الحادى والعشرين، فقد انتشرت شائعات مؤداها أن الصين قد دربت آلاف من جنودها حتى أصبحوا ذوى قدرات غير عادية تمكنهم من القفز فى الهواء لمسافات غير معقولة؛ وأنهم قادرون على اِتباع تقنيات غير معهودة فى الحركة بتلصص ومفاجأة الخصم.

إن ما يجب أن يلفت النظر فى كل حالة من الحالات السابقة هو أن "الجنرال المنقِذ"، لم يقلل من قيمة عدوه ولا من مستوى قدراتهم القتالية؛ ولكنه ببساطة، رأى الأشياء على حقيقتها ... بلا زيف أو خداع. فإن "الجنرال المنقِذ" قادر –أكثر من غيره– على تذكر تاريخ وطنه العريق، ورؤية القدرات الحقيقية المتوافرة فى جنوده. وهو يعلم علم اليقين أن خصومه ليسوا أكثر من بشر عاديين يمكن هزيمتهم بسهولة إذا ما أُحسن التخطيط، واختيار الوقت المناسب؛ وحتى إذا كانوا مثل الأمريكان متفوقين من حيث الموارد والعدد والتكنولوچية. وبالنسبة لإسرائيل، فرغم تفوقها الحالى فى العتاد والتكنولوچية، فإنه من الممكن إيقافها عند حدها؛ إذا ما بدأنا – منذ الآن – فى التخطيط بدقة وحصافة للدفاع عن حدودنا وحماية أرواح جنودنا. ويمكن لنا أن نرى أن ثميستوكليز وصلاح الدين والظاهر بيبرس لم يقلقوا من القدرات

المتوافرة لدى الخصم، وإنما بذلوا كل ما لديهم من عرق ودم، للتأكد من أن قواتهم على أحسن ما يكون من التدريب والتنظيم، وأن الروح المعنوية لديهم مرتفعة، وأنهم جميعاً يؤمنون – حق الإيمان – بقضية بلادهم. إن مثل هذه العوامل السابقة، غالباً ما تكون كافية وحدها لدحر الأعداء وحماية البلاد. وعلى سبيل المثال: فإن جنود صلاح الدين فى معركة حطين لم يقلقوا كثيراً من أن الخصم يحتل موقعاً استراتيجياً أفضل من موقعهم؛ وكل ما شغل بال صلاح الدين، هو توفير ما تحتاج إليه قواته من ماء وغذاء وراحة، حتى تستطيع –فى اليوم التالى– تأدية واجبها على أحسن وجه. كذلك، فإن بحارة تميستوكليز فى سفنهم الثقيلة ثلاثية المجاديف، لم يقلقوا كثيراً من أن الخصم أكثر عدداً وعدة، ولديه سفن سريعة؛ وإنما كانوا على يقين من أنهم أفضل منهم من حيث القدرة على المناورة داخل موانئ وخلجان سالاميز الضيقة ذات المياه الضحلة، وأن كثرة عددهم (الفُرس) ستصبح "إعاقة" و"عيباً" وليست ميزة فى هذه الأماكن المغلقة. والأمر ذاته ينطبق على ما حدث خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣م، فإنه بمجرد أن تمكنت القيادة العليا من إعادة بناء الجيش المصرى القادر على القتال، فإنه لم يعد من المهم ما الذى لدى الخصم من سلاح، ولا حجم الحلفاء الذين يؤيدونه ويدافعون عنه (أمريكا والغرب).

إن "الجنرال المنقِذ"، يتميز عن غيره من القيادات العسكرية العادية، بأنه قادر على نزع الطبقة الخارجية ذات المظهر الخادع، والتى يتخفى من خلفها الخصم. لأننا عندما نرى الأشياء على حقيقتها، بلا زيف أو خداع، نصبح أكثر قدرة على إحراز النصر ... لأننا نتمكن من الوصول إلى الخيارات السليمة فيما يتعلق بالتخطيط والتوقيت. وباختصار، فإننا نتوقف عن رؤية المشكلة التى تواجهنا، على أنها ما يستطيع العدو القيام به؛ وإنما ما نستطيع نحن القيام به، وأن النصر أو الهزيمة من عند الله ... وأنها ليست بالقدر المحتوم. وفى هذا الخصوص، علينا

تذكر المعنى الكامن فى كلمات ڤيكتور فرانكل*، فى كتابه: "سعى الإنسان للبحث عن معنى Man's Search For Meaning"، عندما حدثنا عما سماه "**آخر الحريات الإنسانية**"، ألا وهى حرية الإنسان فى اختيار قراره مهما كانت الصعوبات أو الظروف التى يواجهها، وأنه دائماً ما توجد **فجوة** بين "الفعل" و"رد الفعل" تسمح لنا بأن نكون أحراراً فى اختيار "رد الفعل" الذى يحافظ على حرية شعب مصر وكرامته وإرادته المستقلة.

لقد قصد "فرانكل" بوصفه هذا، أن هذه الحرية ستبقى –حتى النهاية– لكَ وحدكَ .. مهما حدث ... ومهما كانت الظروف؛ وأنه سيكون بإمكانك دائماً ممارستها.

.. ..

.. ..

فقد تنتزع من الإنسان وظيفته، أو يحرم من مصدر رزقه. وقد تنتزع منه حريته، ويلقى به فى أعماق السجون. قد تنتزع منه زوجته. وقد يُنتزع منه أبناؤه وفلذات أكباده. وقد تُنتزع منه، وقد تُنتزع منه؛ فهناك الكثير من الأشياء التى يمكن انتزاعها من كل واحد منا. وأخيراً، قد تنتزع منه روحه، ويلقى به فى ظلمات وغياهب القبور.

ولكن، حتى لحظة النهاية، وحتى تخمد آخر خلجة فى أجسادنا الفانية. فإنه بإمكانكَ أنتَ .. أنت "الإنسان الحر" أن تتمسك بالمبادئ، عندما تنهار قيم ومبادئ من حولكَ؛ وأن تكون راضياً، عندما تمتلئ قلوب الجميع بالشكوى والتذمر؛ وأن تظل سعيداً، عندما تسيطر

---

* طبيب وعالم نفس نمساوى يهودى، أعتقل فى معسكرات التعذيب النازية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. وفيها، فقد أباه وأمه وأخاه وزوجته وآخرون من أفراد عائلته الممتدة. ولم ينج من الموت إلا هو وأخته. وبعد انتهاء الحرب، نشر كتاباً ناجحاً جداً .. شرح فيه وجهة النظر السابقة .. وجعل منها أساساً لطريقته فى العلاج النفسى. (عادل نجيب)

الكآبة والحزن على أرواح الناس؛ وأن تحافظ على تفاؤلكَ، عندما ينشب اليأس أنيابه فى النفوس وفى القلوب؛ وأن تبقى صامداً متماسكاً، عندما يطيح الألم برجاحة عقول الآخرين واتزانهم؛ وأن تحتفظ بقدرتكَ على التفكير، عندما يعصف تكرار المآسى برزانة أفكار المحيطين بكَ؛ وأن تتشـــبث بأهداب الشجاعة، عندما يشل الخوف إرادة رفاقكَ؛ وأن لا تفقد إرادة الحياة، مهما كانت الأســـباب. هذا، لأن *الشـــجاعة الحقيقية* .. تكون فى مواجهة الحياة، أكثر منها فى مواجهة الموت.

إن هذه ليست دعوى للسلبية أو الخنوع أو القبول بالأمر الواقع، بل هى على العكس تماماً، فإنها دعوى لنوع من المقاومة لن يجد "أى طاغية" ســـبيلاً لهزيمتها .. أو حتى مجرد التعامل معها، وعلى حد قول "ڤيكتور فرانكل" نفســـه:

"إنه يمكن انتزاع أى شيء من الإنسان .. إلا شيئاً واحداً فقط لا غير ...

ألا وهو: حرية الإنسان فى اختيار موقفه (رد فعله) .. تجاه التحديات –وما تتسبب فيه من معاناة– التى تعترض طريقه فى الحياة".

آخر الحريات الإنســـانية، تلك الحرية التى لا يمكن لأحد أن ينتزعها منا. آخر الحريات الإنســـانية، لأننا نملك دائماً زمامها. آخر الحريات الإنســـانية، لأنه من الواجب على كل فرد منا أن يمارسها وأن يتشبث بها.

الجنرال المنقِذ فى حالة اســتعداد دائم

"**أكد** الفريق أول عبد الفتاح السيسي وزير الدفاع، حرص القوات المسلحة على "رفع الكفاءة القتالية" بشكل مستمر. مشيرا إلى أن قيام الجيش بدوره في تأمين الجبهة الداخلية، لا يعنى انصرافه عن المهمة الرئيسية

له في حماية حدود الدولة؛ وأن الكفاءة القتالية في أعلى مستوياهًا. وأضاف الفريق السيسي، في كلمته التي ألقاها خلال حضوره مناورة بالذخيرة الحية للجيش الثالث، إن الجيش سوف يظل دوما حاميا لارادة الشعب المصري وإن خارطة الطريق ماضية في طريقها."

كان فى هذا الخبر الصحفى السابق، والذى نشرته إحدى جرائد القاهرة (صدى البلد) يوم ٣- ١٢- ٢١٠٣م، ما يثلج فؤاد أى مصرى يشعر بأهمية جيش مصر فى الدفاع عن حدودها ضد الطامعين. وفى هذا الخصوص، لا يوجد لدى أى شك فى مصداقية التصريحات التى أدلى بها الفريق السيسي أو أى شيء يعدنا به. لكن، هل يكفى -فى هذا الصدد- "رفع الكفاءة القتالية" بشكل مستمر؟ دعونا نستمع إلى ترجمة أمينة لما قاله مدير المركز الإسرائيلي، خلال إحدى محاضراته العلنية المسجلة، والتى ألقيت خلال عهد الرئيس السابق محمد مرسي (يوليو ٢٠١٢- يونيو ٢٠١٣م)، والتى أعلن خلالها ما نصه:

"التهديدات التقليدية التى كانت تمثلها جيوش العرب قد ذهبت إلى غير رجعة. وعلى سبيل المثال، فإن الجيش السورى قد فقد -خلال العامين السابقين- ما يزيد عن ٥٠ ٪ من حجمه. أما بالنسبة للجيش المصرى المكون من ١٤ فرقة، فإنه لا توجد أكثر من ٧ فرق -على الأكثر- فى حالة نشاط وفاعلية. أما باقى فرق الجيش المصرى فقد تآكلت وأصابها الصدأ. وهكذا، فإن التهديد العربي لأمن إسرائيل قد تبخر تماماً. وكما تعلمون جميعاً، فإن المجتمعات العربية من مصر وسوريا إلى تونس وليبيا، وحتى فى الأردن لسوء الحظ، تعانى من تقلصات الوضع السياسى، والصراعات الداخلية والتى لا يتوقع أن تكون لها أى نهاية قريبة. وفى

الأغلب الأعم، فإنها ستستمر لفترة تتراوح بين ٢٠ و٤٠ سنة قادمة. إن مثل هذا القدر من التوتر الداخلى والوضع الاقتصادى السيئ، سوف يصيب العرب بالعجز عن التخطيط للقيام بهجمة مشتركة ضد إسرائيل، بالطريقة التى قاموا بها خلال حرب ١٩٧٣م. وقبل أن نبدأ فى مناقشة التهديدات لأمن إسرائيل من المجتمعات العربية المتهاوية من حولها؛ فإنه يجب علينا، أولاً، إدراك أن التهديدات العسكرية التقليدية من قبل جيوش منظمة، قد اختفت تماماً. وهذا له معنى خاص بالنسبة لإسرائيل فى المدى الطويل. ومن الناحية الأخرى، ظهرت تهديدات جديدة لأمن إسرائيل. وقد نبعت هذه التهديدات الجديدة، من خلال اختفاء الحكومات الديكتاتورية التى كانت تتحكم فى كل صغيرة وكبيرة مما يجرى داخل الشعوب العربية. وعلى سبيل المثال، فإن السلطات فى مصر كانت متحكمة فى كل شىء إلى درجة لم تكن تسمح بحدوث أى شىء داخل الدولة دون علمها المفصل به. لقد اختفى كل هذا. والآن فإن "مرسي" لا يستطيع حتى التحكم فى شوارع القاهرة، ناهيك عن رمال سيناء. أما بالنسبة للوضع فى سوريا، فإنه أياً كان الشخص الذى سيتولى حكم هذا البلد فى المستقبل، فإنه لن يستطيع التمكن من التحكم فى الشعب السورى بنفس الطريقة التى تحكم بها الأسد فيه. وهذا "الانفلات" هو الذى يمثل أخطاراً من نوع جديد بالنسبة لأمن إسرائيل: أخطاراً مثل انتشار السلاح فى كل يد –خاصة الصواريخ– وأنظمة التسليح القادمة من دول مثل إيران وروسيا فى يد الفئات المعادية لإسرائيل. لقد خلق السادات إمكانية لحدوث حرب عظمى؛ فكلنا يعلم حجم التهديد الذى تمثله الأسلحة

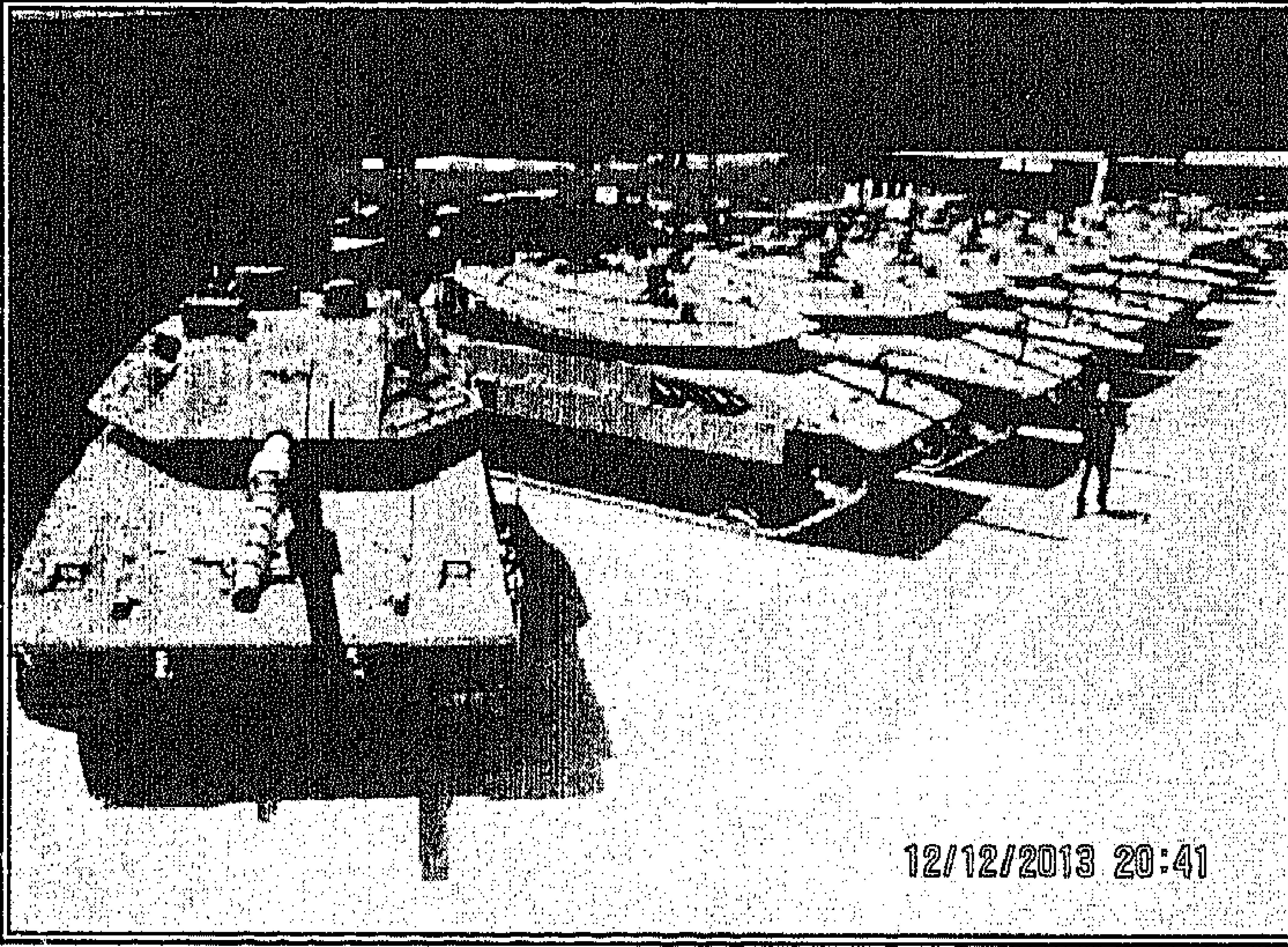
الكثيرة المتراكمة لدى جيوش منظمة، خاصة إذا كان هناك إمكانية لتحالف هذه الجيوش ضد إسرائيل. أما الآن، فإن التهديد من قبل تحالف جيوش منظمة مثل جيش مصر أو العراق أو سوريا؛ واحتمال شنها لهجمة مشتركة مثلما فعلوا "يوم كيبور" (حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣م) فإن هذا –حمداً لله– قد اختفى إلى الأبد".

التكنولوجية الإسـرائيلية

أحرزت صناعة السلاح فى إسرائيل المعروفة باسم: "الصناعات العسكرية الإسرائيلية Israel Military Industries"، ويطلق عيها اختصاراً اسم: (IMI) أو "تاس TAAS" –مؤخراً– نجاحات كثيرة جعلت الفجوة التكنولوجية بيننا وبينهم تزداد اتساعاً بطريقة تبعث على القلق الحقيقي. وفى هذا الخصوص، من الواجب ذكر الدبابة الإسرائيلية من طراز "المركبة مك ٤ Merkava Mk Four"، والتى لا تسمح إسرائيل حتى للدول الصديقة باستيرادها أو الإطلاع على بعض مكوناقما السرية.

وتزعم أبواق الدعاية لديهم أن هذه الدبابة تتفوق –بمراحل– على أفضل دبابات العالم!؟ ليس من حيث القوة والتصميم فحسب، وإنما من حيث الفاعلية أيضاً. وعلى سبيل المثال، فهى مزودة بمحرك ديزل قوته ١٥,٠٠٠ حصان!؟ وقادرة على إطلاق "قذائف خارقة وموجهة High-Penetration Projectiles and Guided Shells" من عيار ١٢٠ مم. ولا تقتصر قدرات هذه الدبابة على إطلاق قذائفها أثناء حركتها، بل إنه بإمكانها أيضاً إطلاق هذه القذائف على أهداف متحركة. هذه الدبابة التى يبلغ طولها ٦٥ قدماً (١٩,٨١ متر) تتسع من الداخل لطاقم مكون من تسعة أفراد، بجانب إمكانية حملها لثلاثة مصابين على نقالاقم

("Stretcher Casualties"). كذلك، فإنه تم تصنيع قذيفة خاصة بهذا النوع من الدبابات "A PAM-T" بها شحنتان متفجرتان، لا تنفجر الشحنة الثانية إلا بعد انفجار الشحنة الأولى؛ بما يسمح بالقضاء على أفراد العدو الموجودين داخل مبانى تم تقوية جدرانها، بكميات مضاعفة، من الأسمنت المسلح. وإلى جانب كل هذا، يتمتع سائقها بمجال رؤية واسع -وغير مسبوق- بالإضافة إلى قدرته على استخدام كاميرات خارجية خلال المناورة بالدبابة.

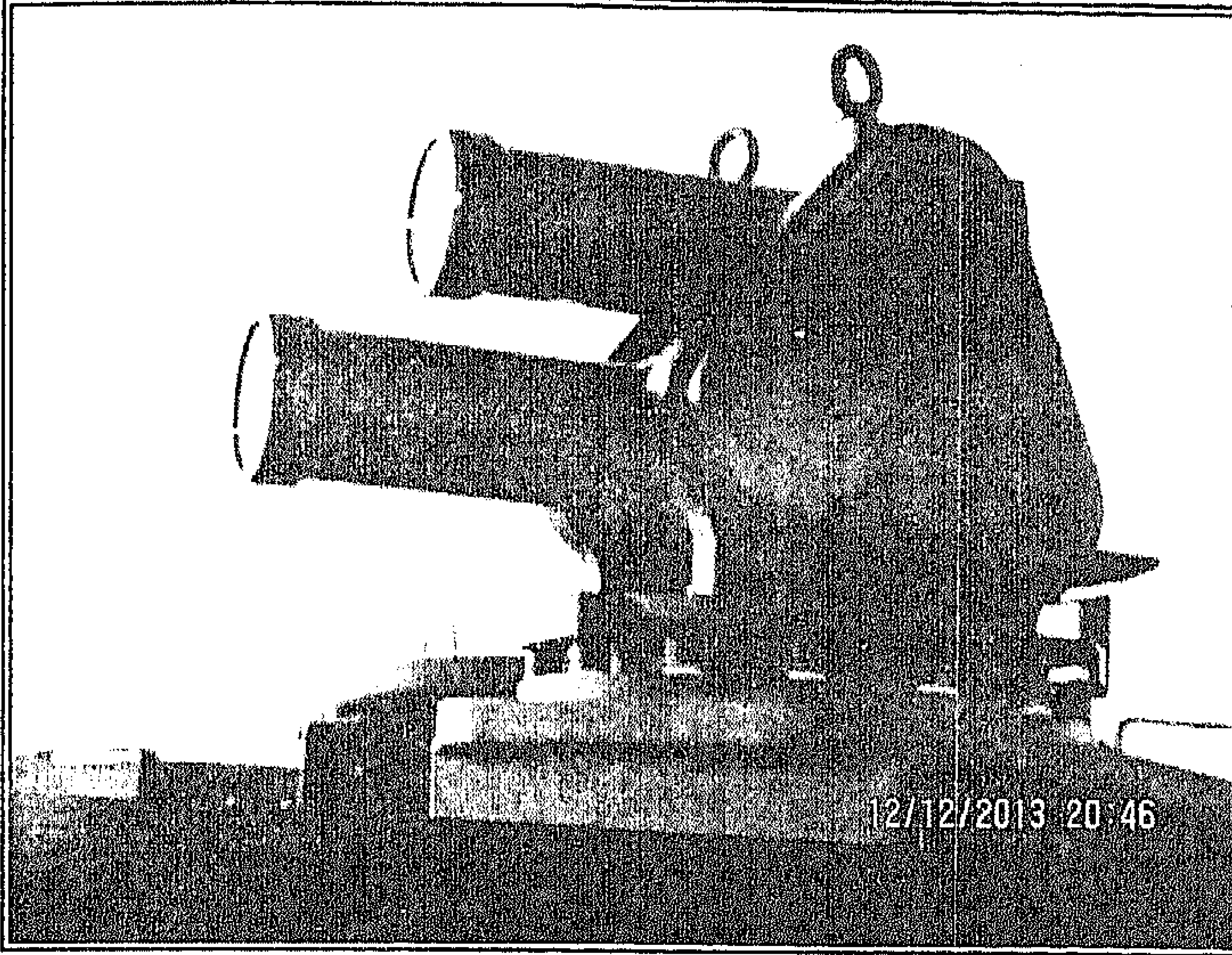


طابور دبابات طويل من طراز "المركبة مك ٤"، والتى بدأ إنتاجها على نطاق واسع منذ عام ٢٠٠١م. وهى مزودة برادار خاص بها، وأربعة هوائيات فى أركانها الأربعة.

كل هذا، بالإضافة إلى التدريعات الحديثة التى تم إضافتها إلى دباباهم التقليدية، مثل: "التدريع التفاعلى المتفجر Explosive Reactive Armour" الذى يتفاعل منفجرا فى "القذيفة المهاجمة"؛ مخفضاً من فاعليتها إلى أبعد الحدود.

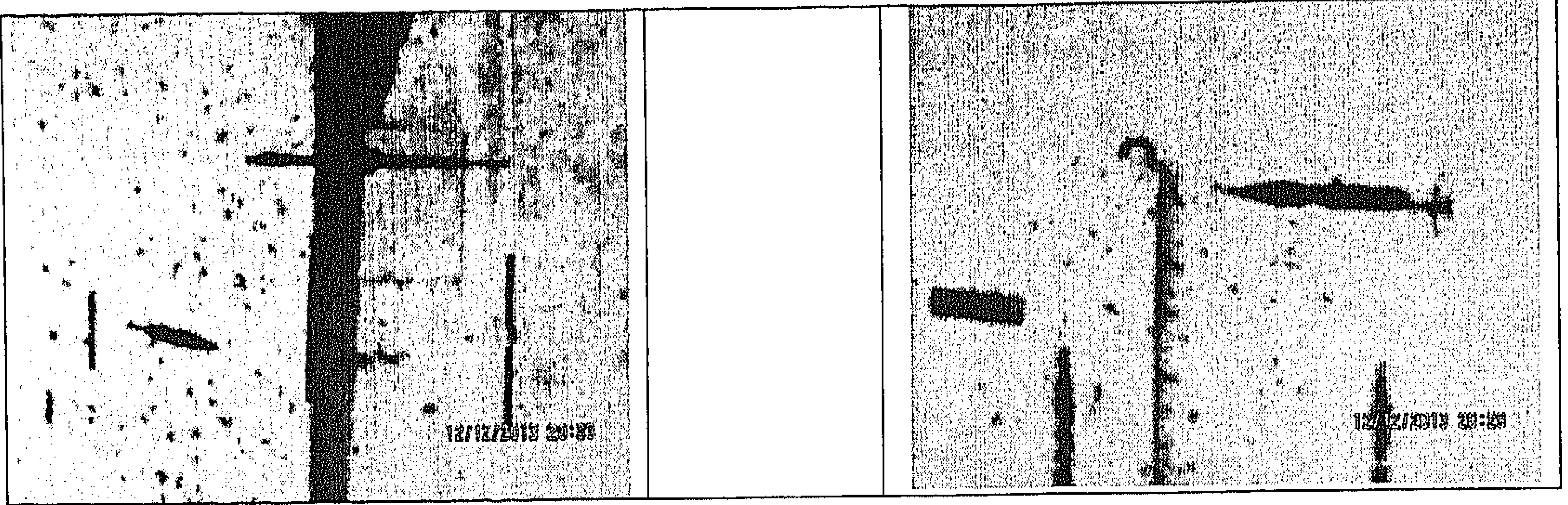
أما أكثر نجاحاهم التكنولوجية شهرة، فهو أحد الأنظمة الصاروخية التى يجب أن نكون على أقصى درجات الحذر منه، والوعى بكل إمكانياته وقدراته. وأنا هنا أعنى نظام "القبضة الحديدية Iron Fist"؛ والذى ابتكرته إسرائيل لحماية دباباها على وجه الخصوص، وكل

العربات المدرعة على وجه العموم، من الأذى الذى يمكن أن تتعرض له عن طريق الصواريخ التى تُحمل على الكتف (مثل الآربيجيه R.P.G، وما شابهه)، خاصة بعد خسائرهم الكبيرة فى معركة الدبابات، عام ١٩٧٣م. وهو كالعادة من إنتاج "الصناعات العسكرية الإسرائيلية".



نظام "القبضة الحديدية" فوق سطح أحد المدرعات الإسرائيلية. وفى هذا الخصوص، يجب ملاحظة أنه يلزم تركيبه على كلتا جانبى المدرعة حتى تصبح محمية من جميع الجهات (٣٦٠ درجة حماية).

وقد تم الإعلان لأول مرة عن هذا المفهوم الجديد فى الدفاعات الصاروخية ضد الصواريخ (سواء المحمولة على الكتف أو غيرها)، خلال عام ٢٠٠٦م. وتم استخدامه بالفعل فى الجيش الإسرائيلى خلال عام ٢٠٠٧م. وطبقاً لادعاءات دولة إسرائيل، فإن هذا النظام الصاروخى الجديد، قد أثبت فاعليته ضد كثير من القذائف التى تهدد المدرعات، مثل: "القنابل الصاروخية Rocket-propelled Grenades"، و"القذائف الحرارية AmmunitionHeat "، و"الخارقات ذات الطاقة الحركية Kinetic Energy Penetrators"، و"الصواريخ الموجهة المضادة للدبابات Anti-Tank Guided Missiles".



قذائف نظام "القبضة الحديدية" فى طريقها إلى مواجهة تهديد قادم من بعض أنواع الصواريخ المحمولة على الكتف. وكما هو ملاحظ من الصور أعلاه، فإن قذائف هذا النظام لا تواجه التهديد مباشرة، وإنما تنفجر محدثة صدمة صوتية هائلة تجعل القذيفة المهاجمة تفقد هدفها.

هذا النظام الجديد، يعمل من خلال الرادار الذى يستشعر قدوم أى قذيفة؛ بل إنه فى الواقع يطلق قذائفه بمجرد دخول أى شيء صلب فى المجال الذى يحميه حول المدرعة الإسرائيلية (٣٦٠ درجة حماية). وهو لا يقابل "القذيفة المهاجمة"، عن طريق الاصطدام بها ("وجهاً لوجه Head on")؛ وإنما ينفجر محدثاً صدمة صوتية ضخمة تجعل "القذيفة المهاجمة" تنحرف عن مسارها الأساسى. وهى فى أغلب الحالات ("القذيفة المهاجمة") لا تنفجر على الإطلاق، بسبب فقدها لطاقتها الحركية التى تجعلها قادرة على الاصطدام بالمدرعة الإسرائيلية. وحتى إذا انفجرت، فإنها لا تنفجر فى المدرعة الإسرائيلية بسبب انحرافها عن مسارها الأصلى.

وبالفعل، تمت الموافقة على تركيب هذا النظام فى يونيو من عام ٢٠٠٩م. وقد تقرر أن يتم تركيبه فى كل حاملات الجنود المدرعة من طراز "نمر Namer". وفى مايو من عام ٢٠١١م، تم اختبار هذا النظام بنجاح –فى الولايات المتحدة الأمريكية– ضد "الخارقات ذات الطاقة الحركية" المذكورة سابقاً.

خلال إقامتى الطويلة فى الولايات المتحدة، والتى أمضيت أغلبها فى ولاية تدعي "نورث كارولينا North Carolina"، استمعت – خلالها – إلى كثير من المناقشات بين الجنود، والعسكريين؛ ومن المتخصصين، وعامة الشعب من البسطاء فى هذه الولاية ذات الطابع العسكرى بسبب وجود عدة قواعد كبيرة فيها. ومن أهم المناقشات التى ظلت حية فى ذهنى طوال السنوات الماضية، هى مناقشة تمت بين أربعة أفراد يرتدون الزى المدنى، فى فجر أحد أيام نهاية الأسبوع، داخل أحد المطاعم، بالقرب من قاعدة "جولدزبورو Goldsboro" الجوية. وعلى الرغم من ارتدائهم – جميعاً – للزى المدنى، فقد كان من الواضح أنهم – كلهم أو بعضهم – ينتمون إلى المؤسسة العسكرية الأمريكية على وجه العموم، وسلاح الطيران الأمريكى على وجه الخصوص؛ لأن الغالبية العظمى من حديثهم تركزت على "القدرات الخارقة" لبعض الطائرات الجديدة التى تسلموها. وتحدثوا – فى لهجة غريبة – عن التكلفة العالية لتشغيلها وصيانتها!

وفجأة، وبدون مقدمات، تغير مجرى الحديث قليلاً، نحو الاتحاد السوفيتى السابق، والدول التى كان يقوم بتسليحها هذا الخصم الشيوعى السابق؛ والتى نعلم جميعاً أن "مصر" من ضمنها. عندها بدأ اثنان منهم، كان من الواضح أنهما يعملان فى نفس التخصص، فى الحديث بسخرية عن الطائرات التى يتم تسليمها لهذه الدول، بعد أن يتم وضع أكواد عليها تجعلها ("مميزة Marked") من على مبعدة أميال عديدة. ويتم هذا من خلال تركيب G.P.S. (النظام العالمى لتحديد الموقع Global Positioning System) فى أماكن لا يمكن تخيلها. وعندما اعترض أحدهم على أن جهاز تحديد الموقع هذا، سيتوقف عن العمل بعد فترة طالت أو قصرت. رد عليه زميله بأن "جهاز تحديد الموقع" هو جزء لا يتجزأ من أحد "اللوحات الخضراء The Green Boards" الداخلة فى تكوين أحد قطع الغيار التى يلزم تغييرها بصفة

دورية ... كل عام على الأكثر، وأنه لا يمكن للطائرة أن تستمر فى تأدية وظيفتها بكفاءة دون استبدال قطعة الغيار المذكورة.

وهكذا، سيادة الفريق الأول عبد الفتاح السيسي، فإن مدرعاهم محمية من كِلا الجانبين بالصواريخ ("القبضة الحديدية") التى تدفع عنها الأذى. أما مدرعاتنا، فهى عارية، ومعرضة لأذى الصواريخ المحمولة على الكتف (الآربيجيه R.P.G، وما شاهها)، إلى جانب تعرضها للأخطار العادية القادمة من نيران مدرعات العدو، والقذائف المضادة للدبدبات.

هم يُصَنعون، على نطاق واسع، دبابة تتفوق -بمراحل- على أفضل دبابات العالم (المركبة ملك ٤). ونحن نقوم بتصنيع الدبابة أم ١ أبرامز.

وطائراتنا، "مميزة Marked"، بفضل قطع الغيار اللعينة التى يجب استبدالها كل عام، حتى وهى قابعة على الأرض. أما طائراهم فهى مختفية عن العيون، حتى وهى هاجمنا، أو تمر من فوقنا فى الجو. **كل هذا** إلى جانب أن أنظمة الرادار التى أرسلوها إلينا من خلال معونتهم الممقوتة، لا تعمل وقت الحاجة إليها. ولا تنسى ما حدث خلال هجوم الطائرات الإسرائيلية على السودان، وهو ما يدل على أنه بإمكان "**جهة ما**" تعطيل أجهزة الرادار لدينا حتى تمر طائرات إسرائيل بسلام وتحقق أهدافها.

أنا على أتم ثقة من أن "الفريق أول السيسي" على علم بكل هذا، وأكثر. وأؤمن كل الإيمان، بأنه قد اتخذ، بالفعل، من الاحتياطات ما ينقذ به شعب مصر مما يحاك ضده من مكائد ومؤامرات. وأعلم جيداً أن حكمته -وحكمة مستشاريه- تجعله فى غنى عن هذه المعلومات، وعنى. ولكنى قمت بسردها على أى حال لمجرد التذكير.

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ الذاريات: ٥٥

وحتى لا ينتهى الأمر بأهل مصر الشرفاء وجنودها من أبنائك المخلصين البواسل، لأن يلقوا المصير الذى لاقاه بعض جنود العراق، وأهلها من المدنيين المسالمين.



جندى أمريكي ينظر بازدراء لجثث أربعة من جنود العراق المتفحمة فوق أسلحتهم المحترقة.

ملحق المصطلحات العســكرية

المستخدمة فى هذا الكتاب

جيش مصر النظامي، هو القوات المسلحة التى تدافع عن حدود جمهورية مصر العربية. وفى الأساس، ينقسم الجيش المصرى إلى أربع أفرع رئيسية، هى: القوات البرية (مشاة ومدرعات ومدفعية والصاعقة والمظلات والقوات الخاصة والخفاش الأسود .. .. وغيرها)، والقوات البحرية، والقوات الجوية، وقوات الدفاع الجوى. وإلى جانب جيش مصر المكون من ١٤ فرقة عسكرية، فإنه توجد قوات شبه نظامية تحت قيادة وزارة الداخلية المصرية، وتعرف هذه القوات باسم: "قوات الأمن المركزى"، ويقدر عددها بحوالى ٧٥٠,٠٠٠ جندى. والأرقام السابقة كلها تقديرية؛ حيث أن الأرقام الدقيقة تعتبر سراً عسكرياً لا يعرفه إلا المتخصصين. كذلك، توجد قوات "الحرس الجمهورى **National Guard**" المشرفة على حراسة الرئيس والقصور الرئاسية والدفاع عنها، وقوات "حرس الحدود **Coast Guard**" القائمة على مراقبة حدود مصر ومن يعبرونها، وكل منهما تخضع قياداتها لـــ"وزارة الدفاع"؛ والتى تعتبر هى القيادة العليا للقوات المسلحة؛ بينما يكون القائد العام والأعلى للقوات المسلحة هو رئيس الجمهورية ذاته.

الجيش المصرى هو أحد أقدم الجيوش النظامية فى العالم وأكثرها عراقة. وفى هذا الخصوص، فإن تاريخ الجيش المصرى يعود إلى ما قبل عام ٣٢٠٠ ق.م. حيث أنه كانت هناك جيوش

نظامية تتكون من جنود محترفين فى كل إقليم من أقاليم وادى النيل، حتى قبل أن يقوم الفرعون المصرى "مينا" بتوحيد القطرين. وظل هذا الجيش العريق أقوى جيوش العالم لفترات زمنية تزيد عن ألف عام، دافع خلالها عن حدود أولى الإمبراطوريات التاريخية وأكثرها قدماً (الإمبراطورية المصرية) والتى امتد نفوذها –خلال عصرها الذهبى– من آسيا الصغرى شمالاً، وحتى بلاد بونت فى الجنوب؛ ومن أرض فارس شرقاً حتى المدن الغربية الخمس فى صحراء ليبيا غرباً.

[١] فى بداية حديثنا عن الرتب العسكرية فى الجيش المصرى، وما يكافئها من رتب فى الجيوش الغربية؛ خاصة الجيش الأمريكى. أود لفت الأنظار إلى وجود اختلافات لا مقابل لها. ولهذا، سيتم تجاهلها، ولن يتم ذكرها. رتبة "الجنرال" فى جيوش الغرب، خاصة الجيش الأمريكى، تطلق على كل من يحملون الرتب التالية: "عميد"، و"لواء"، و"فريق"، و"فريق أول"، و"مشـــير"؛ ويتم التفرقة بينهم على النحو التالى:

الرتبة فى الجيش المصرى	اللقب الشائع بالإنجليزية	الرتبة المقابلة فى الجيش الأمريكى
عميد	جنرال بنجمة واحدة	Brigadier General
لواء	جنرال بنجمتان	Major General
فريق	جنرال بثلاثة نجوم	Lieutenant General
فريق أول	جنرال بأربعة نجوم	Colonel General
مشـــير	جنرال بخمسة نجوم	Field Marshal

الرتب فى الجيش المصرى وشـكلها

	الرتبة فى الجيش المصرى	شـــكلها	شـــكلها	الرتبة المقابلة فى الجيش الأمريكى
١	ملازم			Lieutenant
٢	ملازم أول			First Lieutenant
٣	نقيب			Captain
٤	رائد			Major

Lieutenant Colonel			مقدم	٥
Colonel			عقيد	٦
Brigadier General			عميد	٧
Major General			لواء	٨

Lieutenant General			فريق	٩
Colonel General			فريق أول	١٠
Field Marshal			مشـــير*	١١

*رتبة مشير فى الجيش المصرى: هى أكبر الرتب العسكرية حالياً. أما فيما مضى، فإن المشير كان لقباً لصاحب منصب لا يتعلق بالجندية؛ وإنما كان عمله يقتصر على التشاور مع "السلطان" وتقديم النصح له فى مجلس الاستشارة. وهذه الرتبة –حالياً– تعتبر رتبة شرفية، مثلها فى هذا مثل رتبة "جنرال بخمس نجوم Five-star General" والتى من الممكن أن تمضى أجيال وأجيال دون أن يحصل عليها أى جنرال. وفى الواقع، فإن هذه الرتبة تسمى "جنرال الجيش General of the Army" (أى أنه جنرالاً على كل الجيش؛ وبمختلف فروعه). وبالمثل، فإن الرتبة المقابلة لها فى الجيش الأمريكى (رتبة "Field Marshal") هى الاخرى رتبة شرفية، ومن الممكن أن تمضى أجيال وأجيال دون أن يحصل عليها أى جنرال فى الجيش الأمريكى.

وآخر من حصل على هذا الشرف، هو الجنرال "عمر برادلي Omar Bradley" عام ١٩٥٠م، تكريماً لجهوده خلال الحرب العالمية الثانية.

[٢]التكتيكات العمودية Columnar Tactics

المقصود من التكتيكات العمودية، هو وجود "رأس حربة" فى القوات المهاجمة. ورأس الحربة هذه هى تكتل شديد التلاحم لمجموعة من أفضل القوات القتالية لدينا وأكثرها كفاءة وفاعلية؛ ويتم استخدامها فى شق صفوف العدو، وإحلال الفوضى محل النظام فى صفوفه. وقد كان نابليون بونابرت آخر من استخدم هذا التكتيك العمودى فى هجومه الفاشل على روسيا. ومن هذا، نرى أن التكتيك العمودى، هو تكتيك عتيق، نادراً ما يستخدم – الآن – فى الحروب الحديثة لتفتيت قوات الخصم. وهناك الآن، استراتيجيات أكثر كفاءة وفاعلية لتحقيق هذا الهدف (تفتيت صفوف الخصم، وتشتيت جهوده).

[٣] سياسة "القدم الخفيفة Light Footprint":

المقصود منها هو عدم الظهور جنود قوات الاحتلال بطريقة ملموسة أمام المدنيين بعد استيلائهم على البلاد، أو قيامهم بأفعال من شأنها زيادة الكراهية تجاه هذا الوجود الأجنبى. ويحدث هذا بغرض عدم استفزاز المدنيين، وإشعال روح الوطنية لديهم، والتى قد تتسبب فى تشكيلهم لقوات مقاومة شعبية، أو الانضمام إلى قوات المقاومة الموجودة بالفعل؛ وهو ما يزيد

من عبء الخسائر على قوات الاحتلال. وهى بهذا على العكس تماماً من المصطلح الأصلى القديم، والذى كان يصف "القدم الثقيلة Heavy Foot" لقوات الاحتلال.

العمليات اللا حركية [٤] Nonkinetic Operations

ذكر الكتاب "العمليات اللا حركية"، فى مجال حديثه عن الطفرة التى نسب إليها –زوراً– حدوث الاستقرار والأمن فى العراق، خلال عام ٢٠١٠م. ولقد تم وصف هذه العمليات بأنها "لا حركية" على أساس أنها خالية من الاشتباك القتالى بين طرفين.

ففى الحروب التى لا يوجد فيها خطوط أمامية محددة أو معروفة (مثل الحروب فى العراق وأفغانستان الآن)، يكون من المهم التفرقة بين "العمليات الحركية واللا حركية"؛ والذى ما هو إلا مرادف لـــ"العمليات المميتة وغير المميتة Lethal and Nonlethal Operations". وبهذا، فإن المصطلح السابق، يشير إلى الجهود المزعومة التى بذلتها القوات الأمريكية للتقليل من حجم الخسائر فى الأرواح بين المدنيين؛ والتى ما هى فى حقيقتها إلا جهود لتقليل الخسائر فى الأرواح لديهم.

وعلى أية حال؛ يمكن تحديد معنى المصطلح السابق ("العمليات اللا حركية") من خلال وصف تأثير عمليات إعادة البناء التى كانت تقوم بها قوات الاحتلال الأمريكى فى العراق على خفض عدد العمليات التى كانت تقوم بها المقاومة العراقية ضدهم. وطبقاً لهذا المعيار، فهى العمليات المدنية التى يقوم بها المقاتلين من أفراد الجيش الأمريكى لتحسين الأوضاع الاقتصادية فى العراق (تشييد البنية التحتية وحراستها .. .. وغيرها)، وحتى إذا لم يشاركوا فى البناء الفعلى لهذه المشروعات المدنية ... واكتفوا بتأمينها.

من هذا نرى، أن "العمليات اللا حركية"، لا تبدأ إلا بعد انتهاء "العمليات الحركية"، وتحقيق نوع من الاستقرار النسبي. فخلال العمليات اللا حركية –على سبيل المثال– لا يجب تمشيط المناطق السكنية أو اقتحام أبواب البيوت بحثاً عن المتمردين. وإنما يجب الاكتفاء بإحلال نوع من أنواع الاستقرار فى هذه المناطق المدنية عن طريق توفير الخدمات الأساسية التى يحتاج إليها المدنيين خلال حياقم اليومية (الكهرباء، والمياه النقية، .. .. وغيرها). وكمثال أخير، إذا انتقلت وحدة عسكرية أمريكية مسلحة لتأمين تشغيل إحدى محطات تنقية المياه الموجودة فى موقع خطر، واستمرت هناك لمدة أسبوع تؤدى واجبها بدون حدوث أى اشتباكات مع المتمردين؛ فإن هذا يعتبر "عملية لا حركية". أما إذا وقعت إحدى عمليات المقاومة ضد الاحتلال، وتم خلالها حدوث تبادل لإطلاق النار، أو ما هو أكثر من هذا، واضطرت تلك الوحدة العسكرية للاشتباك مع الخصم؛ فإننا نكون بهذا قد عدنا إلى "العمليات الحركية". أى أن سقوط قتلى من عدمه لدى أياً من الجانبين، لا يعتبر مقياساً فى هذه الحالة؛ وإنما يكون الفيصل هو "حدوث الاشتباك" من عدمه.

[٥] استراتيجية "الأرض المحروقة Scorched Earth"

كما سبق وذكرنا، فإن استراتيجية الأرض المحروقة، تعنى السعى الإيجابى لتدمير كل الموارد المتاحة، والتى يمكن للخصم استخدامها من أجل الاستمرار فى القتال. وبخلاف ما هو مذكور من قِبل "ڤيكتور داڤيز هانسون"، فى الفصل الثالث من كتابه؛ فإن شيرمان لم يبتكر هذا الأسلوب. وفى الواقع، فإن كثيرين من القادة العسكريين (الصالحين والطالحين على وجه السواء) قد استخدموه فى قتال خصومهم. وإذا كان لشيرمان أى أسبقية فى هذا المجال، فربما يكون هو أول من استخدمه ضد مواطنيه، من المدنيين الأمريكيين.

[٦] "قواعد الاشتباك Rules of Engagement"

تختلف قواعد الاشتباك بشدة بين جيش وآخر، طبقاً لقوانين كل دولة. وبالإضافة إلى هذا، فإن قواعد الاشتباك المعلنة رسمياً من خلال القوانين، كثيراً ما تختلف عن قواعد الاشتباك التى تطبق على أرض الواقع (فى الميدان). وعلى سبيل المثال، فإن قواعد الاشتباك الأمريكية، تحرم قتل كل المدنيين، خاصة الأطفال والنساء. أما فى الواقع، فإنه يتم استهداف المدنيين عن عمد، خاصة إذا كان هناك أى احتمال لأن يتسببوا فى وقوع خسائر فى الأرواح لدى الجانب الأمريكى، عن طريق نقلهم لمعلومات عن موقع أو تسليح القوات الأمريكية. بمعنى أنه يتم قتل أى مدنى -حتى إذا كان طفل فى السابعة من عمره- إذا تعذر منعه من التنقل، بعد اكتشافه لأى معلومة ذات أهمية استراتيجية.

[٧] "الأضرار الجانبية Collateral Damage"

الأضرار الجانبية، هى كل الأضرار التى لم نتعمد التسبب فيها؛ لكنها حدثت عن طريق الخطأ، عندما تم الاشتباك بين الطرفين؛ وبصرف النظر عن ما إذا كان القتلى -أو الخسائر المادية أو المعنوية- فى جانب الخصم أم فى جانبنا. أى أن كلا من القتلى الخطأ فى جانب الخصم، أو فى جانبنا (عن طريق "النيران الصديقة Friendly Fire")؛ تعتبر "أضراراً جانبية".

كتب أخرى للمؤلف

١ –"معنى الحياة" .. .. كتاب *ألفريد آدلر* الخالد

ترجمة: عادل نجيب بشـــرى

فى هذا المجلد الفريد يقوم ألفريد آدلر –خصم فرويد العنيد، والزميل والشريك السابق له فى نظرية التحليل النفسى– بشرح وجهة نظر "علم النفس الفردى" فى معنى الحياة ، وما يصفها بأنها المشـــكلات الأساسية الثلاث التى تواجه الفرد فى حياته؛ ألا وهى: "العمل" .. و"العلاقة مع باقى أفراد المجتمع" .. و"الحب والزواج". كما أنه يخبرنا –بطريقته العلمية الفذة والمُنظمة– عن أهمية "التعاون" فى مواجهة هذه المشكلات الثلاث. وبالطبع، لا يخلو الكِتاب من النقد الصريح والمستتر لنظريات فرويد فى "التحليل النفسى" .. مع ما هو معروف عن الخلاف الفكرى بينهما.

٢– "الطبيعة البشـــرية" .. .. تأليف: *ألفريد آدلر*

ترجمة: عادل نجيب بشـــرى

درة أخرى من بين كتب ألفريد آدلر القيمة .. وواحد من أهم كتبه الخالدة. فى هذا المجلد الفريد يقوم ألفريد آدلر .. بشرح وجهة نظر "علم نفس الفرد" فى "الطبيعة البشرية". وقد قسم الكتاب إلى جزأين، الجزء الأول: شرح فيه أساسيات نمو وتطور شخصية الفرد، أما الجزء الثاني: فقد تناول فيه المؤلف دراســـة "علم شخصية الفرد"، وقســـم الشخصية إلى نوعين أســـاسيين: "شـــخصية هجومية" .. وأخرى "غير هجومية"، وشرح السلوك الخاطئ للفرد وكيف أنه يؤثر على التناغم الذي يجب أن
يسود حياتنا الاجتماعية، كما أخبرنا –بطريقته العلمية الفذة والمُنظمة– عن أهمية "*التعاون*" و"*الشـــعور الاجتماعي*" في تحقيق التوازن بين هذه المشكلات.

تطلب الكتب السابقة من : المجلس الأعلى للثقافة .. المشروع القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا –الجزيرة– القاهرة ت: **٢٧٣٥ ٢٣٩٦**

٣- فهرنهيت ٤٥١

تأليف : راى برادبيرى

ترجمة : عادل نجيب بشرى



القصة التى دقت المسمار الأخير .. فى نعش المستقبل السياسى لبوش الابن، عندما استوحاها المخرج الأمريكى "مايكل مور" فى فيلمه الوثائقى الشهير "فهرنهيت ٩١١" ... والذى حاز على **جائزة "مهرجان كان" السينمائى الأولى** .. والمعروفة باسم: "السعفة الذهبية".

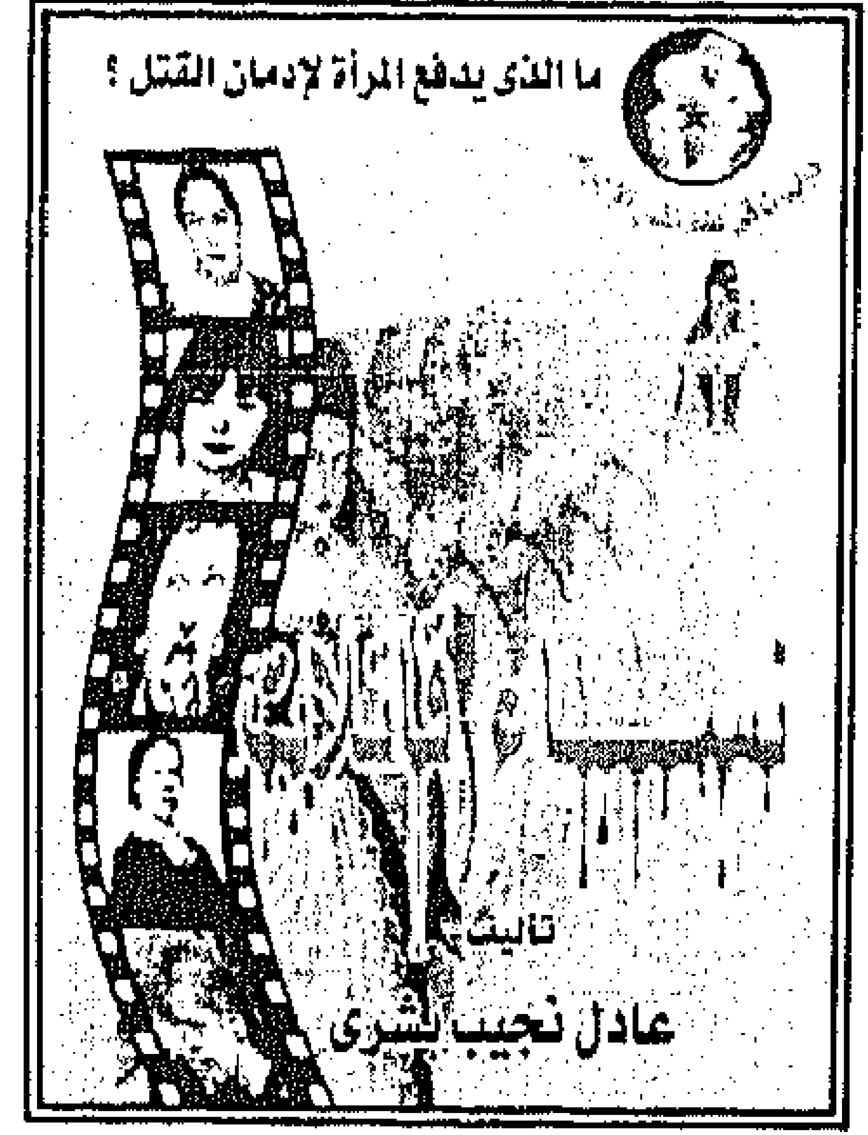
ولأول مرة – باللغة العربية– تترجم رواية راى برادبيرى الشهيرة ترجمة دقيقة أمينة .. وكاملة، كتاب أمريكى رائع يتنبأ بسقوط ساكنى البيت الأبيض .. وزوال إمبراطوريتهم.

تدور أحداث القصة فى المستقبل .. فى منتصف القرن الرابع والعشرين، وبالتحديد أربعة قرون من وقت تأليفها، عندما تصبح مهمة رجال المطافئ .. هى التخلص من الكتب .. برفع درجة حرارتها إلى ٤٥١ فهرنهيت. نعم .. فمهمتهم فى القرن الرابع والعشرين .. هى **حرق الكتب**. ولماذا يجب حرق الكتب، ومصادرة الرأى الآخر؟ .. .. لأن الكتب .. لا تقول أى شيء ... ولأنها لا تحتوى على أى شيء؛ ولأن كل مؤلف يعارض الآخر .. ويصفه بأنه أحمق، وهو ما يؤدى إلى الخلافات .. ثم الصراعات .. ثم صدام الحضارات **!**

أم لعل هذا هو حقيقة .. ما يسعون إليه **!!**

هذا هو المستقبل الذى ينتظر العالم على يد .. من هم من أمثال: أحمق البيت الأبيض الأمريكى .. الشهير بـ"چورچ بوش الابن" .. **"هتلر" القرن الحادى والعشرين.**

٤-"نســـاء قاتلات" .... تأليف: عادل نجيب بشـــرى



فى خاتمة هذا الكتاب ... اِعتُبِرت "الكونتيســـة إليزابيث باثوري" أســـوأ ســـفاح متسلسل فى التاريخ البشرى .. على وجه الإطلاق. وقد حدث هذا، بالرغم من أنها قتلت أو أمرت بقتل **٦٥٠ فتاة فقط!**

فماذا عن "هتلر" .. الذى أمر بقتل وحرق مئات الآلاف من البشر؟ و"الإرهابى الدينى" .. الذى يقتل المئات والألوف فى تفجيرات انتحارية مدبرة، و"رئيس الجمهورية" الذى أمر —مرتين— بإسقاط قنبلة نووية .. تسببت فى قتل ما يزيد عن مائة ألف من البشر .. مثلما فعل الرئيس الأمريكى "ترومان" فى نهاية الحرب العالمية الثانية**!** هل من الممكن اعتبار هؤلاء الثلاثة .. "ســـفاحين متسلسلين" ؟

إن الإجابة .. لا بد وأن تكون بالنفى ....

من الواضح أن الحالات الثلاث السابقة .. ليست إلا عمليات "قتل جماعى"، أو ما يطلق عليه فى القانون الدولى: عمليات "تطهير عرقي Ethnic Cleansing". والقاتل – فى كل حالة – كان يستهدف الجماعة التى قتلت ... بســـبب انتمائها إلى عرق، أو نوع، أو دين، أو جنســـية بعينها؛ ولا توجد .. من بين الأسباب *الرئيســـية* التى دفعته إلى اتخاذ قرار بالقتل ... أى أسباب نفسية. والتأكد من وجود "عامل نفسى" كدافع رئيسى للقتل ... هو أمر ذو أهمية بالغة فى تعريف "القاتل المتسلسل".

فى هذا الكتاب الشيق يتم التعرض لـــ"ظاهرة إجرامية خَطيرة"؛ ألا وهى .. الازدياد المطرد لعدد السفاحين فى المجتمعات الغربية .. وانتشار تواجدهم حتى فى بعض بلدان العالم الثالث؛ إنهم ذلك النوع من القتلة .. الذى تعارف خبراء الجريمة فى الغرب على إطلاق اسم: "قاتل متسلسل Serial Killer" عليهم. يتم تناول هذه "الظاهرة المرضية" بطريقة عِلمية مُنظمة، تُعرف الظاهرة بدقة، وتعرض بالبحث لأصولها التاريخية .. والأسباب التى تدفع إنسان لأن يقتل أخيه الإنسان بصورة متكررة تشبه الإدمان.

فى هذا الكتاب .. يقدم المؤلف .. تعريفات "دقيقة" و"غير متحيزة" و"منطقية" لتعبيرات جديدة أو دخيلة علينا؛ تعبيرات مثل "القاتل المتسلسل Serial Killer" .. و"القاتل الجماعى Mass murderer" .. و"قاتل الفورة Spree killer"؛ تعبيرات وردت إلينا مِمَن حاولوا تعريف "الإرهابى" بطريقتهم الخاصة، والتى تتناسب -بالطبع- مع أهدافهم الخفية، هذا الدراسة التحليلية تقدم "نظرية جديدة" للجنس .. تفسـر -بطريقة أفضل- السلوك الجنسى لدى البشر؛ مع التركيز - بالطبع - على النساء.

إذا أردت تفهم دخيلة ونفسـية هؤلاء القتلة .. وماهية الدوافع الحقيقية التى يحاولن إخفائها وراء الجرائم المتسلسلة التى ارتكبوها .. فلابد وأن تقرأ هذا الكتاب التحليلى العميق .. الذى أظهرهن عرايا .. حتى من ورقة التوت.

من كتابات المركيز دى سـاد وهو فى سـجن الباستيل .. إلى الكتابات الإباحية فى العصر الڤيكتورى، ومن "چاك الْمُمَزِق Jack The Ripper" فى جنوب إنجلترا .. إلى الـخُط فى صعيد مصر. نشـأة وتطور **الجريمَة الجنسـية** .. . دراسة نفسية مُفصلة لعشرات من سفاحى القرن التاسع عشر والقرن العشرين .. تناولت حياتهن (لأننا ركزنا على النساء) منذ الطفولة ونشأتهن الأولى .. وحتى المشنقة؛ مع وصف مفصل لأسـاليبهن الإجرامية وضحاياهن.

يشـتمل الكتاب أيضاً .. على جرائم بعض السـفاحون الذين *لم يتم القبض عليهم أبداً* مثل: "چاك الْمُمَزِق" .. الذى لم تعرف شـخصيته إطلاقاً، وكان بعضهم يعتقد أنه امرأة؟!! و"بيلى جينس" التى لم يقبض عليها، وآخرين غيرهم. سَـاعِدنا فى حل بعض ألغاز الماضى القريب.

كِتاب علمى مثير، لا غنى عنه لأى قارئ مثقف. "نسـاء قاتلات" .. أبحث عنه فى المكتبات ومع باعة الصحف.

٥- "فلســـطين ســلام لا تفرقة عنصرية" تأليف: جيمي كارتر

ترجمة: عادل نجيب بشـــرى



أخيراً .. شهد شـــاهد من أهلهم بعدالة قضيتنا. الرئيس الأمريكى الأسبق "چيمي كارتر Jimmy Carter" يروى لنا خفايا ما كان يحدث وراء الكواليس. وثيقة سياسية رائعة .. تفضح الكثير من الممارســـات الإسرائيلية العنصرية البشعة داخل إسرائيل .. والأراضى العربية التى تم احتلالها بعد حرب عام ١٩٦٧، والكيفية التى تنصل بها اليهود من الالتزامات التى وقَّعوا عليها فى اتفاقية "كامب ديڤيد Camp David" ("الملحق الثالث")، والخبث والنية السيئة المبيتة من قِبل "مناحم بيجين" ذاته –الشخص الذى قام بالتفاوض والتوقيع– عندما تعهد، شــفهياً، بعدم بناء المزيد من المستوطنات ... ثم تنكر بســرعة لعهوده؛ فيذكر الرئيس الأسبق فى الفصل الثالث صفحة ٥٨:

"ولعل أهم الأشـــياء التى أغفلناها فى "كامب ديڤيد" ... هى عدم حصولنا على توضيح كتابى بوعد "بيجن" الشـــفوى فيما يتعلق بتجميد بناء المستوطنات خلال محادثات السلام التالية".

ثم المعاملة الجافة الوقحة .. التى لقيها بعد انتهاء فترة رئاسته؛ فقد تم إجلاسه فى غرفة ضيقة ســـيئة الإضاءة وقليلة الأثاث. وعندما حاول تذكير "بيجن" بتعهداته .. رد الأخير بلا مبالاة وبطريقة روتينية ... مُظهراً بوضوح أن المناقشة قد انتهت. ويُظهر "كارتر" صدمته فى الفصل السادس صفحة ١٠٤: "توقفت للحظة .. متوقعاً من رئيس الوزراء أن يقدم تفسيراته القوية لسياسة إسرائيل، لكنه رد بلا مبالاة وبكلمات قليلة روتينية تنقصها الحماســـة ... مُظهراً بوضوح أن المناقشة قد انتهت".

أسرار وخبايا ما جرى وراء الستار من مناورات ومكائد؛ الخفايا الدفينة التى لم يجرؤ أحد غيره – من قبل– على نشـــرها، كتاب **ممتع** .. ممتع .. **ممتع**.

٦- " تعليم الأطفال"

تأليف: *ألفريد آدلر*

ترجمة: عادل نجيب بشرى



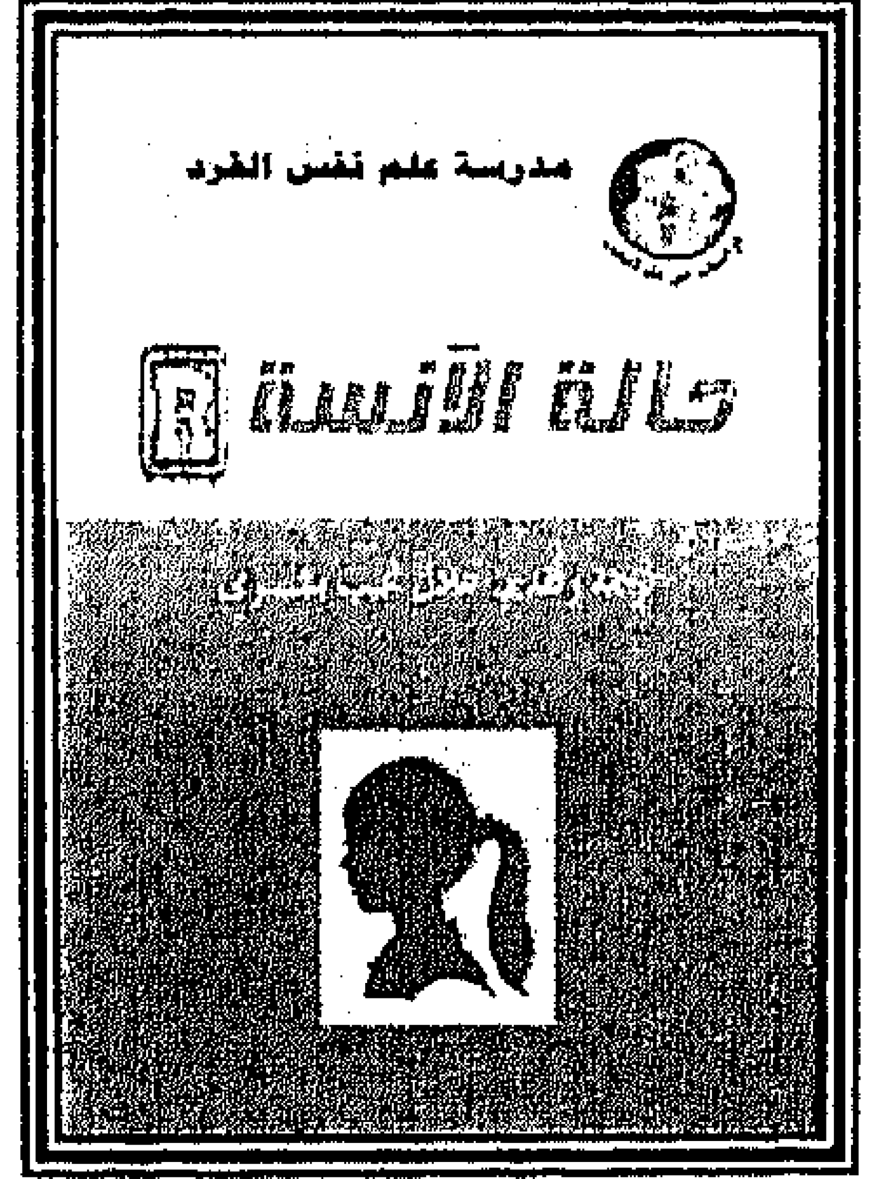
الدعوة إلى الوسطية والابتعاد عن المغالاة والتطرف حتى فى السلوكيات الإيجابية - مثل التدين- ليست دعوة معاصرة أو جديدة، والطريق لتحقيق هذا .. هو الاهتمام بتثقيف المعلم وتدريبه؛ ومن خلال رفع المستوى الإكاديمى للقائمين على التعليم والتدريس.

هذا هو السبب فى اهتمام آدلر بضرورة الرقى بالمستوى العلمى للمدرس .. وتثقيفه وإرشاده إلى أفضل الطرق التى تُمَكِنه من تحويل الطفل إلى إنسان سليم ومتوازن نفسيًّا؛ إنساناً متكاملاً قادراً على الاستقلال بنفسه، إنسان شديد الرغبة فى التعاون مع أقرانه فى الجنس البشرى بندية وعلى قدم المساواة. نحن نسعى لأن نجعل الإنسان المصرى إنساناً معتدلاً وبعيداً عن التطرف فى كل سلوكياته وأهواءه ... حتى ولو كانت هذه السلوكيات إيجابية.

٧ – " حالة الآنســة R"

تأليف: *ألفريد آدلر*

ترجمة: عادل نجيب بشرى



هذا الكتاب تحفة ثمينة ووثيقة بالغة الندرة .. بكل المقاييس. وهو الكتاب الوحيد – فى اللغة العربية– المخصص **بأكمله** لشرح الحالة النفسية لمريضة واحدة (الآنسة R)، تلك الفتاه الصغيرة المدللة التى تعانى من "العصاب". فتاه جميلة .. فى عمر الزهور .. تدفعها الرغبة فى التهرب من مشكلات الحياة ... إلى القلق الشديد وتبنى مجموعة عجيبة من "المخاوف المرضية Phobias"، وتبدأ رحلة من المعاناة النفسية – لها ولأسرتها– لم يكن هناك أى داع لها؛ لو أنها قررت مواجهة هذه المشاكل .. بدلاً من تجنبها.

وحتى بصرف النظر عن الجانب النفسى فى هذا الكتاب –والذى غالباً ما يكون الدافع الأساسى لقراءته– فإن "قصة حياة الآنسة R" ممتلئة بالصدق ومشاكل الحياة الواقعية ... مما يجعلها تصلح كمشروع لفيلم سينمائى ناجح.

كتاب يمس شغاف القلوب بصدقه، وحرارة المشاعر التى تسرى فى كلمات كل جملة.

٨– "قصور القدرة على الانتباه" تأليف: توم هارتمان

ترجمة: عادل نجيب بشــرى



ماذا تعرف عن "مرض العصر"؟ هل تعانى أنت أو أحد أطفالك من عدم القدرة على التركيز؟ هل تصيبك كثرة التفاصيل .. بالملل؟ **هل تعانى من ... "قصور القدرة على الانتباه"؟**

لقد ذكر أحد الأطباء المصريين: أن هناك نسبة كبيرة جداً من أطفال الشعب المصرى ... تعانى من اضطراب "قصور القدرة على الانتباه" !!
هذا الكتاب يضئ الطريق المؤدى إلى النجاح فى عالم الأعمال والتجارة .. بالنسبة للأطفال الذين يعانون من هذا الاضطراب النفسى .. والذين تستمر معهم أعراضه حتى بعد وصولهم لمرحلة البلوغ، هذا هو الحل الذى يقترحه مؤلف هذا الكتاب بالنسبة لكل من تخطى مرحلة النضوج .. وما زال يعانى من مشاكل بسبب قصور فى قدرته على التركيز.
هذا الكتاب يوضح لنا الطريقة التى يمكن من خلالها تحويل بعض "الأعراض" التى كانت تمثل عائقاً فى طريق وصولك إلى الهدف، ويرشدك إلى كيفية استغلال هذه الأعراض وتحويلها لأدوات جيدة يمكن استخدامها فى تحقيق النجاح الذى طالما راوغك.
كشف نفسى جديد .. يجيب بوضوح على الأسئلة التى طالما أعيت علماء النفس .. وحيرت المفكرين والفلاسفة.

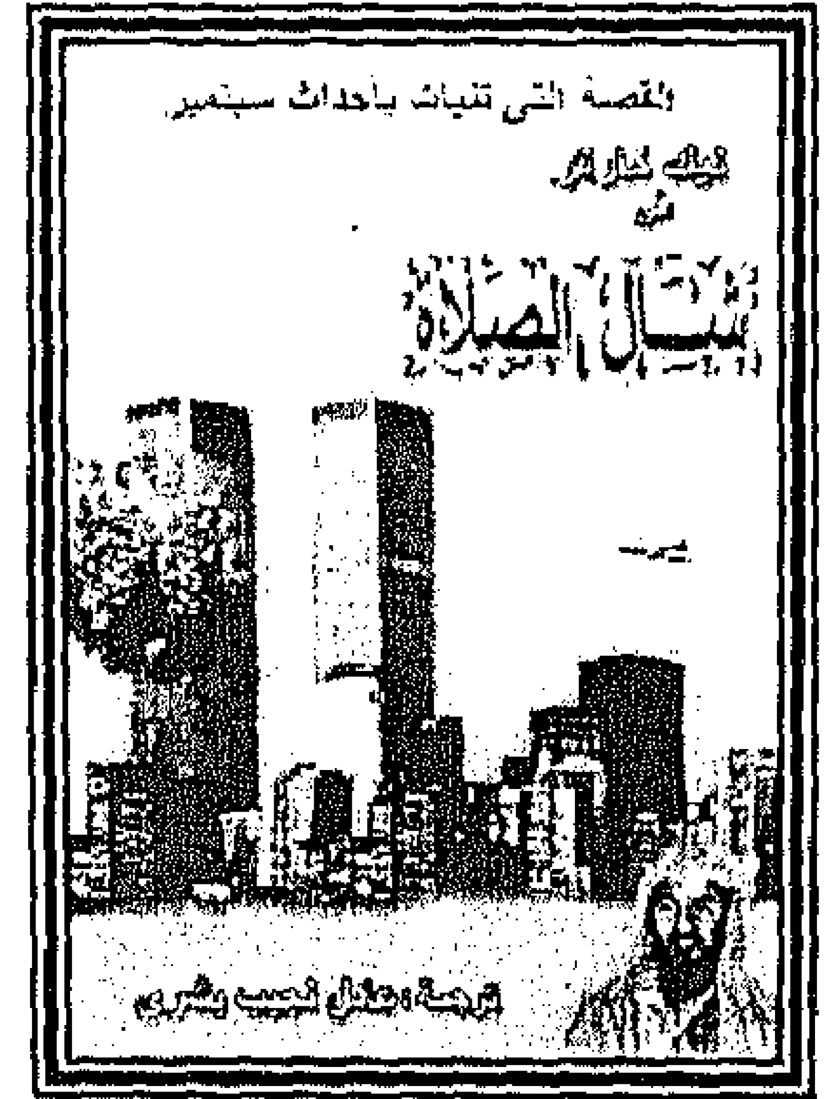
٩ - تدهور وسقوط الإمبراطورية الفرويدية تأليف: أيزينك

ترجمة: عادل نجيب بشرى

خلال السنوات الأولى من عقد الخمسينيات من القرن العشرين، عندما كانت "نظرية فرويد" فى قمة شهرتها وأوج مجدها. وكان كثيرون ينظرون إلى "فرويد" على أنه: "المخلص Savior" الذى سيتمكن من إنقاذ أرواح المرضى المصابين بالعُصاب؛ لم يكن هناك من يجرؤ على مجرد التفكير فى أن نظريته قد تكون مبنية على غير أساس. ولعل هذا هو السبب فى أن كتابات "أيزينك" الأولى صدمت كثيرين بسبب صراحتها وتجرؤها على انتقاد تلك الفروض غير المعقولة التى خرج بها فرويد. والكتاب الذى بين يديك، هو أحسن كتبه وأكثرها تنظيماً فى عرض النقائص العديدة التى تعانى منها "نظرية التحليل النفسى"؛ فتصفحه بعقل مفتوح لأنه قد يُمكنك من تغيير أسلوب تفكيرك.

وفى الكتاب القادم تقرأ

٩ - "شــال الصلاة" تأليف: نيك كارتر



ترجمة: عادل نجيب بشـــرى

الترجمة الكاملة الأمينة لواحدة من أغرب القصص التى يكون من حظ أى إنسان قرَاءتها، القصة التى تنبأت بأحداث ســبتمبر .. بدقة تثير الذهول، مجموعة من الانتحاريين تحاول استخدام الطائرات — كصواريخ موجهة — فى تهديد مراكز التجارة العالمية ومراكز إدارة الحكم .. خاصة الموجود منها داخل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها، وكانت هذه المجموعة تَصعد على متن الطائرات تحت ستار أنهم مجموعة من الركاب العاديين، ولا تستولى على الطائرة .. إلا بعد إقلاعِها، ويحدث هذا عن طريق اقتحام كابينة القيادة بالقوة والطائرة فى الجو .. ثم يتولى قيادة الطائرة أحد أفراد المجموعة الانتحارية — ويعنى هذا أن كل مجموعة كانت تحتوى على طَياراً مُدَرباً ســبق تدريبه على قيادة هذا النوع من الطائرات بالذات — ثم يُغير قائد الطائرة الجديد مَسَارِها .. ويوجِهُهَا نحو أحد مراكز التجارة العالمية ويصطدم به عن عمد .. !!

لم يكن لهذه المجموعات الانتحارية أى مطالب .. فهم لم يسعوا لاحتجاز ركاب الطائرات كرهائن، أو المساومة عليهم لتحقيق أى مطالب أو منافع شخصية أو عامة، بل كان جل اهتماماتهم هو الانتقام وإلحاق الأذى. وكان القاسم المشترك — فى المظهر — بين أفراد جميع المجموعات الانتحارية، هو احتفاظ أفرادها بغطاء للرأس والأكتاف (شـــال) .. اتخذوا مِنه رمزاً لانتمائهم المشترك لهذه الجماعة. وهذا الشـــال، هو الذى وقع عليه اختيار مؤلف القصة ليكون عنواناً لها: "*شـــال الصـــلاة*"، ولا تتوقف أوجه التشابه بين الحقيقة والخيال عِندَ هذا الحد، ولكنى لا أريد أن أفســد عليك متعة القِراءة .. فسأدعك تقرر بنفسك

— عزيزى القارئ — أوجه الخلاف والشــبه .. بين ما حدث فى الواقع .. وبين أحداث هذه القصة.



عادل نجيب بشرى

الهدف الأسمى

لدى "الجنرال المنقِذ" استراتيجية متكاملة يحاول من خلالها تحقيق "هدفه الأسمى" فى إنقاذ بلاده والعبور بها إلى بر الأمان. لكن الرجل الذى يستطيع تنفيذ هذه المهمة الصعبة، يجب أن يتصف بمميزات خاصة تجعله قادراً على إنجاز هذه المهمة، وتسمح له بتحمل هذا العبء المفاجئ وغير العادى؛ والذى غالباً ما تنأى بحمله الجبال.

وفى حالة مصر - طبقاً لما ذكره كاتبنا محمد حسنين هيكل - من الواجب عليه أن يكون، أيضاً، "انتحاريا" ... أى مستعدا للتضحية بحياته فى سبيل "مصر".

فى هذا الخصوص، تكون قدرات الفرد على التخيل، وجرأته، وجاذبية شخصيته (هيبته)، وقدرته على الخطابة، وغرائزه الحادة المتنبهة، وهدوئه فى مواجهة المصاعب، وحجم علومه ومعارفه وخبراته، ولياقته البدنية، وتمتعه بالشباب والصحة، وعقليته المنظمة، كلها عوامل تساعد "الجنرال العظيم" فى التغلب على المصاعب، وتحقيق النصر.

لكن "الجنرال المنقِذ"

...ة إلى ما هو أكثر من كل هذا بكثير؛ إذا

...يكتب له النجاح فى انتشال الوطن من محنته

عاد...

الثمن

٢٥ جنيها